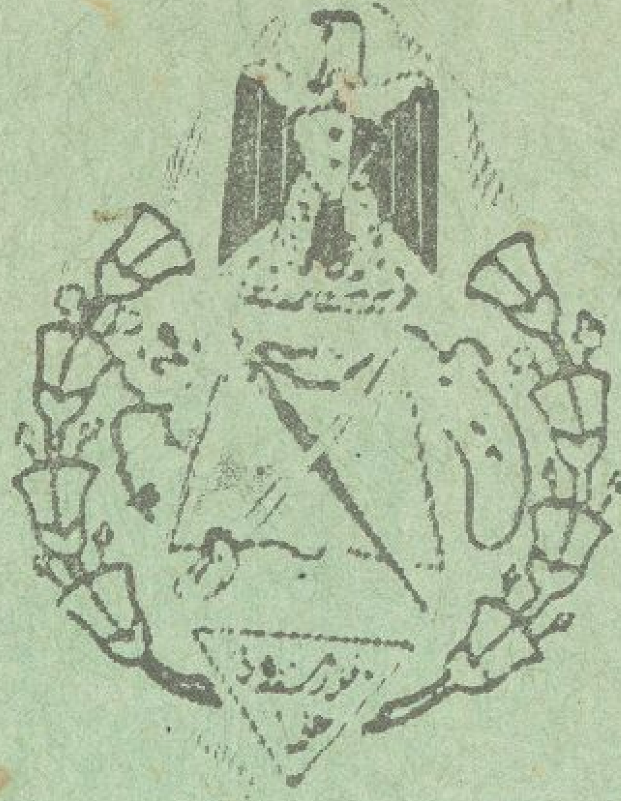
(رقم الكود ١٧ - ٢٥)



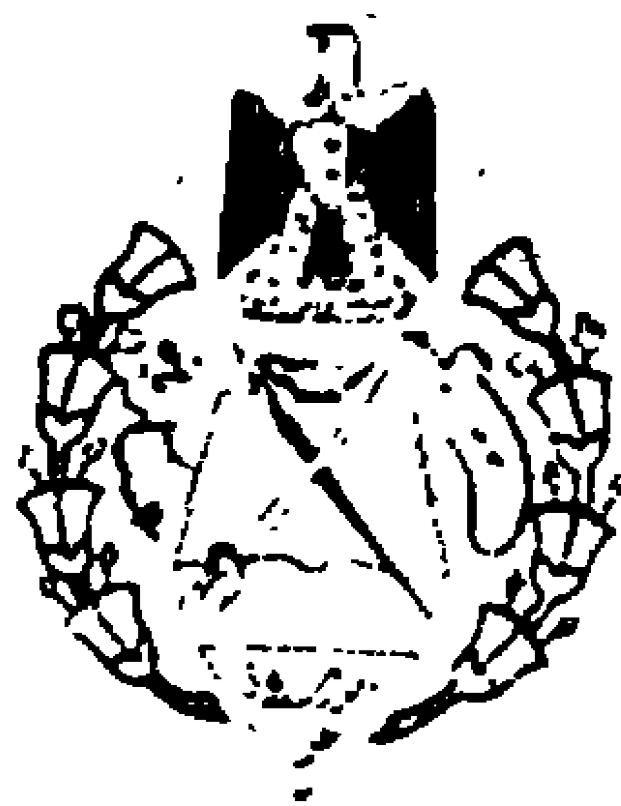
وزارة الحربية

القوات المسلحة للجمهورية العربية المتحدة

أسباب الحرب العالمية الثانية

ادارة المطبوعات والنشر
للقوات المسلحة
١٩٦٣

(رقم الكود ١٧ — ٢٥)



وزارة الحربية

القوات المسلحة للجمهورية العربية المتحدة

أسباب الحرب العالمية الثانية

ادارة المطبوعات والنشر
للقوات المسلحة
١٩٦٣

الجمهورية العربية المتحدة

القيادة العامة للقوات المسلحة

شعبة البحوث العسكرية

تقـــديم

هذا كتاب يبين الأسباب التى أدت الى نشوب الحرب العالمية الثانية نقدمه الى القارىء العسكرى وسيجد فيه الكثير من المعلومات التى تضاف الى خبرته وثقافته •

لــواء

(إمضاء) حسن أحمد صنديد

رئيس شعبة البحوث العسكرية

١٩٦٣/٢/١

وزع بالمعدل رقم (١) — (عهدة شخصية)

الفصل الأول

مشــــاكل نسيناهــا

مضت أكثر من عشرين سنة منذ نشبت الحرب العالمية الثانية كما انقضت أكثر من خمس عشرة سنة منذ أن وضعت أوزارها • فالذين عاصروا تلك الحرب لايزالون يحسونها كأحداث لمسوها عن قرب • وسيأتى اليوم الذى يشعرون فيه فجأة أن هذه الحرب العالمية الثانية قد صارت فى ذمة التاريخ كســـابقتها • وقد حان الوقت الذى نرى فيه أستاذ التاريخ فى الجامعة يذكر نفســـه أن طلبته لم يكونوا قد ولدوا عندما نشبت الحرب ولا يكادون يذكرون حتى متى انتهت • فالحرب العالمية الثانية تبدو فى نظرهم بعيدة بعد حرب البوير فى نظر الاستاذ وربمايكونون قد سمعوا بعض الطرائف عنها من والديهم ولكن الامر الذى لاشك فيه أنهم سوف يدرسون وقائعها من الكتب ان أرادوا أن يعرفوها • فقد أســدل الستار على الشخصــيات الكبرى اذ أن هتلر وموسولينى وستالين وروزفلت قد ماتوا وانســحب تشرشل من مركز الزعامـــة ولم يبق الا ديجول الذى أخذ يلعب دورا جديدا وهكذا لم تعد تلك الحرب مســألة اليوم الحاضر بل مسألة اليوم الغابر مما زاد من مسئوليات المؤرخين •

فالتاريخ المعاصر ـ بأدق معانى الكلمة ـ يسجل الاحداث وهى لاتزال منصهرة مرنة ويحكم عليها بمنطق الوقت الذى حدثت فيه مفترضا أن يلقى ذلك رضاء سريعا من القارىء • ولن يستطيع أحد أن يحط من قدر مثل هذه الاعمال بينما يتمثل أمامه المثل الكبير لسير ونستون تشرشل • ولكن سوف يأتى الوقت الذى يضطــر فيه المؤرخ أن يعود الى الوراء ويســتعرض الاحداث التى كانت فى وقت ماتعتبر احداثا معاصرة ويحاول أن يرينا ما اذا كان يكتب عن مشاكل تنصيب الحكام أو عن الحــرب الاهلية فى انجلترا وله أن يحاول على الأقل •

ولقد حاول المؤرخون ذلك بعد الحرب العالمية الاولى ولكنهم كانوا ينحون ناحية مختلفة فكان هناك اهتمام قليل نسبيا بالحرب فى حد ذاتها • فالنزاع على الاستراتيجية الكبرى بين الغربيين والشرقيين كان يعتبر حربا خاصة بين (لويد جورج) وبين القادة العسكريين وهو أمر لم يهتم به المؤرخون العالميون • والتاريخ العسكرى الرســـمى البريطانى ـ وهو فى حد ذاته تاريخ جدلى لهذه الحرب الخاصة ـ ظل يسير الهوينا حتى انه لم يتم الا فى عام ١٩٤٨ • ولم يحاول أحد أن يكتب تاريخا وطنيا رسميا الا فيما يتعلق (بوزارة المعدات الحربية) وقلما حاول انسان أن يعالج المحاولات من أجل مفاوضات للسلام • ولم يحاول انسان أن يدرس تطورات أهداف الحرب فكان لابـــد لنا أن ننتظر الى أيامنا هذه تقريبا لنرى دراسة مفصلة لاحد الموضوعات الحاسمة مثل

سياسة(ودرو ولسن) أما الموضوع الكبير الذى طغى على كل ما عداه واستحوذ اهتمام المؤرخين فكان هو كيف بدأت الحرب فقامت كل حكومة من حكومات الدول العظمى ـ فيما عدا ايطاليا ـ بأبحاث مستفيضة فى سجلاتها الدبلوماسية · وكان المؤرخ الأمين يرى مكتبته مكدسة بالكتب بكل اللغات الحية ويبدى أسفه لعدم استطاعته قراءة كتب أخرى وكانت المجلات باللغات الفرنسية والالمانية والروسية تكرس كل صفحاتها بهذا الموضوع · وذاعت شهرة بعض المؤرخين باعتبارهم حجة فى تاريخ أسباب الحرب العالمية الأولى مثل (جوش) فى انجلترا و (فاى) و (شميت) فى الولايات المتحدة و (رينوفين) و (كاميل بلوش) فى فرنسا و (ثيم) و (براندنبرج) و (بريبرام) فى النمسا و (بكروفسكى) فى روسيا وهؤلاء قلة من بين الكثيرين ·

وبعض هؤلاء الكتاب ركزوا اهتمامهم على أحداث يوليه ١٩١٤ ورجع بعضهم الى أزمة مراكش فى ١٩٠٥ أو الى سياسة بسمارك ولكن الجميع كانوا متفقين على أن تلك الناحية هى التى تستنفذ جهود جميع المؤرخين · وكانت دراسة التاريخ فى الجامعات تتوقف فجأة عند أغسطس ١٩١٤ كما لايزال يفعل البعض ولم يسع الطلاب الا الموافقة فلقد كانوا يريدون أن يعرفوا شيئا عن (غاليوم الثانى) و (بوانكاريه) وعن(جراى) و (ازفوفسكى) وكان « تلغراف كروجر » يبدو أكثر أهمية فى نظرهم عن (باشنديل) كما كانت معاهدة (بيوركو) أهم من اتفاقية (سان جان دى موريين) فأهم حادث أثر فى الحاضر كان نشوب الحرب ، أما ماحدث بعد ذلك فلم يكن الا أحداثا متشابكة من النتائج الحتمية التى لم نستفد منها درسا أو نجد لها مغزى بالنسبة للحاضر · فاذا كنا قد عرفنا لماذا نشبت الحرب فواجبنا أن نعرف لماذا صرنا الى هذا المصير ولنتعلم بالطبع كيف لانصير اليه مرة أخرى ·

أما فيما يتعلق بالحرب العالمية الثانية فلقد كان الامر على عكس ذلك تقريبا فلقد أصبح أهم موضوع يشغل بال الكاتب والقارىء على السواء هو الحرب ذاتها ولم تكن الحملات العسكرية هى وحدها موضع الاهتمام مع انها وصفت المرة بعد المرة ولكن النواحى السياسية للحرب قد درست أيضا سيما العلاقات التى تربط دول الحلفاء · ومن العسير الآن أن نحصى عدد الكتب التى تناولت الهدنة الفرنسية عام ١٩٤٠ أو اجتماعات (الثلاثة الكبار) فى (طهران) وفى (يالتا) · فالمشكلة البولندية بالنسبة للحرب العالمية الثانية تمثل النزاع بين روسيا السوفيتية والدول الغربية وهو ما اختتمت به الحرب وليست المطالب الألمانية من بولندا وهو النزاع الذى بدأت به الحرب فالاسباب التى أدت الى نشوب الحرب تثير درجة أقل نسبيا من اهتمامنا · والرأى السائد هو أنه فى الوقت الذى تتكشف لنا فيه تفاصيل جديدة الا أن هذا لايؤدى بنا الى الوصول الى مدلولات عامة · فنحن نعرف الاجابات فعلا وليس بنا من حاجة لأن نسأل أسئلة جديدة ·

وكبار المؤلفين الذين نرجع اليهم لتعليل أسباب الحرب العالمية الثانية • ـ مثل (ناميير) و (هويلر بنت) و (وسكمان) فى انجلترا و (بومون) فى فرنسا ـ كل هؤلاء أصدروا كتبهم عقب نهاية الحرب مباشرة وأبدى كل منهم نفس الآراء التى كان يعتنقها أيام كانت الحرب مشتعلة أو حتى قبل أن تبدأ• فبعد مضى عشرين عاما على نشوب الحرب العالمية الاولى لم يكن أغلب الناس ليتقبلوا التفسيرات التى قدمت فى أغسطس ١٩١٤ دون أن يبدلوا فيها ـ أما بعد مضى عشرين عاما أو أكثر على نشوب الحرب العالمية الثانية فاننا نرى كل الناس تقريبا يتقبلون التفسيرات التى قدمت فى سبتمبر ١٩٣٩ •

ومن الممكن طبعا أن نقول أنه لم يعد هناك ما نكتشفه • وربما كانت الحرب العالمية الثانية ـ بخلاف جميع أحداث التاريخ الكبرى تقريبا ـ لها التفسير البسيط القاطع الواضح للجميع فى ذلك الوقت والذى لن تغير منه للعلومات والابحاث التالية • ولكن يبدو أنه ليس محتملا أن المؤرخين بعد مرور مائة عام على نشوب هذه الحرب سوف ينظرون الى هذه الاحداث بنفس النظرة التى كان يراها بها الناس فى عام ١٩٣٩ • كذلك يجب على مؤرخى الوقت الحاضر أن يعملوا على التنبؤ بالاحكام التى سوف تصدر مستقبلا بدلا من أن يكرروا تلك التى صدرت فى الماضى • وفى الحقيقة يوجد من الاسباب العملية ما يفسر سبب اهمال المؤرخين لهذا الموضوع • فكل مؤرخ يحاول أن يكون عالما منفصلا غير متحيز يختار موضوعه ويصدر أحكامه دون أن يفكر فيما يحيط به • ولكن ذلك المؤرخ باعتباره انسانا يعيش فى مجتمع فانه يتجاوب مع مطالب وقته ولو لم يحس ذلك •

فالعلامة (توت) مثلا الذى كانت مؤلفاته سببا فى تحويل مجرى دراسة تاريخ العصور الوسطى لاشك أنه حول اهتمامه من السياسة الى الادارة لا لشىء الا للعلم المجرد • وهكذا لم يكن يتعارض مع هذا التحول أن مؤرخ القرن العشرين يعالج مواضيع كبار الموظفين المدنيين بينما نجد مؤرخ القرن التاسع عشر يتناول رجال السياسة • كذلك أيضا فان من كتبوا عن الحربين العالميتين كانوا لا يزالون متأثرين بما يسبب المشكلات القائمة أو يقدم حلولا لها • ولن يؤلف أحد كتابا لايثير اهتمام الآخرين وأكثر من ذلك لايثير اهتمام المؤلف نفسه •

فالحرب العالمية الاولى لم تكن لها من المشكلات العسكرية الا القليل • فأغلب الناس سيما فى بلاد الحلفاء ـ كانوا ينظرون الى الحرب نظرتهم الى مباراة عنيفة أشبه ماتكون بمباريات الملاكمة من أجل الحصول على المال ، تلك المباريات التى كانت تقام فى القرن التاسع عشر والتى كانت تستمر حتى يقع أحد الطرفين بسبب الانهاك • فلما شحذت العقول بتجارب الحرب العالمية الثانية عند ذلك فقط بدأ الناس يتساءلون باهتمام عما اذا كانت الحرب العالمية الاولى كان من الممكن أن تنتهى قبل موعدها بتفوق فى الاستراتيجية أو تفوق فى السياسة • زيادة على ذلك قد كان مفهوما بعد الحرب العالمية الأولى انه لن تكون هناك حرب أخرى وعلى هذا لم تعلمنا الحرب الاولى دروسا نستفيد

منها فى الحرب الثانية . ومن جهة أخرى فان المشكلة الكبرى التى سببت الحرب لاتزال قائمة فى صلب الشئون الدولية بعد انتهاء الحرب . والمشكلة الكبرى هى ألمانيا . فقد يدعى الحلفاء بأن الحرب نجمت عن العدوان الالمانى وقد يقول الالمان أن سببها راجع الى رفض الدول الكبرى أن تسمح لالمانيا بأن تتبوأ مكانها الشرعى بين الدول الكبرى وفى كلتا الحالتين كان مركز ألمانيا هو السبب . كذلك بقيت فى العالم مشكلات أخرى غير مشكلة ألمانيا من روسيا السوفيتية الى الشرق الاقصى . وقد كان معقولا أن نفترض أن هذه المشكلات من الممكن تسويتها لو أمكن مصالحة الشعب الالمانى مع أعدائه السابقين ومن هذا يتضح أن دراسة أسباب الحرب لها أهمية عملية عاجلة فاذا أمكن اقناع بلاد الحلفاء بخطأ اعتقادهم فى (جريمة الحرب) الالمانية اذن لخففوا من أحكام العقوبات فى معاهدة فرساى ولنظروا الى الالمان على أنهم ضحية كما كانوا هم ضحية انقلاب طبيعى عنيف . ومن ناحية أخرى لوأمكن اقناع الشعب الالمانى بجريمتهم فى اشعال الحرب فربما قبلوا معاهدة فرساى كاجراء عادل والواقع أن الاجراء الاول هو الذى أتبع . فقد عمل المؤرخون البريطانيون والامريكيون — ولحد ما المؤرخون الفرنســيون — على أن يظهروا حكومات الحلفاء بمظهر الخاطئين والالمان بمظهر الابرياء أكثر مما افترض صانعو السلام عام ١٩١٩ وقد حاول قليل من مؤرخى الالمان أن يدللوا على العكس وكان هذا أمرا طبيعيا اذ أن حتى أكثر المؤرخين شهرة يحس بأنه مشدود بالدوافع الوطنية اذا كانت بلاده قد هزمت فى الحرب وقاســت الاذلال بعدها . ومن ناحية أخرى كانت السياسة الخارجية قد أصبحت موضوع نقاش فى كل بلاد الحلفاء قبل نشوب الحرب. فالذين انتقدوا (جراى) فى انجلترا و (بوانكاريه) فى فرنسا و (ودرو ولسن) فى أمريكا — ناهيك بالبلشفيك فى روسيا الذين هاجموا حكومة القيصر — كل هؤلاء برزوا كأبطال عالميين فى الاتجاه الاصلاحى فلم تعد تهم نواحى الخطأ أو الصواب لهذه المحاولات سواء كانت دولية أو داخلية ويكفى أنها زادت من اشتعال لهيب الاهتمام الذى أدى بالناس الى دراسة أسباب الحرب العالمية الاولى .

ولقد كان هذا الوقود ينقصنا للبحث عن أسباب الحرب العالمية الثانية . فمن الناحية الدولية نرى أن ألمانيا كدولة عظمى لم تعد المشكلة الكبرى فى شئون العالم منذ قبيل انتهاء الحرب وحلت روسيا محلها . وقد حاول الناس أن يعرفوا الاخطاء التى ارتكبت حيال روسيا أثناء الحرب لا الاخطاء التى ارتكبت حيال ألمانيا قبل أن تنشب الحرب .

هذا ولما كانت الدول الغربية مع روسيا قد رأت أن تعتبر أجزاء مختلفة من ألمانيا فى مركز الحليف لهذا كان من المصلحة عدم التحدث عن الحرب وكانت ألمانيا تعزز هذا الاتجاه فبعد الحرب العالمية الاولى كان الالمان يصرون على أن يعاملوا معاملة الدولــة العظمى . أما بعد الحرب العالمية الثانية فلقد كان الالمان أول من قالوا أن أوروبا لم تعد تقرر مصير أحداث العالم وكان ذلك يعنى ضمنا أن ألمانيا لن تقدر مرة ثانية على اثارة

حرب كبرى ولهذا فانه من المستطاع تركها تسير في سبيلها دون تدخل أو رقابة ٠ ولقد حدث نفس الشيء فيما يتعلق بالناحية الداخلية ٠ فلقد ثار جدل عنيف داخل بلاد الحلفاء أيام ما قبل الحرب أعنف بكثير مما كان يدور قبل عام ١٩١٤ ولكن المتنازعين سووا خلافاتهم أثناء الحرب كما كانوا راغبين في أن يتناسوهابعد ذلك٠ فدعاة(التهدئة) السابقون تمكنوا من تجديد سياستهم بمبررات أكثر أما دعاة المقاومة السابقون فقد كفوا عن اثارة الفزع منألمانيابل وأخذوا ينادون بالحاجةالى مقاومة روسيا السوفييتية ٠

ان أسباب الحرب العالمية الثانية لم تكن تثير الاهتمام عندما بدأ الناس فعلا في دراسة أسباب الحرب الثالثة ٠ وربما كان هناك حافز في هذا الموضوع لو أنه كان قد بقي لدينا نواح من الشك أو التساؤل ٠ ولكن كان هناك تفسير أرضى الجميع وكان يبدو أنه قد استنفذ كل نواحي النزاع ٠ وهذا التفسير هو « هتلر » ــ فهو الذى رسم خطة الحرب العالمية الثانية التي نشبت بارادته وحده ٠ ولقد أرضى هذا التفسير بلاشك دعاة المقاومة من « تشرشل » الى « ناميير » ٠ فقد قدموا هذا التفسير وظلوا يقدمونه قبل أن تنشب الحرب ٠ فكانوا يقولون : « لقد قلنا لكم هذا ٠ ولم يكن هناك بد من الوقوف في وجه هتلر منذ الساعة الاولى » كذلك كان هذا التفسير يرضى دعاة التهدئة اذ كانوا يقولون أن التهدئة كانت سياسة حكيمة ربما قدر لها النجاح لولا تلك الحقيقة التي لم يكن يتوقعها أحد وهي أن المانيا كانت في قبضة رجل مجنون ٠ وكان هذا التفسير يرضى الالمان أكثر من غيرهم باستثناء عدد قليلمن النازيينالذين ظلوا متعلقين بمادئهم ٠ فعلى أثر الحرب العالمية الأولى حاول الألمان نقل وزرها من أنفسهم الى دول الحلفاء أو القول بأنه لم يكن هناك مذنب ٠ أما نقل الوزر من الألمان الى هتلر فكان أمرا أكثر سهولة فلقد مات هتلر ٠ ولو بقي حيا فربما كان قد الحق بألمانيا كثيرا من الأذى ولكنه كفر عن ذلك بتضحيته الختامية في مخبئه ولا يمكن أن يضيره أن يدان بعد مماته فمن الممكن أن نلقى على كاهله كل أوزار الحرب العالمية الثانية ومعسكرات الاعتقال وغرف الغاز دون أن يتململ ٠ وادانة هتلر تبرىء جميع الالمان ٠ ولقد كان الالمان في الماضي أشد الناس معارضة لجريمة الحرب ولكنهم أصبحوا الآن أكثر المنادين بها تحمسا كما أن بعض الالمان تمكنوا من أن يصوروا روح الشر في هتلر بصورة عجيبة ٠ فبما أنه كان بلا شك شيطانا رجيما لذلك كان من المحتم أن يقاوم بكل عزم وعلى هذا فان كل ذنب بقي بعد أن أدين هتلر يمكن أن يلقى على كاهل الفرنسيين بعجزهم عن طرده من أقليم الراين عام ١٩٣٦ أو على كاهل تشمبرلين لتراجعه في سبتمبر ١٩٣٨ ٠

هكذا اتفق الجميع على أسباب الحرب العالمية الثانية فما حاجتنا اذن بالمصلحين وقد أثار بعض المحايدين ظلا من الشك خصوصا من ايرلنده ٠ ولكن جرت العادة أن الاشتراك في الحرب الباردة ضد روسيا السوفييتية كان كفيلا باسكات حتى من كانوا يقفون موقف الحياد في الحرب ضد ألمانيا وكانت نفس الفكرة ، من طريق آخر ، تعمل عملها في المؤرخين السوفييت كذلك ٠ ولا زالت « مدرسةالمصلحين»باقية في الولايات

المتحدة وتتألف ممن بقى من دعاتها بعد الحرب العالمية الثانية وهم الذين لايزالون يعتبرون حكومتهم أكثر الحكومات شرورا ولكن مبادئهم لا تلقى قبولا من الناحية التعليمية • علاوة على ذلك فان مبدأهم الاصلاحى متجه بصفة رئيسية الى الحرب ضد اليابان ولهم الحق فى ذلك فان هتلر هو الذى أعلن الحرب على الحلفاء وليس العكس واننا لنجد من الصعوبة ان نتصور كيف كان يمكن روزفلت أن يقحم بلده فى حرب أوروبية لو لم يتبرع هتلر بالقيام بتلك المهمة بدلا عنه • وليس هناك متسع للجدل حتى فيما يتعلق باليابان فقد خرجت الحرب عن الطريق الذى يمكن أن يكون قد رسم لها اذ كان هناك سؤال عملى ينتظر الاجابة وهو ما اذا كانت الولايات المتحدة سوف تتعاون مع اليابان أو مع الصين • ولكن الحوادث أجابت الآن على ذلك السؤال مما أربك السياسة الامريكية • فمن المسلم به لدى الجميع أن اليابان هى الصديقة الوحيدة لامريكا التى يمكن الاعتماد عليها فى الشرق الأقصى ولذا بدت الحرب ضدها كخطأ ارتكبه انسان ما وان كان ذلك بالطبع قد جاء من جانب اليابانيين :

وهذه الاعتبارات فى سياسة الوقت الحاضر تفسر لنا لماذا لم تكن أسباب الحرب العالمية الثانية موضع خلاف شديد وعلى أى حال فهى ليست كافية لتفسر لنا هذا الاتفاق الذى يكاد يكون عاما بين المؤرخين وحتى أكثر العلماء اشتغالا بهذه الناحية لابد وأن يتأثر بالمستويات الأكاديمية كما أن الكثيرين من العلماء ليسوا مثقلين بالمشاغل•ولو كانت البراهين تتعارض تعارضا كافيا لوجد حالا من العلماء من يتنازعون على الاحكام السائدة مهما كانت مقبولة لدى الجميع • وهذا لم يقع ، ولسببين يبدو تناقضهما فالبراهين كثيرة جدا كما أنها قليلة جدا • فالبراهين الموجودة بكثرة هى التى جمعت من محاكمات مجرمى الحرب فى (نورمبرج) ومع أن هذه الوثائق تبدو كبيرة الوقع فى مجلداتها التى لا عدد لها الا انها مادة خطيرة لو استعملها المؤرخ لانها جمعت فى تسرع كيفما اتفق ليستند اليها المحامون وليست هذه هى الطريقة التى يسير عليها المؤرخون فالمحامى يهدف الى بناء قضية بينما يهدف المؤرخ الى تفهم موقف • فالدليل الذى يقنع المحامى غالبا ما يفشل فى اقناعنا فوسائلنا تبدو غير دقيقة فى نظرهم •وحتى المحامون لا بد وأنهم يشعرون الآن بالاشمئزاز من البراهين التى قدمت فى نورمبرج • فقد كانت الادلة تختار لا لتبرهن على ادانة من يحاكمون فقط ولكن لتخفى الى جانب ذلك ذنب الدول العظمى التى أقامت المحاكمات • فلو أن واحدة من الدول العظمى التى شكلت محكمة نورمبرج كانت هى التى سارت وحدها فى القضية لقذفت فى المحاكمة بقدر أكبر من الطين • وربما كانت الدول الغربية قد أثارت موضوع الحلف النازى السوفيتى وعندها كان يتقدم الاتحاد السوفيتى ليثير هو كذلك مؤتمر(ميونيخ) وغيره من الاتصالات المريبة • ولما كانت المحكمة مشكلة من الدول العظمى الاربع فقد كانت الاوضاع توحى مقدما بأن كل الوزر سوف يقع على المانيا فقد كان الحكم معروفا قبل ان تشكل المحكمة وكانت الوثائق تقدم لدعم نتيجة كانت قد قررت فعلا ــ حقيقة أن الوثائق كانت حقيقية ولكنها كانت «معبأة» ولم يكن أمام من يعتمد عليها مفر من مواجهة ما كانت معبأة به •

ولو أننا بدلا من ذلك بحثنا عن دلائل بطريقة علمية أكثر استقلالا لاتضح لنا أننا فى مركز أسوأ مما كان فيه أسلافنا ممن كانوا يدرسون أسباب الحرب العالمية الاولى • فانه بعد انقضاء جيل على الحرب الاولى أخذت كل الدول العظمى ـ فيما عدا ايطاليا ـ تكشف كشفا تاما يهدى سـجلاتها الدبلوماسية عن حقيقة الازمات التى سبقت الحرب مباشرة • كذلك كان هناك عدد لاحصر له من الوثائق التى نشرت والتى يرجع تاريخها الى ما قبل ذلك بكثير • فهنـاك وثائق امبراطورية النمسـا والمجر التى ترجع الى عام ١٩٠٨ ووثائق بريطانية من عام ١٩٠٨ ـ ووثائق المانية ـ فرنسية من عام ١٨٧١ ثم مطبوعات روسية وان كانت فى صورة غير منتظمة الا أنها كانت كثيرة • الا أنه كانت هناك بعض التغييرات • وربما أعوزتنا الوثائق الايطالية الا أن هذا النقص أمكن معالجته • كذلك أعوزتنا ولازالت تعوزنا وثائق (الغرب) • وربما كان من بين تلك الوثائق ماحذف عن عمد ولا يمكن للمؤرخ المدقق أن يقتنع حتى يرى بعينيه مصادر تلك الوثائق • ومع ذلك فانه من الممكن بصورة عامة أن نتقصى دبلوماسية خمس من بين ست دول من الدول العظمى فى توسع وتفصيل لم يسبق لهما مثيل • ومع ذلك فان الدلائل لم تثبت ثبوتا نهائيا اذ أننا كلما فحصناها وجدنا فيها مواضع لم يسـبق اكتشافها وتأويلات جديدة •

• والامر على النقيض بصورة تدعو للاسف فيما يتعلق بالمادة التى بأيدينا عنـد دراسة السنوات التى سبقت ١٩٣٩ • فلقد اختفت امبراطورية النمسا والمجر من عداد الدول العظمى الاوربية أما الخمس الاخرى فمنها ثلاث لم تقدم حتى وقت قريب سطرا واحدا أو جملة واحدة من محفوظاتها ولقد أخذت ايطاليا تصلح من هذا النقص اذ نشرت وثائقها من ٢٢ مايو ١٩٣٩ حتى يوم نشوب الحرب كما أنها سوف تسبق غيرها بنشر وثائقها الى تاريخ يرجع الى عام ١٨٦١ • أما سياسـة كل من فرنسـا وروسيا فلا زالت باقية دون أن تفصح عنها محفوظاتها • أما فرنسا فلها عذرها اذ أن أغلب سـجلاتها عن السنوات بين ١٩٣٣ ، ١٩٣٩ قد حرقت فى ١٦ مايو ١٩٤٠ عندما اخترق الالمان خطوط دفاع فرنسا فى (سيدان) • ويجرى الآن العمل على استخراج نسخ منهـا تجمع من المراكز الفرنسية فى الخارج أما الصمت الذى تلتزمه روسيا فانه كغيره من نواحى السياسة السوفيتية لاتعرف أسبابه الا بالتخمين • فهل لدى روسيا شىء من الفضائح المعينة تريد اخفاءه ؟ أم هل هم يتحاشون عرض تصرفاتهم مهما كانت بعيدة عن أنظار الباحثين ؟ أم هل لاتوجد سجلات بسبب عجز وزارة الداخلية عن جمعها ؟ أم هل تعلمت روسيا السوفيتية درسا من النزاع الذى كان يثار بشأن الموضوعات التاريخية فترى أن طريقة التكتم لدعم قضية يكون بعدم تقديم دليل يساندها • وايا كانت الدوافع المختلفة لالتزام الصمت من ناحية الدول الثلاث العظمى فان ماترتب على ذلك هو أن نولى وجوهنا شطر الوثائق الالمانية والبريطانية حتى يمكننا الاستمرار فى تسجيل العلاقات الدبلوماسـية فى فترة مابين الحربين ومن هنا ربما تكون قد نشأت الفكرة أن العلاقات الدولية فى فترة بين الحربين كانت ثنائية انجليزيـة ـ المانيـة •

وهنا نجد المادة أقل كفاية مما كانت فى الفترة قبل ١٩١٤ ٠ فالالمان استولوا على المحفوظات الفرنسية عام ١٩٤٥ وكانوا فى الاصل قد اعتزموا نشر سلسلة كاملة من عام ١٩١٨ الى ١٩٤٥ ٠ ولكن حدث بعد ذلك لغرض الاقتصاد فى النفقات أن يكتفى بالمدة منذ تولى هتلر الحكم فى عام١٩٣٣ ٠ وحتى هذا المشروع فانه غير كامل اذ لازالت به ثغرات فيما بين عامى ١٩٣٥ و ١٩٣٧ ٠ والآن قد أعيدت المحفوظات الى الحكومةالالمانية فى (بون) وقد يؤدى هذا الى تأخير أكثر ٠ كذلك فان ناشرى الحلفاء ـ مع ما أبدوه من الاخلاص ـ كانوا يشاطرون محاكمات نورمبرج وجهة النظر عن جريمة الحرب ٠ ومما زاد الامور تعقيدا أن وزارة الخارجية الالمانية التى تعتبر هذه الوثائق ملكا لها كثيرا ماكانت تدعى أنها كانت تعمل ضد هتلر وليس فى صالحه ولهذا فاننا لا نستطيع أن نعرف ان كانت وثيقة معينة تمثل اتصالات خطيرة أوانها كتبت بقصد تقديم الدليل على براءة صاحبها ٠ وسوف تغطى المطبوعات البريطانية الفترة كلها من وقت توقيع معاهدة فرساى حتى نشوب حرب ١٩٣٩ ولكن هذه عملية بطيئة ٠ ففى الوقت الحاضر ليس لدينا شىء عن الفترة من ١٩٢٠ الى ١٩٣٠ ٠ كما أن هناك ثغرة أخرى تقع بين منتصف عام ١٩٣٤ وبين مارس ١٩٣٨ اذ أن مجلداتها قاصرةعلى السياسة البريطانية القائمة فانهم لايفحصون عن دوافعها كما حاولت أن تظهر المجلدات الخاصة بالفترة السابقة على الحرب العالمية الاولى وهناك بعض المحاضر التى تبين صورة النقاش داخل وزارة الخارجية ولا توجد سجلات عن القرارات الوزارية ولو أنه من المؤلم أن يقدم رئيس الوزراء ومجلس الوزراء الكثير منها بينما تقدم وزارة الخارجية القليل بالنسبة لما كان فى الفترة السابقة ٠

والحال أسوأ فيما يتعلق بالسجلات الرسمية فان أغلب من خاضوا غمار الحرب العالمية الاولى ظلوا أحياء ليكتبوا عنها بعد ذلك اما متعذرين عن أعمالهم أو مبررين لها ٠ أما فى الحرب العالمية الثانية فقد مات بعض الزعماء أثناء الحرب وقتل بعضهم فى نهايتها بعد محاكمات أو بدونها بينما أبى آخرون الكتابة بدافع الترفع أو الحذر ٠ وسنرى الفرق كبيرا لو اننا قارنا بين المجلدات التى كتبت عقب كل من الحربين بقلم من كانوا يشغلون مناصب رئيسية عند بدء الحرب ٠

وهذه قائمة عن الحرب العالمية الأولى :

بريطانيا :

رئيس الوزراء
وزير الخارجية

فرنسا :

رئيس الجمهورية
رئيس الوزراء الذى كان فى نفس الوقت وزيرا للخارجية

روسيا :

وزير الخارجية

ايطاليا :
رئيس الوزراء
المانيا :
المستشـــار
وزير الخارجية
أما عن الحرب العالمية الثانية فان القائمة تشمل :
فرنســا :
وزير الخارجية

وقد ترك وزير خارجيةايطاليا الذى قتل بالرصاص بعض المذكرات اليوميةوكتب وزير خارجية ألمانيا دفاعا مدونا فى قصاصات بينما كان فى انتظار حبل المشنقة،وهناك بعض بقايا متناثرة من المراسلات كتبها وزير خارجية انجلترا كما أن هناك بضـع صفحات كتبها وزير خارجية انجلترا عن تاريخ حياته ـ أما هتلر وموسولينى وستالين ووزير خارجية روسيا فلم يترك واحد منهم سطرا واحدا أو كلمة واحدة وأصـبحنا نعتمد على أحاديث متناثرة من شخصيات من الدرجة الثانية ومترجمين وكتبة فى أقلام وزارة الخارجية وصحفيين وكل هؤلاء لايعرفون أكثر مما يعرفه الجمهور ٠

ولكن المؤرخين لايشبعهم شىء ولا يجدون كفايتهم من الدلائل واننى أشـك فى أننا سوف نكسب كثيرا اذا انتظرنا عشر سنوات أو خمس عشرة سنة أخرى وقـد نفقد الكثير ٠ فالقلائل الذين بقوا على قيد الحياة قد يتوقفون عن قراءة الكتب بعد هذه السنوات ناهيك بكتابتها ولهذا فاننى أحاول أن أروى القصة كما قد تبدو لبعض مؤرخى المستقبل معتمدا على السجلات وقد تكون نتيجة ذلك العمل أن أظهر للناس كم يخطىء المؤرخـون وكم تفوتهم أشـياء فالتاريخ لا بد أن يكتب على أى حال ٠ واننى كثيرا ما اضطررت للاعتراف بجهلى وهذا ماأتخيله كذلك فيمن سيخلفنى ٠ ولقد اتضح لى أن السجلات ، اذا نظرنا اليها متفرقة غالبا مادفعتنى نحو تأويلات تختلف عن تلك التى أبداها بعض الناس فى وقتها وأنا من بينهم ٠ وهذه الفكرة لاتدفعنى فى هذا الاتجاه أو ذاك فمهمتى أن أتفهم ما حدث لا أن أدافع عن شخص أو أدين آخر ٠ ولقد كنت من بين أعداء سياسة التهدئة منذ اليوم الذى تقلد فيه هتلر الحكم ولا شك اننى سأظل كذلك فى مثل هذه الظروف ٠ ولكن هذه النقطة لا علاقة لها بكتابة التاريخ ٠ ولو نظرنا للامور فى ضوء الحوادث السابقة لوجدنا أنه لم يكن هناك برىء مع أن الكثيرين كانوا مذنبين ٠ فالغرض من النشاط السياسى هو تحقيق السلام والتقدم وقد فشل كل سياسى فى هذه الناحية لأسباب مختلفة فهذه قصـة ليس فيها أبطـال وقد تكون كذلك بدون شخصيات شريرة ٠

الفصل الثانى

تركة الحرب العالمية الاولى

كانت الحرب العالمية الثانية ـ الى حد كبير ـ تكرار للحرب العالميـــة الاولى مع بعض الفروق الظاهرة • فايطاليا دخلت الحرب مع الجانب الآخر وان كانت غيرت وضعها ثانيا قبيل نهاية الحرب • فالحرب التى نشبت فى سبتمبر ١٩٣٩ دارت رحاها بأوروبا وشمال افريقية وقد تداخلت ـ من حيث الزمان لامن حيث المكان ـ مع الحــرب فى الشرق الاقصى التى نشبت فى ديسمبر ١٩٤١ • ولقد بقيت الحربان وكل منهما متميزة عن الاخرى ولو أن الحرب فى الشرق الاقصى خلقت كثيرا من المتاعب لبريطانيا والولايات المتحدة • فألمانيا واليابان لم تحارب جيوشهما جنبا الى جنب وقد حدث الاتصال الحقيقى الوحيد عندما هاجم اليابانيون (بيرل هاربور) فدفع ذلك هتلر الى اعـــلان الحرب على الولايات المتحدة وكان هذا خطأ كبير ولولا ذلك لبقيت الحرب الاوروبية وأسبابها كقصة قائمة بذاتها وان كانت الانظار تتحول من وقت لآخر عن الميدان الاوروبى الى الشرق الاقصى • وفى الحرب العالمية الثانية كان نفس الحلفاء الاوروبيين يحاربون نفس الاعداء تقريبا الذين حاربوهم فى الحرب الاولى ومع أن ميزان القوى بقى يتأرجح بعنف نحو هذا الجانب أو ذاك الا أن النتيجة كانت تقريبا واحدة وهى هزيمة ألمانيا ـ والعلاقة بين الحربين أعمق بكثير فلقد حاربت ألمانيا فى الحرب العالمية الثانية لتقلب الحكم الذى صدر ضدها فى الحرب الاولى ولتقضى على التسوية التى تلتها • أما خصومها فكانوا يحاربون للابقاء على تلك التسوية وقد حققوا ذلك مما كان موضع دهشتهم • وكثيرا ماوضعت تسويات مثالية خيالية خلال سنوات الحرب الثانية فاذا ما وضعت الحــرب أوزارها عادت كل الحدود الى ما كانت عليه قبل الحرب سواء فى أوروبا أو فى الشرق الأقصى مع استثناء صارخ فىبولندا والبلطيق فاذا ما تجاوزنا شمالشرقأوروبا وجدنا أن أكبر تغيير حدث على الخريطة فيما بين القنال الانجليزى والمحيط الهنــدى هو نقل شبه جزيرة استريا من ايطاليا الىيوجوسلافيا•فالحرب الاولى قضت على الامبراطوريات القديمة وأبرزت دولا جديدة الى الوجود أما الحرب الثانية فلم تخلق دولا جديدة ولكنها قضت على جمهوريات (استونيا) و (لاتفيا) و (ليتوانيا) على بحر البلطيق • ولو أن انسانا سأل :«لماذا كانت الحرب ؟» لكانت الاجابة عن الحرب الاولى :«لتقرر كيف تخلق أوروبا من جديد » أما الاجابة عن الحرب الثانية فهى : « لتقرر ماذا كان من الممكن الابقاء على أوروبا التى خلقت من جديد » فالحرب الأولى تفسر الثانية كما انها سبب لها فى الواقع بقدر مايكون الحادث الواحد سببا فى وقوع الآخر •

ومع أن نتيجة الحرب الأولى كانت خلق أوروبا من جديد الا أن هذا لم يكن أبدا سبب نشوب الحرب أو حتى غرضها الظاهر ٠ فتلك الحرب نشأت عن أسباب مباشرة اتفق الجميع عليها الآن بدرجات متفاوتة ٠ فمصرع الارشيدوق (فرانز فردناند) حمل النمسا والمجر على اعلان الحرب على الغرب وكانت تعبئة الجيوش الروسية لمعاونة الغرب سببا فى حمل ألمانيا على اعلان الحرب على روسيا وعلى فرنسا حليفة روسيا ٠ وكان عدم احترام الالمان لحياد البلجيك مما حمل بريطانيا على اعلان الحرب على ألمانيا ولكن خلف كل هذه الاحداث تكمن أسباب أعمق لايزال يختلف بشأنها المؤرخون ٠ فالبعض يشيرون الى الصراع بين التيوتون والسلافيين فى شرق أوروبا ويسميها الآخرون « حرب الوراثة التركية » بينما يعود البعض باللوم على المنافسة فى التوسع خارج أوروبا ويقول آخرون بأن ذلك يرجع الى اختلال توازن القوى فى القارة الاوروبية ٠

وقد حدد البعض موضوع النزاع فقالوا أن ألمانيا كانت تتحدى سيادة بريطانيا البحرية وكانت فرنسا تريد استرداد الالزاس واللورين وكانت روسيا تطمع فى السيطرة على القسطنطينية والمضايق ٠ وهذا العدد الكبير من التفسيرات يدل على أنه ليس بينها التفسير الصحيح الوحيد ٠ فالحرب العالمية الاولى نشبت لكل هذه الاسباب مجتمعة لا بسبب واحد منها فحسب ٠ وعلى أى حال هذا هو ما اكتشفته الدول المتصارعة عندما بدأ القتال ٠ وأيا كانت الخطط والمشروعات والاطماع القائمة قبل الحرب فان الدول العظمى ظلت تقاتل لاحراز النصر وليروا لمن تكون السيادة وقد كان المتحاربون يرمون الى « فرض ارادتهم على الاعداء » حسب العرف العسكرى فى تلك الايام دون أن يكون معروفا ما هى تلك الارادة فلقد كان كل من الجانبين يجد صعوبة فى تحديد أهدافه من الحرب ٠ فلما تقدم الالمان بشروط الصلح ـ كما فعلوا فى عام ١٩١٧ مع روسيا وبصورة أقل تحديدا مع الدول الغربية ـ كان كل اهتمامهم موجه الى تحسين مواقعهم الاستراتيجية استعدادا للحرب التالية ٠ ولو أن الحرب الثانية لم يكن لها ضرورة فى الحقيقة لو كسب الالمان الحرب الاولى ٠ أما الحلفاء فقد طالبوا ببساطة أن يتنازل الالمان عن ثمرة انتصاراتهم الاولى ٠ والى جانب ذلك أخذ الحلفاء بالتدريج يصوغون سلسلة من الاهداف المثالية للحرب بمساعدة أمريكا أو بوحى منها ٠ وهذه الاهداف لم تكن فى الحقيقة تمثل الاغراض التى من أجلها دخل الحلفاء الحرب ولم تكن حتى تمثل الاغراض التى كانوا يحاربون من أجلها فى كثير من الاحيان وقد برز برنامج مثالى أكثر مايكون من الاقتناع بأن حربا تشتعل على هذا النطاق الواسع وتتكلف مثل هذه التضحيات لابد وأن يكون لها خاتمة مجيدة ٠ وكانت تلك المثل العليا ثمرات ثانوية وطلاء براق يخفى الصراع الاصلى وان كان قد ترك أثره على الاحداث المقبلة وقد ظل النصر هو الغرض الاساسى من الحرب فالنصر هو الذى سوف يرسم السياسة التالية فاذا لم تتحقق تلك السياسة فالنصر على أى حال سوف يكون خير نتيجة وهذا هو الذى حدث ٠ فالحرب العالمية الثانية نشأت عن الانتصارات فى الاولى ٠ عن الطريقة التى استغلت بها تلك الانتصارات ٠

لقد كان هناك انتصاران حاسمان فى الحرب الاولى ولو أن احدهما غطى على الآخر ففى شهر نوفمبر ١٩١٨ انزلت الدول الغربية بالالمان هزيمة ساحقة فى الجبهة الغربية ولكن حدث قبل ذلك أن أنزل الالمان بروسيا هزيمة ساحقة فى الجبهة الشرقية مما كان له أثر بعيد على سير الامور فى سنوات ما بين الحربين • فقبل عام ١٩١٤ كان هناك توازن للقوى يشكل أحد طرفيه تحالف روسى فرنسى ويقابله دول الوسط • ومع أن بريطانيا كانت مرتبطة ارتباطا غير وثيق بفرنسا وروسيا فى « الحلف الثلاثى » الا أن قليلا من الناس كان يرى أن قوتها ضرورية لتقلب ميزان القوى • ولما اشتعلت الحرب كانت حربا قاصرة على أوربا وتدور رحاها فى جبهتين وقد أرسلت كل من الدول العظمى الى الميدان ملايين الجنود بينما لم ترسل انجلترا سوى مائة الف جندى وكانت مساعدة الروس لفرنسا ضرورة ملحة بينما لم تكن مساعدة الانجليز لها سوى عون اضافى • ولكن هذا أخذ يتغير كلما طال أمد الحرب فقد عبأ الانجليز جيشا كبيرا وأرسلوا ملايين الجنود الى الجبهة الغربية وقد زاد العون عندما أرسلت الولايات المتحدة ملايين أخرى من الجنود بعد أن دخلت الحرب عام ١٩١٧ ولكن هذا التعزيز للجبهة الغربية جاء متأخرا بحيث لم يكن من المستطاع انقاذ روسيا التى خرجت من الحرب على أثر ثورتى عام ١٩١٧ بالاضافة الى الكارثة العسكرية • وفى يناير ١٩١٨ عقد الحكام البلشفيك معاهدة صلح واستسلام فى (برست ليتوفسك) • فلما جاءت هزيمة المانيا فى الغرب اضطر الالمان الى التنازل عن المكاسب التى كانوا قد حصلوا عليها • فالنتيجة الكبرى لايمكن أن تتغير وقد اختفت روسيا من مسرح السياسة الاوربية ولم يعد لها وجود كدولة عظمى فى تلك الفترة مما أحدث تغييرا عميقا فى مجموعة الدول الاوروبية وكان ذلك فى صالح ألمانيا • فبعد أن كان يربض على حدودها الشرقية دولة عظمى أصبح يحف بها منطقة حرام مكونة من دويلات صغيرة يليها فراغ من الظلام والجهل • فلم يكن هناك من يعرف لعدة سنوات بعد ١٩١٨ ما اذا كانت روسيا تملك قوة ما وان كانت تملك فماذا تستطيع أن تفعل بها •

وعند نهاية عام ١٩١٨ لم يكن لهذا أهمية ما • أما الناحية التى لها دلالتها فهى أن ألمانيا قد أمكن هزيمتها دون مساعدة روسيا هزيمة ساحقة فى الجبهة الغربية فالنصر فى تلك المنطقة المزدحمة الضيقة كان يقرر مصير أوروبا ان لم يكن مصير العالم أجمع • وهذه النتيجة التى لم يكن يتوقعها أحد أظهرت أوروبا بصورة تختلف عما كان لها قبل عام ١٩١٤ حين كانت الدول العظمى وهى فرنسا وألمانيا وايطاليا والنمسا والمجر وروسيا ثم بريطانيا التى كانت مرتبطة بمشاكل أوروبا بنصف رباط وكانت برلين وسط أوروبا • أما بعد الحرب فكانت الدول العظمى هى فرنسا وألمانيا وبريطانيا ثم ايطاليا (بصورة أدبية) والولايات المتحدة التى شغلت مركز بريطانيا السابق فى محيط المنطقة • وكان وسط أوروبا بهذا الشكل الجديد هو (جنيف) على نهر الراين ولم تعد روسيا تعتبر دولة عظمى واختفت أسرة هابسبرج وانتقل مركز الثقل فى السياسة الاوربية نحو الغرب • ففى عام ١٩١٨ ولعدة سنوات بعد ذلك حتى ربيع ١٩٣٩ كان يعتقد الناس أن تقرير مصير العالم يقع فى أيدى من كانوا يعرفون قبلا « بالدول العظمى الغربية » •

ومع ان كلا من روسيا والمانيا هزمتا فى الحرب العالمية الاولى الا أن نتيجة كل من الهزيمتين كانت تختلف عن الاخرى • أما روسيا فقد اختفت عن الانظار اذ تجاهلت الدول المنتصرة حكومتها الثورية بل وجودها • أما ألمانيا فقد بقيت موحدة يعترف بها المنتصرون • أما القرار الذى أدى فى النهاية الى الحرب العالمية الثانية فقد اتخذ قبل نهاية الحرب العالمية الاولى ببضعة أيام مستمدا من أسمى الدوافع واكثرها تعقلا وكان ذلك القرار هو منح الحكومة الالمانية هدنة وقد بنى ذلك على اعتبارات عسكرية قبل كل شىء • فالجيش الالمانى قد هزم فى ميدان القتال وأخذ يتقهقر ولكنه لم يتحطم أو يفنى • أما جيوش فرنسا وانجلترا فقد اصـــابها الاعياء بالرغم من احرازها النصر ولم يكن مستطاعا أن نحكم من المظاهر الخارجية على مدى انهيار المانيا • وكان (برشنج) القائد العام الامريكى هو وحده الذى لم يكن يخشى القيام بحملة جديدة اذ كانت جيوشه محتفظة بقوتها ولم تصب بخسائر كبيرة ولذا كان يود لو اندفع الى برلين وكان مما يزيد فى اغرائه بهذا هى الفكرة بأن سنة ١٩١٩ اذا أقبلت بينما يكون الامريكيون هم الذين يحملون العبء الاكبر من الحرب أصبح فى امكانهم والحالة هذه ان يملوا شروطهم على الحلفاء بالقدر الذى يملونها على الالمان وهذا مالم يكن يستطيعون عمله فى عام ١٩١٨. ولكن هذا كان من وجهة نظر الدول الأوروبية سببا فى سرعة انهاء الحرب ما أمكن ذلك •

أما الامريكان فلم يكن لهم أهداف مادية من وراء الحرب أو مطالب أقليمية محددة ولقد كان هذا أيضا مما جعل موقفهم يبدو متناقضا فكانوا أقل تلهفا على عقد الهدنة وكانوا يريدون من ألمانيا ان تستسلم دون قيد أو شرط كما كانوا على استعداد أن يستمروا فى الحرب حتى يتحقق ذلك • ولقد كان الحلفاء أيضا يريدون هزيمة ألمانيا ولكن كانت لهم فى نفس الوقت مطالب عملية عاجلة اذ كانت فرنسا وانجلترا تريدان تحرير بلجيكا وكانت فرنسا تريد تحرير الجزء الشمالى الشرقى من أراضيها وكان الانجليز يريدون القضاء على الاسطول الالمانى ولتحقيق كل هذا كان لابد من عقد الهدنة ولم يكن عند ذلك لدى الحكومتين ماتبرران به أمام شعبيهما المنهوك استمرار سفك الدماء • وحتى بخلاف ذلك فان الهدنة وقد طلبتها الحكومة الالمانية سوف ترضى الاهداف العامة للحلفاء الذين كثيرا ماقالوا انهم لايريدون تحطيم ألمانيا بل كانوا يحاربون ليبرهنوا للالمان على أن حروب العدوان لايمكن أن تنجح • وكان لابد من تقديم ذلك الدليل الآن. فلقد كان واضحا لقواد الحلفاء والالمان أن المانيا قد هزمت ولكن ظهر بعد ذلك أن تلك الحقيقة لم تكن ظاهرة للشعب الالمانى • ففى نوفمبر ١٩١٨ كان يبدو كما لو كان الشعب الالمانى هو أيضا قد ساعد على انهاء الحرب • فكثيرا ما ادعى الحلفاء — بالرغم من عدم اجماعهم على ذلك — انهم انما كانوا يحاربون امبراطور ألمانيا ومستشاريه العسكريين وليس الشعب الالمانى • والآن أصبحت ألمانيا ملكية دستورية ثم صارت جمهورية قبل امضاء الهدنة وكانت الحكومة الالمانية حكومة ديمقراطية اعترفت بالهزيمة وكانت على

استعداد للتنازل عن جميع الفتوحات الالمانية فقبلت ــ كقاعدة للسلام مستقبلا ــ جميع المبادىء المثالية التى وضعها الرئيس ولسن فى أربع عشرة نقطة وهى مبادىء قبلها الحلفاء بشىء من الامتعاض مع تحفظين اثنين • وهكذا كانت الامور تسير فى جانب عقد الهدنة دون أن يعترضها الا القليل •

ولم تكن تلك الهدنة سوى وقف للقتال وقد صيغت شروطها بدقة تضمن ان لاتستطيع ألمانيا تجديد القتال فاضطر الالمان لتسليم مقادير هائلة من المهمات الحربية والى سحب قواتهم الى ماوراء نهر الراين والى تسليم اسطولهم واحتل الحلفاء الضفة الغربية لنهر الراين ورؤوس الكبارى الواقعة وراءه • ولقد نجحت تلك الشروط فى تحقيق الاغراض التى وضعت من أجلها • ففى يونيه ١٩١٩ • عندما كان يحاول الالمان فيما اذا كانوا سيوقعون معاهدة السلام اضطرت قيادتهم العليا ان تعترف بعد تردد ان قيام الحرب من جديد كان محالا • ولكن الهدنة كان لها وجه آخر اذ قيدت الالمان بالحاضر وقيدت الحلفاء بالمستقبل فلقد كان الحلفاء حريصين على أن يعترف الشعب الالمانى بالهزيمة ولهذا أبرمت اتفاقية الهدنة مع ممثلى الحكومة الالمانية لا مع المندوبين العسكريين •

ولكن فى الوقت الذى اعترف الالمان فيه بالهزيمة اعترف الحلفاء بدورهم بالحكومة الالمانية وهم لايدرون • وقد يقدم بعض الفرنسيين فيما بعد على أن يعملوا على تسلل (الانفصالية) من الباب الخلفى وقد يبالغ بعض المؤرخين فيأسفون على أن ماقام به بسمارك لم يتحطم وكان ذلك دون جدوى فقد أقرت الهدنة مسألة الوحدة الالمانية على قدر مايتعلق بحوادث الحرب العالمية الاولى فاختفت امبراطورية هايسبرج والامبراطورية العثمانية وبقى الرايخ الالمانى • واكثر من هذا لم يقتصر الحلفاء على الاعتراف بالرايخ الالمانى بل صار بقاؤه أمرا ضروريا لهم للابقاء على الهدنة • وهكذا تحول الحلفاء ــ وهم لايعلمون ــ الى حلفاء للرايخ الالمانى يقفون ضد كل من يريد له الدمار وضد استياء الرأى العام وضد الانفصالية وضد البلشفية •

ولم يقف الامر عند هذا الحد بل ازداد عندما عقدت معاهدة الصلح وكان ذلك بدون ترو للمرة الثانية • فقد تضمنت المعاهدة شروطا قاسية أو هكذا بدا الامر لمعظم الالمان • وقد وافق الالمان عليها وهم مستاءون غير راضين وذلك بعد نقاش طويل وكان رفض التوقيع أحد الامور التى فكروا فيها • وكانت الموافقة مرتبة على ضعف الجيش الالمانى والانهاك الذى لحق بالشعب الالمانى وتحت ضغط حصار الحلفاء ولم تكن الموافقة عن اعتقاد بعدالة شروطها أو حتى باعتدالها • ومع كل هذا وافقت الحكومة الالمانية على المعاهدة فاكتسبت بعملها هذا تدعيما لمركزها •

وقد صيغت المعاهدة بحيث تضمن عدم تجدد الاعتداء الالمانى ومع ذلك كان لابد للعمل بها من التعاون مع الحكومة الالمانية • فنزع سلاح ألمانيا لابد من أن تقوم به الحكومة الالمانية أما الدور الذى يقوم به الحلفاء فلم يتعد تأليف لجنة رقابة تشرف على عملية نزع السلاح • وكان على ألمانيا أن تدفع تعويضات ولكن الحكومة الالمانية هى التى

كانت تجمع المال وتقوم بالدفع ولم يقم الحلفاء بأى عمل سوى استلام المال . حتى الاحتلال العسكرى لاقليم الراين كان يعتمد عى معاونة المانيا . ولقد ظلت الادارة المدنية فى ايدى الالمان ولوانهم رفضوا التعاون لترتب على ذلك حالة من الاضطراب لم تكن المعاهدة على استعداد لمواجهتها . ففى الظروف التى أتت فى أعقاب عام ١٩١٩ مباشرة كانت معاهدة الصلح تبدو مرهقة وانتقامية مما جعل الالمان يصفونها بانها معاهدة استعباد ولكننا لو نظرنا اليها نظرة أعمق لكان أهم مايبدو فيها انها ابرمت مع دولة ألمانية متحدة . ولم يكن على المانيا الا أن تقوم فيها ببعض التعديلات أو تطرحها جانبا لتعود دولة قوية كما كانت عام ١٩١٤ .

تلك كانت النتيجة الحتمية المشئومة للهدنة ومعاهدة الصلح فقد تركت الحرب العالمية الاولى المشكلة الالمانية دون أن تحل بل جعلتها فى الحقيقة أكثر تعقيدا . ولم تكن تلك المشكلة هى الروح العسكرية الالمانية أو العدوان الالمانى أو شرور حكامها ولو أن كل هذه الاشياء بقيت كما هى لم يكن أثرها ليتعدى تعميق المشكلة أو لعلها كانت تقلل من خطرها لما تثيره من روح المقاومة فى الدول الاخرى . فالمشكلة الاساسية كانت مشكلة سياسية وليست معنوية . فمهما تحولت ألمانيا الى دولة ديمقراطية مسالمة الا أنها بقيت مع ذلك أقوى دولة فى القارة الاوروبية خصوصا بعد أن اختفت روسيا . فالمانيا أكثر الدول سكانا فتعدادها ٦٥ مليونا يقابلها ٤٠ مليونا فى فرنسا وهى القوة الوحيدة التى يعتد بها بعد المانيا . كذلك كانت ترجح بكثير فى الموارد الاقتصادية للحديد والفحم التى تعتبر مصدر القوة فى العصر الحديث ولقد كانت ألمانيا منهارة فى عام ١٩١٩ وكان ضعفها هو المشكلة القائمة ولكن اذا ما اتيح لها فترة من الحياة الطبيعية فستصبح المشكلة الجدية هى قوة ألمانيا . وأكثر من كل هذا فان ميزان القوى القديم قد انهار وهو ماكان يعمل على كبح جماح ألمانيا فى الماضى . فلقد انسحبت روسيا من الميدان وتلاشت امبراطورية النمسا والمجر ولم يتبق الا فرنسا وايطاليا وكلاهما دون ألمانيا فى القوة البشرية والموارد الاقتصادية كما أن الحرب قد أنهكتهما . ولو سارت الامور فى طريقها القديم « الحر » فلن يكون هناك ما يحول دون رجحان كفة ألمانيا فى أوروبا حتى اذا لم تقصد ذلك .

ولم يكن هنا انسان يتجاهل المشكلة الالمانية فى عام ١٩١٩ وان كان هناك فى الحقيقة قليلون لم يعترفوا بوجودها وكان هؤلاء وهم أقلية ضئيلة فى كل دولة — يعارضون فى الحروب باعتبارها ليست ضرورية كذلك كانوا يعتبرون الخطر الالمانى مسألة وهمية . وحتى فان بعض الذين كانوا يعضدون فكرة الحرب وساروا فيها متحمسين أصبحوا الآن يميلون الى الاعتقاد بأن ألمانيا سوف يمتد ضعفها وقتا طويلا . وقد يلتمس العذر لرجل السياسة البريطانى لو ظن أن متاعبه قد انقضت باغراق الاسطول الالمانى الى قاع البحر . وكانت ألمانيا تهددها الثورة وتمزقها المنازعات الاجتماعية وهذا فى رأى الجميع — عدا رجال الثورة — كفيل باضعاف قوى البلاد . كذلك فان الناس الذين نشأوا فى عالم الاستقرار الاقتصادى فى أواخر القرن التاسع عشر كانوا يعتقدون انه لايمكن لبلد أن يزدهر بدون ميزانية ثابتة وبدون العملة

النهبية وكان على ألمانيا أن تجتاز هذا الاختبار الطويل وكان يبدو ضروريا لصالح الجميع أن تنهض المانيا لأن تظل فى كبوتها • وحتى أكثر الفرنسيين تخوفا كانوا يرون انه لم يعد هناك خطر من غزو ألمانى يهددهم فى ذلك الوقت • وكان الخطر لايكمن الا فى المستقبل المجهول ومن يدرى ماذا يخبئه المستقبل • فكل حرب كبرى كان يأتى فى أعقابها من يقولون بأن وقف القتال لم يكن الا هدنة مؤقتة سوف تحاول الدولة المهزومة بعدها أن تضرب ضربتها من جديد • ولكن قلما حدث ذلك وان حدث فبعزيمة مستضعفة • ففرنسا مثلا بقيت أربعين سنة قبل أن تثور على التسوية التى تمت عام ١٨١٥ فلما ثارت لم تكن هناك نتيجة تذكر فالذين يعتنقون هذا الرأى مخطئون فى ظنهم ولكنهم وجدوا فى التاريخ ما يدعم فكرتهم • فاستعادة ألمانيا لقوتها — وان أتت متأخرة — لم يسبق لها مثيل فى سرعتها وقوتها •

واننا لو لم نعترف بالمشكلة الالمانية لكان من الضرورى أن نعترف بقوة ألمانيا غير أننا يمكننا أيضا أن نقول ان هذا لم يكن يهم ، فسوف تستعيد ألمانيا قوتها وسوف تقف من جديد فى صف الدول العظمى ولكنها قد تعلمت أن أهدافها لن تتحقق بالحرب• وانها لو أمكنها السيطرة على الدول الصغرى فى أوروبا بقوتها الاقتصادية وهيبتها السياسية فلا بأس من ذلك طالما انه لا يشكل خطرا • فلقد خلقت الحرب العظمى دولا قومية مستقلة فى جميع انحاء أوروبا ومما يدعو للدهشة ان هذه الحقيقة قد ندم على تحقيقها كثيرون ممن كانوا يعتنقون المثل العليا ويتزعمون الحركات القومية • فهذه الدول القومية أصبح ينظر اليها كدول رجعية عسكرية متأخرة اقتصاديا•فكلما أسرعت ألمانيا فى ربطها معا كان ذلك خيرا للجميع • وقد عرض هذا الرأى اقتصادى كمبردج الشهير ج • م • كينز بينما لم يكن لويد جورج نفسه يعارض هذا الرأى معارضة كاملة • ولقد كان أهم ما يشغل البال ليس هو منع المانيا من استعادة قوتها وانما اعتناقها مبادىء السلام • ولذا وجب أن تتخذ الاحتياطات ضد شكايات المانيا لا ضد الاعتداء الالمانى •

وفى عام ١٩١٩ كانت هذه الفكرة لم تطف على السطح بعد • فلقد صيغت معاهدة الصلح فى أكثر نواحيها بحيث تحقق الرغبة فى تجنب خطر ألمانيا ولم يكن هذا ينطبق كثيرا على النواحى الاقليمية فهذه كان يفصل فيها طبقا لمبادىء العدالة الطبيعية كما كانت تفهم فى تلك الفترة • فلقد فقدت ألمانيا بعض الاراضى التى لم يكن لها حق فيها من الناحية القومية • فحتى الالمان لم يتذمروا بسبب ضياع الالزاس واللورين واقليم شلزوج من أيديهم وحتى لم يشكوا علنا من ذلك • وقد اشتكوا من اقتطاع بعض الاراضى لضمها الى بولندا ولكن هذا الضم كان لابد منه مادامت بولندا قد عادت الى الوجود • ومع أن بولندا قد عوملت بمنتهى الكرم الا أن هذا كان نتيجة لمبالغتها فى مطالبها القومية لا لاعتبارات استراتيجية • ولقد وقف لويد جورج مرة فى

صف ألمانيا ضد الحلفاء عندما اقترح الفرنسيون والالمان أن تضم (دانزج) الى الاراضى البولندية وهى مدينة سكانها من الالمان ولكنها من الناحية الاقتصادية ضرورية لبولندا • فأصر لويد جورج على أن تصبح مدينة حرة يحكمها مندوب تعينه هيئة الامم وهذا الحل العجيب الذى عمل ليرضى ألمانيا كان هو السبب الظاهرى الذى تذرعت به ألمانيا لاشعال الحرب العالمية الثانية • وهناك شرط اقليمى واحد سلبى كان يتعارض مع المبادىء القومية وذلك لبعض مقتضيات السلام فالنمسا التى يتكلم أهلها اللغة الالمانية وهى كل ماتبقى من امبراطورية أسرة هايسبرج لم يسمح لها بالانضمام الى ألمانيا بدون موافقة عصبة الامم وكان هذا موضع شكوى أغلب النمساويين ومنهم الجاويش النمسوى (هتلر) الذى كان فى ذلك الوقت لايزال مواطنا نمساويا ولكن لم يكن هذا موضع شكوى من معظم المان الرايخ الذين نشأوا فى ألمانيا التى خلقها بسمارك وكانوا يعتبرون النمسا بلدا أجنبيا لايريدون أن يضيفوا أعباءه الى أعبائهم • وكانت هذه نفس مشكلة البلاد التى يتكلم سكانها الالمانية فى أى مكان آخر ، فى تشيكوسلوفاكيا وفى المجر وفى رومانيا الذين قد يحزنهم أن يكونوا مواطنين فى دول قومية غريبة ولم يكن الالمان فى الرايخ يعرفون شيئا عن هؤلاء أو يهتمون بأمرهم •

كذلك كان هناك شرط اقليمى بنى أساسا على اعتبارات استراتيجية محضة • ذلك هو احتلال قوات الحلفاء لمنطقة الراين • وكان الانجليز والامريكيون يعتبرون ذلك اجراءا وقتيا من أجل المحافظة على السلام ونصوا على أن يستمر الاحتلال خمس عشرة سنة بينما أراد الفرنسيون أن يكون الاحتلال دائما فلما فشلوا فى تحقيق ذلك عن طريق معاهدة الصلح أرادوا أن يحصلوا على النتيجة التى كانوا يرجونها وذلك بأن يكون الجلاء مشروطا بدفع تعويضات مجزية من جانب الالمان وقد أصبحت هذه التعويضات مشكلة دائمة خلال السنوات التالية فبدلا من وجود مشكلتين أصبحت المشكلات ثلاثا • وقد بنيت مسألة التعويضات من الناحية الظاهرية على مطلب معقول هو أن الالمان ملزمون بدفع تعويضات عن الخسائر التى سببوها • وكان الفرنسيون يعرقلون أى تسوية أملا فى استمرار احتلال الراين • ثم ازداد الامر تعقيدا بمشاكل الديون بين دول الحلفاء اذ أن بريطانيا عندما طلب منها دفع ديونها للولايات المتحدة أعلنت فى عام ١٩٢٢ انها تطالب حلفاءها بما يسد ديونها للولايات المتحدة فقال الحلفاء انهم سوف يدفعون ديونهم لانجلترا مما يحصلون عليه من التعويضات الالمانية وهكذا أصبح الفصل النهائى فى أمر التعويضات موكولا لالمانيا •

فلقد أمضى الالمان المعاهدة واعترفوا بالتزاماتهم وكان الامر فى يدهم وحدهم ففى امكانهم دفع التعويضات وبهذا يمكن تحقيق السلام فى العالم فسوف يتم الجلاء عن أراضى الراين فيزول خطر ديون الحرب • اما اذا رفضوا الدفع أو ادعوا أنهم عاجزون عن الاداء عند ذلك لايجد الحلفاء أمامهم الا أن يسألوا أنفسهم : « ماهو الضمان الذى نملكه سوى امضاء الحكومة الالمانية ؟ » •

ولقد كان هو نفس السؤال الذى واجه الحلفاء فيما يتعلق بنزع سلاح ألمانيا فلقد كان هذا يستهدف السلام ولاشيء غيره بالرغم من الشرط الاضافى الذى نص على امكان نزع سلاح الآخرين • فنزع السلاح الالمانى كان ممكن التنفيذ لو أراد الالمان ذلك • ولكن ماذا يحدث لو رفضوا ذلك ؟ لقد وجد الحلفاء أمامهم مرة أخرى مشكلة استخدام القوة وكان فى الالمان ميزة لاتكلفهم شيئا ذلك أنه كان فى مقدورهم التخلص من اجراءات الضمان التى اتخذت ضدهم بمجرد رفضهم أن يعملوا شيئا : برفضهم الدفع ورفضهم نزع السلاح فيضطر الحلفاء الى اتخاذ اجراءات « مصطنعة » لو ارادوا الابقاء على ضمانات السلام ولكن لم يكن هذا ليتفق ومنطق الانسان فالحرب نشبت لتصفية المشاكل فما جدواها الآن اذا قامت الاحلاف من جديد وتسلحت الدول ثانيا وتعقدت الامور أكثر مما كانت قبل الحرب ؟ لم يكن من السهل الاجابة على هذا السؤال وعدم الاجابة عليه يفتح الطريق أمام حرب عالمية ثانية •

فمعاهدة فرساى كانت تنقصها الدعامة المعنوية منذ البداية وكان لابد من تطبيقها بالقوة اذ لم يكن فى الامكان أن تطبق من نفسها وكان هذا هو ماحدث فيما يتعلق بالالمان اذ لم يتقبل أحد منهم تلك المعاهدة كتسوية عادلة بين انداد متساوين ليس بينهم المنتصر والمهزوم • وكان كل الالمان يعملون على التخلص من بعض اجزاء معاهدة الصلح بمجرد أن تتاح لهم الفرصة وكان اختلافهم على زمن التنفيذ فالبعض كان يريد رفض المعارضة فى الحال وكان آخرون — ربما الاغلبية — يودون ترك هذا الامر للجيل المقبل •

أما توقيع ألمانيا على المعاهدة فلم تكن له قيمة أو يعنى أى التزام • كذلك لم تكن المعاهدة تقابل بالاحترام فى البلاد الاخرى • فالناس فى عام ١٩١٩ كانوا تواقين على الدوام أن يتمكنوا من القيام بأحسن مما قام به واضعو خطط السلام فى (فيينا) قبل ذلك بقرن من الزمان فان أكبر تهمة توجه الى (مؤتمر فيينا) هى محاولته أن يضع سياسة يلتزم بها رجال المستقبل • ولقد كانت أكبر الانتصارات التحررية التى حققها القرن التاسع عشر هى انتصاره على سياسة المعاهدات فكيف يمكن لذوى التفكير الحر أن يدافعوا عن سياسة جديدة للمعاهدات وعن خرافة جديدة • وينادى بعض الاحرار فى الوقت الحاضر باتخاذ نوع من (السياسة) ولكنها سياسة تختلف كثيرا عن ضمانات معاهدة السلام • فبعد أن كانوا ينادون بالاستقلال للقوميات للجميع عادوا فجأة فاعتنقوا النظام الدولى وهو نظام عصبة الامم وبهذا لم يعد هناك مجال فى هذا النظام للتفرقة بين الاعداء السابقين أو الحلفاء السابقين فالجميع من واجبهم الاشتراك فى نظام يضمن السلام ويطبقه • فالرئيس ولسن نفسه الذى ساهم كغيره فى صياغة معاهدة الصلح أذعن لما جاء بالفقرات التى قصدت بها ألمانيا لالشيء الا لاعتقاده أن عصبة الامم سوف تستبعدها أو تقول بعدم ضرورتها وذلك بعد أن تشكل •

وتطبيق معاهدة الصلح كان يتعارض مع بعض المصاعب العملية علاوة على هذه الاعتراضات المعنوية • فلقد كان فى امكان الحلفاء أن يهددوا ولكن كل تهديد كان يصبح أقل أثرا من سابقه ولو أنهم هددوا بالاستمرار فى الحرب فى نوفمبر ١٩١٨ لكان ذلك أسهل من التهديد باستئنافها فى يونيه ١٩١٩ • وكان التهديد باستئنافها فى يونيه عام ١٩١٩ أسهل من التهديد باستئنافها فى يونيه ١٩٢٠ وهذا أسهل من عام ١٩٢٣ وأخيرا أصبح محالا أن يهددوا بالحرب على الاطلاق • فلم يكن الناس يرضون بترك أوطانهم ليقاتلوا فى حرب قيل لهم انه سبق أن انتصروا فيها ولم يكن دافعو الضرائب ليرضون بتمويل حرب جديدة بينما هم لايزالون يئنون تحت أعباء الحرب الماضية • كذلك كان كل تهديد يتحطم على هذا السؤال : « اذا لم تكن الحرب تستحق استمرار القتال فيها لتحقيق استسلام غير مشروط فكيف يمكن أن تتجدد الحرب لغرض أقل من ذلك بكثير ؟ » اذن لا بد من ضمان جديد باحتلال اقليم الروهر أو أى اقليم صناعى آخر فى ألمانيا • ولكن ماالذى يمكن أن يحققه ذلك الاحتلال ؟ لن يكون هناك الا امضاء جديد تقدمه ألمانيا قد تحترمه أولاتحترمه كما فعلت من قبل • أما القوات المحتلة فسوف تضطر للجلاء ان عاجلا أو آجلا فتعود الى الموقف الذى كنا فيه من قبل حيث يكون القول الفصل للالمان •

كانت هناك اجراءات أخرى قهرية غير استئناف الحرب واحتلال جزء من الاراضى الالمانية تلك هى الاجراءات الاقتصادية وهى نوع من الحصار الذى ساعد على تحقيق هزيمة ألمانيا وقد ساعد ذلك الحصار على حمل ألمانيا على قبول معاهدة الصلح فى يونيه ١٩١٩ ولكن ذلك الحصار بعد أن أزيل لم يصبح فى الامكان اعادته بالقوة التى كان عليها أيام الحرب ولو خوفا من خطورة أثره اذ أن ألمانيا لو حل بها اضطراب اقتصادى وانهارت حكومتها فمن سوف يقوم بتنفيذ شروط المعاهدة فتحولت العلاقات بين الحلفاء وألمانيا الى سباق فى التهديدات كحلقة مثيرة فى أحد أفلام العصابات • فالحلفاء — أو بعضهم — كانوا يهددون بخنق ألمانيا حتى يتم تدميرها وكان الالمان يهددون بأنهم سوف يموتون فلم يجرؤ واحد من الطرفين أن يسير بعيدا فى تهديداته ثم أخذت التهديدات تتضاءل رويدا رويدا ثم تحولت الى عمليات اغراء ثم أخذ الحلفاء يلوحون باعادة ألمانيا الى مركزها السابق بين العالم لو أنها أوفت بالتزاماتها • أما الالمان فكانوا يجيبون بأنه لن يكون هناك عالم يسوده السلام الا اذا خففت مطالب الحلفاء • فلقد كان الاعتقاد السائد فى جميع انحاء العالم — فيما عدا الدوائر البلشيفية — ان استقرار المستقبل للانسانية انما يتوقف على عودة النظم الاقتصادية الحرة فى سوق عالمية حرة وقد توقف العمل بها أيام الحرب • بصورة مؤقتة على ماكان يعتقد • وكان الحلفاء يمتلكون سلاحا قويا للمساومة حين يعرضون على ألمانيا أن يدخلوها من جديد فى هذه السوق العالمية ولكن الالمان يقولون أنه لن يكون هناك سوق ثابتة بدونهم • فاضطر الحلفاء فى النهاية — بسبب سياستهم — أن يعاملوا ألمانيا معاملة الند وبهذا عادوا من جديد الى المشكلة القديمة المعقدة — فلو أن ألمانيا عوملت معاملة الآخرين فسوف تعود أقوى دولة فى أوروبا • ولو أن احتياطات معينة اتخذت ضدها فقد لاتلقى مساواة فى المعاملة •

أما الذى كان يريده الحلفاء فى الحقيقة فهو الوصول الى معاهدة توجه ضد ألمانيا ويقبلها الالمان طائعين وكان غريبا أن نجد من يعتقد بامكان تحقيق هذا المطلب ولكنها كانت فترة من التاريخ تتجاذب فيها الفروض المجردة مع العلاقات الدولية • فالملكيات القديمة كانت تحترم المعاهدات بالقدر الذى تتضمنه من حقوق ينالونها ولم يكونوا ليهتموا بالمعاهدات التىتتضمن التزامات عليهم • وكان الوضع الجديد يشبه ماعرف باسم (الرباط المقدس) وهوحجر الاساس فى الحضارة البورجوازية فالملوكوالارستقراط لايدفعون ما عليهم من ديون وقلما يرتبطون بوعودهم أما النظام الرأسمالى فانه ينهار ما لم يكن الناس الذين يعيشون فى ظله يحافظون على عهودهم ولو كانت مجرد ايماءة بسيطة وكان يطلب من الالمان فى ذلك الوقت أن يلتزموا هذه المبادىء الاخلاقية • ولقد كانت هناك ضرورة ملحة تستوجب الاعتماد على المعاهدات ذلك انه لم يكن هناك من وسيلة سواها وهنا يتضح الفرق الشاسع بين الفترة التى تلت الحرب العالمية الاولى والفترات السابقة التى كانت تحمل نفس الطابع • فلم يكن جديدا أن نرى المشكلة التى تتمثل فى وجود دولةعظمى واحدة فى أوروبا أقوى من جميع الدول الاخرى بشكل ملحوظ وعلى العكس فقد تكرر حدوث ذلك المرة بعد المرة خلال الاربعة قرون الماضية فالناس لم يعتمدوا على شروط المعاهدات أو على الوعود التى كان يقدمها الاقوياء بعدم استخدام القوة• أما الدول الصغرىالمسالمة فكانت تتجمعسويا بصورة لا ارادية وكانوا يؤلفون الاحلاف والروابط التى كانت توقف المعتدى أو تهزمه فقد اتبعت هذهالسياسة ضد أسبانيا فى القرن السادس عشر وضد فرنسا تحت حكم البوربون فى القرن السابع عشر وضد نابليون فى القرن التاسع عشر وهكذا كان الامر فى الحرب العالمية الاولى •

ولقد فشلت هذه السياسة القديمة بعد ١٩١٩ فانهار الحلف الكبير وكان لهذا الانهيار سبب قوى فمع أن المنتصرين ساروا فى سياستهم على مبدأ (توازن القوى) الا أنهم كانوا يخجلون من هذا العمل اذ كان الكثيرون يعتقدون أن سياسة (توازن القوى) هى التى سببت الحرب وان التزام هذه السياسة سوف يسبب حربا أخرى اما من الناحية العملية فكان يبدو أن هذا التوازن لم يعد ضروريا فبالرغم مما أصاب الحلفاء من خوف الا أنهم حققوا نصرا كبيرا ثم انزلقوا الى افتراض أن تلك الحرب سوف تكون خاتمة الحروب • فالذى يكسب حربا يصعب عليه أن يتصور أنه سيخسرالحرب المقبلة • فصارت كل من الدول المنتصرة تشعر بما لها من حرية فى انتهاج سياستها الخاصة وأن تسير وراء ميولها ولم يكن فى الامكان التوفيق بين كل هذه الاتجاهات • ولم يكن هنا تعمد فى رفض الزمالة التى كانت قائمة أيام الحرب فالاحداث هى التى فرقت بين الاحلاف ولم يبذل أحد منهم وسعه لتلافى هذا التفكك •

ان الجبهة المتحدة التى كانت تجمع بين الحلفاء لم تعمر طويلا بعد مؤتمر السلام وحتى أثناء انعقاد المؤتمر لم تخل من التحدى • فكان الفرنسيون يلحون فى مسألة السلام أما الامريكيون ـ والانجليز الى حد ما ـ فكانوا يميلون الى الاعتقاد انهم قد قاموا بما طلب منهم من عمل • ولقد نجح المنتصرون فى أن يتفقوا على معاهدة سلام ولكن الرئيس ولسن لم يتمكن من الحصول على موافقة مجلس الشيوخ الامريكى على المعاهدة• ومع أن هذا كان ضربة موجهة الى التسوية الجديدة الا أنها لم تكن ضربة قاضية كما اتضح فيما بعد • فعلاقات أمريكا بأوروبا كانت تحدوها العوامل الجغرافية لا النهج السياسى • وأيا كان نوع انظمة المعاهدة فان الولايات المتحدة كانت تقع بعيدة عن أوروبا عبر المحيط الاطلسى • فالجنود الامريكيون كان لابد أن ينسحبوا من أوروبا حتى ولو لم يوافق مجلس الشيوخ الامريكى على معاهدة فرساى ولكن الذى حدث هو أن بعضهم بقى على الراين ولكن مما لاشك فيه أن مركز عصبة الامم كان سيصبح أقوى لو أن الولايات المتحدة كانت عضوا فيها ولكن سياسة بريطانيا فى جنيف كانت توحى بأن عضوية دولة أنجلوسكسونية أخرى لن يحول العصبة الى أداة فعالة من أجل السلام وهو ماكانت تريده فرنسا • وفى عام ١٩١٩ وما بعده استغل رفض أمريكا تنفيذ معاهدة الضمان ليعمل (ولسن) و (لويد جورج) على حمل (كليمانسو) على التنازل عن فكرة ضم اقليم (الراين) • وهذه المعاهدة التى ولدت ميتة كانت هى أيضا مجرد ورقة ضمان • وقد تقرر أن لايبقى جنود أمريكيون أو بريطانيون فى فرنسا وبانقاص عدد القوات الامريكية والانجليزية الى المعدل الذى كانت عليه أيام السلم لم يعد هناك جنود يمكن ارسالهم فى حالة وجود خطر • وقد أشار (بريان) الى ذلك فى عام ١٩٢٢ عندما أعاد لويد جورج الحياة الى هذا الاقتراح من جديد ولو أن ذلك كان بدون اشتراك أمريكا •

وكان يقول أن الالمان سوف يجدون أمامهم من الوقت ما يسمح ببلوغ باريس وبوردو قبل أن يصل الجنود البريطانيون لايقافهم وهذا ما حدث بالفعل فى عام ١٩٤٠ بالرغم من التحالف مع بريطانيا فالضمان الانجلوامريكى حتى لو انه وضع موضع التنفيذ لما كان أكثر من وعد بتحرير فرنسا لو احتلها الالمان وهو ما حدث فى عام ١٩٤٤ حتى بدون وجود المعاهدة • فالولايات المتحدة كانت منعزلة عن أوروبا من الناحية الجغرافية ومن ناحية وجهة النظر السياسية بحيث لا تتبع سياسة السلم الأوروبية وكان كل ما ينتظر من أمريكا هو أن تتدخل متأخرة اذا ما فشلت سياسة السلم هذه •

وانسحاب أمريكا من أوروبا لم يكن مطلقا • • فمع أن أمريكا لم توقع على معاهدة فرساى الا أن الامريكيين كانوا يريدون أن يروا أوروبا فى حالة سلام واستقرار اقتصادى • فالدبلوماسية الامريكية كانت دائبة النشاط فى المسائل الاوروبية فمشروعا دفع التعويضات الألمانية وهما مشروع (داوس) ومشروع (ينج) قد وضعا بارشاد أمريكا وكان كل منهما يحمل اسم مندوب أمريكا • ولقد كانت القروض الامريكية سببا فى استعادة المانيا لاقتصادياتها سواء كان ذلك خيرا أم شرا • فاصرار أمريكا

على أن تدفع أوروبا ما عليها من ديون الحرب عقد مشاكل التعويضات وكان ممثلو أمريكا يحضرون المناقشات الطويلة بشأن نزع السلاح وكانت أمريكا بحق تمثل الرأى العام العالمى الذى كانت من أجله تدور تلك المناقشات اقتصادية كانت أو سياسية . كذلك جعل مؤرخو أمريكا الحملة الموجهة الى ألمانيا ـ متهمة اياها بجريمة الحرب ـ أشد أثرا مما لو كان الأمر ترك للالمان وحدهم . وهكذا لم تكن الولايات المتحدة لتستطيع أن تفصل نفسها عن أوروبا لمجرد رفضها التوقيع على معاهدة فرساى فان مساهمة أمريكا فى الحرب كان له أكبر الأثر فى هزيمة ألمانيا كذلك كانت السياسة الامريكية بعد الحرب سـببا رئيسـيا فى استعادة المانيا لقوتها . وقد كانت قوة أمريـكا سـببا فىأنها ضلت طريقها اذ بدأ الامريكيون بافتراض أن ألمانيا بعد أن هزمت لم تعد تشكل خطرا عليهم وكانوا على حق فى هذا ثم انتقلوا من هذاالى الفرض الخاطىء انها لن تصبح خطرا على الدول الاوروبية .

// وربما كانت السياسة الامريكية أضعف أثرا لو أن الدول العظمىفى أوروباكانت موحدة الكلمة . ففرنسا وبريطانيا وايطاليا كانوا يؤلفون حلفـا خطيرا بالرغم من الانتقادات التى وجهت اليهم فيما بعد ، اذ أنهم تمكنوا من الصمود فى وجه ألمانيا ولو أنهم لم يتمكنوا من هزيمتها وكانت ايطاليا أضعفهم من ناحية الموارد الاقتصادية والتجانس السياسى ثم ازدادت الفرقة بينها وبين حليفتها بسبب شعورها بانهـا لم تحصل على نصيبها العادل من أسلاب الحرب اذ لم تتمكنمن أخذ نصيبها منالامبراطورية العثمانية ثم خدعت باعطائها مستعمرات لاقيمة لها بالرغم من شكواها . ومن ناحية أخرى فانها كانت تتمتع بأمانوهمى اذ فصلت عن أوروبا مما جعلها تتحول تقريبا الى جزيرة فلقد كانت عدوتها هى النمسا والمجر لا ألمانيا فلما تحطمت أسرة هايسبورج أحاط بها سياج من الجيران الصغار وكانت المشكلة الالمانية تبدو نائية عنها . وكان رجال الحكم فى ايطاليا يقابلون بارتياح ماكانت تشعر به فرنسا من ضيق من جراء المشكلة الالمانية بل أنهم استغلوا هذا الضيقأحيانا فكانوا فى بعض المناسبات ينصبون من أنفسهم حكاما بين فرنسا وألمانيا . وعلى أى حال لم يكن فى استطاعة ايطاليا أن تبذل الكثير فى مشروعات السلام فلم تساهم فيها مطلقا .

وربما كان احجام ايطاليا عن المساهمة أقل أثرا لو أن فرنسا وانجلترا قد اتفقتا على جميع النقاط فلقد تحطم هنا تحالف أيام الحرب تحطيما نهائيا ولكن الدولتين بقيتا على اتصال وثيق . أما ماكان يجرى أحيانا من الحديث فى انجلترا على أن فرنسا تهدف الى استعادة سيادتها على أوروبا كما كان الحال أيام نابليون أو انها قد تكون حققتذلك كان كل هذا الحديث لايزيد عن كونه هراء . وعلى وجه عام استمرت الدولتان تعملان جنبا الى جنب باسم (الديمقراطيات الغربية)وبصفتهما وكيلتين عن أوروبا وزميلتين فى تحقيق النصر فى الحرب الكبرى ولقد سوأ الانجليز سمعة الالمان خلال أيام الحرب وكانوا دائما يقررون دون مواربـــة أن الحرب انمـــا كانت صراع من أجل البقاء أما الآن فخيل اليهم أن الصراع قد انتهى اذ اختفى الاسطول الالمانى ولم تعد هناك منافسة اســـتعمارية ألمانية أما فى النواحى الاقتصادية فان الانجليز كانوا أميل الى مساعدة ألمانيا لاستعادة مركزها لا محاربتها وقد أبلغرؤساء أسلحة الجيش انه لايتوقع

نشوب حرب كبرى قبل انقضاء عشر سنوات على الاقل وظلت هذه التوجيهات تبلغ اليهم سنويا حتى عام ١٩٣٣ . ثم سادت بعد ذلك الطريقة الانجليزية عن « نزع السلاح لمجرد التقليد » فاذا كان المقصود بهذا هو نزع السلاح الى حد يتجاوز حد السلامة القومية كما كانت مفهومة فى ذلك الحين فلم يكن هناك اذن نزع سلاح . فلقد كان هناك بانجلترا نزع سلاح لاسباب اقتصادية وكان هناك نزع سلاح بسبب الاهمال وسوء التقدير ولكن لم يكن هناك نزع سلاح عن مبدأ . وعلى النقيض كان الانجليز يعتقدون أنهم أصبحوا يتمتعون بحالة من الامان أكثر من قبل فسرحوا معظم قواتهم بعد الحرب على زعم انهم لن يخوضوا غمار حرب ثانية . أما فشلهم فيما بعد فى بناء قوة من المصفحات فكان سببه الآراء التى تقدمت بها أكبر الهيئات العسكرية التى ظلت تعتقد أن استخدام الدبابات أقل أثرا من استخدام الخيول وأصبحت قوة الاسطول البريطانى فى المياه الأوروبية أكبر منها فى أى وقت مضى وعلى التحقيق أكبر بكثير مما كانت عليه قبل عام ١٩١٤ فقد اختفت كل الاساطيل تقريبا فيما عدا الاسطول الفرنسى ولم يكن معقولا أن تشتبك الدولتان الانجليزية والفرنسية فى حرب بالرغم مما كان يسود العلاقة بينهما من توتر فى بعض الاحيان .

فاذا كان المقصود « بالامان » هو السلامة من الغزو فان الجزر البريطانية تكون قد أصبحت أكثر أمنا من أى وقت مضى فى التاريخ . وكان الشعور فى بريطانيا يعود القهقرى فى اتجاه العزلة كما كان يحدث دائما أثر كل حرب وكان هناك تشكك فيما اذا كانت الحرب قد عادت عليهم بفائدة ما فيحقدون على حلفائهم السابقين ويشعرون بالعطف على عدوهم السابق . أما رجال الدولة الانجليز فلم يخامرهم ذلك الشعور بل ظلوا حريصين على التعاون مع فرنسا وكانوا يعلمون أن الاستقرار والسلام فى أوروبا فى مصلحتهم ولكن هذا لم يكن يجعلهم يساندون كل مطلب فرنسى من ألمانيا كما كانوا يميلون الى الاعتقاد بأن أى حديث عن الخطر الالمانى انما هو خيال ذهب مع التاريخ وكانت هذه هى الحقيقة فعلا فى ذلك الوقت . ان الشعور الذى يستحوذ على تفكير فرنسا فيما يتعلق بشئون السلامة لم يكن من المبالغ فيه ولم يكن خاطئا وحتى هؤلاء الساسة البريطانيون الذين كانوا يعملون على تهدئة مخاوف فرنسا بالكلمات كانوا يعلمون أنهم عاجزون عن تحويل تلك الاقوال الى أفعال . كذلك لم تكن الوعود الانجليزية بمساعدة فرنسا تمنح لمساندة اجراءات السلامة الاخرى وانما أريد بها أن تكون بديلا عنها لتترك فرنسا تلك الاجراءات الاخرى . ولقد أخذ الانجليز يفكرون تفكيرا عميقا فى أخطاء سياستهم فى الفترة السابقة للحرب . وكان البعض طبعا يقولون أن بريطانيا ماكان ينبغى أن تقحم نفسها فى مشاكل القارة . أما الكثيرون الذين كانوا يقولون بأن الحرب كان لابد من الاشتراك فيها اذا نشبت كانوا يقولون أيضا أن الحرب كان من المستطاع تجنبها لو أن انجلترا أقامت مع فرنسا حلفا دفاعيا رسميا . فان هذا كان

سيصبح نذيرا لالمانيا أن بريطانيا سوف تشترك فى الحرب كذلك وكان سيصبح نذيرا لفرنسا بل ولروسيا أن انجلترا لن تشترك فى (نزاع شرقى) • أما بعد الحرب فان المحالفة مع فرنسا كان معناه نوع ملطف مع العزلة • فان انجلترا عندما تقطع على نفسها عهدا بالدفاع عن حدود فرنساسوف تظهر أيضـــا بأنها لا ترتبط بشىء فيما عدا ذلك•

ومن ثم كانت السياسة البريطانية حتى فى أقصى حالات التعاون لم تكن تعمل ضد نهوض ألمانيا من كبوتها ولكنها كانت فقط تهيىءضمانا ضدعواقبهذا النهوض • وكان ثمن معاونة انجلترا هوتنازلفرنساعن كل مطلبلهاشرقالراينومنثمكل وضع كدولة أوروبية عظمى وقد كانت لندن توحى بهذا الاتجاه قبل عام ١٩١٤ ولكن فرنسا فى ذلك الحين كانت تحاول تحقيق غرضين فى وقت واحد • فارتباطاتها بانجلترا كان يعود عليها بمساعدة محدودة لو أنها هوجمت ثم يقدم فى النهاية مساعدة أكبر مما ينتظر بعد أن يتم الهجوم • ولكن هذا الارتباط كان أمرا ثانويا فى السياسة الفرنسية حتى وقت نشوب الحرب • فالذى كان يعطى فرنسا استقلالها كدولة عظمى انما كان تحالفها مع روسيا الذى كان معناه شطر قوات ألمانيا • وحتى فى عام ١٩١٤ كان قواد فرنسا العسكريين يعلقون أهمية كبرى على القوات الروسية التى سوف تتدفق الى بروسيا الشرقية أكثر مما يعلقون على القوة الانجليزية الصغيرة التى سوف تحارب فى جناحهم الايسر • فالتحالف مع روسيا ظل يهيىء لفرنسا استقلالا وضخامة صورية حتى عام ١٩١٧ ثم انهزمت روسيا وتخلفت عنالقتال فانهارت سياسة فرنسا الاوروبية وقد تم النصر فى الحرب فى الجبهة الغربية ثم حررت الجبهة الشرقيـــة كنتيجة لذلك لا كشريكة للجبهة الغربية وهكذا وجدت فرنسا نفسها شريكا صغيرا بينالديمقراطيات الغربية •

وقد رحب بعض الساسة الفرنسيين بهذا التطور فان (كليمانسو) بصـــفة خاصة كان دائما ضد التحالف مع روسيا لانها دولة غريبة عن الديمقراطية الفرنسية ولانها تقحم فرنسا فى مشاكل البلقان المعقدة • وقد حاول أن يقف فى وجه عقـــد محالفة معها كما سره انهيار هذا التحالف • ولم يكن عداؤه الشديد للبلشفية راجع فقط الى حقده على روسيا لتخلفها عن مواصلة الحرب بل كان تأكيدا بعدم قيام التحالف معها مرة ثانية • وكان (كليمانسو) يعرف انجلترا وأمريكا أكثر مما يعرفهما أكثر الفرنسيين وكان يعتقد عن يقين أن مستقبل فرنسا والانسانية كلها موكول الى الدول الغربية فقد قال لمجلس النواب فى ٢٩ ديسمبر ١٩١٨ « اننى سوف أضحى بكل شىء فى سبيل هذا الحلف » وقد بر بوعده • ولم تكن الموافقة على معاهدة فرساى الا لان كليمانســـو كان هو الوحيد من جميع الساسة الفرنسيين الذى يرتاح الى انجلترا والولايات المتحدة • أما أغلب الزعماء الفرنسيين فكانوا متمسكين برأيهم • ولكنبعض الذين أثاروا ضجة من بين اليمينيين همفقط الذينبقوا علىعدائهم للانجليز غير أنه لميكن هناك من يبغضأمريكاوان كانالكثيرون لميتفقوافى تلازم الدولتين الانجلوساكسونيتين•

كذلك كان البعض ـ وقد أسكرهم النصر ـ يحلمون باستعادة فرنسا لسابق سيطرتها على أوروبا التى كانت أيام لويس الرابع عشر أو حتى فيما قبل عهد بسمارك • أما الاقل تطرفا فكانوا يقولون بأن الحلفاء الشرقيين سوف يعوضون ماتمتاز به ألمانيا من الكثرة العددية حتى يمكن أن تعود فرنسا الى سابق عهدها كدولة عظمى •

ولكن هذا الحليف الشرقى لا يمكن أن يكون روسيا والسبب الظاهرى فى ذلك هو النظام البلشفى • فلقد أقحمت الدول العظمى الغربية نفسها فى حروب ضد الحكم الشيوعى حتى عندما كانت الحرب دائرة ضد الالمان ثم شجعوا بعد ذلك اقامة (نطاق الامان) المكون من الدويلات الصغيرة على حدود روسيا الغربية وأخيرا التزموا سياسة (عدم الاعتراف) وظلوا ينفذونها حتى عندما أخذوا يفتحون الباب على كره منهم أمام تجارة روسيا • أما زعماء السوفييت فكانوا من جانبهم يقاسون الضيق من السياسة الفاسدة للرأسمالية العالمية وذلك عندما تقلدوا الحكم فى نوفمبر ١٩١٧ فجازفوا بكل مافى أيديهم فى سبيل تحقيق ثورة دولية • وظلت (الدولية الثالثة) أكثر أهمية فى رأيهم من وزارة الخارجية السوفييتية حتى عندما فشلت ثورتهم فى الانطلاق • ومن الناحية النظرية ظلت العلاقات بين روسيا السوفيتية والدول الاوروبية سياسة حرب معلقة • وحتى بعض المؤرخين يعتقدون أن هذه الحرب الخفية هى مفتاح فترة مابين الحربين • ويدعى مؤرخو السوفييت أن بريطانيا العظمى وفرنسا أرادتا الانتصار على ألمانيا لغرض السيطرة على أوربا وشن حرب جديدة من التدخل ضد روسيا السوفييتية • وكان بعض المؤرخين الغربيين يتهمون الزعماء الروس بأنهم كانوا دائما يثيرون القلاقل فى العلاقات الدولية أملا فى التمهيد للثورة • هذا هو ماكان ينبغى على كل فريق أن يقوم به لو أنه نظر نظرة جدية الى مبادئه وعقائده ولكن لم يقم أحد الجانبين بشىء من هذا • فالبلاشفة كانوا يعترفون بصورة مضمرة انهم فى أمان وانهم لايبالون بما يجرى فى بقية أنحاء العالم عندما كانوا يتناولون مسألة «الاشتراكية فى دولة بمفردها » وكان الساسة الغربيون لاينظرون بعين الاهتمام الى الخطر البلشفى حتى لم يأبهوا بالروس لاعتقادهم بأنهم لن يثيروا حربا • وظلت الشيوعية تؤرق أوربا مثل الشبح وهو اسم أطلقه الناس على مخاوفهم واخطائهم • غير أن الحملة الكبرى ضد الشيوعية كانت خيالية أكثر من الشبح الشيوعى •

وكانت هناك أسباب أخرى أقل قبولا تعلل عدم قيام المحاولات لجر روسيا من جديد الى الشئون الأوروبية • فهزيمتها فى الحرب قضت على سمعتها كدولة عظمى كذلك كان يعتقد ـ بشىء من الصدق ـ ان الثورة بعد الهزيمة سوف تجلب على روسيا الضعف لمدة جيل من الزمان • ثم هناك ألمانيا التى ترهقها ثورة سياسية من أقل الثورات خطر فأى قدر من الخراب سوف يحل بروسيا نتيجة لفورة اجتماعية رئيسية وبالاضافة الى هذا فان كثيرين من ساسة الغرب قابلوا اختفاء روسيا بشىء من الارتياح فمع أنها كانت ذات فائدة فى توازن القوى ضد ألمانيا الا أنها فى الوقت نفسه كانت

حليفا ثقيلا مرهقا • ففى خلال العشرين سنة التى استمر فيها التحالف الفرنسى الروسى ظلت فرنسا تقف فى وجه مطالب روسيا فى القسطنطينية وقد رضخت لهذه المطالب أخيرا ـ بالكثير من عدم الرضى ـ فى عـــام ١٩١٥ ولكنها شعرت بالكثير من الارتياح عندما تمكنت بعد ذلك من الرجوع فى الوعد الذى قدمته أثناء الحرب • أما الانجيلز فكانوا أقل اهتماما بمسألة القسطنطينية ولكنهم بدورهم كانت لهم مشاكلهم مع روسيا فى الشرقين الاوسط والادنى • فلدعاية الشيوعية التى انطلقت بعد الحرب فى الهند مثلا لم يكن ليقاس بها تهديد روسيا القديمة بنشاطها فى ايران • ولو تجاوزنا عن بعض هذه المشكلات فاننا نجد الشئون الدولية تسـير دائما فى يسر اذا بعـدت عنهـا روسـيا كمـا يرى الجميع الآن • ولقـد كان حزام الامان (Cordon Sanitaire) مما طلب منه وكان ذلك من وضع بلفور وحده على مايبدو • فقد قال لوزارة الحرب البريطانية فى ٢١ مارس ١٩١٧ « انكم اذا اقمتم دولة بولندية مستقلة تماما فانكم سوف تعزلون روسيا تماما عن الغرب وبذا ينتهي أثر روسيا كعامل له أثره فىسياسة الغرب أو يتوقف تقريبا » وقد أثبتت الحوادث ذلك فروسيا لم تعد قادرة على أن تتداخل فى شئون أوروبا حتي ولو أرادت • ولكن لماذا تتدخل ؟ فان حزام الامان كان ذا أثرمن ناحية أخرى ولو أن ذلك لميتضح لعدة سنوات فلقد أبعد روسيا عن أوروبا ولكنه فى نفس الوقت أبعد أوروبا عن شئون روسيا وهكذا انعكسالوضع فان النطاق الذى أقيم ضد روسيا أصبح وقاية لها •

أما الدويلات القومية التى كان يتركب منها نطاق الامان فكان لها وظيفةأخرىأكثر أهمية فى نظر فرنسا ذلك أنها أصبحت بديلا طيبا عن اختفاء الحليف الروسى ـ أقل منها انحرافا واستقلالا وأكثر منها احتراما وعونا • وقـــد قال (كليمانسو) لمجلس الاربعة «ان أكبر ضمان لنا ضد العدوان الالمانى هو ذلك الذى يقوم وراء ألمانيا فى وضع استراتيجى ممتاز حيث توحد تشيكوسلوفاكيا وبولندا » وحتى لو كان كليمانسو يعتقد ذلك فلا يدهشنا أن نرى غيره من الفرنسيين يقيمون الأحلاف مع الدول التى تتابعت بعد ذلك وهذه هى المبادىء التى كانت تسود سياسة فرنسا الخارجية • وقليل من هؤلاء رأى تناقض هذه السياسة • فان هذه الدويلات لم تكن الا دويلات تسير فى فلك غيرها وترتبط بها • وهى وان كانت مدفوعة بالحماس القومى الا انها دفعت نحو الاستقلال بتأثير نصر الحلفاء ثم أخذتأتيها العون بعد ذلك من مال فرنسا ومستشاريها العسكريين • وكانت معاهدات التحالف بين فرنسا وبين تلك الدويلات تحمل معنى الحماية كتلك المعاهدات التى كانت بريطانيا تعقدها مع دول الشرق الاوســـط ولكن فرنسا كانت تنظر الى الامور من زاوية أخرى اذ كانت تنظر الى هؤلاء الاحلاف كعون لها لاكعبء عليها فهى وقاية لفرنسا لا التزام عليها • وكانت فرنسا تعلم أن تلك الدويلات فى حاجة الى مالها ولكن روسيا كانت فى نفس الوضع وكانت حاجتها الى المال أكبر ومع ذلك فسوف تكون الحاجة الى المال مؤقتة أما فيما عدا ذلك فان تلك الدويلاتكانت تعنى تقدما كبيرا • فهى ليست كروسيا بحيث تستهويها الاطماع فى ايران والشرق

الاقصى كما انها تختلف عن روسيا من حيث انها لن تكون على وفاق مع ألمانيا • فاذا ما اعتنقت تلك الدويلات مبادىء الديمقراطية والقومية على النمط الفرنسى فانها سوف تصبح أكثراستقرارا فى أيام السلام وأكثر ثباتا فى أيام الحرب ولن يكونوا متأثرين بواجبات تاريخية فسوف يعملون على بلبلة ألمانيا وشطر جيوشها من أجل صـــالح فرنســـا •

لقد كان هذا الرأى مبالغة عجيبة فى قوة التشيك والبولنديين فخطأ فرنسا فى حكمها كان يرجع الى تجارب الحرب القريبة فبالرغم من أناستعمال الفرنسيين للدبابات جاء متأخرا فانهم ظلوا يعتبرون المشاة «سادة المعارك» كما قال بيتان كذلك كانوا يعتبرون حملة البنادق كعامل فاصل فى القتال • وكانت فرنسا ذات الاربعين مليونا من السكان دون المانيا ذات الخمس وسبعين مليونا ولكننا لو أضفنا اليها ثلاثين مليونا من البولنديين فانها ستصبح مساوية لألمانيا أما اذا أضفنا اليها كذلك اثنى عشر مليونا من التشكوسلوفاك فانها سوف ترجح عليها • هذا الى ان الناس ينظرون الى الماضى حين يتطلعون الى المستقبل ولذا وجد الفرنسيون أنفسهم غير قادرين على تصور حرب مقبلة لاتبدأ بهجوم ألمانى عليهم ولذا كانوا دائما يتساءلون « كيف يمكن أن يساعدنا حلفاؤنا فى الشرق » ولكنهم ماكانوا يتســـاءلون مطلقا « كيف يمكننا أن نساعدهم » فان استعداداتهم العسكرية بعد الحرب كانت تزداد من الناحية الدفاعية فالجيش كان معدا لحرب الخنادق وكانت الحدود تغص بالتحصينات وكانت الدبلوماسية الفرنسية والاستراتيجية الفرنسية تسيران على طرفى نقيض • وكان التناقص قائما حتى فى الجهاز الدبلوماسى نفسه فالحلف الانجليزى الفرنسى والاحلاف الشرقية لم تكن يكمل كل منها الآخر وكانت تلغى بعضها • ففرنسا يمكنها أن تقوم بدور هجومى لتساعد بولندا وتشيكوسلوفاكيا ولكن بمساعدة انجلترا • ولكن هذه المســـــاعدة الانجليزية تقدم فقط فى حالة قيام فرنسا بدور دفاعى لحماية نفسها لا لحماية دول بعيدة فى شرق أوربا وهذا الموقف الشائك لم ينجم عن تغير الظروف بعد عام ١٩٣٠ — ولكنه كان قائما منذ اللحظة الاولى دون أن تتمكن أى من الدولتين أن تجد مخرجا منه•

وهذه المصاعب ليس فيها غموض ولكنها كانت أقل وضوحا فى ذلك الوقت • فبالرغم من اختفاء روسيا وانسحاب الولايات المتحدة ظلت انجلترا وفرنسا تشكلان « المجلس الاعلى » وتضعان الخطط لكل أوروبا • كذلك فان المحالفات والحروب المقبلة على السواء تضاءلت أمام المنظمة التى أتت أثر مؤتمر السلام وهى « عصبة الامم » • وحقيقة كانت توجد خلافات عميقة فى وجهة النظر بين انجلترا وفرنسا بشأن نوع عصبةالامم• ففرنسا كانت تريد هذه المنظمة أن تتطور الى نظام للامن موجه ضد ألمانيا أما الانجليز فكانوا ينظرون اليها كنظام لتقارب وجهات النظر يشمل المانيا • وكان الفرنسيون يعتقدون أن الحرب المنتهية كانت نتيجة عدوان ألمانيا أما الانجليز فأخذوا بالتدريج

يقولون بأنها قامت نتيجة لخطأ • ولكن الدولتين لم تصـــلا الى نتيجة لهذا التباين في وجهتي النظر ولكن بدلا من ذلك أخذت كل منهما تتظاهر بأنها تتفق مع الاخرى وان كانت تخفى انها غير مقتنعة • وظلت كل منهما تتحين الفرص للتدليل على خطأ الاخرى واخيرا اقتنعت كل من الدولتين وان كان ذلك دون ثمرة • غير انه من الناحية العملية نجحت وجهة النظر البريطانية • فمن ناحية كان ميثاق العصبة مصوغا فى عبارات عامة اذ كان موجها ضد العدوان لا ضـــد المانيا ولذا كان من الصعب توجيه العصبة ضد المانيا مالم تكن عضوا فيها لها مالغيرها من حقوق ومن ناحية اخرى فان السياسة السلبية تكون دائما أقوى من الايجابية فالامتناع أسهل من العمل • واكثر من أى شيء فان وجهة النظر البريطانية جاءت بصورة حتمية من القرار الصادر فى نوفمبر ١٩١٨ وهو قرار اعلان الهدنة ثم السلام مع الحكومة الالمانية • وبما أنه قد تقرر عدم القضاء على ألمانيا لذا فانها لا بد أن تعود الى مجموعة الامم ان عاجلا أو آجلا• فالحكومتان البريطانية والفرنسية كانتا غارقتين فى المشاكل الداخلية والخارجية لدرجة لم تسمح بانتهاج سياسة واضحة متجانسة ولكن بالقدر الذى يخلق نسقا متجانسا فى السنين التى جاءت فى أعقاب الحرب وأصبحت المسألة عبارة عن مجهودات تبذل للتوفيق بين ألمانيا وبين فشل كل من الحكومتين الفرنسية والبريطانية •

الفصل الثالث

السنوات العشر التى تلت الحرب

كان تاريخ أوروبا فى فترة مابين الحربين حول (المشكلةالالمانية) فاذا سويت هذه فسيسوى كل شىء فاذا ظلت معلقة فلن ترى أوروبا سلاما وكانت كل المشكلات تتضاءل بجانبها وتهون فالخطر البلشفى مثلا ـ والذى لم يكن من الخطورة بالصورة التى تصورها الناس ـ انتهى فجأة عندما انهزمت الجيوش الحمراء وصدت عن وارسو فى أغسطس ١٩٢٠ ومنذ تلك اللحظة لم يعد هناك احتمال خلال العشرين عاما التالية ان الشيوعية سوف تنتصر فىأوروبا فيما وراء الحدود الروسية • كذلك دعاة الاصلاح فى بلاد المجر أثاروا ضجة كبرى فيما بين سنتى ١٩٢٠ ، ١٩٣٠ أكثر مما أثارها دعاة الاصلاح الالمان من الناحية الاقليمية ولكن هذه لم تكن تمثل أى خطر حتى منقيام حرب محلية أو حتى ظلا لفورة كبرى • وايطاليا كذلك كانتتثير ضجة مع يوجوسلافيا حول مشاكل الادرياتيك واخيرا صرحت بانها احدى الدول المهضومة التى لاتملك كغيرها من الدول • وكان كل ما تستطيع ايطاليا عمله انما هو الكلمات التى لم تكن تمثل أى خطر • وكانت المشكلة الالمانية تقف وحدها وكان ذلك أمرا جديدا فمشكلة قوة ألمانيا كانت قائمة قبل ١٩١٤ ولو انها لم تكن تقدر على حقيقتها ولكن كانت هناك مشاكل أخرى الى جانبها كأطماع روسيا فى القسطنطينية واطماع فرنسا فى الالزاس واللورين ثم التوسعيون الايطاليون الذين يطالبون بجميع البلاد التى يتكلم أهلها الايطالية ثم مشكلة السلاف الجنوبيين من النمسا والمجر والمشاكل البلقانية التى لانهاية لها • أما الآن فلاشىء الا مشكلة الوضع فى المانيا •

كذلك كان هناك خلاف آخر ذو معنى خطير • فقبل عام ١٩١٤ كانت العلاقات بين الدول الغربية تحددها مشـاكل خارج القارة كايران ومصر ومـراكش وافريقيا الاستوائية وتركية وآسيا والشرق الاقصى •وكان بعض العقلاء يعتقدون ـ خطأ ـ ان المشاكل الاوروبية فقدت أهميتها • وقد كتب (هـ • ن بريلزفورد) وهو احد الاذكياء واسعى الاطلاع فقال فى أوائل ١٩١٤ : «ان الاخطار التى دفعت باسلافنا الى عقد

احلاف أوروبية أو كانت سببا فى حروب داخل القارة كل هذه الاخطار قد ذهبت الى غير رجعة • لقد أصبح محققا من الناحية السياسية أن الحدود القومية لدولنا الغربية قد خططت تخطيطا نهائيا » ولكن اتضح أن العكس هو الصحيح فلقد انقلبت أوروبا رأسا على عقب وظلت مصدر عناء لرجال السياسة ولكن لم توجد مشكلة واحدة من مشاكل أوروبا الخارجيةالتى كانت تثير المتاعبقبل عام١٩١٤يمكن أن تثير أزمةخطيرة بين الدول فى فترة مابين الحربين • فلم يكن هناك من يظن مثلا أن انجترا وفرنسا سوف تشتبكان فى حرب بخصوص سورية كما فعلتا من قبل بشأن مصر • والاستثناء الوحيد لهذه القاعدةكانت المشكلة الحبشية عام١٩٣٥ ولكن هذه كانتترتبط بالسياسة الاوروبية الممثلة فى عصبة الامم ولم تكن صراعا حول افريقية • وكان هنـاك كذلك استثناءا ظاهراهو الشرق الاقصى فلقد سبب ذلك مشكلات خطيرة فى العلاقات الدولية ولكن انجلترا كانت الدولة الاوروبية الوحيدة التى حملت عبء تلك المشكلة •

ولقد كان هذا أيضا أمرا جديدا فبريطانيا كانت هى الدولة العظمى الوحيدة فى أوروبا وكانت قبل ١٩١٤ كذلك تعتبر دولة عظمى من الدرجةالاولى ولكن روسيا والمانيا وفرنسا كان لها خطرها كذلك فى عصر الاباطرة • أما الآن فقد خرجت روسيا من أوروبا وأصبحت حليفة شعوب المستعمرات الثائرة ضد أوروبا • وفقدت ألمانيا مستعمراتها وتنازلت عن اطماعها الاستعمارية فى ذلك الوقت على الاقل • أما فرنسا فمعانها ظلتدولة استعمارية فانهاكانتمثقلة بالمشاكل الاوروبيةفتركت امبراطوريتها تهبط الى المحل الثانى فى نزاعها مع الآخرين بما فى ذلك بريطانيا طبعـا • وكان الشرق الاقصى يدل على مدى التطور للامور • فقبل عام ١٩١٤ كان هناك توازن للقوى بلغ من التعقيد مابلغه توازن القوى فى أوربا فاليابان كانت تقف فى مواجهة روسيا والمانيا وفرنسا وكذلك بريطانيا وكانت انجلترا تنهج أحيانا سياسة سلمية نحو اليابان وتقف فى وجهها أحيانا • وكان للولايات المتحدة نشاط سياسى فى الشرق الاقصى لبضع سنوات بعد الحرب ولفترة قصيرة • ففى وقت أزمة منشوريا عام ١٩٣١ وقفت انجلترا وحدها فى وجه اليابان فى الشرق الاقصى • ومن السهل علينا أن نعرف لماذا انفردت انجلترا بهذه السياسة من بين دول أوروبا ولماذا كانت ترغب فى الانسحاب من مشاكل أوربا السياسية فى كثير من الاحيان •

كذلك من السهل علينا أن نفهم لماذا كانت المشكلة الالمانية تبدو مشكلة أوروبية خالصة • فالولايات المتحدة واليابان لم يشعرا بخطر يهددهما من دولة لاتملك اسطولا وليس لها اطماع استعمارية ظاهرة فبريطانيا وفرنسا كانتا تعلمان تمام العلم انهما

لا بد أن يجدا حلا للمشكلة الالمانية وحدهما • واعقاب ١٩١٩ كانتا تظنان أن حلها لن يستغرق طويلا فى ظل معاهدة السلام التى سوف تطبق بحذافيرها • ولم تكونا مخطئتين فى ظنهما كل الخطأ فالحدود الالمانية خططت فى عام ١٩٢١ عندما قسمت سيليزيا العليا بينها وبين بولندا بمقتضى استفتاء قيل انه كان مفتعلا بعض الشىء • ونزع السلاح الالمانى سار فى بطء أقل مما رسمته المعاهدة وبشىء من التحايل ولكنه كان يسير فى طريقه ولم يعد الجيش الالمانى يمثل قوة لها خطرها ولم يعد احد يتوقع اشتباكا مسلحا مع ألمانيا لعدة سنوات مقبلة • وقد كثر التهرب من شروط نزع السلاح من وقت لآخر فيما بعد فكان الناس يتحدثون كما لوكانت الفقرات التى جاءت فى المعاهدة عن نزع السلاع لم تنفذ مطلقا أو لم تكن ذات قيمة • وفى الحقيقة أن الهدف الذى كانت ترمى اليه قد تحقق طالما بقيت سارية المفعول • فحتى عام ١٩٣٤ لم يكن فى مقدور ألمانيا أن تفكر فى شن حرب ضد بولندا فما بالك بفرنسا أما الشروط التى وردت فى المعاهدة عن محاكمة مجرمي الحرب فقد أهملت بعد بضع محاولات فاشلة وكان ذلك خضوعا للضجة والمعارضة من جانب ألمانيا أما السبب الاهم فى التخلى عن فكرة المحاكمة فهو الشعور بعدم جدوى محاكمة من هم أخف وزرا بينما يعيش غليوم الثانى آمنا فى هولندا وهو المذنب الاكبر •

وما أن حلت سنة ١٩٢١ حتى كان الكثير منشروط معاهدة السلام قد نفذ • فقد كان من المعقول ان يفترض انها سوف تفقد طابع النزاع فيها بالتدريج اذ لايمكن للناس أن يستمروا فى نزاعهم عاما بعد عام بشأن مشكلة مفروغ منها مهما كان مقدار غضبهم فى أول الامر فالفرنسيون نسوا معركة (وترلو) وحتى أصبحوا على وشك نسيان (الالزاس واللورين)بالرغم مما بذل من محاولات لعدم النسيان • كذلك الالمان ربما كان ينتظر منهم أن ينسوا أو حتى يرضوا بعد حين • فمشكلة قوة ألمانيا سوف تبقى ولكنها لن تزداد خطرا بالتصميم على القضاء على تسوية ١٩١٩ فى أول فرصة سانحة والذىحدث هو العكس • فالمرارة التى كانت تتملك النفوس ضد المعاهدة كانت تزداد عاما بعد عام • فمن ناحية بقيت المعاهدة غير مستقرة وكان النزاع المترتب على ذلك مما جعل بقية المعاهدة موضع تساؤل على الدوام والنتيجة التى لم تتم تسويتها كانت دفع التعويضات وهو مثل صارخ على الخطأ المترتب على حسن القصد — أو على الاصح — على الذكاء الشديد • ففى عام ١٩١٩ اراد الفرنسيون أن يقرروا دون قيد أو شرط المبدأ القائل بأن ألمانيا ملزمة بدفع جميع تعويضات الحرب وهو التزام غير مقيد سوف يتضخم مع كل خطوة تخطوها ألمانيا لاستعادة مركزها الاقتصادى •

وكانت أمريكا أكثر تعقلا حين اقترحت فرض مبلغ ثابت‌قـد امتدح لويد جورج هـذه الفكرة وفي الجو المضطرب الذى كان يسود عام ١٩١٩ كان يرى أن هذا المبلغ سوف يكون أكبر مما تطيقه ألمانيا • فكان يرى أن الناس بمرور الزمن ـ وهو منهم ـ سوف يستعيدون صوابهم فيقدم الحلفاء مطالب معقولة ويعرض الالمان عروضا معقولةوسوف تتقارب الارقام الى حد معقول • ولهذا تقدم من خلف فرنسا التى كانت تطالب بمبالغ غاية فى الضخامة بينما هو يحاول أن يخفف منها ، وقد تخلت امريكا عن المشكلة • فمعاهدة السلام لم تفعل أكثر من أن تقرر مبدأ التعويضات أما مقدارها فيترك أمر تحديده للمستقبل •

وكان لويد جورج يهدف الى تسهيل الوصول الى تسوية مع ألمانيا ولكنه جعل التسوية مستحيلة تقريبا • فاختلاف وجهتي نظر بريطانيا وفرنسا الذى أمكن التغلب عليه فى عام ١٩١٩ عاد الى الظهور من جديد عندما أريد تحديد رقم التعويضات فكان الفرنسيون يحاولون الصعود به بينما يحاول الانجليز الهبوط به • أما الالمان فلم تبد منهم أى رغبة فى التعاون اذ انهم لم يحاولوا تقدير ما يطيقون دفعه بل تعمدوا أن تظل اقتصادياتهم مضطربة فهم يعلمون جيدا أن أحوالهم لو تحسنت فسوف تزدادتبعا لذلك مبالغ التعويضات• وفىعام١٩٢٠عقدتاجتماعات بين الحلفاء كان يسودها الغضب ثم عقدت مؤتمرات مع الالمان وازدادت المؤتمرات فى عام ١٩٢١وازدادت أكثر فى عام ١٩٢٢ • وفى عام ١٩٢٣ أراد الفرنسيون ارغام الالمان على الدفع باحتلال اقليم الروهر وقد أبدى الالمان أول الامر مقاومة سلبية ثم وجدوا الحكمة فى الاستسلام تحت وطأة كارثة التضخم • ولما كان الفرنسيون لايقلون ضعفا عن الالمان فقد وافقوا على تسوية المشكلة بما يرضى الطرفين فكان مشروع (داوز) الذى وضعت مسودته برئاســـة أحد الامريكيين وبايعاز البريطانيين فى أكثر ماورد به • ومع أن تلك التسوية لم ترض أحد من الفرنسيين أو الالمان الا أن التعويضات دفعت بمقتضاه لمدة خمس سنوات • ثم‌عقد مؤتمر آخر وجاءت معه من جديد المشاحنات والاتهامات والمطالبات ثم زيادة فى‌التهرب• جاء بعد ذلك مشروع (يونج) وهو أيضا برئاسة أحد الامريكان • وماكاد هذا المشروع يوضع موضع التنفيذ حتى حلت بأوروبا الازمة الكبرى فقال الالمان انهم أصبحواعاجزين عن الدفع • وفى عام ١٩٣١ جاء مشروع (هوفر) لتأجيل الدفع لمدة اثنى عشر شهرا• وفى عام ١٩٣٢ عقد فى لوزان مؤتمر أخير الغى كل ماسبق ثم عقد اتفاق آخر الامر ولكن بعد أن مضت ثلاث عشرة سنة من التشـــكك والتذمر لدى الجميع وأخيرا قال الفرنسيون انهم قد خدعوا وقال الالمان انهم قد نهبوا وظلت مشكلة التعويضات تحمل فى طياتها خطر الحرب •

لقد كانت التعويضات مشكلة على أي حال وكان التشكك والجدل بشأنها مما جعلها مشكلة مزمنة . ففي ١٩١٩ اعتقد كثير من الناس ان دفع التعويضات سوف يهوى بألمانيا الى حضيض الفقر . وكان (ج . م . كينز) الى جانب هذا الرأى وكذلك جميع الالمان وربما كثير من الفرنسيين وان كانوا غير نادمين على ذلك . وفى خلال الحرب العالمية الثانية قال شاب فرنسي ذكي هو (اتيين مانتو) ان الالمان كان فى امكانهم دفع التعويضات دون أن يصيبهم الفقر لو أرادوا ذلك . وقد برهن هتلر على هذا برهانا عمليا عندما استحوذ من حكومة فيشى على مبالغ طائلة . فالمشكلة لها ناحية أكاديمية اذ أنه مما لاشك فيه ان ادراك (كينز) وادراك الالمان للمشكلة كان مبالغا فيه الى حد كبير . فمن المؤكد أن فقر المانيا ناتج عن الحرب لاعن التعويضات ومن المؤكد انه كان فى امكان الالمان دفع التعويضات لو أنهم نظروا اليها نظرة التزامات يحتم عليهم الشرف والامانة دفعها . والحقيقة التى يعلمها الجميع أن المانيا كانت هي الرابحة من الاعمال المالية التي جاءت بعد عام ١٩٢٠ فألمانيا حصلت على قروض من ممولين أمريكيين أكثر مما دفعت من تعويضات ثم انها لم ترد تلك القروض وكان هذا مما خفف عن دافع الضرائب الالمانى الذى لم يكن نفس الشخص المقترض . ولهذا السبب لم تكن التعويضات ترضى دافعي الضرائب فى بلاد الحلفاء الذين رأوا أن المبالغ المدفوعة تحول الى الولايات المتحدة تسديدا لديون الحرب . فلو وضعنا أحد الامرين فى مواجهة الآخر لكانت النتيجة الاقتصادية الوحيدة لدفع التعويضات هو ايجاد وظائف لعدد من رجال الحسابات . أما التعويضات نفسها فلم تكن لها أهمية بل كانت مجرد شيء رمزى وكانت تولد الحقد والشكوك والعداوات بين الدول . وأهم من كل ذلك انها مهدت الطريق أمام الحرب العالمية الثانية .

لقد أخذ الفرنسيون يجاهدون من أجل الحصول على التعويضات وهم فى وضع يغلب عليه الجمود واليأس . ان مطالبتهم بالتعويضات لاتخلو من الحق فان الجزء الشمالى الشرقى من فرنسا قد خربته الحرب وسواء أكانت أسباب الحرب تقع على هذا الجانب أو ذاك فان المنطق يقضى بأن يساعد الالمان فى اصلاح ماخرب . ولكن الفرنسيون سرعان ماأخذوا يستخدمون الخداع فى مسألة التعويضات كما كان يفعل غيرهم فقد أراد بعض الفرنسيين أن يخربوا ألمانيا خرابا أبديا . وكان البعض يتمنى أن لاتدفع التعويضات حتى تبقى جيوش الاحتلال فى اقليم (الراين) . وكان قد قيل لدافعي الضرائب الفرنسيين أن ألمانيا ستدفع تعويضات عن الحرب ولذا كان حقدهم على الالمان شديدا عندما زادت الضرائب التى يدفعونها . ولكن حدث فى النهاية أن فرنسا هى الاخرى قد خدعت فبالاضافة الى أنهم لم يحصلوا على شيء أخذ الناس يلومونهم من الناحية الادبية على محاولتهم الحصول على تعويضات . وكان يبدو للفرنسيين انهم قاموا بتنازل تلو تنازل فى سبيل ارضاء الالمان ثم تنازلوا أخيرا عن كل حق فى التعويضات . وكذلك

الالمان فانهم خرجوا أكثر تذمرا • فاستنتج الفرنسيون من هذه التجربة أن أى تساهل فى أى ناحية أخرى ـ سواء من جهة نزع السلاح أو الحدود ـ سيكون كذلك عديم الجدوى • واستنتجوا أيضا أن هذا التساهل سوف يتم • وقد كان الفرنسيون فى السنوات التى سبقت الحرب العالمية الثانية لايثقون فى قادتهم ولا فى أنفسهم • وهذا التشكك الذى يحمل على اليأس كان يرجع الى أسباب عديدة معقدة كثيرا ما حاول المؤرخون تحليلها • ولكن أحداث التعويضات كانت هى سببها المباشر • فالفرنسيون قد خسروا خسارة محققة وأظهر قادتهم ضعفا وفشلا ظاهرين من جهة الوفاء بماقطعوه على أنفسهم وقد أساءت التعويضات الى الديمقراطية فى فرنسا كما أساءت اليها فى ألمانيا نفسها •

كذلك كان للتعويضات تأثيرا خطيرا على العلاقات بين فرنسا وانجلترا • ففى الأيام الأخيرة من الحرب كان البريطانيون (شعبا وساسة) يشاطرون فرنسا حماسها فى الحصول على التعويضات وكان أحد كبار الساسة الانجليز لا الفرنسيين هو الذى قال بوجوب عصر البرتقالة الالمانية حتى تتحطم بذورها وكان لويد جورج نفسه كثير الحديث من أجل الحصول على التعويضات ولكن سرعان ما تحول الانجليز اذ أخذوا يسفهون محاولة الحصول على التعويضات بعد أن استولوا على أسطول ألمانيا التجارى وربما كانوا فى ذلك متأثرين بما كتبه (كينز) وكان أكبر دافع عملى لهم فى ذلك هو استعادة الحياة الاقتصادية فى أوربا حتى تنتعش صناعاتهم المعدة للتصدير فكانوا يصغون باهتمام الى ما ينذر به الالمان من النكبات التى ستترتب على دفع التعويضات • ولما كانوا قد هاجموا مسألة التعويضات فانهم سرعان ماأخذوا يهاجمون شروط معاهدة السلام • فالتعويضات كانت شرا ولهذا كان نزع سلاح ألمانيا شرا والحدود القومية الجديدة لبولندا شرا والدويلات القومية الجديدة شرا • لم يكن كل هذا شرا فحسب ولكن الالمان كانوا على حق فى شكواهم منها ولا يمكن لالمانيا أن ترضى أو أن تنهض حتى يزول كل هذا • وقد كانت انجلترا تنقم على طريقة فرنسا فى التفكير وقلقها من عودة الحياة الى ألمانيا وتنقم بوجه خاص على الحاح فرنسا فى وجوب احترام المعاهدات بمجرد التوقيع عليها • فمطالبة فرنسا بالتعويضات كانت هراء خطيرا عظيم الضرر وتبعا لذلك كان ماترجوه لنفسها من أمان هراء خطير عظيم الضرر أيضا ••• أما انجلترا فكان لديها أسباب وجيهة للشكوى • ففى عام ١٩٣١ اضطرت انجلترا لترك مبدأ التعامل على أساس الذهب أما فرنسا التى كانت تقول بأنها خرجت من الحرب محطمة فكانت عملتها ثابتة كما كانت تملك أكبر رصيد من الذهب فى أوربا وكانت تلك بداية سيئة لسنوات الخطر فالخلاف على مسألة التعويضات فى السنوات التى أعقبت الحرب العالمية الاولى جعل من العسير على انجلترا وفرنسا أن تتفقا على مسألة تأمين نفسيهما فى السنوات التى سبقت الحرب العالمية الثانية •

أما أسوأ أثر لمشكلة التعويضات فقد حاق بالالمان أنفسهم وكان أمرا طبيعيا أن تحيق بهم المتاعب على أى حال • فقد خسروا الحرب وفقدوا بعض البلاد وأرغموا على

نزع السلاح والقيت على كواهلهم جريرة الحرب وهى ماكانوا يعتبرون أنفسهم أبرياء منها • غير أن كل هذه الامور كانت ظلامات فكرية يتحدث الناس بشأنها اذا حل المساء ولم تكن سببا فى الآلام التى يقاسى الناس منها فى حياتهم اليومية • أما التعويضات فكانت مصدر ألم لكل ألمانى فى كل لحظة من لحظات حياته أو هكذا كانت تبدو •وليست هناك جدوى الآن من التحدث فيما اذا كانت التعويضات هى التى افقرت ألمانيا •كذلك لم تكن هناك فائدة من مناقشة هذه النقطة فى عام ١٩١٩ • فلم يكن محتملا أن يقبل ألمانى واحد ذلك الرأى الذى قال عنه (نورمان انجيل) فى كتابه (الخدعة الكبرى) ان دفع الفرنسيين لتعويضات الحرب فى عام ١٨٧٠ قد عاد بالفائدة على فرنسا وبالخسارة على ألمانيا • ويقول منطق الانسان ان الشخص يزداد فقرا كلما ازداد مقدار مايدفعه من مال • ويبدو أن ماينطبق على الفرد ينطبق على الامة • فالمانيا كانت تدفع التعويضات وكان ذلك يزيدها فقرا وبمرور الوقت صارت هى السبب الوحيد لفقر ألمانيا • فقد زادت متاعب رجل الاعمال وانخفضت مرتبات المعلمين وازدادت البطالة وكان وزر كل ذلك على عاتق التعويضات • وكانت الشكوى من الجوع الذى يصيب الطفل هى شكوى من التعويضات وكان موت المسنين من الرجال يعزى الى التعويضات كذلك التضخم الخطير الذى حدث فى عام ١٩٢٩ كان يعزى الى التعويضات ولم يكن هذا هو رأى رجل الشارع وحده بل كان أيضا رأى كبار رجال المال وخبراء السياسة • لهذا لم تكن الحملة الموجهة الى (معاهدة الاستعباد) يعوزها عوامل الاثارة من جانب المتطرفين فأصبحت أى همسة عن المتاعب الاقتصادية تثير ثائرة الالمان للتخلص من (قيود فرساى) •

ان مجرد رفض الناس لمعاهدة ما يجعلهم لايتذكرون على وجه الدقة أى فقرات المعاهدة لا تلقى قبولا فيهم • وقد بدأ الالمان بالفكرة التى تقول بأن التعويضات هى سبب خرابهم ثم تدرجوا من ذلك الى القول بأن الذى خربهم هى المعاهدة بصورة عامة• وأخيرا أخذوا يقولون بأن سبب خرابهم يرجع الى الفقرات الواردة بالمعاهدة التى لم تكن لها علاقة بالتعويضات • فنزع سلاح ألمانيا مثلا قد يكون عامل اذلال كما قد يعرض ألمانيا لغزو بولندى أو فرنسى • ولكنه من الناحية الاقتصادية كان مفيدا •

---

(١) « لقد تمكن قادة الجيش الالمانى بمهارة فائقة ــ وان لم تكن فريدة فى نوعها ــ ان يجعلوا نفقات نزع السلاح أكثر بكثير من نفقات التسليح فى الماضى • فقد كان دافع الضرائب الالمانى يتكلف من أجل الجيش الجرار والاسطول فى عام ١٩١٤ أقل مما كان يدفعه للاحتفاظ بجيش صغير لا أسطول له فى عام ١٩١٩ » •

ولكن لم يكن هذا شعور الرجل الالمانى العـادى الذى كان يعتقد انه ما دامت التعويضات قد زادته فقرا كذلك زاد نزع السلاح من فقره • وكان هذا هو نفس الحال فيما يتعلق بفقرات المعاهدة الواردة بشأن المسائل الاقليمية• ومما لا شك فيه انه كانت هناك بعض العيوب فى التسوية • فتخطيط الحدود الشرقية جعل كثير من الالمان فى داخل بولندا وان كان كذلك قد جعل كثيرين من البولنديين داخل الأراضى الالمانية وكان من الممكن تسوية ذلك باعادة التخطيط وبتبادل السكان وهو أمر لم يفكر فيه أحد فى تلك الأيام التى تتصف بالمدنية • ولكن من ينظر الى الامور نظرة لاتحيز فيها ـ ان كان هناك مثل هـذا الشخص ـ سوف لا يجد عيبا فى التسوية الاقليميـة عندما يتقرر مبدأ الدويلات القومية • فان ما كان يسمى بالممر البولندى كان أغلب سكانه من البولنديين وقد عملت ترتيبات كافية من وسائل الاتصال الحديدى مع بروسـيا الشرقية • اما دانزج فانها لو كانت ضمت الى بولندا لكان ذلك خيرا لها من الناحية الاقتصادية • اما المستعمرات الالمانية السابقة ـ وهى من أهم أسباب الشكوى ـ فانها كانت عبئا أكثر منها مصدرا للفائدة •

كل هذه امور لم يقدرها أحد نظرا للرباط الذى يربط بين التعويضات وبين نواحى المعاهدة الأخرى • فالألمانى كان يعتقد انه لا يجد ما يكفى من الطعام والكساء وانه لا يجد العمل لأن دانزج كانت ميناء حرة ولأن الممر البولندى فصل بروسيا الشرقية عن الرايخ أو لأن المانيا لم تعد لهـا مستعمرات • وحتى (شاخت) خبير الشئون المالية كان يعزو سبب الضائقة المالية فى ألمانيا الى فقد المستعمرات وهو رأى ظل متمسكا به ـ عن عقيدة بلا شك ـ حتى بعـد الحرب العالمية الثانية • ولم يكن الالمان انانيون أو أغبياء لتمسكهم بهذه الآراء اذ كان يشاركهم فى وجهة النظر هذه بعض أحرار الانجليز المستنيرين مثل (كينز) وجميع أعضاء حزب الأحرار البريطانى تقريبا وكذلك كل الامريكيون الذين كانوا يشتغلون بالمسائل الأوروبية ومع ذلك فانه من العسير أن نعرف لماذا كان ضياع المستعمرات وبعض الأراضى فى أوروبا سببا فى عجز ألمانيا اقتصاديا • فانه بعد الحرب العالمية الثانية كانت خسائر ألمانيا فى أراضيها أكثر بكثير ومع ذلك ازدهرت أكثر من أى وقت مضى • وهذا دليل كاف على ان متاعب المانيا الاقتصادية فى فترة مابين الحربين كانت ترجع لعيوب فى سياستها الداخلية لا لعدم العدالة فى تخطيط الحدود • ولكن لا جدوى من هذا الدليل اذ أن كل الكتب لاتزال تقول بأن متاعب ألمانيا كانت ناتجة عن معاهدة فرساى • وقد ازدادت تلك الاسطورة ولا زالت تزداد ففى أول الامر كانت متاعب المانيا الاقتصادية تعزى الى المعاهدة ثم لوحظ فيما بعد أن تلك المشاكل ظلت باقية • من هذا كان الرأى بأن شيئا لم يعمل لمصالحة ألمانيا أو لتعديل النظام الذى فرض فى عام ١٩١٩ • فسياسة «التهدئة» قيل انها بدأت أولا فى عام ١٩٣٨ ولكن بعد أن ضاعت الفرصة •

ولكن هذا القول ابعد ما يكون من الصحة اذ أن التعويضات كانت دائما يعاد النظر فيها وتخفض باستمرار بالرغم مما كان يقتضيه ذلك من جهد ووقت كذلك بدأت سياسة التهدئة قبل ذلك بزمن وكان نصيبها النجاح وكان لويد جورج أول من حاول ذلك فبعدالخلاص من مصاعب التعويضات قرر أن يدعو لعقد مؤتمر جديد للصلح يكون أكثر واقعية ويحضره الجميع من الولايات المتحدة وروسيا السوفييتية والمانيا وكذلك الحلفاء ليبدأ من جديد فى خلق عـالم أحسن • وكان يعضـد لويد جورج فى فكرته مسيو بريان الذى كان رئيسا لوزراء فرنسا فى ذلك العهد وكان سياسيا داهية فىحل المشاكل ولكن هذه المشاركة ما لبثت أن انهارت ففى يناير ١٩٢٢ خذله مجلس النواب الفرنسى لسبب ظاهرى هو أخذه درسا فى لعبة الجولف من لويد جورج أما السـبب الحقيقى فكان «اضعاف» معاهدة السلام فلما جاء خلفه (بوانكاريه) لم يهتم بما عرضته عليه بريطانيا من ضمان حدود فرنسا الشرقية فذهب مندوب فرنسا الى المؤتمر الذى عقد فى جنوه فى ابريل ١٩٢٢ ليصر على دفع التعويضات بينما رفض الامريكان حضور المؤتمر •

أما روسيا وألمانيا فقد حضرتا المؤتمر وقد ساورهما الشك ان المقصود هو ضرب الواحدة منهما بالاخرى وكان لهما بعض العذر فى ذلك التشكك فالالمان سوف يطلب منهم المشاركة فى استغلال روسيا أما الروس فكانوا يحرضون على المطالبة بتعويضات من ألمانيا وبدلا من حضور المؤتمر اجتمع ممثلو الدولتين سرا فى (راباللو) واتفقا على أن لاتضرب واحدة منهما الاخرى • وبهذا كانت معاهدة (راباللو) سببا فى تقويض أركان مؤتمر جنوه وكان لها أثرا سيئا فى جميع انحاء العالم • وفى ذلك الوقت كان ينظر الى الشيوعيين كمنبوذين من حظيرة الدولولذا كان الالمان يعتبرون كأنهم ارتكبوا اساءة كبرى بعقد معاهدة معهم ولكن بعد ذلك عندما صار الالمان هم المذنبون اعتبر الروس هم وحدهم المسئولون عن الهفوة الخلقية التى حدثت فى راباللو •

والواقع أن معاهدة راباللو كانت تعتبر أمرا بسيطا ذا طابع سلبى • حقيقة انها حالت دون قيام حلف أوربى يشن حربا جديدة من التداخل فى شئون روسيا كذلك حالت دون احياء التحالف الثلاثى القديم • ولم يكن واحدا من هذين الامرين موضـع بحث عملى بأى حال ولم تتناول المعاهدة سوى سرد الحقائق• كذلك لم تكن هناك فرصة للتعاون الايجابى بين الطرفين الموقعين على المعاهدة • فلم تكن واحدة من الدولتين فى وضع يسمح لها بمهاجمة التسوية السلمية ولم تكن أى من الدولتين تهدف لشىء الا ان تترك وشأنها • لذلك قدم الالمان الى روسيا السوفييتية بعض مساعدات اقتصاديـة معينة ومن الغريب أن الامريكان الذين لم يعترفوا بروسيا السـوفييتية على الاطلاق قدموا لها قدرا أكبر من المساعدات • أما الروس فقد ساعدوا الالمان على التهرب من

التزامات معاهدة فرساى – التى لم يكن الروس طرفا فيها – وذلك بالسماح للالمان بمدارس للغازات ومدارس للطيران فى الاراضى السوفييتية • وكان الجميع يعلم ذلك• ولقد كان القادة الالمان والمحافظين منهم الذين يعملون على تقوية أواصر الصداقة يحتقرون البلشفيك وكان الروس يصادقون الالمان تطبيقا للمبدأ الذى نادى به لينين حين يقول : ضع يدك فى يد الرجل توطئة للقبض على عنقه • وكانت معاهدة (راباللو) نذيرا بأن من السهل على روسيا وألمانيا أن تتفقا بشروط سلبية بينما يدفع الحلفاء ثمنا غاليا لصداقة كل منهما • ولكن هذا كان نذيرا لم يظهر أثره الا بعد وقت طويل نسبيا •

لقد كان مؤتمر جنوه آخر محاولة عملية قام بها لويدجورج ولكن كان من المستحيل عليه أن يحقق نتيجة بارزة بصفته قائدا مستنيرا لحلف يخيم عليه الظلام • وفى خريف ١٩٢٢ ترك الحكم وخلفته حكومة المحافظين برئاسة بونارلو وكان كثير الريبـــة فى الشئون الاوروبية • وقد مهد ذلك الطريق أمام (بوانكاريه) رئيس وزراء فرنسا ليحاول الحصول على التعويضات عن طريق احتلال (الروهر) وكان ذلك هو التصدع الوحيد فى مسألة التهدئة وكان تصدعا محدود الاثر • وأيا كانت الآمال التى تجول فى صدور الفرنسيين عن تصدع ألمانيا فان هدفهم الوحيد من احتلال الروهر كان الحصول على بعض القروض لدفع التعويضات وكان الاحتلال سينتهى بمجرد الحصـول على تلك القروض وكان لذلك الاحتلال نتائج مروعة على الفرنك الفرنسى وربما ظن بوانكاريه فى البداية انه كان فى امكان فرنسا أن تعمل دون الاعتماد على أحد ولكنه فى نهاية ١٩٢٣ اقتنع كما اقتنع (كليمانسو) من قبله ان أشد ماتحتاجه فرنسا انما هو أن تكون على علاقة طيبة بالانجليز والامريكيين وقد اصدر الناخبون الفرنسيون حكمهم على هذه المشكلة فى عام ١٩٢٤ باعادة حلف يسارى معاد لبوانكاريه • اما احتلال الروهر فانه بمرور الزمن قدم أقوى دليل لدعم سياسة التهدئة وانتهى الامر بمفاوضات جديدة مع ألمانيا • كذلك قدم دليلا جديدا قويا بان الطريقة الوحيدة لتطبيق معاهدة فرساى انما يكون بالتعاون مع الحكومة الالمانية وبهذا يتضح أن سياسة المسالمة اجدى من سياسة العداء • ولم يكن أثر هذه السياسة قاصرا على الحاضر بل امتد الى المستقبل • وعندما أخذت المانيا تقصر فى تطبيق شروط المعاهدة بصورة أوسع عاد الناس سيما الفرنسيون يفكرون من جديد فى احتلال الروهر وكانوا يتساءلون عما أمكن أن يجنوه من وراء استخدام القوة • لم يكن أمامهم الا وعود المانية جديدة بالوفاء بالوعود التى يقصرون الآن فى تنفيذها • ان الثمن الذى يدفعونه سوف يعود عليهم بالخراب أما النتيجـة فلا شيء • فالسلامة اذن يمكن تحقيقها باكتساب صداقة الالمان لا بتهديدهم •

ان من الخطأ القول بأن احتلال الروهر لم يكن له أثر على الالمان • فمع انه علم الفرنسيين درسا فى عدم جدوى الارغام الا أنه علم الالمان كذلك درسا فى عدم جدوى المقاومة • لقد انتهى الاحتلال باستسلام المانيا لا باستسلام فرنسا • وجاء سترسمان الى الحكم فى ألمانيا وسياسته المرسومة هى الوفاء بالمعاهدة ولم يكن ذلك يعنى بالطبع ان كان يقبل تفسير الفرنسيين لشروط المعاهدة أو انه يتقبل مطالب فرنسا بل كان معناه انهسوف يدافع عن مصالح ألمانيا عن طريق المفاوضة لا عن طريق المقاومة • ولم يكن سترسمان أقل تصميما من أكثر الوطنيين المتطرفين من أجل التخلص من المعاهدة بجميع التزاماتها من تعويضات ونزع سلاح واحتلال للراين وتخطيط للحدود البولندية ولكنه كان يعتزم أن يقوم بذلك مستعينا بالظروف لابالتهديدات ولا بالحرب طبعا • فبينما يصر غيره من الالمان على أن اعادة النظر فى المعاهدة كان امرا ضروريا من أجل استعادة ألمانيا لقوتها الا أن (سترسمان) كان يعتقد ان استعادة المانيا لقوتها هو الذى سيؤدى الى اعادة النظر فى المعاهدة •

وبعد موت سترسمان ثار الرأى العام فى بلاد الحلفاء ضد سياسته عندما نشرت أوراقه واتضح منها ماكان يرمى اليه من تحطيم التسوية القائمة بمقتضى المعاهدة • ولكن تلكالثورة لم يكن هناك ما يبررها• فلو ان ألمانياأصبحت دولة عظمى لما كانهناك ما يدل على انها تقبل معاهدة فرساى كحل نهائى وقد عمل الحلفاء انفسهم على أن تصبح دولة عظمى بما عملوه فى نهاية الحرب • والسؤال الوحيد أصبح ما اذا كانت التسوية سوف يعاد النظر فيها فتصبح ألمانياأقوى دولة فى أوروبا سواء كان ذلك عن طريق السلام أو الحرب • ولقد كان (سترسمان) يريد أن يحقق ذلك بطريق السلام وكان هذا فى نظره أكثر أمانا وأقرب الى التحقيق كما يحقق سيادة ألمانيا لمدة أطول • وكان (سترسمان) وطنيا مشاكســـا أثناء الحرب وحتى فى ذلك الوقت لم يكن يميل الى المسالمة عن مبدأ خلقى أكثر مما كان يميل بسمارك • ولكنه مثل بسمارك كان يعتقـد أن السلام فى صالح ألمانيا وهذه العقيدة تضعه فى مصاف بسمارك كألمانيعظيم وحتى كحاكم أوروبيعظيم فقدكان واجبه أكثر صعوبة على وجه التحقيق لانواجب بسمارك كان يقتضيه المحافظة على تسوية قائمة ولكن واجب سترسمان كان يقتضيه السعى للحصول على معاهدة جديدة • وكان مقياس نجاحـــه أثناء حياته هو سير أوروبا نحو السلام ونحو تعديل معاهدة فى نفس الوقت •

وكان تحقيق ذلك لايرجع الفضل فيه الى سترسمان وحده فرجال الحلفاء لعبوا دورهم كذلك وكان فى مقدمتهم (رامسى ماكدونالد) الذى تقلد الحـكم فى انجلترا عام ١٩٢٤ وظل يؤثر فى سياسة انجلترا الخارجية طوال الخمس عشرة سنة التاليـة

سواء أكان داخل الحكم أو خارجه ويبدو أن سياســـة ماكدونالد قد اختتمت بكارثة نشوب الحرب العالمية الثانية فى ١٩٣٩ . فاسمه الآن يقابل بالاحتقار كمـا تجاهل الناس حياته ومع ذلك فان (ماكدونالد) يجب أن يعتبر معلما لكل سياسى غربى معاصر يعمل على التعاون مع ألمانيا . فقدواجه (المشكلة الألمانية) أكثرمماواجهها أى سياسى بريطانى آخر وحاول الوصول الى حل لها . فسياسة الضغط لم تكن مجدية كما دل على ذلك احتلال الروهر وكان الاتجاه الآخر الذى يرمى الى عودة روسيا الى حظيرة أوروبا كدولة عظمى قد استبعد من كلا الجانبين بعد سنة ١٩٢٠ سواء كان ذلك خيرا أو شرا وبقيت سياسة المسالمة مع ألمانيا وحدها واذا كان لابد من السير فى سياسة المسالمة هـــذه فلابد أن يكون ذلك بكل اخلاص . ولم يكن (ماكدونالد) يجهل مايثير قلق فرنســا وكان يقابل ذلك بسعة صدر لم تبد من أى حاكم انجليزى قبله أو بعده . فقد أكـد لمسيو (هريو) فى يوليه ١٩٢٤ أن نقض المعاهدة « سوف يؤدى الى انهيار الاسس الدائمة التى يرتكز عليها السلام الذى أمكن تحقيقه بعد جهد كبير » كذلك قد أحيـا بروتوكول جنيف فى عصبة الامم وكان قد مات وبمقتضاه كانت بريطانيا مع بقيـــة أعضاء العصبة تضمن حدود كل دول أوروبا فكان بذلك سخيا مع الفرنسيين لانه كان يعلم أن مخاوفهم لاأساس لها . وحتى فى أغسطس ١٩١٤ كان يعتقد أن ألمانيا دولة خطرة معتدية تهدف الى السيطرة على أوروبا ولكنه بكل تأكيد لم يكن يعتنق هـــذا الرأى فى عام ١٩٢٤ . لهذا فان الوعود التى وردت فى البرتوكول والتى كانت تبدو « سوداء ... وكبيرة على الورق » انما كانت فى الحقيقة « دواء لا ضرر منه لتهدئـــة الاعصاب » فكل مشكلة يمكن أن تحل عن طريق « العمل الشاق والنية الصادقة » وكان أهم شىء هو البدء فى عمل مفاوضات فاذا أمكن اغراء فرنسا بالدخول فى مفاوضات عن طريق الوعد بضمان سلامتها فان فى الامكان تقديم تلك الوعود كما تغرى الطفل بالنزول الى ماء البحر حين نؤكد له أن الماء دافئا فيكتشف عند نزوله فى الماء أنه ليس دافئا ولكنه لايلبث أن يعتاده وهكذا يمكن أن يتعلم العوم . وهكـــذا يكون الحال فى الشئون الدولية فبمجرد أن تبدأ فرنسا فى مصالحة ألمانيا فان الدولتين سوف تجـــد أن الامور أقل ازعاجا مما كان يتصوران . ويجب أن تعمل السياسة البريطانية على حمل فرنسا على أن تتنازل عن أكثر مايمكن وحمل ألمانيا على أن تطلب أقل مايمكن . وكما قال ماكدونالد بعد ذلك بعدة سنوات « لندع الدولتين تتقدمان بمطالبهما بصورة تجعل بريطانيا تقول أنها قدساعدت الطرفين » .

وقد جاء (ماكدونالد) فى اللحظة الحاسمة . فالفرنسيون يعملون على تخليص أنفسهم من مشكلة الروهر بتخفيف مطالبهم فى التعويضات . والالمان على استعداد للتقدم بعروض جدية من الجانب الآخر . فقد كانت التسوية المؤقتة لمشكلة التعويضات طبقا لمشروع (داوز) ثم خفت حدة التوتر بين فرنسا والمانيا كل هذه كانت كلها من

عمل (ماكدونالد) وقد سقطت حكومة العمال فى نوفمبر ١٩٢٤ بعد اجراء انتخابات عامة ولكن بالرغم من أن ماكدونالد لم يعد يدير دفة السياسة الخارجية البريطانية الا أنه ظل يؤثر فيها بطريق غير مباشر ، اذ كانت سياسة المصالحة من وجهة النظر البريطانية تبدو جذابة بحيث لم تكن أى حكومة بريطانية لتتخلى عنها • فان (أوستن تشمبرلين) الخليفة المحافظ لماكدونالد كان اخصائيا فى الولاء ولو ليكفر عن نشاط والدفق الاتجاه الآخر فكان يود أن يجدد عرض تكوين حلف مباشر مع فرنسا • وكان رأى بريطانيا يعارض فى هذا كل المعارضة لا رأى العمال فحسب بل ورأى المحافظين كذلك • لهذا اقترح سترسمان طريقة للخروج من هذا الموقف وذلك بعقد ميثاق سلام بين فرنسا وألمانيا تضمنه بريطانيا وألمانيا فلاقى اقتراحه قبولا من بريطانيا لأن تقديم ضمان ضد « معتد » غير محدد كان معناه الوقوف موقفا لاتحيز فيه وهو ماكان يتمناه (جراى) قبل الحرب والذى أصبح ماكدونالد يدعو له • غير أن أصدقاء فرنسا مثل (أوستن تشمبرلين) كانوا يعزون أنفسهم بالقول أن المعتدى لن يكون سوى ألمانيا وبذلك تكون قد تمت المحالفة بين انجلترا وفرنسا من وراء الستار • كذلك لاقى هذا الاقتراح قبولا من ايطاليا التى كانت تعامل معاملة أحد الاقرباء الفقراء منذ أيام الحرب فأصبح الايطاليون الآن يجدون أنفسهم وقد ارتفعوا الى مستوى بريطانيا ليكونوا حكما بين فرنسا وألمانيا • ولكن الفكرة لم تلق قبولا كبيرا فى فرنسا • فمع أن منطقة الراين كانت ستظل منزوعة السلاح الا أنها لم تعد تفتح أمام فرنسا الباب الذى يمكنها أن تهدد ألمانيا من خلاله طالما كان الامر مرهونا بضمان انجلترا وايطاليا •

غير أن الفرنسيين كذلك قد عثروا على السياسى الذى كانوا فى حاجة اليه فى ذلك الوقت • ففى ١٩٢٥ عاد بريان وزيرا لخارجية فرنسا وكان ندا لسترسمان فى المهارة الدبلوماسية وفى مصاف ماكدونالد فى طموحه المستنير كما كان سيد الجميع فى جمال التعبير • فغيره من الساسة الفرنسيين كانوا يتكلمون فى عنف غير مقصود أما (بريان) فكان لين العريكة وان كان أيضا لينا غير مقصود • وقد برهن احتلال حوض الروهر على عدم جدوى العنف فكان أمام (بريان) فرصة أخرى لتحقيق سلامة فرنسا وسط سحب الكلام • فلقد قضى على زعامة (سترسمان) الادبية عندما اقترح على ألمانيا أن تعد باحترام كل حدودها شرقا وغربا وكان هذا شرطا لايمكن أن تقبله الحكومة الالمانية • وقد قبل معظم الألمان ضياع الالزاس واللورين ولم يعترض على ذلك الا القليل حتى بعد هزيمة فرنسا ١٩٤٠ أما الحدود مع بولندا فكانت موضع شكوى جميع الألمان الذين احتملوه ولكنهم لم يقبلوه • وقد وسع سترسمان من نطاق المصلحة فى أعين الألمان • عندما وافق على عقد معاهدات تحكيم مع بولندا ومع تشيكوسلوفاكيا • ومع ذلك فقد قال أيضا أن ألمانيا كانت تعتزم « اعادة النظر » فى أمر حدودها مع هاتين الدولتين فى أى وقت فى المستقبل وان كان ذلك بطريقة سلمية وهى عبارة جميلة يستعملها رجال الحكم اذا لم يكن قد تم استعدادهم لدخول الحرب ولعل سترسمان كان مخلصا عندما قال ذلك •

هنا ظهرت ثغرة واسعة فى نظام الامان ذلك هو عدم اعتراف سترسمان علنا بالحدود الشرقية ولم تحاول انجلترا أن تسد تلك الثغرة اذ تكلم أوستن تشمبرلين عن الممر البولندى فقال « لا توجد حكومة انجليزية تضحى من أجله بجندى انجليزى واحد» ولكن بريان تقدم بحل آخر فقال أن فرنسا تتمسك بتحالفها القائم من تشيكوسلوفاكيا وبولندا كما اتفق الموقعون على معاهدة (لوكارنو) أن عمل فرنسا فى نطاق تلك الاحلاف لا يمكن أن يعتبر عدوانا على ألمانيا وبذلك ظلت فرنسا من الناحية النظرية حرة فى تقديم المساعدة لحلفائها الشرقيين عبر أراضى الراين المنزوعة السلاح دون أن تتخلى عن صداقة بريطانيا وقد أمكنها بذلك التوفيق بين سياستيها المتناقضتين ولو على الورق فمعاهدة لوركانو تكفل محالفتها مع بريطانيا فى الغرب مع احتفاظها فى الشرق بتحالفها مع الدويلتين الشرقيتين ٠

هكذا كانت معاهدة لوركانو الموقعة فى أول ديســـمبر ١٩٢٥ وقد كانت نقطة التحول فى فترة ما بين الحربين فالتوقيع عليها اعتبر نهاية للحرب العالمية الاولى وكان التنكر لها بعد ذلك باحدى عشرة سنة نذيرا بالحرب العالمية الثانية ٠ فاذا كان الغرض من الوصول الى اتفاق دولى هو ارضاء الجميع فان معاهدة لوركانو تعتبر ناجحة الى أقصى حد فقد أرضت الدولتين الضامنتين وأمكن مصالحة ألمانيا وفرنسا فعاد السلام الى أوروبا دون تحمل أى أعباء أكثر من بعض الالتزامات الادبية التى لم تكن الا مجرد كلمات فلم تقم أى واحدة من الدولتين البريطانية والايطالية بأى استعداد لتنفيذ ماتعهدوا به من ضمانات ٠ وكيف يمكن أن يتم ذلك بينما يظل « المعتدى » غير معروف حتى اللحظـة الحاسمة ؟ أما النتيجة العملية للمعاهدة ـ التى لم تكن متوقعة ـ فهى الحيلولة دون أى تعاون عسكرى بين بريطانيا وفرنسا طالما بقيت المعاهدة نافذة المفعول ٠ ومع هـــذا فقد أرضت المعاهدة فرنسا كذلك اذ اعترفت ألمانيا بضياع الالزاس واللورين ووافقت على بقاء منطقة الراين منزوعة السلاح وضـــمنت بريطانيا وايطاليا ماقدمته ألمانيا من وعود ٠ ومثل هذا العمل يعتبر كسبا كبيرا فى نظر أى سياسى فرنسى فى عام ١٩١٤ ٠ وفى نفس الوقت ظلت فرنسا مطلقة اليد فى استخدام محالفاتها فى الشرق وفى القيام بدور كبير فى أوروبا لو أنها أرادت ذلك ٠ وكان الالمان راضين عن المعاهدة كذلك ٠ فقد حمتهم من احتلال جديد لاقليم الروهر وعاملتهم معاملة الند لا معاملة خصم مهزوم ثم انها تركت الباب مفتوحا أمامهم لتعديل حدودهم الشرقية فأى ســـياسى ألمانى فى عام ١٩١٩ أو حتى فى عام ١٩٢٣ ماكان ليرى فى تلك المعاهدة أى سبب للشكوى ٠ وبذلك صارت معاهدة (لوكارنو) أكبر نصر فى سياسة « التهدئة » فقال عنها لورد (بلفور) بحق « انها رمز وسبب لكل تحسن فى الشعور العام بأوروبا » ٠

لقد أعطت معاهدة لوركانو أوروبا فترة من السلام والامل فدخلت ألمانيا عصبة الامم ولو أن ذلك تأخر قليلا وصار سترسمان وتشمبرلين وبريان يظهرون بانتظـام فى مجلس العصبة وبدت جنيف وكأنها مركز أحياء أوروبا من جديد فاتفقت وجهات النظر وأصبحت الشئون الدولية يبت فيها بالنقاش بدلا من فرقعة السلاح ولم يكن أحد فى ذلك الحين يأسف على عدم وجود روسيا والولايات المتحدة اذ كانت الامور تجرى رخاء بدونهما ٠

ومن ناحية أخرى لم يكن أحد يريد أن يحول أوروبا فى جنيف الى كتلة مناهضة لأمريكا أو مناهضة للسوفييت • ولم تكن أوروبا لترضى بأن تعمل بعيدا عن الولايات المتحدة اذ كانت الدول الاوروبية تعمل جاهدة على اقتراض نقود أمريكا • كذلك كان القليلون من المتطرفين يتكلمون عن حملة أوروبية عامة ضد الشيوعية ولكن لم يترتب شيء على تلك الدعوة فلم تكن أوروبا راغبة فى شن حملة ضد أى أحد كذلك كان الالمان يريدون الابقاء على صداقتهم مع روسيا كورقة احتياطية أخيرة فى أيديهم وكنوع من الضمان قد يستخدم يوما ما ضد حلفاء فرنسا الشرقيين • وبعد التوقيع على معاهدة لوكارنو مباشرة جدد سترسمان مع الروس المعاهدة التى عملت فى (رابالو) عام ١٩٢٢ ولما انضمت ألمانيا الى عصبة الامم أعلن سترسمان انها وهى منزوعة السلاح لايمكن أن تساهم فى فرض عقوبات وهى حجة مقنعة لالتزام الحياد فى مواجهة روسيا •

لقد كان وجود ايطاليا فى نظام لوكارنو ـ جنيف يعتبر عيبا أخطر بكثير من عدم وجود الولايات المتحدة وروسيا السوفييتية • لقد جيء بايطاليا الى منظمة لوكارنو لسبب واحد وهو تعزيز ما تظهر به بريطانيا من مظهر عدم التحيز • ولم يكن أحد يدرى فى ذلك الوقت أن ايطاليا سوف تلعب دورا فى حفظ التوازن بين ألمانيا وفرنسا • ولم يكن هذا بالامر الخطير طالما كانت لوكارنو وجنيف ترتكزان على النوايا الخالصة لا على القوة • أما فيما بعد لما ساءت الامور ساعدت ذكريات لوكارنو على زيادة الوهم بأن ايطاليا قادرة على أن تتحكم فى التوازن بين الدول وقد كان الزعماء الايطاليون أنفسهم أول من ذهب ضحية هذا الوهم • ففى أيام لوكارنو كانت ايطاليا تقاسى من نقص أخطر من ضعف قوتها اذ كان ينقصها الوضع الادبى فقط كانت دول لوكارنو تقول بأنها تمثل المبادىء التى من أجلها قامت الحرب وكانت عصبة الامم تعتبر نفسها مجموعة من الشعوب الحرة • ولا شك أن بعض تلك المزاعم كان لا يتمشى مع الحقيقة • فما من أمة بلغت من الحرية وسمو المبادىء الدرجة التى تحاول الظهور بها ولكن كان هناك بعض الحق كذلك فى تلك المزاعم فى انجلترا فى عهد بلدوين وماكدونالد وجمهورية فيمار فى ألمانيا والجمهورية الثالثة فى فرنسا كل هذه كانت ديمقراطيات حقه تتمتع بحرية القول وسيادة القانون وحسن القصد تجاه الغير وكان فى امكان تلك الدول وهى مجتمعة فى عصبة الامم أن تقول انها معقد آمال البشرية وان نظمها السياسية والاجتماعية كانت تفوق أنظمة روسيا السوفييتية على وجه العموم •

كل هذه أصبحت دعاوى جوفاء عندما تذكر ايطاليا تحت حكم موسولينى • فالفاشستيه لم تكن لها القوة الدافعة ناهيك بالقوة المادية التى للاشتراكية الوطنية • أما من الناحية الاخلاقية فكانت لاتقل فسادا أو تزيد من ناحية انعدام الامانة فكل شيء عن الفاشية كان خداعا فالخطر الاجتماعى الذى انقذت منه ايطاليا كان خدعة والثورة التى أتت بالفاشية الى الحكم كانت خدعة كذلك كانت مقدرة موسولينى وسياسته خدعة فالحكم الفاشستى كان فاسدا قاصرا أجوف وكان موسولينى نفسه مغرورا كثير الحديث عن نفسه دون أن تكون له أفكار أو أهداف وكانت ايطاليا الفاشية تعيش فى

غيبة من القانون وتعارضت السياسة الفاشية الخارجية من أول الامر من مبادىء جنيف • ومع ذلك أرسل (رامسى ماكدونالد) الخطابات الودية الى موسولينى فى نفس الوقت الذى حدث فيه مصرع (ماتيوتى) وتبادل أوستن تشمبرلين وموسولينى الصور الفوتوغرافية وأشاد ونستون تشرشل بموسولينى بصفته منقذا لبلاده وسياسيا أوروبيا عظيما • فكيف يمكن لانسان أن يثق فى اخلاص زعماء الغرب عندما كانوا يمتدحون موسولينى بهذه الطريقة ويعترفون به كواحد منهم ؟ فلاغرابة اذن أن تنظر روسيا الشيوعية الى عصبة الامم وجميع أعمالها نظرتها الى مؤامرة رأسمالية ولو أنه ليس من المستغرب كذلك أن نرى روسيا السوفييتية وايطاليا تقيمان فيما بينهما علاقات دولية ودية • والواقع اننا نجد دائما بعض الثغرات بين الناحيتين النظرية والعملية فاذا اتسعت الهوة بين الحاكمين والمحكومين أصبح ذلك نذيرا بالكوارث • فلقد كان وجود ايطاليا الفاشية فى جنيف ووجود موسولينى فى لوكارنو يعتبردليلا فذا على الوهم فى أوروبا الديمقراطية تحت عصبة الأمم • فلم يعد الساسة يثقون فيما يقولون وصارت الشعوب على نهج سياستهم •

ومع أن سترسمان وبريان كانا مخلصين بالرغم من اختلاف سياستهما الا أنهما لم يسوقا شعبيهما أمامهما وكان كل منهما يدافع عن لوكارنو فى بلده بحجج متناقضة كانت نهايتها أن تزيل الغشاوة عن العيون • فقال بريان للفرنسين أن لوكارنو كانت تسوية نهائية تقف فى طريق أى تساهل جديد • وكان سترسمان يؤكد للالمان أن الغرض من لوكارنو هو الحصول على تساهل جديد بسرعة أكبر • وكان بريان ببلاغته يأمل فى أن يغمر الالمان فى بحر من العبارات المعسولة تجعلهم ينسون ظلاماتهم وكان سترسمان بصبره يعتقد أن عادة التساهل سوف تنمو فى الفرنسيين بالمران ولكن آمال الرجلين لم تتحقق وكان كل منهما يشرف على الفشل عندما حانت وفاته • فقد امكن الحصول على تساهل جديد ولكن كان ذلك دائما بسوء قصد فانسحبت لجنة الرقابة على نزع سلاح ألمانيا فى ١٩٢٧ وأعيد النظر فى التعويضات لتخفيضهابمقتضى مشروع (يونج) فى ١٩٢٩ ولم تنفذ فكرة فرض الرقابة الخارجية على شئون ألمانيا المالية ثم انسحبت القوات التى كانت تحتل منطقة الراين قبل الميعاد المحدد لذلك بخمس سنوات ولم تتحقق سياسة التهدئة بل على العكس كان حقد الالمان فى نهاية الامر أكثر منه فى بدايته ففى عام ١٩٢٤ كان الوطنيون الالمان يتقلدون الحكم فساعدوا على تنفيذ مشروع (داوز) ولكن فى عام ١٩٢٩ نفذ مشروع يونج فى وجه معارضة شديدة من الوطنيين أما سترسمان الذى أعاد ألمانيا الى حظيرة الدول العظمى فقدقوبلت أعماله بالاساءة حتى مات •

لقد كان حقد الالمان يعتبر من بعض الوجوه مسـألة حسـابية • فخير طريقة للحصول على تساهل جديد هو أن تعتبر مكاسبك غير كافية • فالقضية الالمانية كانت تقابل بالعطف فعوملوا فى لوكارنو معاملة الند يشتركون فى مفاوضات حرة فماذا يبرر بعد ذلك الابقاء على مسألة التعويضات أو مسألة نزع السلاح من جانب الالمان وحدهم ؟ لم يكن الفرنسيون يجدون جوابا معقولا لهذا السؤال ومع ذلك كانوا يعلمون أنهم لو قبلوه فلا بد أن يأتى فى أعقابه سيطرة الالمان على أوروبا وقد كان معظم الذين عاصروا ذلك العهد يوجهون اللوم للفرنسيين • فالانجليز بوجه خاص كان يزداد تأييدهم لماكدونالد فيما كان يراه من أن سياسة التهدئة اذا ما بدأت فلا بد من السير فيها سريعا وبكل اخـلاص • وبعـد ذلك وكان النـاس يلومون الألمـان لرفضـهم الاعتراف بهزيمة ١٩١٨ كأمر لامناص منه • وليس هناك جدوى من القول بأن التساهل الكثير أو القليل كان سيغير مجرى الامور فالصراع بين فرنسا والمانيا كان لابد أن يستمر طالما ظل الاعتقاد سائدا بأن أوروبا هى مركز العالم ففرنسا تسعى للابقاء على الوسائل المفتعلة لتأمين سلامتها التى وضعت فى ١٩١٩ والمانيا تجاهد لاعادة الامور الى أوضاعها الطبيعية والدول المنافسة يمكن أن تثير الرعب فى نفوسها لتنضم الى صفوفنا وذلك بالتلويح بخطر أكبر أما روسيا السوفييتية والولايات المتحدة فلم تبد هذه الناحية فى سياستهما تجاه أوروبا كما بدت أيام بريان وسترسمان •

ولا نقصد بهذا أن نقول أن خطر الحرب كان يخيم فوق أوروبا فى ١٩٢٩ فحتى زعماء روسيا السوفييتية لم يعودوا يبثون فى روع العالم خطر وقوع حرب رأسمالية جديدة للتدخل • فقد ولوا ظهورهم نحو العـالم الخارجى بتصـميم لم يعرف من قبل وصاروا يفسرون عبارة «الاشتراكية فى بلد واحد» بعبارة مشروع السـنوات الخمس أما الحرب الوحيدة التى كان رسل الحرب يتنبأون بها فكانت خرافة احتمال وقوع حرب بين انجلترا والولايات المتحدة • والواقع ان الدولتين كانتا قد اتفقتا فى ١٩٢١ على ان تتساوى قوة سـفنهما الحربية واستؤنف هذا الموضـوع فى مؤتمر لندن البحرى عام ١٩٣٠ وكان لايزال هناك قلق فى ألمانيا من جـانب الوطنيين ولكن أغـلب الناس استنتجوا من هذا ان اجراءات المصالحة كانت ستسير فى بطء أكثر من اللازم ولكن الوطنيين كانوا على أى حال يعتبرون أقلية فى ألمانيا أما الاغلبية وان كانت غير راضية عن معاهدة فرساى فكانت لاتزال تتفق مع سترسمان فى وجهة نظره التى تقول بان أثرها سوف يزول بالوسائل السلمية • وكان هندنبرج الذى تولى رئاسة الجمهورية منذ ١٩٢٥ يعتبر رمزا لهذه السياسة كفيلد مارشال ووطنى ولكنه فى نفس الوقت رئيسا لجمهورية ديمقراطية يعمل مخلصا فى تطبيق سياسة لوكارنو الخارجية ويرأس جيشا محدود العدد حكمت عليه معاهدة السلام بالضعف • وكانت أحب صيحة عند الالمان هى «لاحرب بعد الآن» ولم تكن «تسقط معاهدة الاستعباد» وقد هزم الوطنيون هزيمة

ساحقة عندما نظموا استفتاء ضد مشروع (يونج) • وفى ١٩٢٩ نشر فى ألمانيا أشهر كتاب كتب لمناهضة الحرب وهو كتاب « كل شيء هادىء فى الميدان الغربى » وملأت الكتب المشابهة لهذا الكتاب جميع المكاتب فى انجلترا وفرنسا • وكان يبدو أن تعديل المعاهدة سوف يتم بالتدريج دون أن يدرى أحد وان تنظيما أوروبيا جديدا سوف يخرج الى الوجود دون أن يعرف احد اللحظة التى يتم فيها ذلك •

وكان مصدر الخطر الوحيد يبدو أنه سينجم عن عدوان جديد من العسكرية الفرنسية اذ كانت فرنسا هى الدولة الوحيدة التى تملك جيشا عظيما وتعتبر الدولة العظمى الوحيدة فى القارة الاوروبية على خلاف مايقوله الايطاليون • ولكن هذه المخاوف لم يكن لها أساس فقد كانت هناك أسباب أقوى من بلاغه بريان تحملنا على القول بأن فرنسا قدرضيت بالفشل • أمامن الناحية النظرية فان فرنسا مازالت تحتفظ بالباب مفتوحا للعمل ضد ألمانيا • فمنطقة الراين كانت لاتزال منزوعة السلاح وكانت المحالفات مع تشيكوسلوفاكيا وبولندا لاتزال معمولا بها • والواقع أن فرنسا كانت قد اتخذت القرار الحاسم الذى جعل العمل ضد ألمانيا أمرا مستحيلا • فألمانيا كانت أقوى بكثير من الناحية العددية والموارد الصناعية وبذلك كان الامل الوحيد أمام فرنسا هو أن تضرب ضربتها القاضية قبل أن تبدأ ألمانيا فى تعبئة قواتها ولهذا كانت فرنسا تحتاج الى « جيش عامل مستقل سريع الحركة على استعداد دائم للتوغل فى الاراضى الالمانية » ولم تكن فرنسا تملك مثل هذا الجيش فجيشها الذى انتصر فى ١٩١٨ كان مدربا على حرب الخنادق وحدها ولم يكن أمامه متسع من الوقت ليغير من نظمه فى تلك الفترة القصيرة من التقدم السريع • كذلك لم تدخل أى تحسينات على الجيش بعد ١٩١٨ • فالجيش الفرنسى واجه كثيرا من المشاق فى أن يستمر فى احتلال الروهر حتى مع عدم وجود جيش ألمانى يقف فى وجهه كذلك كانت السياسة الداخلية تسير فى نفس الطريق فكانت المطالبة لا تنقطع بقصر الخدمة العسكرية على سنة واحدة وقد تقرر ذلك فى عام ١٩٢٨ ومنذ ذلك الوقت صارت الجيوش الفرنسية تكاد تكفى للدفاع عن حدود فرنسا حتى فى حالة التعبئة العامة • وكانت معدات الجنود وتدريباتهم سيئة للغاية • وصار خط ماجينو يهيىء لفرنسا على حدودها الغربية أقوى الوسائل الدفاعية التى لم تعرف من قبل • وكانت الصلة مقطوعة تماما بين السياسة الفرنسية والاستراتيجية فالسياسيون الفرنسيون يواصلون التحدث فى العمل ضد الالمان ولم تكن لديهم وسائل التنفيذ • ولقد قال لينين فى عام ١٩١٧ ان الجنود الروس قد عبروا عن رأيهم فى السلام بوقع أقدامهم وهم يولون الادبار • كذلك فعل الفرنسيون وهم لايعلمون حين عبروا عن رأيهم ضد معاهدة فرساى بما أعدوه من استعدادات حربية • فقد فقدوا ثمرة النصر قبل أن يبدأ النزاع على هذه الثمرة •

الفصل الرابع

نهاية فرســاى

فى عام ١٩٢٩ كان نظام الامن ضد ألمانيا والذى فرضته معاهـــدة فرســـــاى لايزال كاملا فألمانيا كانت منزوعة السلاح وكذلك منطقةالراين وكان المنتصرون يظهرون بمظهر المتحدين ثم جاءت عصبة الامم فدعمت ذلك النظام ٠ ولم تنقض سبع ســنوات حتى ذهب كل ذلك دون أن تضرب ضربة واحدة ٠ فالاستقرار الدولى قد تزعزع أولا بانهيار الاستقلال الاقتصادى الذى حدث فى الازمة العالميـــة الكبرى التى بدأت فى اكتوبر ١٩٢٩ ٠ أما الازمة فلم تكن لها علاقة بالحرب السابقة ولو أن الناس لم يكونوا يعرفون هذا فى ذلك الوقت ٠ كذلك لم يكن لها علاقة بما بقى من التزامات معاهدة السلام ٠ وقد بدأت الازمة بانهيار فى عمليات المضاربة التجارية فى الولايات المتحـدة ثم انتشرت البطالة فى أعقاب ذلك بعجز القوة الشرائية عن ملاحقة زيادة الانتاج وهذه حقائق يعرفها الناس الآن كما يعرفون أن طريقة الخلاص منها هى بزيادة المصروفات الحكومية أما فى١٩٢٩ فلم يكن أحد يعرف ذلك ولم يكن للقلائل الذين يعرفونه أى تأثير فى السياسة ٠ وكان الاعتقاد السائد هو أن محاربة التضخم هو العلاج الوحيد فلا بـد من وجود عملة سليمة وميزانيات متزنة وتخفيض فى النفقات الحكومية وتخفيض فى الاجور ٠ وكان من المعتقد فى تلك الحالة أن تنخفض الاسعار بشكل يمكن الناس من الشراء من جديد ٠

ولكن تلك السياسة سببت المتاعب والتذمر فى جميع الاقطار التى طبقت فيها ولم يكن هناك داع أن يترتب على ذلك توتر فى العلاقات الدولية ٠ ففى أغلب البلاد أدت الازمة الى اعراض الناس عن الشـئون الدولية ٠ ففى بريطانيا خفض (نيفل تشمبرلين) اعتمادات الحرب الى أدنى حد وصلت اليه فى فترة مابين الحربين وكان فى ذلك الوقت وزيرا للمالية فى الحكومة الوطنية فى ١٩٣٢ ٠ وتزعزعت ثقة الفرنسيين المالية أكبر من أى وقت مضى ٠ أما السياسة الامريكية فى عهد روزفلت فأصبحت فى عام ١٩٣٣ أكثر تمسكا بالعزلة عماكانت أيام سلفه الجمهورى ٠

أما ألمانيا فكانت لها حالة خاصة فلقد سبق أن ذاقت مرارة التضخم فى ١٩٢٣ أما الآن فقد سار الالمان فى اتجاه عكسى وكان معظم الالمان يعتبرون هذا أمرا لا مفر منه ولكن النتائج كانت سيئة فكل انسان يستحسن الاجراءات التى تطبق على الآخرين لكنه ينقم عليها اذا طبقت عليه ٠ وقد فشل الرايخستاخ فى الحصول على أغلبية لتأليف حكومة تعمل على محاربة التضخـــم ولو أن مثل تلك الحكومة هى التى كانت البلاد فى

حاجة اليها وكانت نتيجة ذلك التضخم أن حكم (برونتج) ألمانيا لمدة سنتين بدون أغلبية ففرض سياسة محاربة التضخم بمرسوم جمهورى • ولما كان رجلا حصيفامخلصا فانه لم يعمل على اكتساب الناس الى جانبه بتخفيف حدة محاربة التضخم وكانت حكومته تسعي لاكتساب الناس عن طريق النجاح فى السياسة الخارجية فحاول (كريتس) وزير خارجيته انشاء وحدة اقتصادية مع استراليتا فى عام ١٩٣١ وهو مشروع ليس من ورائه فائدة اقتصادية • كذلك شرع (تريفيرانوس) وهو وزيرآخر فى وزارته أن يثير مسألة الحدود الشرقية مع بولندا • وفى ١٩٣٢ أخذ (بابن) خليفة (برونتج) يطالب بالمساواة فى التسليح لصالح ألمانيا • كل هذه الامور لم يكن لها شأن بالازمة الاقتصادية ولكن هذا لم يكن يدركه الالمانى العادى فقد ظل يسمع طوال السنين أن متاعبه انما ترجع الى معاهدة فرساى فلما حلت به المتاعب أخذ يصدق مايقال له كذلك ساعدت الازمة على التخلص من الرأى القائل بعدم القيام بعمل ماومعنى ذلك هو التقدم • فالاغنياء من الناس ينسون شكاياتهم لان الصعاب لاتترك لهم شيئا آخر يفكرون فيه •

ولقد كانت هناك أسباب أخرى زادت من المتاعب الدولية • ففى ١٩٣١ واجهت عصبة الامم أول مشكلة خطيرة اعترضتها عندما احتلت القوات اليابانية منشوريا فى١٩ سبتمبر وكان المفروض انها جزء من الصين فالتجأت الصين الى العصبة كى تنصفها ولم تكن المشكلة هينة فموقف اليابان كان سليما لان السلطات التابعة لحكومة الصين المركزية لم تكن لها أى قوة فلم تعمل على سير الامور فى منشوريا التى حلت بها الفوضى عدة سنوات مما ترتب عليه خسائر للمصالح التجارية اليابانية ولقد كانت هناك سوابق كثيرة للقيام بعمل فردى فى بلاد الصين وكان آخرها نزول القوات البريطانية فى شنجهاى فى عام ١٩٢٦ هذا بالاضافة الى أن عصبة الامم لم تكن لديها أى وسيلة للقيام بعمل ما • ولم تكن هناك دولة فى تلك الازمة الاقتصادية الطاحنة ترحب بفكرة قطع البقية الباقية من العلاقات التجارية الدولية مع اليابان وكانت انجلترا هى الدولة الكبرى الوحيدة التى نالها بعض الخطر فى الشرق الاقصى ولكن الاقدام على عمل ما كان آخر شىء تفكر فيه انجلترا فى الوقت الذى اضطرت فيه أن تتخلى عن قاعدة الذهب وتواجه معركة الانتخابات العامة • هذا الى أن انجلترا لم تكن تملك وسيلة للعمل • فمعاهدة واشنطن البحرية كانت تخول اليابان حق السيادة المحلية فى الشرق الاقصى وأقرت هذه السيادة الحكومات البريطانية المتتالية عندما أجلت مسألة بناء القاعدة البريطانية فى سنغافورة • فماذا اذن كان يعود على عصبة الامم بادانة اليابان ؟ لم يكن هناك سوى اجراءات أدبية لو كان لها أى أثر لما ترتب عليها سوى وقوف اليابان فى وجه المصالح التجارية البريطانية • ولم يكن هناك غير رأى واحد فى جانب هذه الادانة • فان الولايات المتحدة ولو انها ليست عضوا فى عصبة الامم كانت تعتبر من دول الشرق الأقصى الكبرى فاقترحت « عدم الاعتراف » بأى تغييرات اقليمية تتم بطريق القوة وكان فى هذا بعض العزاء لمبادىء جنيف ولكن لما لم تعتزم الولايات المتحدة الانقاص من تجارتها مع اليابان فان الاجراء كان أقل ترضية للصين ولوجهة النظر العملية فى بريطانيا •

وسواء أكان ذلك خطأ أم صوابا فان انجلترا كانت تعلق أهمية كبرى على اعادة السـلام أكثر مما نعلق على مظاهر الاستقامة المعنوية • ولم يكن هذا الرأى قاصرا على المتشككين المتزمتين فى وزارة الخارجيـة أو على الرجعيين السياسيين وعلى رأسـهم ماكدونالد الذين كانت تتألف منهم الحكومة القومية بل كان يشاركهم فى هذا الرأى حزب العمال الذى كان فى ذلك الوقت لايهاجم العدوان بل يمقت الحرب • ولو كان من المستطاع أن تقوم بريطانيا بعمل ضد اليابان فى عام ١٩٣٢ فلقى ذلك العمل معارضة اجماعية من اليساريين باعتباره طريقة غير سديدة للدفاع عن مصالح الامبراطورية وان ماكان يريده حزب العمال ـ وكان فى هذا يعبر عن الشعور العام فى بريطانيـا ـ هو أن بريطانيا يجب أن لاتستفيد من قيام حرب فاقترح العمال حظر تصدير الاسلحة للطرفين على السواء الصين واليابان • وقد وافقت الحكومة القومية على ذلك الاقتراح • أما الحكومة فقد ذهبت الى أبعد من ذلك فالانجليز كانوا دائما يعتبرون العصبة كأداة لتقريب وجهات النظر لا أداة لحفظ الامن فأخـذوا يعملون على أن تمارس الحالة الاولى فشكلت العصبة (لجنة ليتون) طبقا لرأى اليابان حتى تكشـف عن حقيقة الواقع فى منشوريا ولتعرض حلا لها فوجدت اللجنة أن أغلب ماكانت تشكو منه اليابان كان حقا فلم تدن اليابان كدولة معتدية ولكنها أدانتها بخطأ الالتجاء الى القوة قبل أن تستنفد جميع الطرق الاصلاحية السلمية • وقد انسحب اليابانيون من عصبة الامم احتجاجا على هذا القرار ولكن الواقع هو أن السياسة البريطانية قد نجحت اذ أخذ الصينيون يتقبلون ضياع مقاطعة عجزوا عن السيطرة عليها عدة سنوات• وفى ١٩٣٣ عاد السلام بين الصين واليابان ولكن بعد ذلك بسنوات أخذت المسألة المنشورية تتخذ طابعـا اسطوريا • فقد اعتبرت خطوة فى طريق الحرب وأول خيانة لمبادىء العصبة خصوصا من جانب انجلترا • والواقع أن عصبة الأمم تحت قيادة بريطانيا قد قامت بما كان الانجليز يروا انها جاءت من أجله فقد حصرت نزاعا وأنهته ولو بصورة غير مرضية • وبالاضافة الى ذلك فان المشكلة المنشورية لم تقلل من القوة الظاهرية للعصبة بل انها فى الحقيقة أبرزتها الى الوجود • وقد كانت تلك المشكلة سببها فى أن العصبة ـ بتوجيه بريطانيا ـ قد أقامت من نفسـها أداة لم يكن لها وجود من قبل لتنظيم العقوبات الاقتصادية • ولسوء حظ الجميع أن تلك الاداة مكنت العصبة من الاقدام على عمل فى المسألة الحبشية عام ١٩٣٥ •

والمسألة المنشورية كانت لها أهمية معاصرة لها وان لم تكن تلك التى عزيت اليها فيما بعد فلقد حولت الانظار عن أوروبا فى الوقت الذى بلغت فيه مشاكلها حدا عنيفا وجعلت الحكومة البريطانية بصفة خاصة تشعر بالقلق من ناحية المشاكل الاوروبية وقد قوى ذلك بما لايحتمل النقاش ماتقوله بريطانيا من تفضيل سياسة الامان فتقرر بذلك نوع المناقشات التى واجهت مؤتمر نزع السلاح فى أوائل عام ١٩٣٢ وكان ميعاد ذلك

الاجتماع غير مناسب بشكل عجيب فالدول العظمى قد القى على عاتقها مثل هذا العمل منذ عام ١٩١٩ عندما فرضت معاهدة الصلح مسألة نزع السلاح على ألمانيا كخطوة أولى فى طريق « الحد من تسلح جميع الامم » وكان هـــذا أبعد من أن يحقق تخفيض الدول المنتصرة تسليحها الى مستوى ألمانيا • وكانت الدول تحاول باستمرار أن تتخلص من ذلك بعد ١٩٢٠ فاستغل الالمان هذا التخلص اذ كانوا يصرون باستمرار بأن المنتصرين اما أن يفوا بوعدهم واما أن يعفوا ألمانيا من الوفاء بوعـــدها ثم جاءت حكومة العمال الانجليزية الى الحكم فى ١٩٢٩ لتساند الالمان فى وجهة نظرهم هذه اذ كان معظم الانجليز يرون أن التوسع فى التسليح كان فى حد ذاته سببا من أسباب الحرب أو بعبارة أخرى كان يؤدى بالخلافات أن تتحول الى حروب كما حدث فى عام ١٩١٤ قبل أن تبدأ «فترة التهدئة » فكان (رامسى ماكدونالد) رئيس الوزراء راغبا فى السير فيما كان قد بدأه عام ١٩٢٤ وان يتمم ما عمله فى سبيل « التهدئة » فقد كان هو السبب الرئيسى فى نجاح مؤتمر لندن البحرى عام ١٩٣٠ الذى أدخل عددا أكبر من أنواع الســـفن تحت القيود المتبادلة المفروضة على البوارج الحربية فى بريطانيا والولايات المتحـــدة واليابان فى عام ١٩٢١ • وحتى مؤتمر لندن كان يتضمن تحذيرا خطيرا عن المستقبل لم يلتفت اليه أحد فى ذلك الوقت فالمناقشات التى دارت حرضت ايطاليا على المطالبة بالمساواة فى القوات البحرية مع فرنسا وهى مطالبة صمم الفرنسيون على مقاومتها ومن هنا بدأ الجفاء بين الدولتين مما أدى الى انحياز ايطاليا الى جانب ألمانيا •

وفى حكومة العمال الثانية أسند (ماكدونالد) الى (أرثر هندرســـون) وزارة الخارجية وكان الاول ممانعا فى ذلك ولذا لم تتفق وجهتا نظرهما اذ أن (هندرســـون) على عكس ماكدونالد ــ كان وزيرا أيام الحرب الاولى فلم يكن ينظر الى الحرب نظرتـــه الى حماقة لاطائل تحتها • فبينما كان ماكدونالد لا يوافق على ما تبديه فرنسا من مخاوف على أنها وهم لاأساس له من الصحة ، كان هندرسون يسعى الى التوفيق بين نزع السلاح وبين السلامة فلقد كان يريد استخدام موضوع نزع السلاح كوسيلة لزيادة قيود بريطانيا على فرنسا مثل ماكان (أوستن تشمبرلين) قبله يريد أن يفعل بمعاهدة لوكارنو ولو أن القيود لن تكون ثقيلة طبعا اذا طبق مبدأ نزع السلاح على الجميع • وكان هندرسون يلوح للفرنسيين بأنهم اذا تعاونوا معه فى مسألة نزع السلاح فانهم سيلقون مساندة من انجلترا فى مقابل ذلك وكانت هذه من وجهة النظر الفرنسية صفقـــة ناجحة مع أن عددا قليلا من الفرنسيين ــ وربما لاأحد مطلقا ــ كانوا يعرفون تماما عدم الجدوى من وجود جيشهم كقوة هجومية • وكان القليلون جدا يودون لو أمكن تقليم اظفـــار ألمانيا الى الابد على يد القوات الفرنسية وحدها • أما مسألة السلامة فسوف تبدو فى صورة مختلفة لو أن الانجليز بدلا من اعتمادهم على (لوكارنو) كانوا يفكرون بعقلية عســـكرية عملية وقد يهديهم تفكيرهم أخيرا الى ضرورة وجود جيش فرنسى قوى والا

فعليهم أن يزيدوا من جيشهم . كذلك كان الفرنسيون يلحون فى ضرورة عقد مؤتمر لنزع السلاح يكون على رأسه (هندرسون) ولم يكن ذلك اعترافا فقط بمقدرته على تقريب وجهات النظر وان كان حقيقة يتمتع بتلك المقدرة بل كان الامر كذلك مسألة حسابية فانجلترا تكاد لاتستطيع أن تتخلى عن التزاماتها المتزايدة التى تترتب على نزع عام للسلاح بينما يكون وزير خارجيتها رئيسا لمؤتمر نزع السلاح .

ولقد تغيرت الظروف تغيرا خطيرا فى الوقت الذى انعقد فيه مؤتمر نزع السلاح فى أوائل عام ١٩٣٢ فقد سقطت حكومة العمال ولم يعد هندرسون وزيرا للخارجية أما بصفته رئيسا للمؤتمر فانه لم يعد يملك الزام الحكومة البريطانية بشىء ولكنه بحث بدون جدوى حكومة كان يعتبر مناهضا لها من الناحية السياسية . أما ماكدونالد فلم يعد منساقة خلف هندرسون بل ربما كان مشدودا الى الخلف بوزير خارجيته الجديد (سيرجون سيمون) وهو من الاحرار وكان قد أوشك على الاستقالة لما قامت حرب ١٩١٤ ثم استقال فعلا احتجاجا على قانون التجنيد الاجبارى بعد ذلك بثمانية عشر شهرا وكان سيمون مثل ماكدونالد يعتبر مخاوف فرنسا لاأساس لها . وبالاضافة الى تلك كانت الحكومة القومية تعانى من الناحية الاقتصادية فعلاوة على انها كانت تعارض فى التزامات بريطانيا كانت تسعى الى تخفيض الموجود منها . وقد تملك الرعب قلوب الفرنسيين عندما وجدوا أنفسهم منساقين نحو نزع السلاح دون أن ينالوا تعويضا مقابل ذلك وكان ماكدونالد دائما يردد لهم قوله « ان مطالب الفرنسيين تخلق المتاعب باستمرار فهم يريدون أن يزيدوا من التزامات بريطانيا وهذا مما لا يمكن التفكير فيه فى الوقت الحاضر » وكانت ناحية الخطأ التى يلوح بها هى أن ظروف بريطانيا قد تتغير .

وكان لبريطانيا طريقة خاصة فى توجيه مشكلة نزع السلاح بما يتفق ومسألة « السلامة » فاذا حاول الفرنسيون اقحام انجلترا حاول الانجليز بدورهم اقحام الولايات المتحدة لتكون طرفا فى مؤتمر نزع السلاح وان لم تكن طرفا فى عصبة الامم . وقد يكون فى ذلك شىء من الحكمة عندما يكون الجمهوريون فى الحكم ولكن المحاولة فشلت فى نوفمبر ١٩٣٢ عندما نجح فى الانتخاب الرئيس الديمقراطى ف. ر ـ روزفلت . فمع أن الديمقراطيين ارتبطوا بعصبة الامم بواسطة الرئيس ولسن فى ١٩١٩ ومع أن روزفلت أدخل الولايات المتحدة فى المشاكل العالمية فيما بعد الا أن انتخابات عام ١٩٣٢ كانت نصرا للانفصاليين فالديمقراطيين أصبحوا الآن من أنصار ولسن المخدوعين وكان البعض يرى أن ولسن خدع الامريكيين وكان البعض الآخر يرى أن ساسة أوروبا خدعوا ولسن . وكان الجميع تقريبا يعتقدون أن الدول العظمى الاوروبية خصوصا دول الحلفاء السابقين اشرارا لايمكن اصلاحهم وعلى هذا كان من الخير لامريكا أن تبتعد عنهم . فالمثالية التى دفعت أمريكا فى وقت الاوقات الى انقاذ العالم هى نفسها التى جعلها الآن توليه ظهرها . فالغالبية الديمقراطية فى الكنجرس الامريكى اتخذوا

عددا من الاجراءات جعلت من المستحيل على أمريكا أن تلعب دورا فى الشئون العالمية ووافق روزفلت على تلك الاجراءات دون أن يبدى أى معارضة وازداد أثر ذلك بسبب الشئون الاقتصادية القومية الثقيلة التى صاحبت العمل الجديد • وقد بدت علامة صغيرة على نفس الاتجاه عندما اعترفت سياسة روزفلت أخيرا بروسيا السوفييتية ورحبت بوصول (لتفينوف) وزير الخارجية السوفيتية عند وصوله الى واشنطن فاقصاء روسيا عن السياسة الأوروبية لم يعد له معنى فى نظر الامريكان اذ لا ينتظر أن تقيد أمريكا نفسها بقيود نحو أوروبا كما أن الانجليز أنفسهم قد أبعدهم نفوذ أمريكا عن أوروبا •

وزاد من سوء حظ مؤتمر نزع السلاح أن مسألة التعويضات وصلت الى تسوية نهائية فى صيف ١٩٣٢ لأنه وان كان من الخير لو أن مشكلة التعويضات قد بت فيها من قبل فان ذلك الوقت كان أسوأ وقت يمكن أن تتم فيه • فالحكومة الالمانية انتقلت من (برونج) الى (بابن) وأصبحت أضعف وأقل نفوذا من أى وقت مضى ومن هنا سعيها لاكتساب محبة الشعب عن طريق السياسة الخارجية • أما التعويضات فلم تعد موضع الشكوى وكان لابد أن يحل محلها نزع سلاح ألمانيا من جانب واحد • أما الدخول فى مفاوضات حقيقية فكان محالا ان كانت الحكومة الالمانية تسعى للحصول على نصر مبين فقد انسحب الالمان من مؤتمر نزع السلاح محتجين بصورة مسرحية ثم أمكن اعادتهم بعد أن حصلوا على وعد « بالمعاملة على قدم المساواة فى داخل مشروع السلامة» وكان هذا وعدا لامعنى له فاذا حققت فرنسا سلامتها فلن يعود هناك مساواة فى الوضع ولو انها لم تحقق سلامتها فلن يكون هناك مساواة أيضا ولم يؤثر ذلك الوعد فى الناخبين الالمان وما كان أى تساهل حقيقى ليؤثر فيهم فان ماكان يشغل بالهم هو الفقر والبطالة وكانوا ينظرون الى مشكلة التعويضات وهى تتلوى كأنها سمكة كبيرة تتلوى • وقد كان ساسة الحلفاء يساعدون بابن على اللعب بالالفاظ ولم يخطر ببالهم حتى ذلك الوقت أن هناك خطرا ألمانيا حقيقيا ففى ١٩٣٢ كان الناس يخشون انهيار ألمانيا لاقوة ألمانيا وكانوا على حق فيما يخشون فكيف يمكن لأى شخص سديد الرأى أن ينتظر من أمة أن تصبح لها قوة عسكرية كبيرة وهى تضم سبعة ملايين من العاطلين وليس لها شىء من احتياطى الذهب بينما تتقلص تجارتها الخارجية فكل تجاربنا فى العهد الحديث قد علمتنا أن القوة تسير جنبا الى جنب مع الغنى ولكن ألمانيا فى عام ١٩٣٢ كانت فقيرة حقا •

لقد انقلبت كل هذه الاعتبارات رأسا على عقب فى ٣٠ يناير ١٩٣٣ عندما أصبح هتلر مستشارا وهو حادث أصبحت له قوة الاساطير ولم يكن الامر استيلاء على الحكم بالرغم مما كان يتشدق به الاشتراكيون الوطنيون • فقد أصبح هتلر مستشارا عندما عينه هندنبرج بطريقة دستورية محضة ولدواع ديمقراطية سليمة • وبالرغم من كل ماقاله الاحرار أو الماركسيون فان هتلر لم ينصب مستشارا لأنه كان يريد أن

يعمل على معاونة الرأسماليين الالمان على تحطيم اتحادات العمال ولا لانه كان يريد أن يبنى للقادة الالمان جيشا جرارا فما بالك بحرب كبرى . والحقيقة أنه نصبه مستشارا لأنه وحلفاءه من الوطنيين كان يمكنهم أن يمثلوا أغلبية فى الرايخستاخ وبهذا يمكن القضــاء بمرسوم من رئيس الجمهورية على الحكومة المتداعية التى بقيت أربع سنوات ولم يكن من المنتظر أن يدخل تعديلات ثورية لافى السياسة الداخلية ولا فى السياسة الخارجية وعلى العكس فان حكومة السياسيين المحافظين برئاســـة (بابن) احتفظت بالمراكز الرئيسية لنفسها متوقعة أن يصير هتلرمجرد صورة لا تأثيرله وكانوا هم الذين أوصوا هندنبرج بتعيينه . ولكن ظهر فيما بعد أن كل تلك الفروض كانت خاطئة فقد كسر هتلر جميع القيود المصطنعة التى أريد تقييده بها فأصبح بالتدريج دكتاتورا مطلق اليد ـ ولو أن ذلك جرى تدريجيا أكثر مما كان ينتظر من اسطورته فلقد غير أكثر الاشياء فى ألمانيا فحطم الحرية السياسية وحكم القانون وغير اقتصاديات ألمانيا وماليتها واختلف مع رجال الدين وألغى الولايات المنفصلة وجعل ألمانيا دولة موحدة للمرة الاولى . غير انه لم يغير شيئا فى ناحية واحدة فقط فقد أبقى على السياســـــة الخارجية كما كانت فى عهد سلفه من الساسةالمحترفين فى وزارة الخارجية . كذلك أراد هتلر أن يحرر ألمانيا من جميع قيود معاهدة الصلح وان يعيد بناء جيش ألمانى كبير ثم يجعل من ألمانيا أكبر قوة فى أوروبا وذلك من مواردها الخاصة . وقد كانت تبدوبين الحين والحين بعض الخلافات فربما كان هتلر أقل اهتماما بالنمسا وتشيكوسلوفاكيا لو لم يكن قد ولد كأحد رعايا امبراطورية آل هابسبورج وربما كان أصله النمسوى هو الذى جعله فى البداية أقل عداء للبولنديين ولكن الطابع العام لسياسته لم يتغير . ولم تكن هذه هى وجهةالنظر السائدة. فكبار الكتاب يرون فى هتلر خالقا النظم مصمما منذ البداية على حرب كبرى تدمر المدنية الحاضرة وتجعل منه سيدا على العالم . وفى رأيى أن رجال السياسة قد تجرفهم الاحداث فلا يستطيعون السير على نهج مرســـــوم فهم يخطون خطوة واحدة ومنها تأتى الخطوة التالية أما الخطط المرسومة فمن خلق المؤرخين كما هو الحـــال مع نابليون ومثل الخطط التىتعزى الى هتلر وهى فى الحقيقة من صـــنع (هج تريفور روبر) و (اليزابيث وسكمان) و (آلان بولوك) وهناك أسباب تبنى عليها هذه التكهنات فهتلر كان نفسه مؤرخا هاويا أو بالاحرى ذا طريقة تعميمية فى التاريخ اذ كان يخلق الخطط فى أوقات فراغه وكانت تلك الخطط عبارة عن أحلام اليقظة. وقد تناول (تشابلن) هذه الناحية بمهارة الفنان عندما صور الدكتاتور العظيم يحول العالم الى بالون للعب ثم يقذفه بمقدمة قدمه الى سقف الغرفة وكان هتلر يرى نفسه فى أحلام اليقظة هذه كسيد للعالم ولكن العالم الذى كان يحلم بسيادته والطريقةالتى كان يريد اتباعها كانت تتغير بتغير الظروف. فكتاب (كفاحى) كتب فى سنة ١٩٢٥ تحت تأثير الاحتلال الفرنسى لحوض الروهر وكان هتلر يحلم وقتئذ بتدمير السيادة الفرنسية فى أوروبا وسبيله الى ذلك هو عقد محالفة مع ايطاليا وانجلترا . أما (حديث المنضدة) فقد ألقاه هتلر بعيدا فى الاراضى المحتلة أثناء حملته ضدروسيا السوفيتية وبعدها كان

هتلر يحلم بامبراطورية عجيبة تحقق له حياة الفتح أما وصيته الاخيرة فقد القاها من مخبئه وهو على وشك الانتحار وليس غريبا أنه حول هذه الى عقيدة لتدمير العالم • ولقد اكتشفت العبقرية الاكاديمية فى هذه التعبيرات تلميذ (نيتشه) صاحب السياسة العالمية أو خليفة (أتيلا) وانى لاأرى فيها الا تعميمات من الفكر القوى الذى ينقصه العلم ومبادىء تردد أصداء الاحاديث التى تدور فى أحد مقاهى النمسا أو مشارب البيرة فى ألمانيا •

لقد كان هناك عنصر واحد من الخطط فى سياسة هتلر الخارجية ولو أن ذلك بالامر الجديد • لقد كانت نظرته (قارية) كما كان سترسمان من قبله فهتلر لم يحاول أن يبعث من جديد (السياسة العالمية) التى كانت تتبعها ألمانيا قبل ١٩١٤ فلم يضع مشروعا ببناء أسطول ضخم ولم يثر مسألة المستعمرات الضائعة اللهم الا كطريقة لارباك الانجليز ولم يكن يهتم بالشرق الاوسط ومن ثم كان عجزه عن انتهاز الفرصة الكبرى التى اتيحت له فى ١٩٤٠ بعد هزيمة فرنسا ويمكن أن تعزى وجهة نظر هتلر هذه الى أصله النمسوى البعيد عن المحيط أو يظن أنه تعلمها من بعض الساسة فى (ميونخ) ولكنه كان فى الحقيقة يعكس صورة الظروف التى كانت سائدة فى ذلك الوقت فالمانيا هزمت أمام الدول الغربية فى عام ١٩١٨ وكانت قد هزمت روسيا قبل ذلك فى يناير • وكان هتلر مثل سترسمان لم يتصد لتسوية الغرب ولم يكن يرمى الى تدمير الامبراطورية البريطانية ولا حتى ينتزع الالزاس واللورين من فرنسا • وفى مقابل ذلك كان يريد من الحلفاء أن يعترفوا بانتصار الالمان على الروس فى يناير ١٩١٨ وان يتخلوا عن السياسة المصطنعة لهدم ذلك العمل فى نوفمبر ١٩١٨ ويعترفوا بانتصار الالمان فى الشرق • ولم يكن هذا برنامجا لا يقبله العقل فكثير من الانجليز ــ دع عنك (ملنر) وسمطس ــ كانوا يوافقون على ذلك حتى فى عام ١٩١٨ وحذا كثيرون حذوهم فيما بعد وأخذ كثير من الفرنسيين يتحولون الى هذه الناحية • فالدويلات القومية فى شرق أوروبا لم تكن تلقى قبولا واكثر منها روسيا السوفييتية فلما اراد هتلر أن يعيد تسوية (برست ليتوفسك) الى الحياة كان فى مقدوره أن يقيم من نفسه بطلا للمدنية الغربية ضد البلشفية والخطر الاحمر وربما كانت هذه الاطماع قاصرة على الشرق كذلك ربما تلك الفتوحات مجرد مقدمة للاستيلاء على أوروبا الغربية أو العالم اذ لا يستطيع انسان أن يعرف الحقيقة فالحوادث وحدها كانت كفيلة بالاجابة على ذلك ولكن هذا لم يتحقق حين سارت الامور فى طريق مختلف • فلقد وجد هتلر نفسه فى حرب مع الامم الغربية ــ على غير ماكان يتمنى ــ قبل ان يتمكن من الاستيلاء على الشرق • ومع ذلك فالتوسع صوب الشرق كان الهدف الاول من سياسته ان لم يكن الهدف الوحيد •

أما سياسته فلم تأت بجديد أما الصفة التى كان يمتاز بها هتلر فهى قدرته على ترجمة الافكار العادية الى أعمال • فقد نظر نظرة جدية الى ماكان الغير يعتبره مجرد كلمات فالقوة الدافعة فيه كانت قوة جارفة من التطبيق الحرفى للامور • فالكتاب ظلوا

يهاجمون الديمقراطية طيلة نصف قرن ولكن هذا جعل هتلر يخلق دكتاتورية مطلقة. ولقد كان كل رجل في المانيا يعتقد انه لابد من القيام بعمل (شيء) ما بشأن البطالة ولكن هتلر كان أول شخص يصر على القيام (بعمل) ما . فلم يتقيد بالقواعد التقليدية وبذلك واجه الامور الاقتصادية التي تهيىء العمل للجميع . كما فعل الرئيس ف.ر . روزفلت تماما في الولايات المتحدة .

واذا نظرنا الى هتلر من ناحية المبدأ والعقيدة فانه لم يكن شريرا أو معدوم الضمير أكثر مما كان كثيرون من الذين عاصروه من السياسيين اما من ناحية الأعمال فانه قد نبذهم جميعا . فسياسة ساسة الغرب كانت تعتمد كذلك آخر الامر على القوة اذ كانت فرنسا تعتمد على جيشها وبريطانيا على قوتها البحرية ولكن ساسة تلك الدول كانوا يرجون أن لا يضطرون لاستخدام القوة أما هتلر فقد كان يعتزم استخدام قوته بل ويهدد باستخدامها فاذا كانت دول الغرب تبدو أسمى من الناحية الاخلاقية فان هذه كانت تعتبر الى حد كبير أخلاق « الأمر الواقع » أما انعدامها في هتلر فسببه محاولة تعديل هذا الواقع . وكان هتلر يجمع بين متناقضات عجيبة وان لم تكن سطحية بين الاهداف والوسائل . فهدفه كان هدم النظام الاوربي القائم أما وسيلته الى ذلك فكانت الصبر . فبالرغم من احاديثه العنيفة الا أنه كان لا يجارى من ناحية الانتظار فلم يحدث قط أن أقدم على هجوم بالمواجهة على مواقع أحسن اعدادها أو على الأقل لم يقدم على مثل ذلك حتى أفسدت الانتصارات السريعة وقوة الحكم الصحيح فيه فقد كان يتريث حتى تدب الفوضى في خصومه وتنهك قواهم فيجعلون نجاحه مؤكدا . وكانت هذه الوسائل نفسها هي التي أوصلته الى الحكم في ألمانيا . فانه لم يستولى على الحكم ولكنه ظل ينتظر حتى قلده الحكم هؤلاء الذين كانوا يحاولون في الماضي ابعاده عنه . ففي يناير ١٩٣٣ كان بابن وهند نبرج يتوسلان اليه أن يكون مستشارا وقد تفضل هو بالقبول كذلك كانت هذه سياسته في الأمور الخارجية فانه لم يكن يتقدم بمطالب محددة بل كان يقول انه غير راض عن الاوضاع ثم ينتظر حتى تنهال عليه العروض فلا يفعل أكثر من أن يمد يده طالبا المزيد . ولم يكن هتلر قد درس أي دولة أجنبية دراسة مباشرة وكان قلما يصغى الى وزير خارجيته ولم يحدث مطلقا ان قرأ تقارير سفرائه بل كان يحكم على الساسة الأجانب بوحي غريزته وكان يعتقد أنه قابض على زمام كل السياسيين (البرجوازيين) من الأجانب والألمان على السواء وكان يعتقد أن أعصابهم سوف تتحطم قبل أعصابه وكانت هذه العقيدة أقرب ما يكون الى الحقيقة لدرجة جعلت أوروبا تقف على حافة الهاوية.

وربما كانت سياسة الانتظار هذه قد بدأت أول الأمر بطريقة غير مقصودة فكبار أساتذة فن السياسة هم الذين لا يعرفون ما يفعلون . ففي السنوات الأولى من حكمه لم يهتم هتلر كثيرا بالشئون الخارجية اذ كان يقضي معظم وقته في (برختسجاتن) بعيدا عن الاحداث يحلم على طريقته القديمة دون غاية فاذا عاد الى الحياة العملية وجه كل اهتمامه نحو السيطرة التامة على الحزب الاشتراكي الوطني وكان يرقب التنافس

بين زعماء النازى ويغذيه ثم جاءت مسألة الاحتفاظ بسيطرة الحزب النازى على الدولة الألمانية والشعب الألمانى • وجاءت بعدها مسألة اعادة التسلح والتوسع الاقتصادى وكان هتلر يحب التوسع فى النواحى الآلية كالدبابات والطائرات والمدافع • وكان يستهويه بناء الطرق وأكثر منه مشروعات البناء بينما تجىء السياسة الخارجية فى آخر القائمة • وعلى أى حال لم يكن فى استطاعته أن يعمل شيئا قبل أن يعاد تسليح ألمانيا ولذا فرضت الظروف عليه الانتظار الذى كان يحبه وكان فى مقدوره أن يترك أمر السياسة الخارجية وهو آمن فى ايدى قدامى المحترفين فى وزارة الخارجية اذ كانت أهدافهم هى نفس أهدافه كما كان اهتمامهم موجها الى القضاء على تسوية فرساى ولم يكونوا فى حاجة الا الى التشجيع على العمل والسيادة فى جرأة من وقت لآخر مما كان يصل بالأمور الى غايتها •

وقد بدت هذه الطريقة سريعا فى مشاكل نزع السلاح • فساسة الحلفاء لم تكن تخفى عليهم مقاصد هتلر اذ كانت تصل اليهم معلومات دقيقة من ممثليهم فى برلين وهى معلومات كان يجدها (سير جون سيمون) « مرعبة » • ومن أجل ذلك كان فى مقدورهم قراءة الحقائق فى أى جريدة بالرغم من الاستمرار فى عمليات طرد المراسلين البريطانيين والامريكيين من ألمانيا • فليس هناك خطأ أكبر من القول بأن هتلر لم يقدم ما يكفى من الانذارات لرجال السياسة الأجانب بل على العكس فقد أعطاهم من الانذارات أكثر مما يلزم فكانوا يرون المشاكل فى غاية الوضوح • وقد كانت لألمانيا فى ذلك الوقت حكومة قوية تستطيع أن تجعل منها قوة عسكرية كبرى • ولكن ماذا يستطيع ساسة الحلفاء أن يفعلوا ؟ لقد كانوا يتساءلون عن هذا الأمر باستمرار وكان أحد الحلول هو التدخل لمنع اعادة تسليح المانيا بالقوة وذلك ما اقترحه الممثل العسكرى البريطانى فى مؤتمر نزع السلاح وهذا ما كان يقول به الفرنسيون باستمرار غير انه لم يكن حلا عمليا من جميع الوجوه فالولايات المتحدة لا يمكن أن تشترك فى ذلك التدخل وعلى العكس كانت الولايات المتحدة تعارض فى هذا الحل بكل قوتها وكان لهذا أهمية فى نظر بريطانيا وكان الرأى فى بريطانيا معارضا لهذا ، لا رأى اليساريين وحدهم ولكن فى داخل الحكومة نفسها ولم يكن الاعتراض بدافع المبادىء ولكن لم تكن الحكومة تستطيع التفكير فى زيادة المصروفات ولا شك أن التدخل كان سيكلفها الكثير كذلك لم يكن لديها أى قوة عسكرية يمكنها الاستغناء عنها • أما موسولينى فقد كان هو أيضا يشمخ بأنفه مؤملا أن يستفيد من مبدأ تعديل المعاهدات لصالح ايطاليا ولم يتبق اذن سوى فرنسا ولكنها كانت مصممة أن لا تنفرد بأى اجراء ولو أن الفرنسيين صرحوا بحقيقة الواقع لقالوا أيضا انه لم تكن لديهم قوة عسكرية يمكنها التدخل ومع ذلك ماذا تكون جدوى التدخل ؟ فلو أن هتلر أسقط لأعقب ذلك حدوث فوضى فى ألمانيا تزيد على تلك التى حدثت عقب احتلال الروهر • فاذا لم يسقط فان المانيا لا بد وأن تعيد تسليح نفسها بمجرد أن تنسحب منها قوات الاحتلال •

لهذا كان الحل الآخر هو أن لا يعمل شيء ويهمل مؤتمر نزح السلاح وتترك الامور للمقادير ولكن الانجليز والفرنسيين كانوا يقولون ان هذا أمر لا يمكن أن يكون أو يستحق حتى التفكير فيه فهوعمل يدل علىاليأس. اذنماذا بقى منالحلول ؟ ما هوالحل العجيب الذى يمكن أن يهبط من السماء ليرضى الالمان دون أن يعرض فرنسا للخطر ؟ لقد ظل الفرنسيون يقولون بانهم انما يرضون بالمساواة مع ألمانيا فى التسليح لو أنهم حصلوا من بريطانيا على ضمان كاف تعززه محادثات هيئات أركان الحرب ويستند الى جيش بريطانى قوى . ولكن الانجليز رفضوا ذلك الاقتراح رفضا باتا قائلين انه مادامت المساواة فى التسليح سوف تقابل بالرضى من جهة الالمان اذن فلا ضرورة للضمان . ولو أن هتلر عقد اتفاقا « فلا بد أن يعمل على احترامه ... فتوقيعه سوف يقيد كل ألمانيا بما لمتتقيد به من قبل » (ذلك هو ماجاء بكتاب تاريخ السياسة الخارجيةالبريطانية) فاذا لم تحترم ألمانيا ذلك الاتفاق « فسوف تلقى معارضةعالمية قوية » (وسوف يعرف العالم ما هى نواياها الحقيقية) (ذلكهو ما جاء بكتاب محادثات ماكدونالد ودلادييه ومذكرات وزارة الخارجية البريطانية) وليس فى الامكان أن نعرف ما اذا كانت انجلترا كانت جادة فيما تقول فربما كانت لاتزال تعتقد ان عناد فرنسا كان أهم عقبة فى سبيل السلام الاوروبى وكيف يمكنأن تقلع فرنسا عن عنادها . فسابقة ماحدث عام ١٨٧١ كانت لازالت ماثلة فى الاذهان فقد رفضت روسيا فى ذلك الحين شروط معاهدة باريس التى فرضت عليها نزع السلاح فى البحر الاسود فوافقتها الدول العظمى الاخرى على شرط أن تعمل روسيا للحصول على موافقة من مؤتمر دولى وهكذا بقى القانون العام فى أوروبا محترما فاذا ماعقدت معاهدة فى مؤتمر اذن لابد أن يعقد مؤتمرا آخر ليلغيها وكان الحال كذلك الآن اذ كان أهم شيء هو منع اعادة تسليح ألمانيا ولكن لتنفيذ ذلك لابد أن يتم هذا فى نطاق اتفاق دولى . كذلك كان الانجليز يعتقدون أن المانيا سترحب بدفع ثمن «اعطاء مخالفتها للقانون صفة شرعية» فالانجليز انفسهم كانوا يحرصون على أن تظل أعمالهم دائما فىحدود القانون وكانطبيعيا أن يظنوا أنهذا هو الحال مع ألمانيا فلم يكونوا يتصورون ان أى دولة عظمى تفضل العودة الى «فوضى دولية» وطبعا كان هتلر لايعتزم ان يعود الى فوضى دولية وهو كذلك كان يريد أن يسود النظام الدولى على أن يكون (نظاما جديدا)لانسخة معدلة من نظام ١٩١٩ .

ولقد كان هناك امر آخر أثر فى الجو السياسى فى تلك السنوات فلقد كانت كل الدول ـ وبخاصة انجلترا وفرنسا ـ تعتقد أن أمامها فسحة من الوقت فألمانيا كانت لاتزال منزوعة السلاح عندما تقلد هتلر السلطة فلم تكن تملك دبابات أو طائرات أو مدافع ثقيلة كما لم يكن لها احتياطى مدرب ولوأنها أرادت أن تصبح دولة عسكرية قوية لاستغرق ذلك عشر سنوات طبقا للتقديرات المعروفة وهذا المحال ولم يكن هذا التقدير كله خطأ فهتلر وموسولينى كانا يقولان بذلك أيضا اذ انهما فى محادثاتهما كانا دائما يقولان بان عام ١٩٤٣ هوالعام الذى سيقرر مصيرالعالم . فكثيرمن التحذيرات التى صدرت فى السنوات الاولى من اعادة تسليح المانيا كانت تحذيرات زائفة . وعلى

ذلك فان تشرشل عندما قال فى عام ١٩٣٤ أن قوة ألمانيا الجوية كانت أكبر مما تظن انجلترا عارضه بولدوين ، كان بولدوين على صواب وكان تشرشل مخطئا ويتضح لنا هذا من الوثائق الالمانية نفسها ـ وحتى فى عام ١٩٣٩ لم يكن الجيش الالمانى معدا لحرب طويلة الامد وفى عام ١٩٤٠ كانت القوات البرية الالمانية دون القوات الفرنسية فى كل شيء عدا القيادة • ولقد ارتكبت الدول الغربية خطأين اذ لم تدخل فى حسابها أن هتلر كان مقامرا مستعدا أن يقامرمنأجل مكاسب ضخمة بما لديه من موارد غيركافية• كذلك لم تدخل فى حسابها أعمال شاخت الرائعة فى الناحية الاقتصادية الذى أكد أن موارد ألمانيا كانت أقل كفاية مما يجب أن تكون • فالبلاد التى كانت تتمتع بالحريات الاقتصادية فى ذلك الوقتكانت تستغل ٧٥ ٠/٠ من كفايتها • أما شاخت فانه فى أول الامر طبق نظام العمل الكامل وبهذا استغل قوة ألمانيا الاقتصادية بكامل طاقتها • وهذه امور أصبحت معروفة الآن ولكنها كانت فى ذلك الوقت تعتبر من أعمال السحر التى لايتصورها العقل •

ان مؤتمر نزع السلاح نفسه لم يعمر طويلا بعد أن أتى هتلر الى الحكم • ففى صيف ١٩٣٣ أخذت انجلترا وايطاليا تضغطان على فرنسا لتمنح ألمانيا مساواة نظرية فى التسليح ولقد كان المعتقد أنه سوف يمر وقت طويل حتى تصبح المساواة حقيقة واقعة • ولقد نجح هذا الضغط فخاطرت فرنسا بالموافقة وفى ٢٢ سبتمبر اجتمع وزراء بريطانيا وفرنسا فى باريس وقال الفرنسيون انهم سيوافقون على المساواة أو مايقرب منها وعندها سأل دلادييه رئيس وزراء فرنسا قائلا : « ماهو الضمان على مراعاة شروط الاتفاقية ؟ » وهكذا عادت المشكلة القديمة فأجاب سيمون : «ان حكومة جلالة الملك لن تأخذ على عاتقها أى مسئوليات جديدة على هيئة عقوبات اقتصادية فالرأى العام فى انجلترا لن يوافق على هذا » وهنا برز صوت أقوى من صوت سيمونهو صوت بولدوين زعيم حزب المحافظين ورئيس الحكومة الانجليزية وكانقد حضرمن (اكس) لحضور الاجتماع وكان قد قضى أجازته يفكر فى الموقفالاوروبى فحضر ليؤيد سيمون فى قوله أن انجلترا ترفض أى التزامات جديدة وزاد على ذلك قوله : « اذا قام الدليلعلى ان المانيا أخذت تتسلح من جديد فسيترتب على ذلك موقف جديد يجب أن تواجهه أوروبا ••• فاذا حدث ذلك فان حكومة جلالة الملك سوف تفكر فيه بصورة جدية ولكن هذا لم يحدث بعد» •

ولقد كان الصوت صوت بولدوين أما روح الحديث فلاتزال روح ماكدونالد • ففرنسا كان يطلب منها أن تغض النظر عن سيادة تتخيلها وكأنها حقيقية وكان يقال لهم أن شيئا غير محدد قد يحدث لو أن الالمان أساءوا التصرف ولكن ذلك لم يرضهم فسحبت فرنسا عرضها ولما استأنف المؤتمر اجتماعه أعلن الفرنسيون انهم يوافقون على المساواة مع ألمانيا لو ظلت ألمانيا منزوعة السلاح لفترة أربع سنوات أخرى (كفترة تجريبية) •

وهنا وجد هتلر فرصته اذ وجد فرنسا تقف وحدها بينما انجلترا وايطاليا تعطفان على المانيا وفى ١٤ أكتوبر انسحبت ألمانيا من مؤتمر نزع السلاح وبعد ذلك بأسبوع انسحبت من عصبة الامم فلم يحدث شيء وانزعج الالمان لاقدام هتلر على العمل من تلقاء نفسه فقال لهم : « ان الموقف قد تطور بالصورة التى كنا نتوقعها • فالتهديدات ضد المانيا لم يترتب عليها شيء ولا ينتظر ان يترتب عليها شيء أما اللحظة الحرجة فيحتمل أن تكون قد مرت » وقد حدث ذلك بالفعل فقد طبق هتلر طريقته فى الشئون الخارجية فلاقت نجاحا فقد انتظر حتى فقدت المعارضة ضد ألمانيا قوتها المعنوية ثم دمرها تدميرا • فالفرنسيون لا يجرؤون على الزحف الى ألمانيا بحجة أن الالمان انسحبوا من مؤتمر نزع السلاح وان فى امكانهم الاقدام على العمل اذا بدأت ألمانيا فعلا فى التسلح وعندها تكون الفرصة قد ضاعت أما انجلترا فظلت تعطف على موقف ألمانيا وقد كتبت جريدة التايمز بعد ذلك فى يوليه ١٩٣٤ تقول : « فى السنوات المقبلة لن يكون هناك من الاسباب التى تدعو للخوف على ألمانيا أكثر من الاسباب التى تدعو الى الخوف منها » • وظل حزب العمال يطالب بنزع السلاح بصورة عامة كتمهيد لاستقرار السلام وبقى ماكدونالد يمهد الطريق للحكومة والمعارضة كليهما • أما هتلر فقد بلغ من ثقته بنفسه أن أخذ يغيظ فرنسا بأن عرض عليها موافقته على عدم المساواة فى التسلح حيث يحدد عدد الجيش الالمانى بثلاثمائة ألف جندى والقوات الجوية بنصف عدد القوات الفرنسية وقد أثبتت الحوادث ان هتلر كان على صواب بثقته فى نفسه اما الفرنسيون فقد بلغ بهم الغيظ أقصى درجات الاحتمال • وفى ١٧ ابريل ١٩٣٤ رفض (بارتو) أن يعطى الالمان حقا قانونيا فى التسلح وكان وزيرا للخارجية من اليمينيين فى الحكومة القومية التى جاءت على أثر اضطرابات ٦ فبراير • وقد قال : « ان فرنسا من الآن فصاعدا سوف تعمل على تأمين نفسها بوسائلها الخاصة » فمؤتمر نزع السلاح قد مات بالرغم مما بذل بعد ذلك من مجهود لاعادته الى الحياة وأعلنت فرنسا بداية سباق التسلح ولكنها فشلت فى أن تشترك فيه فان الاعتمادات المالية التى كانت مخصصة للتسليح كانت قد خفضت أثناء الاستعداد لمؤتمر نزع السلاح ولم تعد الى مستوى تسليح ١٩٣٢ حتى وافى عام ١٩٣٦.

ان فشل مؤتمر نزع السلاح لم يكن معناه بدء الحرب • لقد كان هناك سبيل ثالث بالرغم من معارضة انجلترا له ذلك هو العودة الى الطريقة الدبلوماسية التقليدية وقد أخذ الجميع يعودون فى خجل الى تلك الطريقة منذ اللحظة التى ظهر فيها هتلر • وكان موسولينى أول من فعل ذلك اذ أنه كان دائما يبغض جنيف وكل ما كان يدور فيها • ولما كان أول زعيم فاشستى فى أوروبا فقد كان يفخر بأن هتلر كان مقلدا له وكان يعتقد أن ألمانيا سوف تقوم بدور الثعلب بالنسبة لايطاليا لا عكس ذلك • ولا شك انه كان يظن أن تهديدات هتلر وتفاخره كانت جوفاء • ولكنه على أى حال لم يخش نهضة ألمانيا ولكنه رحب بها أملا فى أن يستخدمها كأداة ينتزع بواسطتها ما كان

يريده من فرنسا وربما من انجلترا كذلك وهو ما لم تعره انجلترا اهتماما • وقد اقترح موسوليني قيام حلف رباعى من ألمانيا وانجلترا وفرنسا وايطاليا فينصبون انفسهم قادة أوروبايشرعون القوانين للدول الصغرى ويقومون باعادة التخطيط بطريقة سلمية • وقد لاقى هذا قبولا من الانجليز اذ كانوا هم كذلك يطمعون في الحصــول على بعض المطالب من الفرنسيين وان كان ذلك من أجل الالمان فى البداية ولقد كانت فكرة قيام انجلترا وايطاليا بدور الوساطة بين ألمانيا وفرنسا فكرة قديمــة دفنت فى لوكارنو ولو أن موسوليني كان فى ذلك الوقت يلعب دورا ثانويا • وقد نادى بها (جون مورلى) في ١٩١٤ عندما حاول أن تظل بريطانيا بعيدة عن الحرب كما أيد هذه الفكرة (سيمون) و (ماكدونالد) فى ١٩١٤ وقد لاقت منهما قبولا حيث كانا الراديكاليون السابقون يقفون موقفا غريبا يعتبرون فيه موسوليني دعامة السلام فى أوروبا • وقد كان هتلر كذلك على استعداد أن يجعل موسوليني يبدأ عملية الصيد من أجله وكان الفرنسيون ناقمون وهم محصورون بين حارسين : انجلترا وايطاليا • وقد قبل الفرنسيون الوضع فى أول الأمر بالرغم من انهم كانوا يصرون على أن يكون أى تعديل بموافقة اجماعية تشــــمل الأطراف التى يعنيهــا الأمر • ثم اتخــذوامن انســحـاب ألمــانيـــا من عصبة الأمم عذرا للقضاء على الحلف قضاءا مبرما اذا لم تتم الموافقة عليه ومع ذلك فقد ظلت ايطاليا تتخذه قاعدة لسياستها حتى نشبت الحرب •وأغرب من ذلك أن الفرنسيين عادوا اليه قبل نهاية القصة •

والاهمية الرئيسية للحلف فى ذلك الوقت كانت فى أوروبا الشرقية فروسيا السوفيتية وبولندا شعرتا بالخطر ولو أن نتائج ذلك كانت عكسية فانتقلت روسيا من جانب ألمانيا الى جانب فرنسا أما بولندا فانتقلت ـ الى حد ما ـ من جانب الفرنسيين الى جانب الالمان ولقد كان اتفاق الدول العظمى الاربع الاوروبية هو ما يفزع له الساسة السوفييت اذ كانوا يعتقدون أنه تمهيد لحملة جديدة من التدخل فكانوا حتى ظهور هتلر يتخذون لانفسهم الحيطة ضده بتشجيع نقمة الالمان على فرنسا وبزيادة التعاون الاقتصادى والعسكرى مع ألمانيا وهو ما بدأ فى رابالو • أما الآن فقد انقلبت الاوضاع فانهم كانوا ينظرون الى حديث هتلر نظرة جدية على خلاف ما كان يفعله ساسة أوروبا الغربية ، اذ كانوا يعتقدون أنه مصمم على تحطيم الشيوعية لا فى ألمانيا فحسب ولكن فى روسيا كما كانوا يخشون أن يشجعه ساسة أوروبا لو أنه أقدم على ذلك •

كذلك كانوا يعتقدون أن هتلر كان يقصد احتلال (أوكرانيا) وبذلك كان اهتمامهم منصبا على الناحية الدفاعية وحدها أما أحلامهم باشعال ثورة عالمية فقد اندثرت منذ عهد طويل • أما خوفهم الاكبر فكان من ناحية الشرق الاقصى حيث كان يبدو لهم أنهم أمام خطر قريب من هجوم يابانى بعد أن أصبحت اليابان فى منشوريا وبعد أن هادنت الصين • ولقد كانت خيرة جنود السوفييت فى الشرق الاقصى وكان كل ما يطلبه زعماء السوفييت من أوروبا أن تتركهم وشأنهم • فبينما كان الروس فى الماضى يهاجمون « معاهدة الاستعباد » التى عقدت فى فرساى أصبحوا الآن ينادون باحترام القانون

الدولى وكانوا يواظبون فى اخلاص على حضور مؤتمر نزع السلاح وهو ما كانوا يسمونه فى الماضى « خدعة برجوازية » كما أنهم فى عام ١٩٣٤ انضموا على عصبة الامم وهى ما كانت فى نظرهم « خدعة برجوازية » أخرى . وبهذه الصفة أصبح السوفييت زميلا قدمته الظروف لفرنسا فى صورة دولة عظمى تعارض فى تعديل المعاهدات فتخفف عنهم ضغط بريطانيا وايطاليا ولقد تحولت هذه الرابطة بالتدريج الى وجود معترف به فى ١٩٣٣ اذ كانت رابطة ذات صفة محددة فلقد تحول الروس الى النهج الفرنسى لا لشىء الا لانهم كانوا يعتقدون أنه سوف يتيح لهم زيادة فى الامان وما كانوا يتوقعون أنه سوف يجر فى أذياله زيادة فى الالتزامات فقد كانوا يبالغون فى قوة فرنسا من الناحيتين المادية والادبية كما كانوا كغيرهم من الناس فيما عدا هتلر يبالغون فى قوة الارتباطات المسجلة على الاوراق بالرغم من عدم تقيدهم ظاهريا بالاخلاق « البرجوازية » كذلك كانوا يظنون أن وجود القانون الدولى الى جانبهم مما يقوى ساعدهم . أما الفرنسيون فلم يكن فى عزمهم احياء تحالفهم مع روسيا بصورة جدية اذ لم يكونوا كبيرى الثقة فى قوة روسيا ولا فى اخلاصها فلقد كانوا يعرفون أن الصداقة مع روسيا السوفيتية لا تلقى قبولا من لندن ومع انهم كانوا أحيانا يتضجرون من مواقف بريطانيا من ناحية سياسة التهدئة الا أنهم كانوا يخشون أن يقطعوا الخيط الرفيع الذى كان يربطهم بالعون البريطانى أما عودة التقارب بين فرنسا وروسيا فلم يكن الا تأكيدا جديدا .

وحتى فى هذه الحالة كان فى هذا ما يكفى لاثارة مخاوف هؤلاء الذين يرسمون سياسة وزارة الخارجية الالمانية ففى نظرهم كانت صداقة (رابالو) تعتبر عنصرا أساسيا فى نهضة ألمانيا فقد ضمنت لها السلامة ضد الخطر البولندى كما ساعدت على الحصول على تساهل جديد من الدول الغربية . أما من الناحية العملية فقد ساعدت على طريقة لاعادة التسلح بصورة غير قانونية .فلقد قال (نويرات) وزيرالخارجية : « انالانستطيع العمل دون أن تحمى روسيا مؤخرتنا » وكتب مساعده (بولو) يقول : « ان قيام علاقات ألمانية روسية يعتبر أمرا ذا أهمية كبرى لالمانيا » أما هتلر فكان وحده الذى يتحرك . ولا شك أن عداءه للشيوعية كان عداءا حقيقيا . ولا شك أنه بسبب أصله النمسوى لم يكن يرى امكان قيام صلات مع روسيا وهو ما كان يراه المحافظون البروسيون . ولا شك كذلك انه كان يرى أن فصم عرى الصداقة بين ألمانيا وروسيا السوفيتية سوف يجعل منه حاميا للمدنية الاوروبية ضد الثورة الشيوعية . أما الدافع الحقيقى لاعتناقه هذه السياسة فكان مبنيا على تقديرات عملية ، فالروس لا يستطيعون القيام بأى عمل ضد ألمانيا فانها لم تكن فقط معزولة عن ألمانيا بواسطة بولندا ولكن الزعماء الروس كذلك لم يرغبوا فى عمل شىء . وعلى العكس فانهم تحولوا الى جانب فرنسا لانهم كانوا يعتقدون أن وضعهم هذا كان يقلل من عدد المطالب التى يطالبون بها كما يقلل من عدد الاخطار التى يتعرضون لها لو أبقوا على صداقتهم مع ألمانيا فقد صوتوا ضد ألمانيا فى جنيف ولكنهم لم يقوموا بعمل ما وهكذا وجد هتلر أن رابالو تتلاشى بلا تعب .

ولكن من ناحية أخرى كانت بولندا تستطيع القيام بعمل ضد ألمانيا وكانت تتحدث بذلك اذ أن وارسو كثيرا ما نادت بقيام حرب دفاعية وان كانت تلك النداءات جوفاء . فمنذ ١٩١٨ لم يفكر أحد من الوزراء الالمان فى قيام صداقة مع بولندا ولو بصفة مؤقتة فلقد كان الجرح المتسبب عن دانزج والممر جرحا عميقا ولقد كان هتلر بعيدا عن هذا التضرر كما كان بعيدا عن غيره وكان ذلك مقياسا للسيطرة التى كان هتلر قد فرضها فعلا على (الطبقة الحاكمة) الالمانية حيث استطاع التغاضى عن أهم مطالبهم . وكذلك كان مقياسا لعدم الاهتمام الذى كان يشعر به الشعب الالمانى فيما يتعلق بمطالبهم حتى انقضى هذا الامر دون أن يثير أى تذمر من الشعب . وكان بعض الالمان يعزون أنفسهم بأن ذلك الرفض كان مؤقتا وكان هتلر يتركهم فى ظنونهم هذه فلم يكن قصده الحقيقى قد استقر على هذا الاتجاه أو ذلك وفى الواقع لم يكن هتلر يهتم بمسألة اعادة تخطيط الحدود الالمانية اذ كان يريد أن تسيطر ألمانيا على أوروبا ولهذا السبب كان أكثر اهتمامه موجها الى جعل جيرانه يأتمرون بأمره لا أن يقتطع من أطراف بلادهم . ولقد اتبع هذه السياسة مع ايطاليا فلقد تنازل لها عن (التيرول الجنوبى) وهو ما كان يعتبر بالنسبة اليه مطلبا أهم بكثير من دانزج والممر البولندى وذلك فى مقابل احتفاظه بصداقة ايطاليا . وكان هتلر يعتبر بولندا دولة تحاول تعديل حدودها ـ كما كانت ايطاليا ـ ولو أنها كانت مدينة باستقلالها لانتصار الحلفاء فى ١٩١٨ ولهذا كان يعتقد أن فى امكانه ضم بولندا الى جانبه كما هو الحال مع ايطاليا والمجر وكان يرى أن دانزج والممر البولندى يعتبران ثمنا لا بأس من دفعه فى مقابل مثل هذه المكاسب ولم يحدث مطلقا أن ضم هتلر الى بلاده أرضا لمجرد الضم . وكما ظهر من سياسته فيما بعد ، لم يكن يمانع فى الاحتفاظ بالدول الاخرى كما هى طالما ظلت تأتمر بأمره .

ولكن هتلر لم يعمل لسياسة المبادأة فى هذه المسألة البولندية كما لم يعمل فى أغلب المشاكل الاخرى اذ كان يترك غيره ليقوم بالعمل من أجله . ولقد كان (بلسودسكى) وزملاؤه ممن يحكمون بولندا يتوقون الى أن يقوموا بدور الدولة العظمى اذ كانوا ينقمون على حلف الدول الاربع الكبرى الذى كان يبدو وكأنه موجه ضد بولندا كما أزعجهم تقارب فرنسا من روسيا السوفيتية فالبولنديون لم ينسوا مطلقا أنه فى الوقت الذى كانت فيه دانزج والممر يثيران غضب ألمانيا على حدودهم الغربية كانوا هم يحتلون أراض غير بولندية فى الشرق تزيد مساحتها على عشرة أضعاف تلك الاراضى ومع أنهم كانوا شديدى الخوف من ألمانيا الا أن ضباط بلسودسكى من البولنديين كانوا يخشون الروس أكثر بكثير . ومن ناحية أخرى كان يتملك البولنديين الغرور باعتبارهم أكبر حلف لفرنسا فى الشرق ولكن الامر كان يختلف حين كانوا يعملون كمجرد حرس أمامى لتحالف فرنسى سوفيتى . وكان (بيك) وزير خارجيتهم يمتلك الثقة الكاملة بنفسه وان كان لا يمتلك كثيرا غير ذلك فكان واثقا أن فى مقدوره أن يعامل هتلر معاملة الند أو حتى يروض ذلك النمر . فقد عرض أن يحسن علاقاته مع ألمانيا واستجاب هتلر له

وكانت النتيجة هى عقد ميثاق عدم اعتداء فى يناير ١٩٣٤ بين ألمانيا وبولندا وبهذا أمكن التخلص من اسفين آخر فى نظام الامن المنهار وتخلص هتلر من أى تهديد بتقديم معاونة بولندية لفرنسا وفى مقابل ذلك وعد بأن لا يلجأ الى القوة للحصول على المطالب الالمانية وان كان لم يتخل عنها وهى صيغة رنانة كثيرا ما استعملتها حكومة ألمانيا الغربية بعد الحرب العالمية الثانية • ولقد كانت تلك الاتفاقية تعتبر أول عمل كبير يحققه هتلر فى السياسة الخارجية وعادت عليه فيما بعد بفوائد جمة • اذ كانت تحمل فى طياتها معنيين وهو ما يمكن أن نتوقعه من اتفاقية تعقد بين طرفين مثل (هتلر) و (بيك) • وأصبح هتلر يعتبر أن بولندا قد سلخت من جانب فرنسا وكان هذا حقا • كذلك صار يعتبران رجال الجيش البولندى سوف يتقبلون النتائج المترتبة على ذلك • فستصبح بولندا تابعا مخلصا لالمانيا فتساير الخطط الالمانية والرغبات الالمانية ولقد كان (بيك) يريد أن لا يجعل نفسه يسير فى فلك أحد بمقتضى الاتفاقية ولكن كان يريد أن يزيد من استقلال بولندا عما قبل•فطالما كانت بولندا لاتجد حليفة لهاسوى فرنسا فقدكانت بذلك مضطرة أن تتبع السياسة الفرنسية وربما تجد نفسها فى الظروف الجديدة تأتمر بأمر السوفيت• أما الاتفاقية المعقودة بينها وبين ألمانيا فانها تمكنها من عدم الانصياع لتوجيهات فرنسا وتظل فى نفس الوقت محتفظة بتحالفها مع فرنسا وهو ما يمكنها اللجوء اليها لو أن ألمانيا أثارت فى وجهها المتاعب • ولم يكن القصد من عقد هذه الاتفاقية مراعاة صالح ألمانيا كما كان الحال بين ألمانيا وروسيا ولكن كان المقصود بها أن تصبح وسيلة تمكن بولندا من اقامة توازن بين الدولتين بصورة أقوى •

لقد كان هذا الاختلاف فى الاوضاع من أجل المستقبل • ففى ١٩٣٤ هيأت هذه الاتفاقية لهتلر الكثير من حرية المناورات ولكنه لم يكن بعد مستعدا للاســـتفادة منها فاعادة تسليح ألمانيا كان فى بدايته كما كان هتلر مشغولا بالمتاعب الداخلية اذ كان يلقى معارضة من قدامى مناصريه من المحافظين ومن اتباعه من رجال الثورة على السواء ولم تنته هذه الازمة الداخلية الا فى ٣٠ يونيه حين قتل جميع المعارضين بأمر هتلر وبعد ذلك بشهر واحد مات (هندنبرج) فخلفه هتلر فى منصب الرئاسة وهى خطوة أخرى فى الطريق الى تقلد السلطة العليا•ولكن لم يكن الوقتقد حان لتنفيذ سياسة المغامرات الخارجية أو أى سياسة خارجية على الاطلاق اذ أن تيار الاحداث قد تحول فجأة ضد هتلر بعد أن كان فى جانبه وكانت النمسا مسقط رأســـه هى سبب الانتكاس ففى عام ١٩١٨ فرض الاستقلال بصورة مفتعلة على تلك الدولة القميئة وهى البقية الباقية من امبراطورية آل (هابسبورج) وكان استقلال النمسا هو الضمان الاول لسلامة ايطاليا ومانع الاصـــطدام الذى حال بين ايطاليا وبين أوروبا فلو انها ضمت الى ألمانيا أو وضعت تحت سيطرتها لضاع من ايطاليا موقعها المنعزل عن أوروبا • وبالاضافة الى ذلك كان يوجد ٣٠٠ر٠٠٠ ممن يتكلمون اللغة الألمانية يعيشون فيما كان يسمى من قبل (التيرول الجنوبى) وأصبح يسمى (التواريج) وكان هؤلاء النمساويون السابقون والذين أصبحوا ايطاليين يتجهون بعواطفهم القومية نحو ألمانيا على الدوام • وبهذا يبرز خطر جديد يهدد ايطاليا لو لاقت القومية الألمانية نجاحا فى النمسا •

ولقد كان هتلر يعلم أن تحسن علاقاته مع ايطاليا سوف يعود عليه بكسب يفوق ما يجنيه من تحسن علاقاته مع بولندا اذ أنه أشار فى كتابه (كفاحى) أن ايطاليا تعتبر حليفة المستقبل ضد فرنسا وفى عام ١٩٣٤ اتضح للجميع أن قيام صداقة بين الدكتاتورين سوف يعود على ألمانيا بفوائد جمة خلال « فترة الأخطار » غير أنه كان من الصعب على هتلر أن يتخلى عن النمسا من أجل ايطاليا كما سبق أن أجل مطالبه فى دانزج والممر البولندى من أجل خاطر بولندا • ولم يكن الأمر أكثر صعوبة عليه كزعيم للشعب الألمانى الذى لم يكن يهتم كثيرا بهذه القضية التى تبدو ألمانية بينما كان الكثيرون من الألمان يثور شعورهم فيما يتعلق بدانزج والممر البولندى • ولكن الامر كان عسيرا عليه كرجل من رجال القومية الالمانية فى النمسا قبل أن يصبح زعيما للقومية فى ألمانيا • كذلك فان المسألة النمسوية اقحمت نفسها حتى ضد ما تتطلبه السياسة العليا فاستقلال النمسا كان يبدو هزيلا اذ لم تشعر مطلقا بالثقة فى نفسها منذ أن ابرمت معاهدات الصلح ولو انها لم تكن سيئة الحظ من الناحية الاقتصادية • وقد ظل جماعة الاكليروس والاشتراكيون فى النمسا يناصب كل منهما الآخر العداء بصورة لا يمكن اصلاحها وحتى التهديد من جانب ألمانيا النازية قد فشل فى الجمع بينهما • وبدلا من ذلك وضع (دلفوس) المستشار الاكليريكى نفسه تحت توجيه ايطاليا فحرضه موسولينى على تحطيم الحركة الاشتراكية النمسوية والجمهورية الديمقراطية على السواء فى فبراير ١٩٣٤

وقد تسببت تلك الحرب الاهلية بدورها فى اثارة ثائرة النازيين النمسويين فالدكتاتور الاكليريكى كان مكروها وكان النازيون يأملون أن يستولوا على الكثير من اتباع الاشتراكيين • ولقد كانوا ينقلون المال والمعدات من ألمانيا وكانت تشجعهم اذاعة (ميونيخ) ولكنهم لم يكونوا — كما كانت تظنهم الدول الاجنبية — مجرد عملاء للالمان يمكن تحريكهم واسكاتهم حسب الحاجة وكان من السهل على هتلر أن يحركهم ولكن لم يكن من السهل عليه أن يسكتهم سيما عندما كان يفكر فى انه هو نفسه ربما أصبح ثائرا نازيا نمساويا لو لم يصبح زعيما ألمانيا • وكان أكثر ما يرجى منه أن ينشط فى اثارة المشكلة النمسوية فقد قال فى مجلس الوزراء « انى على استعداد أن أطرح النمسا جانبا لمدة سنوات مقبلة ولكننى لا أستطيع أن أقول هذا لموسولينى » • أما الدبلوماسيون الألمان فانهم لما عجزوا عن الوقوف فى وجه هتلر أصبحوا يأملون أن يضطر هتلر الى التنازل عن رأيه لو انه قابل موسولينى وجها لوجه ولهذا عملوا على عقد اجتماع بين الدكتاتورين فى مدينة البندقية فى ١٤ يونيه • ولأول مرة — وان لم تكن المرة الأخيرة — استطاع موسولينى أن يقوم بما عجز عنه سواه أى حمل هتلر على « الاعتدال » •

ولكن لم يحقق الاجتماع ما كان يرجى منه اذ كان الرجلان يتفقان فى كراهيتهما لفرنسا ولروسيا السوفييتية وفى غمرة سرورهما لهذا الاتفاق نسيا أن يتفقا على المسألة النمسوية • ولقد تنازل هتلر عن كل رغبة فى ضم النمسا وكان صادقا • فلا بد أن يتقلد منصب المستشار النمسوى « شخصية ذات وجهة نظر مستقلة » ثم يعقب ذلك انتخابات حرة فيشترك النازيون بعد ذلك فى الحكومة • وكان هذا حلا بسيطا يستطيع هتلر أن يحصل به على ما يريد دون أن يعمل على الحصول عليه بالقوة • وقد أجاب موسولينى على ذلك بقوله أن النازيين لا بد أن يقلعوا عن حملتهم الارهابية فيعاملهم (دلفوس) معاملة طيبة بمجرد أن يبطل أذاهم أما هتلر فلم يعمل شيئا بالطبع ليحقق طلب موسولينى ولم يحاول أن يكبح جماح النازيين النمسويين الذين أثارت حماستهم حوادث ٣٠ يونيه فى ألمانيا فأصبحوا يتوقون الى عمل (حمام الدم) فى بلدهم • وفى يوم ٢٥ يوليه احتل النازيون فينا دار المستشارية وقتلوا (دلفوس) وحاولوا الاستيلاء على السلطة • أما هتلر فمع انه ابتهج لقتل دلفوس الا انه كان عاجزا عن تقديم المساعدة لاتباعه النمسويين أما ايطاليا فتحركت قواتها صوب الحدود النمسوية وأما هتلر فلم يسعه الا الوقوف مكتوف الأيدى بينما يعمل (شوشنج) خليفة (دلفوس) على اعادة النظام تحت رعاية موسولينى •

لقد وضعت الثورة النمسوية هتلر فى وضع من الاذلال لم يكن يتوقعه كما قلبت التوازن البديع الذى كان يأمل موسولينى أن يجنى من ورائه الخير الكثير فلقد كان يفترض أن السياسة الألمانية سوف تسير دائما فى خططها القديمة فتعمل على الحصول على مطالب من فرنسا ثم من بولندا وتترك النمسا وشأنها فيصبح سيدا يحفظ التوازن بين ألمانيا وفرنسا فيكافؤه الطرفان دون أن يرتبط بأى التزامات لأحد ولكنه وجد الأوضاع قد انقلبت فجأة • فلما تعرضت النمسا للتهديد أصبح يطلب العون من فرنسا بدلا من أن تطلبه فرنسا من ايطاليا وأصبح موسولينى نصيرا للمعاهدات وبطل السلامة الجماعية بينما كان فى الماضى يطالب بادخال التعديلات عليها على حساب الآخرين • وقد رحبت انجلترا بوضعه الجديد فظلت تبالغ فى قوة ايطاليا لسبب لا نعرفه ولم تنظر مطلقا الى حقيقة المصاعب التى تسبب ضعف اقتصـــاديات ايطاليا والى نقص الفحم فيها وقلة الصناعات الثقيلة نسبيا فكانت ايطاليا فى نظر بريطانيا « دولة عظمى » وطبيعى أن الملايين حتى من انصاف المسلحين يبدون شديدى الخطر عندما يقارنون بقواتهم المحدودة العدد • كذلك خدعت انجلترا بتفاخر موسولينى فلقد كان يسمى نفسه الرجل القوى والمحارب الأول والحاكم العظيم فصدقوه •

أما الفرنسيون فكانوا أقل استجابة أول الأمر فكان (بارتو) وزير الخارجية يأمل أن يتمكن من الوقوف فى وجه ألمانيا دون أن يدفع الثمن الذى يطلبه موسولينى وكان الحل الذى تقدم به هو (لوكارنو شرقية) فتضمن فرنسا وروســـيا مجتمعتين الوضع القائم فى شرق ألمانيا كما تضمنه بريطانيا وايطاليا فى غرب ألمانيا ولكن ألمانيا وبولندا لم ترحبا بهذا المشروع وهما الدولتان اللتان يهمهما الأمر أكثر من سواهما •

فألمانيا لا تريد أن يمتد نفوذ فرنسا الى شرق أوروبا وكان البولنديون يصرون على وجوب عدم السماح لروسيا بالعودة الى الشئون الاوروبية • أما هتلر — بموهبة الصبر التى امتاز بها — فقد جلس مستكينا تاركا لبولندا مهمة تحطيم (لوكارنو الشرقية) بدلا عنه • أما (بارتو) فقد بقى وفى ذهنه صورة غير واضحة تصور له أن فرنسا وروسيا السوفييتية سوف تعملان معا فى هذه الفرصة التى لم تكن متوقعة والتى لم تتح لهما من قبل • غير أن أيامه كانت معدودة • ففى أكتوبر ١٩٤٤ كان الملك اسكندر ملك يوجوسلافيا يزور فرنسا لتوطيد دعائم تحالفه معها ولكنه قتل فى مرسيليا بواسطة أحد الفوضويين الكرواتيين الذى كان قد درب فى ايطاليا • وكان (بارتو) الى جانب الملك فجرح باحدى رصاصات القاتل وظل دمه ينزف حتى مات • وقد خلفه (بيير لافال) وكان من طراز آخر حديث كما كان أمهر الساسة الفرنسيين الذين لا يتورعون عن أى عمل • وقد بدأ حياته كاشتراكى متطرف وكان معارضا للحرب أثناء الحرب العالمية الأولى • وكان مثل الكثيرين من مخططى الاشتراكية — كرامسى ماكدونالد مثلا لا يثق فى روسيا السوفييتية كما كان معجبا بايطاليا الفاشستيه • ومع أن (لافال) قد ترك سياسة (بارتو) تسير فى طريقها الى أن كان الميثاق الفرنسى السوفييتى فى مايو ١٩٣٥ الا أن الميثاق كان أجوفا لم تعززه المحادثات العسكرية كما كان الحال فى المحالفة القديمة كما لم تأخذه الحكومة الفرنسية مأخذ الجد وربما كان الحال كذلك فيما يتعلق بالحكومة السوفييتية • وكان كل ما حصل عليه الفرنسيون هو التعليمات التى أصدرها ستالين للحزب الشيوعى الفرنسى أن يتوقفوا عن عرقلة أعمال الدفاع الوطنى وكان هذا كافيا فى حد ذاته الى أن يحول الوطنيين الفرنسيين الى انهزاميين •

وكان لافال يضع كل آماله فى ايطاليا فزار روما وكان سعيدا بأن موسولينى قد شغلته المشكلة النمسوية عما كان يطالب به من تعديل فى المعاهدات أما هتلر فكان من جانبه يميل الى تقوية الجبهة المتحدة ضد ألمانيا وكان يقتطع مما تبقى من القيود المفروضة على تسليح ألمانيا فى استخفاف متزايد وأخيرا أعلن عودة التجنيد الاجبارى فى مارس ١٩٣٥ وهنا أبدى المنتصرون السابقون علامات المقاومة • ففى ابريل ١٩٣٥ عقد اجتماع كبير فى (ستريزا) مكون من (ماكدونالد) و (سيمون) و (فلاندان) رئيس وزراء فرنسا و (لافال) ثم موسولينى بجلبته وضوضائه • ولم يسبق أن حدث مثل هذا منذ اجتماعات المجلس الأعلى أيام لويد جورج ولقد كان هذا آخر مظهر من مظاهر تضامن الحلفاء وصدى ساخرا لأيام النصر وكان أغرب ما فى الاجتماع أن الدول الثلاث العظمى التى عملت على « جعل العالم آمنا من أجل الديمقراطية الحرة » كان يمثلها الآن اشتراكيون متحولون منهم اثنان (ماكدونالد ولافال) كانوا يعارضون فى الحرب بينما ثالثهم موسولينى قد حطم الديمقراطية فى بلده • ولقد صممت كل من فرنسا وبريطانيا وايطاليا تصميما أكيدا على أن تحافظ على التسوية الحالية فى أوروبا بمقتضى المعاهدة وأن تقاوم أى محاولة يقصد من ورائها تغيير التسوية باستعمال القوة • ولقد كان هذا

عرضا سهلا رائعا ولو أنه جاء متأخرا بعد أن حدث الكثير من التغييرات فعلا . وهل كان واحد من هؤلاء الثلاثة يعني مايقول ؟ لقد وعد الايطاليون بارسال جنودهم للدفاع عن بلفور ووعد الفرنسيون بارسال جنودهم على التيرول أما الحقيقة فهي أن كلا من الدول الثلاث كانت تأمل في الحصول على مساعدة الآخرين دون أن تقدم هي المعونة في مقابل ذلك ، كما كانت كل منها تبتهج وهي ترى الآخرين في مأزق .

أما هتلر فقد تلقى تعزيزا قويا من العواطف . ففي يناير ١٩٣٥ عقد استفتاء في اقليم السار عن مستقبله وكان قد انسلخ عن ألمانيا عام ١٩١٩ . وكان معظم سكانه من العمال الصناعيين من الديمقراطيين الاشتراكيين أو الكاثوليك وكانوا يعلمون ماذا ينتظرهم في ألمانيا من دكتاتورية وتحطيم لاتحاداتهم واضهاد من الكنائس « المسيحية » ومع كل ذلك صوت تسعون في المائة مطالبين بالعودة الى ألمانيا وذلك في تصويت حر لا شك فيه . وهنا قام الدليل على أن الدعوة من أجل القومية الألمانية لم يعد في الامكان اعتراضها — في النمسا وفي تشيكوسلوفاكيا وفي بولندا . ولما وجد هتلر أن كل هذه القوة تسانده لم يعد يهتم بمظاهر الدبلوماسية العتيقة . فبعد أقل من شهر منذ اجتماع (ستريزا) ألغى ما تبقى من شروط معاهدة فرساى لنزع السلاح « نظرا لأن الدول الأخرى لم تف بما تعهدت به من نزع سلاحها وكانت ملزمة بالقيام به » . ولكنه في نفس الوقت تعهد باحترام التسوية الاقليمية المنصوص عنها في فرساى وفي لوكارنو. فماتت بذلك السياسة المصطنعة للامن وهو دليل قاطع على أن وضع سياسة ما لا يمكن أن يصلح بديلا عن العمل ولكنه يهيىء الفرص من أجله . وهكذا تمكن هتلر من التخلص من أعبـــاء القيود التى فرضت على تسليح ألمانيا وذلك في مدة عامين أو أكثر قليلا ولم يسبق له أن وجد نفسه في مواجهة مثل ذلك الخطر . أما تجارب هذين العامين فقد أكدت ما سبق أن تعلمه من السياسة الألمانية فقد كان يعتقد أن الأعصاب القوية هي التي يكتب لها النصر دائما وان « تهويشه » لو كان تهويشا لما كانت هناك حاجته اليه ومنذ ذلك الحين أخذ يسير الى الأمام « بثقة الذى يسير أثناء نومه » . ولقـــد أكدت أحداث الاثنى عشر شهرا التالية هذه الحقيقة .

الفصل الخامس

المشكلة الحبشية ونهاية لوكارنو

ماتت معاهدة فرساى ففرح الجميع لموتها عدا فرنسا لان الذى حل محلهاهو النظام الذى وضعته معاهدة لوكارنو وهو الذى قبلته ألمانيا راضية قبلذلك ثم قبله هتلر من تلقاء نفسه • وقد عبرت انجلترا عن رأيها فى (جبهة ستريزا) بأن أبرمت فى الحـــال اتفاقيةمع هتلر حددت بها قوة الاسطول الالمانى بما يساوى ثلث قوة أسطولها (ولم يكن الاسطول الالمانى قد خرج للوجود بعد) • وقد يكون لعمل انجلترا هذا مايبرره كاجراء معقول لانقاذ نظام تحديد القوى البحرية بعد أن انهار مؤتمر نزع السلاح غير أنه لم يكن يتفق مع مانادت به دول جبهة ستريزا منوجوب احترام المعاهدات• وقد أبدى الفرنسيون كثيرا من الامتعاض نحو الاتفاقية البحرية المعقودة بين انجلترا والمانيا زاعمين بأن هتلر كان على وشك الاستسلام عندما جاءته النجدة من انجلترا عندما تخلت عن الجبهة المشتركة • وهذا الرأى الذى لازال ينادى به المؤرخون الفرنسيون لايقوم عليه دليل من ناحية ألمانيا ويبدو محتملا أن هتلر كان راضيا بأن يظل منتظرا حتى تتفكك جبهة ستريزا •

ولقد كان فى هذه المرة أيضا على صواب • فاجتماع ستريزا كان يهدف الىتكوين حلف قوى يقف فى وجه العدوان ولكنه بدلا من هذا فتح الباب أمام احداث لمتقتصر على تفكيك ذلك الحلف ولكنها أطاحت كذلك بعصبة الامم وأطاحت معها بجميع نظام الامن الجماعى ولقد تركزت تلك الاحداث فى الحبشة وكان ظاهرها واضحا أما أهدافها ومدلولاتها فلاتزال سرا غامضا • فالحبشة كانتمنذ عهد بعيد هدفا لأطماع ايطاليا كما كانت مسرح الهزيمة الماحقة التى حلت بهافى(عدوه) عام١٨٩٦•وكانتالرغبة فى الاخذ بثأر عدوه تكمن وراء الغطرسة الفاشستية التى بدأت منذ أن تولى موسولينى الحكم فى عام ١٩٢٢ • وكانت الظروف فى ايطاليا لا تشجع على الدخول فى حرب • فالفاشيستية لم يكن هناك مايهددها من الناحية السياسية وكانت ظروف ايطاليا الاقتصادية فى جانب السلام ولا تحتمل التضـخم الذى تســـببه الحرب كذلك لم يكن مركز ايطاليا الدبلوماسى فيما يتعلق بالحبشة يتهدده أى خطر • ومع أن الحبشة انضمت الى عصـبة الامم عام ١٩٢٥ فان هذا كان بوحى من ايطاليا لتقف فى وجه ما اســـمته بالاطماع البريطانية هناك وكانت بريطانيا هى التى عارضت فى انضمام الحبشة لعصبة الامم بدعوى انها على درجة من الهمجية لا تســـمح لها بالاشتراك فى مجتمع متمدين فى جنيف •

ولقد كانت كل من انجلترا وفرنسا تعترف بأن الحبشة تدخل ضمن (نطـــاق المصالح) الايطالية كما أكدت جبهة ستريزا هذا الاعتراف . وربما أزعج الايطاليين وجود رجال الاعمال الامريكيين في الحبشة وما لاقوه من ترحيب من (هيلاسيلاسى) امبراطور الحبشة ولكن هذا مجرد ظن . فموسولينى نفســه كان يقول بأنه يريد أن يستفيد من الظروف التى كانت فيها ايطاليا مسلحة تسليحاقويا- على الاقل من الناحية النظرية - بينما لم تكن الدول الاخرى قد بدأت التسلح بعد . وكان يشير بوجه خاص الى ماكانت تتعرض له النمسا من تهديد ألمانى سوف يتجدد بلا شك . فكان يرى أن الجيش الايطالى يجب أن يستولى على الحبشة فى الحال حتى يتمكن من العودة الى منطقة (بريز) للدفاع عن النمسا عندما تكون ألمانيا قد تسلحت من جديد . ولكن هـــذا تفسير لا يتقبله العقل . فلو كانت النمسا حقيقة فى خطر لركز موسولينى قواتـــه للدفاع عنها دون أن يشغله عن ذلك أمر الحبشة . ولعله كان يحس بأنه لابد وأن تضيع النمسا من يده ان عاجلا أو آجلا وعلى هذا فان استيلاءه على الحبشة سوف يعوض عليه ذلك . أما مايغلب على الظن فهو انه قد أسكرته المظاهر العسكرية الرنانة التى بدأها والتى أخذ هتلر يبزه فيها .

وعلى أى حال فانه لاسباب لم تتضح بعد تماما ، قرر موسولينى فى عام ١٩٣٤ أن يستولى على الحبشة وقد لقى تشجيعا من لافال الذى زار روما فى يناير ١٩٣٥ اذ كان لافال يريد أن يضم موسولينى الى جانبه فى جبهة تقف فى وجه ألمانيا ولاشك أنه فى سبيل هذه الغاية أغدق على موسولينى الكثير من الكلمات المعسولة . وطبقا لاحـــدى الروايات فانه شجع المطامع الايطالية على شرط أن تتم سيطرتها على الحبشة بالوسائل السلمية كما بسطت فرنسا سلطتها على مراكش كما تدعى . وتقول رواية أخرى أن لافال وعد بالعمل على أن لاتقوم عصبة الامم بعمل يكون من شأنه الحاق الضرر بايطاليا اذا اشتبكت فى حرب . وكذلك العمل بوجه خاص على أن لايحدث مايقف فى ســـبيل امداد ايطاليا بالبترول . وتشبه هذه القصة ماحدث فيما بعد عندما فرضت العقوبات على ايطاليا ففى يناير ١٩٣٥ لم يكن لافال يتوقع ماسوف يحدث وربما كان لافال قد قام بتشجيع موسولينى بصورة عامة ليحافظ على روحه المعنوية . وقد أتاح اجتماع ستريزا الفرصة لموسولينى ليسبر غور انجلترا . ولكن ليس فى الامكان القول بأنه فعل ذلك أو ماذا تعلم منه . وتقول احدى الروايات أن موسولينى استعرض المشاكل الاوربية استعراضا سريعا مع ماكدونالد وسيمون ثم سأل بعد ذلك عما اذا كانت هناك مسألة أخرى تريد انجلترا أن تناقشها فلما هز كل من ماكدونالد وسيمون رأســه بالنفى تساءل عما اذا كان لهما اعتراض على مغامرته فى الحبشة . ولما كان خبير الشئون الافريقية فى وزارة الخارجية قد رافق الوزيرين الانجليزيين فى ستريزا فلا يمكن القول اذن أنه لم يكن هناك مايقال للزملاء الايطاليين . وعلى أى حال فانه لم يكن فى وسع انجلترا أن تتجاهل زيادة التسلح الايطالى فى منطقة البحر الاحمر فقد تشكلت لجنة بوزارة الخارجية لدراسة تطورات الموقف فقالت ان استيلاء ايطاليا على بلاد الحبشـــة لن يؤثر على المصالح البريطانية الامبراطورية .

غير انه كانت هناك مشكلة واحدة • فالحبشة عضو فى عصبة الامم ولم تكن الحكومة البريطانية تريد أن تتكرر المشاكل التى نجمت عن غزو اليابانيين لمنشوريا • فانجلترا تريد من ناحية أن تحتفظ بعصبة الامم كأداة للارغام وكذلك لتسوية الامور مع ألمانيا • ومن ناحية ثانية كانت ترى أن العقبات تقف فى طريقها من ناحية الرأى العام البريطانى • فالدعاية لعصبة الامم كأداة لحفظ الامن الجماعى كانت فى أوجها فكم من مشكلة معنوية قد حلت عن هذا الطريق فالابقاء على عصبة الامم كان يعتبر قناعا يستتر وراءه جميع الذين يتملكهم الرعب من الدفاع عن معاهدة فرساى • فالامن الجماعى الذى كان من المفترض أن يعبىء قوى اثنين وخمسين دولة جاء بوسيلة يقاوم بها العدوان دون أى زيادة فى تسلح بريطانيا• وفى خريف عام ١٩٣٤ ظهر ماسمى خطأ بالاقتراع على السلام أن عشرة ملايين شخص فى بريطانيا كانوا يفضلون توقيع العقوبات الاقتصادية وان ستة ملايين كانوا يفضلون فرض العقوبات العسكرية ضد المعتدى الذى تدينه عصبة الامم وهوتعبير عن الرأى كان أبعد مايكونعن اقرار السلام• وليس من الحق أن نقول بأن الحكومة البريطانية انما قامت باستغلال هذا الشعور • فالوزراء البريطانيون عادة يشاركون معاصريهم مبادئهم ومتاعبهم وقد فعلوا نفس الشيء الآن الى حد ما • ومع ذلك فقد كانوا يدخلون فى تقديرهم انهم على أبواب انتخابات عامة وكانت مسألة الأمن الجماعى تتيح لهم فرصة ثمينةلشطر معارضة حزب العمال حيث كانقسممنه ـ وهم الاغلبية ـ يقفون فىصف عصبةالامم بينما القسم الآخر ـ وهم أكثر الحزب ضجيجا ـ يعترضون على أى تعضيد يقدم للرأسماليين أو أى تعاون مع حكومة بريطانية استعمارية •

هذه كل الافتراضات • فلا أحد يدرى لماذا سلكت الحكومة البريطانية الطريق الذى سلكته وربما كانت الحكومة البريطانية نفسها لاتدرى فكان عليها أن تركب حصانين فى وقت واحد اذ كانت تحاول استرضاء موسولينى وتريد فى نفس الوقت أن تبقى على عصبة الامم ونفوذها وفى سنة ١٩٣٥ ذهب ايدن الى روما مؤملا أن يجد مخرجا من تلك المشاكل وكان اذ ذاك وزيرا صغيرا يتولى الشئون الخاصة بعصبة الامم وقد عاد ومعه عرض محدد : فبريطانيا تعطى الحبشة مخرجا الى البحر عن طريق الصومال البريطانى وتتنازل الحبشة مقابل ذلك لايطاليا عن بعض أراضيها الواقعة على أطراف امبراطوريتها • كذلك جاء يحمل تحذيرا : ذلك أنه يجب أن لايخرقميثاق عصبة الامم خرقا صريحا • ولقد كان محترفو السياسةفى وزارة الخارجية الايطالية على استعداد لقبول العرض البريطانى أما موسولينى فلم يتحرك اذ كان يسعىللحصول على المجد عن طريق نصر حربى لا عن طريق بعض التعديلات فى الحدود • وقد عقد موسولينى وايدن اجتماعا صاخبا هاجم فيه موسولينى نفاق بريطانيا الذى ظهر فى

المعاهدة البحرية المعقودة بينها وبين ألمانياوظل ايدن يردد مسألة المبادىء الساميةوأخيرا عاد ايدن الى بريطانيا مشبعا بالكراهية ضد الايطاليين وهى صفة ظلت تلازمه فيما بعد٠ أما وزارة الخارجية البريطانية فكانت أقل هلعا اذ كانت لاتزال تؤمل فى الوصول الى تسوية للنزاع بين ايطاليا والحبشة ولقد كانت واثقة من أن الاحباش قادرون على المقاومة وأن موسولينى سوف يلقن درسا فى الاعتدال اذا حلت به المتاعب فتأتى انجلترا عند ذلك بتسوية تعيد جبهة ستريزا كما تعيد لعصبة الامم احترامها ٠

وفى ذلك الوقت بالذات تولت السياسة الخارجية البريطانية زعامة قوية ، ففى يوليه ١٩٣٥ خلف بولدوين ماكدونالد فى رئاسة الوزارة وانتهزت هذه الفرصة لاجراء بعض التعديلات فى المناصب ٠ فسيرجون سيمون اعتبر فاشلا فى سياسته تجاه منشوريا ــ سواء أكان ذلك صحيحا أم خطأ ــ وكان يعتبر فى نظر الرأى العام مسرفا فى سياسة التسوية ومسرفا فى محاولة خلق المبررات للمعتدى ٠ وعلى هذا ترك وزارة الخارجية وخلفه فيها سير صمويل هور الذى كان فى ذكاء أى وزير للخارجية البريطانية فى القرن العشرين ٠ وقد لايكون هذا المستوى رفيعا جدا ولقد كان التهور هو احدى نقط الضعف فيه فكان يصارع المتاعب بدلا من أن يتحاشاها كما ظهر منه فى آخر حياته عندما كتب دفاعا عن (التهدئة) بينما التزم الآخرون الصمت فكانوا أكثر تعقلا وكان يعرف اخطار (الامن الجماعى) الذى كانت تضطلع فيه انجلترا بجميع المسئوليات بينما يكتفى الآخرون بالكلام ولكنه كان يظن أن تلك الاخطار يمكن التغلب عليهالو أن انجلترا كانت أكثر تصميما فى سياستها فتتيح الفرصة لغيرها لتسير على منهاجها ٠ وفى سبتمبر ١٩٣٥ صرح هور فى جنيف بأكبر تأكيد لدعم مبدأ (الامن الجماعى) وكان ذلك أقوى ماصرح به سياسى بريطانى من قبل ٠ فلما هوجمت الحبشة بالفعل فى اكتوبر تزعم هو حركة تطبيق العقوبات على ايطاليا فاستجاب له أعضاء عصبة الامم ٠ وكانت أجهزة العقوبات الاقتصادية قد أعدت بعد مشكلة منشوريا فأخذت هذه الاجهزة فى العمل فى جميع بلاد العصبة ماعدا الدول الصديقة لايطاليا وهى البانيا والنمسا والمجر ٠٠ ولم تكن حلقة العقوبات محكمة اذ بدأت الشكوى من ثغرات أوسع فى تلك الحلقة أحدثتها ألمانيا والولايات المتحدة الدولتان الكبيرتان اللتان لم تكونا عضوين فى عصبة الامم ولكن هذا الامر كذلك لم يكن عظيم الخطر اذ أن هتلر كان يسعى للحصول على صداقة بريطانيا بعد عقده المعاهدة البحرية معها كما كان سعيدا بالنزاع الذى استجد بين ايطاليا وبين فرنسا وعلى هذا كان من صالحه أن يظهر بمظهر التعاون مع عصبة الامم ولو بصورة غير رسمية ٠ ولاسباب اقتصادية صريحة لم يكن الالمان يرغبون من الناحية العملية أن يرهقوا بأعباء الليرات الايطالية التى لم تكن لها قيمة ٠ ولذا قطعت ألمانيا علاقاتها التجارية مع ايطاليا ٠ أما الولايات المتحدة بما كانت تنتهجه من سياسة حيادية فانها لم تقف فى صف أى من الجانبين ولكنها منعت تجارتها مع الجانبين المتحاربين ولما كانت الولايات المتحدة لاتوجد لها علاقات تجارية مع الحبشة فكان اجراؤها فى الواقع يعتبر عقوبة واقعة على ايطاليا ٠

ولقد كان ضعف العصبة ينبع من داخلها • فمع أن فرنســـا لم تكن تستطيع مناصبة انجلترا العداء الا أن لافال قد هاله تصـــدع جبهة ستريزا فأخذ الفرنسيون يرددون ماسبق لانجلترا أن قالته عن سياسة التوفيق ومعارضتها لسياسة التطبيق التلقائي لمبدأ (الامن الجماعي) ولقد اشتركت فرنسا فى تطبيق العقوبات ولكن لافال أخذ يؤكد لموسولينى الآن ـ ان لم يكن قد أكد له من قبل ـ ان موارد البترول الايطالية لن يتعرض لها أحد • وكان هناك خلاف في وجهات النظر فى انجلترا كذلك • ولم يكن الانقسام واقعا فقط بين (المثاليين) الذين يناصرون عصبة الامم وبين المتشككين الذين كانوا يقولون بأن سياسة الامن الجماعى تجر فى أذيالها دائما الخطر والاعباء لبريطانيا دون أن يكون لذلك مقابل من الكسب • كذلك كان الانقسام بين الاجيال فالشبان ويمثلهم ايدن كانوا يتعصبون ضد ايطاليا وكانوا أكثر ميلا لمصـــالحة ألمانيا • أمـــا التقليديون وكانوا أكثر قوة فى وزارة الخارجية فكان كل اهتمامهم موجها نحو الخطر الالمانى وكانوا ينظرون الى عصبة الامم كمصـــدر للمتاعب ويريدون العمل على اعادة ايطاليا الى حظيرة الجبهة الموحدة ضد ألمانيا•وكان يناصر هذا المبدأ (فانسيتار)الوكيل الدائم لوزارة الخارجية فمنذ البداية حتى النهاية وكان لايتردد فى الدعوة الى محالفة ايطاليا التى كان يجد فيها حلا لكل مشكلة وحتى ونستون تشرشل الذى أخذ يشعر بخطر ألمانيا بقى بعيدا عن البلاد فى خريف ١٩٣٥ حتى يتحاشى ابداء رأيه الى جانب ايطاليا أو ضدها فالصورة الخارجية للسياسة البريطانية كانت الى جانب(الامن الجماعى) أما خلف الستار فقد كانت هناك شخصيات قوية مســـتعدة للتقدم بصـــورة معدلة للتسوية التى رفضها موسولينى فى شهر يونيه السابق • وكان امبراطور الحبشـــة فى ذلك الوقت عنيدا فى موقفه واثقا من أن موقفه كشهيد فى تعلقه بمبدأ الامن الجماعى سوف يدعم عرشه المتداعى وهذا هو الذى حدث فعلا وان كان ذلك قد استغرق زمنا أطول مما كان يتوقع •

أما فى انجلترا فان أنصار التفاهم لم تثبت عزائمهم بهذه الصـــدمة الاولى • فالخبراء العسكريون فى بريطانيا وفى كل مكان آخر كانوا واثقين من أن استيلاء ايطاليا على الحبشة ـ وان كان محتملا ـ الا أنه سوف يستغرق زمنا طويلا يمتد الى فصلين من فصول الشتاء وسوف تكون المتاعب الاقتصادية عندئذ قد قلمت اظفار موسولينى كما أن الهزيمة تكون قد قلمت أظفار امبراطور الحبشة فينفسح عن ذلك المجال للتوفيق وعلى هذا لم يكن هناك مايدعو للعجلة • وقد تلقت تقريرا من مستشاريها فى البحرية يقول بأن الاسطول البريطانى فى البحر الابيض وان كان قد تعزز مركزه بجميع قطع أسطول الجزر البريطانية الا أنه كان أضعف من أن يواجه الاسطول الايطالى وسلاح الطيران مجتمعين وكان فى هذا ما يقوى الرأى القائل بالحذر والتمهل • فمن الخير أن يقوم الزمن بتلقين دروس الاعتدال للجانبين بدلا من استفزاز موسولينى للهجوم بالضغط عليه مما قد يؤدى الى تدمير الاسطول البريطانى • ولكن الرأيين كلاهما كانا خاطئين اذ

لم تمض بضعة شهور حتى اتضح أن الرأى العسكرى كان خاطئا عندما نجحت القوات المسلحة الايطالية فى اخضاع الحبشة فى مايو سنة ١٩٣٦ كذلك كان الرأى البحرى خاطئا وظهر ذلك الخطأ فى أحلك أيام الحرب العالمية الثانية عندما أحرز الاسطول البريطانى نصرا بعد نصر على الايطاليين بالرغم من أنه كان يواجه قوات أكبر مما كان موجودا فى عام ١٩٣٥ • ولا شك أنه كانت هناك أخطاءبحسن نية اذ كانت استنتاجات الخبراء خاطئة فالقواد العسكريون قدروا الجيش الايطالى بأقل من حقيقته بينما بالغ رجال البحرية فى قوة الاسطول •

وهناك ناحية أخرى • فالخبير ماهو الا كائن بشرى تنعكس على آرائه الفنية صورة من الآراء السياسية • فقادة الجيش والبحرية يكونون واثقين من النصر اذا كانوا يعتزمون القتال ولكن يجدون الحجج التى يتقدمون بها ضدالحرب اذا وجدوا أن تلك الحرب أمرا غير مرغوب فيه من الناحية السياسية • ولقد كان معظم قادة الجيش والبحرية البريطانيون فى ذلك الوقت من كبار السن وكانوا جميعا محافظين من الطراز الاول كما كانوا من المعجبين بموسولينى اذ كانوا يرون فى الفاشيستية صورة من الفضائل العسكرية • وكانوا من ناحية أخرى يمقتون عصبة الامم وكل مايرتبط بها فكانت جنيف فى نظرهم مؤتمرا لنزع السلاح وكانت تمثل التنازل عن السيادة القومية بالجرى وراء أهداف مثالية عسيرة التحقيق • أما الذين كانوا يرفعون عقيدتهم منادين بتطبيق العقوبات على ايطاليا فقد قضوا سنوات قبل ذلك يعارضون التسلح البريطانى وخبراء بريطانيا العسكريين • ولم يكن منتظرا أن هؤلاء الخبراء يريدون الآن أن يخوضوا حربا كوكلاء لاتحاد عصبة الامم • أما عن قادة الاسطول بصورة خاصة فكانوا يشعرون برغبة ملحة فى الرجوع على من سبق أن ضايقوهم فيعلنون أنه بسبب الدعوة الى نزع السلاح أصبحت بريطانيا الآن لاتقوى على المخاطرة بدخول الحرب • وهكذا وصمم خلفاء (نلسن) أنفسهم بما أبدوه من آراء تدل على الخوف مما ترتب عليهم طردهم فى الحال من مجلس ادارة الامبراطورية •

ولقد اتضح أن الوقوف الى جانب عصبة الامم كان مناورة بارعة فى السياسة الداخلية وان لم يكبح جماح موسولينى • ففى خلال العامين السابقين كان حزب العمال المعارض هو الذى يدير دفة السياسة الخارجية وكان يأخذ على الحكومة الوطنية أمرين، باتهامها بالفشل فى تحقيق الامن الجماعى ثم بمايقال عن قضائها على مؤتمر نزع السلاح وبهذه الطريقة كان حزب العمال يأمل فى أن يكسب أصوات دعاة السلم والمتحمسين للعصبة على السواء • ولكن بلدوين بمهارته فوت عليهم غرضهم عندما وضع العمال فى مأزق باعلانه سياسة « توقيع جميع انواع العقوبات عدا قيام الحرب » وهو المبدأ الذى كان ينادى به صمويل هور فى جنيف • فلو أنهم طالبوا بتوقيع عقوبات أشد مما قد يؤدى الى الحرب فانهم يفقدون أصوات دعاة السلم ولو أنهم هاجموا عصبة الامم

باعتبارها صورة زائفة خطرة فانهم يفقدون أصوات أنصار العصبة • وبعد نقاش حاد قرر حزب العمال أن يفعل الامرين فكانت النتيجة المحتومة • وفى نوفمبر ١٩٣٥عملت انتخابات عامة بذلت فيها الحكومة جهد استطاعتها لارضاء أنصار العصبة ولم تقم بما يكفى لازعاج المعارضين للحرب • أما حزب العمال الذى كان ينادى بتطبيق عقوبات أشد فقد وصم بأنه حزب الحرب ففازت الحكومة الوطنية بأغلبية تقرب من مائتين وخمسين وقد ظهر فيما بعد أن هذا كان انتصارا للنفاق • ومع ذلك فسياسة « جميع العقوبات عدا الحرب » كانت السياسة التى يعتنقها أغلب الانجليز بما فى ذلك أنصـــار حزب العمال • فلقد كانوا من أنصار العصبة على أن لاتؤدى بهم الى الحرب وكان هذا الرأى ينطوى على شىء من الحكمة • فما هى الجدوى من وجود مؤسسة لمنع وقوع الحرب لو أن نشاطها أدى الى وقوع حرب ؟ وكانت هذه صورة جديدة للمشكلة التى واجهت المنتصرين منذ ١٩١٩ • فلقد خاضوا غمار « حرب لانهاء الحروب » فكيف اذن يشـــعلون نيران حرب جديدة ؟

ولما انقضى أمر الانتخابات كان على الحكومة أن تواجه النتائج حين كانت الرغبة فى جنيف تتزايد مطالبة بقطع موارد البترول عن ايطاليا اذ سوف يكون معنى ذلك الوصول الى تسوية تنهى الحرب وكان السبيل ممهد الاحياء المشروع الذى كان ايدن قد حمله الى روما فى شهر يونيه والذى رفضه موسولينى حينذاك ولقد عدله (فانســـيتارت) بحيث أصبح أكثر ملاءمة لايطاليا اذ تحصل ايطاليا على الانتداب على السهول الخصيبة التى استولت عليها الحبشة منذ وقت قصير ويحتفظ امبراطور الحبشة بامبراطوريته فى المنطقة الجبلية وتسمح له بريطانيا بممر الى البحر عن طريق احدى الموانى فى الصومال البريطانى وهذا هو الشرط الذى هاجمته جريدة التيمس ونعتته بأنه (ممر للجمال) ففى أوائل ديسمبر حمل هور المشروع الى باريس حيث رحب به لافال وكان موسولينى على استعداد لقبوله حين حذره خبراؤه بأن الحرب لاتسير فى صالحه وكانوا مخطئين كسابقتهم وكانت الخطوة التالية هى حمل المشروع الى جنيف وهناك يفرض على امبراطور الحبشة بموافقة العصبة • وهذا مثال جميل تكرر فى ميونيخ حين تستخدم عناصر السلام ضد ضحايا العدوان •ولكن الأمور سارت على غير ماكان يرجى لها • فما كاد هور يسافر من باريس فى طريقه الى جنيف حتى ظهر فى الصحف الفرنسية مضمون ذلك المشروع الذى كان يطلق عليه (مشروع هور ـ لافال)ولم يدر أحد كيف حدث ذلك • وربما كان لافال يتشكك فيما اذا كانت الحكومة الوطنية تســـاند هور مساندة تامة • وعلى هذا سمح للمشروع أن يتسرب الى الصحف وبذا يوصم بلدوين ومن معه • وربما كان هريو أو أحد اعداء لافال هو الذى كشــف عن المشروع حتى يقضى عليه معتقدا بأن عصبة الامم لو نجحت فى العمل ضد موســولينى فانها ســوف تنقلب على هتلر • وربما لم يكن هناك سر مطلقا وراء تسرب المشروع سوى رغبة رجال الصحافة فى فرنسا ان يستغلوا اتصالاتهم برجال الدولة فى باريس •

وعلى أى حال فقد أحدث تسرب المشروع انفجارا فى الرأى العام البريطانى فان ذوى العقول الراجحة من انصار عصبة الامم الذين عملوا على عودة الحكومة الوطنية شعروا بالمرارة وبأنهم قد خدعوا ولقد خرج هور نفسه من الميدان بسبب كسر أنفه وهو يتزحلق على الجليد فى سويسرا • وقد اعترف بلدوين أول الامران المشروع قد أقرته الحكومة ثم عاد فهاجم المشروع ومعه سير صمويل هور وقد جاء ايدن خلفا لهور فى وزارة الخارجية فاختفى (مشروع هور ــ لافال) ولم يحدث شىء خلاف ذلك أما الحكومة البريطانية فظلت على رأيها من ضرورة تجنب الحرب •وقد أرسلتالى موسولينى تستفسر منه عما اذا كان يمانع فى قطع البترول عنه فلما أجاب بأنه يمانع فى ذلك نجحت الحكومة البريطانية فى مقاومة تطبيق عقوبة البترول فى جنيف • وقد ظل أمر التسوية معلقا فى انتظار الوصول الى صيغة معدلة لمشروع هور ــ لافال عندما انتهت الحملة • اذ أن موسولينى كان أسرع من خبراء الانجليز ومن خبرائه هو فلقد كـــان أركان حربه يقولون فى يأس بضرورة الانسحاب الى الحدود القديمة بعد المتاعب الاولى ولكن موسولينى بدلا من أن يعمل ذلك أرسل (بادوليو) رئيس أركان حربه ومعه تعليمات بانهاء الحرب بأسرع ما يستطيع ولقد كان له ماأراد لأول مرة • ولقد كان يقال أن معنويات الجيوش الحبشية قد تحطمت بسبب استعمال الغازات • ولكن جيوش الحبشة كانت مثل امبراطوريتها مجرد صـــــورة أكثر منها حقيقة اذ سرعان ماتفككت وتلاشت • ففى أول مايو غادر هيلاسيلاسى الحبشة وبعد أسبوع أعلن موسولينى قيام امبراطورية رومانية جديدة •

لقد كانت هذه هى الضربة القاضية التى أطاحت بعصبة الامم كما أطاحتبالحبشة اذ أن اثنين وخمسين أمة قد تكاتفت للوقوف فى وجه العدوان وكانت النتيجة أن فقد (هيلاسيلاسى) كلبلادهبدلا منأنيفقد نصفها فقط •ولماكانت عصبة الامم قدأصبحت بحيث لايمكن اصلاحها فقد أساءت الى ايطاليا مرة ثانية حين سمحت (لهيلاسيلاسى) بعرض قضيته على مجلس العصبة ثم عادت فطردته بحجة أنه تمسك بميثاق العصبة بصورة جدية • وقد سبق لكل من اليابان وألمانيا بالانفصال عن العصبة وحذت ايطاليا حذوهما فى ديسمبر ١٩٣٧ • أما العصبة فقد ظلت قائمة لا لشىء الا أنها تعامت عما كان يجرى حولها • وعندما تداخلت قوات أجنبية فى الحرب الاهلية الاسبانية لجأت الحكومة الاسبانية الى عصبة الامم فبدأ مجلسها أول الامر « بدراسة المشكلة » وعبر عما يخالجه من أسف ثم وافق على عرضالمسألة فى جنيف • وفى سبتمبر ١٩٣٨ اجتمع مجلس العصبة وكانت أزمة تشكوسلوفاكيا قد بلغت ذروتها وأفلحت العصبة فى أن تقضى دورتها دون أن ترى أن هناك أزمة قائمة • وفى سبتمبر ١٩٣٩ لم يهتم أحـــد بابلاغ عصبة الامم أن الحرب قد اشتعلت • وفى ديسمبر ١٩٣٩ طردت العصبة روسيا السوفيتية من عضويتها بسبب غزوها (لفنلندا) وقد راعى مجلس العصبة حيـــاد سويسرا بمنتهى الاخلاص فلم يذكر شيئا عن الحرب الدائرة بين ألمانيا وبين دول الغرب وفى ١٩٤٥ عقدت العصبة آخر اجتماع لها كى تستعد لتسليم أمورها الى هيئة الامم •

لقد كان موت العصبة في الواقع في ديسمبر ١٩٣٥ لا في عام ١٩٣٩ ولا في عام ١٩٤٥ اذ رأيناها في أحد الايام هيئة قوية تفرض العقوبات فبدت بذلك أقوى منها في أى وقت مضى فاذا بها في اليوم التالى صورة جوفاء يتخلى عنها كل انسان بأسرع ما يستطيع وكان الذى أجهز على العصبة هو تسرب أخبار مشروع هور — لافال ومع ذلك فقد كان هذا المشروع معقولا جدا يتمشى مع ماقامت به العصبة من قبل من أعمال التوفيق ابتداء من كورفو الى منشوريا • فلقد كان المشروع يهدف الى انهاء الحرب وارضاء ايطاليا وترك رقعة من الارض لابأس بها للحبشة • أما العيب الرئيسى في المشروع طبقا للظروف التى كانت سائدة في ذلك الحين فكان روح التعقل التى اتسم بها • فمن وجهة نظر العصبة لم يكن اتخاذ اجراء ضد ايطاليا امتدادا معقولا للسياسة العملية بل كان استعراضا للمبادىء في صورة بريئة بسيطة • فلم يكن هناك خطر يهدد أى « مصلحة » مادية في الحبشة حتى فيما يتعلق بايطاليا •

اهتم موسولينى باستعراض قوة ايطاليا لا بالحصول على مكاسب عملية لامبراطوريته لو كانت هناك مكاسب • وكانت دول العصبة مهتمة باثبات وجود ميثاق العصبة لا بالدفاع عن مصالح تلك الدول • ويبدو أن مشروع هور — لافال كان يدل على أنه لايمكن التوفيق بين المبادىء وبين السياسة العملية • وكانت نتيجة ذلك مزيفة • فكل سياسى يتصف بشىء من الذكاء يمكنه الجمع بين الامرين مع اختلاف في المقادير • ولكن هذا كان أمرا تقبله الجميع في عام ١٩٣٥ فمنذ ذلك الحين حتى نشوب الحرب كان (الواقعيون) و (المثاليون) على طرفى نقيض • فرجال السياسة العمليون — سيما من كان منهم في الحكم — كانوا يتبعون سياسة الواقعية دون تفكير في المبادىء أما المثاليون المخدوعون فقد كانوا يرفضون الاعتقاد بأن رجال الحكم يمكن أن يؤتمنوا على السلاح بأى حال •

أما الفئة التى حاولت التقريب بين وجهتى النظر فكانت أسوأ من الجميع • فايدن مثلا ظل وزيرا للخارجية حتى يتمكن من انقاذ ما يمكن انقاذه والواقع انه كان ستارا يختفى وراءه رجال السياسة القدماء من المتشككين أمثال سيمون وهور ونيفل تشمبرلين • وحتى ونستون تشرشل الذى كان يشيد بمبدأ الامن الجماعى والوقوف في وجه المعتدى كان ينفر من المثاليين بما كان يقوله عن الحاجة الى زيادة تسليح بريطانيا • وهكذا ظل حتى بداية الحرب وهو في عزلة لايثق فيه أى من الطرفين ولا شك أن هناك دائما فاصلا يفصل بين المبادىء وما تمليه الضرورة ولكن ذلك الفاصل لم يسبق أن كان أوسع مما كان في السنوات الاربع التى تلت ديسمبر ١٩٣٥ •

لقد كانت للمشكلة الجنسية آثار مباشرة فهتلر كان يرقب الصراع بنظره الثاقب اذ كان يخشى أن أي نصر يتحقق لعصبة الامم سوف يكون معناه أن تستخدم العصبة ضد ألمانيا فيما بعد ومع ذلك كان يحاول أن يدق أســفينا بين ايطاليا وبين شركائها السابقين في جبهة ستريزا • وكانت ألمانيا قد انقصت تجارتها مع ايطاليا الى الحــد الذى جعلها تظهر كما لو كانت عضوا مخلصا فى العصبة تنفذ شروط العقوبات وفى ديسمبر اتجه اهتمام هتلر الى القضاء على مشروع هور ــ لافال حتى أنه عرض أن يعود الى العصبة من جديد ــ بشروط طبعا • فلما فشل المشروع وبدأ تسليح ايطاليا يحقق نجاحا عزم هتلر على استغلال انهيار جبهة ستريزا • وكان هذا على الاقل يبدو تفسيرا محتملا لعزمه على اعادة احتلال منطقة الراين المنزوعة السلاح غير أنه لم يقم دليل قاطع على ماكان يدور بخلده فى ذلك الوقت وكانت حجة هتلر فى ذلك أن فرنســا صادقت على الميثاق الفرنسى ــ السوفيتى فى ٢٧ فبراير ١٩٣٦ فكان يقول بأن هــذا العمل قد هدم دعاوى لوكارنو ولم يكن قوله هذا لمجرد الجدل ولكنه كان يهــدف بلا شك الى اثارة الشعور المضاد للبلشفيك فى بريطانيا وفرنسا • وكان العمل الذى أقدم عليه هتلر فى ٧ مارس دليلا على قوة أعصاب هتلر • فألمانيا لم يكن لديها قوات تكفى للحرب فالجنود المدربون من جيش ألمانيا القديم كانوا موزعين كمدربين فى الجيش الجديد الذى لم يكن قد ظهر للوجود بعد • فلما احتج قــادة الجيش أكد لهم هتلر أنه سوف يسحب قواته الرمزية عندما تبدو أول بادرة على عزم الجيش الفرنسى على القتال ولكنه كان يعتقد اعتقادا جازما أنه لن يكون هناك قتال •

ولم يكن احتلال منطقة الراين مفاجأة للفرنسيين فقد كانوا يفكرون فى هــذا الامر بشىء من القلق منذ أن بدأت المشكلة الحبشية • وفى يناير ١٩٣٦ ترك لافال منصبه فى وزارة الخارجية فكان بذلك ضحية مثل هور لثورة الرأى العام على مشروع هور ــ لافال وجاء فلاندان خلفه ليقول أنه أكثر صداقة للانجليز فذهب فى الحال الى لندن لمناقشة مشكلة اقليم الراين • فلما سأل بالدوين عما اعتزمت فرنسا أن تقوم به وجد أنها لم تعتزم القيام بأى عمل فعاد فلاندان الى باريس لانتزاع قرار بالعمل من زملائه ففشل ولكنه حصل على تصريح « بأن فرنسا على استعداد لوضع جميع قواتها تحت تصرف عصبة الامم للوقوف ضد أى خرق للمعاهدات » •

وفى ٧ مارس عقد مجلس الوزراء الفرنسى فى جو يسوده الغيظ • وفى الاجتماع كان أربعة من الوزراء ــ منهم فلاندان وسارو رئيس الوزراء يرون وجوب القيام بعمل فى الحال ولكن هؤلاء الرجال الاربعة الاقوياء ــ كما كان يحدث دائما فى مجلس الوزراء الفرنسى ــ تأكدوا من أنهم كانوا أقلية عندما رفعوا أصواتهم • عند ذلك اســتدعى

جنرال جاملان رئيس أركان الحرب فتقدم بأول آرائه المبنية على الحدث والتى أثارت شوق السياسيين الفرنسيين بل والانجليز كذلك فى السنوات التالية وقد كان جاملان رجلا شديد الذكاء ولكنه لايتصف باقدام المحاربين فكان يصلح للسياسة أكثر من الحرب فعمل على أن لا ينقل السياسيون الاعباء التى تثقل كواهلهم الى كاهله وكرئيس للقوات المحاربة صرح بأنه مستعد للقيام بأى واجبات يعهد اليه بها ولكنه طلب من ناحية أخرى أن يعمل السياسيون على أن تنفق مبالغ كبيرة من المال على الجيش كي يمكنه القيام بأعبائه • وكانت عبارات جاملان الماكرة تحمل معنيين وتدل على حقيقة شخصيته اذ كانت تنم على التناقض بين ظاهر ماكانت تعتزمه فرنسا من الاحتفاظ بمركزها كدولة عظمى وبين بواطن حقيقة الواقع وهى رضاها بأن تكتفى بموقف الدفاع • وقد يتحدث جاملان عن مبادأة فرنسا بالهجوم على ألمانيا غير أن معدات فرنسا الدفاعية وما ينطوى عليه معنى خط دفاع ماجينو جعل هذا محالا •

وقد بدأ جاملان الحديث بكلمات رنانة فقال ان فى امكان الجيش الفرنسى أن يتقدم الى اقليم الراين فينزل الهزيمة بقوات الالمان هناك ولكنه عاد فكشف عن المصاعب حين قال أن لالمانيا مايقرب من مليون جندى تحت السلاح منهم حوالى ٣٠٠ر٠٠٠ فى اقليم الراين وعلى هذا فلابد من استدعاء دفعات من جنود الاحتياط الفرنسيين فاذا أبدى الالمان شيئا من المقاومة فلابد اذن من التعبئة العامة • هذا الى أن الحرب سوف تستمر زمنا طويلا ونظرا لتفوق ألمانيا من الناحية الصناعية فانه لا أمل لفرنسا فى كسب الحرب لو أنها حاربت وحدها ولهذا لابد من ضمان معاونة انجلترا وبلجيكا وكان هذا الامر ضروريا كذلك لأسباب سياسية • فمعاهدة لوكارنو خولت فرنسا حق العمل السريع بمفردها وذلك فقط فى حالة العدوان الصارخ • ولكن هل يعتبر تحرك الجنود الالمان الى منطقة الراين « عدوانا صارخا » ؟ ان هذا العمل لايؤثر فى سيادة فرنسا على أراضيها ولو نظرنا الى خط ماجينو لوجدنا أن هذا العمل لن يؤثر على أمن فرنسا حتى فى المستقبل البعيد • ولوأن فرنسا تقدمت للعمل وحدها فقد تجد نفسها موصومة بالعدوان أمام دول لوكارنو ومجلس العصبة •

لقد كانت كل هذه ألغاز لابد أن يجد رجال السياسة لها حلا • ولما كانت فرنسا مقدمة على انتخابات عامة فان أحدا من ساستها لن يجرؤ على التفكير فى التعبئة العامة وقد نادت أغلبية صغيرة فقط بدعوة قوات الاحتياط • وعلى هذا تلاشى كل تفكير فى القيام بعمل ما وتحولت الامور الى الناحية الدبلوماسية وكان فى مقدور الفرنسيين أن ينقلوا اللوم من على كواهلهم الى كواهل حلفائهم كما نقلها جاملان من كاهله الى كواهل رجال السياسة • ومع أن ايطاليا كانت احدى دول لوكارنو فانها لن تقوم بأى عمل طبعا مادامت العقوبات لاتزال تطبق عليها أما بولندا فأعلنت أنها على استعداد للقيام

بجميع التزاماتها بمقتضى معاهدة ١٩٢١ بينها وبين فرنسا ولكن تلك المعاهدة كانت دفاعية محضة تعهد فيها البولنديون بدخول الحرب لو أن فرنسا تعرضت لغزو فعلى وكانوا يعلمون أن هتلر لن يقدم على مثل ذلك العمل الآن وقد وعد البولنديون باعلان التعبئة لو أن فرنسا فعلت ذلك وفى نفس الوقت امتنع ممثل بولندا عن التصويت ضد ألمانيا عندما عرض الامر على مجلس العصبة • كذلك لم تفصح بلجيكا عن نواياها ففى عام ١٩١٩ ترك البلجيكيون حيادهم القديم وتحالفوا مع فرنسا أملا فى أن يضمن ذلك لهم السلامة • أما وقد أصبحت المحالفة الآن تهدد بالاشتراك فى حرب فقد طرحوها جانبا دون تردد •

أما الانجليز فقد بقوا هم فقط • فقد سافر فلاندان الى لندن بدعوى طلب العون من انجلترا ولكنه فى الواقع كان ينتوى حمل المسئوليات معه عبر القنال الانجليزى ليلقيها على كواهل الانجليز • وقد قابله بلدوين بما عرف عنه من العطف والمجاملة • فكانت الدموع تكاد تنهمر من عينيه وهو يعترف بأنه ليس لدى انجلترا من القوات مايمكن أن تقدمها لمساعدة فرنسا ولكنه أضاف الى ذلك قوله بأن الرأى العام البريطانى لن يسمح بهذا مطلقا • ولقد كان هذا حقا • اذ كان هناك اتفاق شـــبه اجماعى فى بريطانيا أن الالمان قد حرروا أراضيهم • أما الذى لم يقله بلدوين فهو انه يتفق مع الرأى العام • فعودة الالمان لاحتلال اقليم الراين كان من وجهة النظر البريطانية يعتبر نجاحا للسياسة البريطانية وتقدما لها • فمنذ سنوات مضت ــ منذ لوكارنو ان لميكن قبل ذلك ــ كانت بريطانيا تدفع فرنسا لانتهاج سياسة دفاعية محضة ولعدم التورط فى حرب لاسباب « شرقية » نائية • فطالما بقيت منطقة الراين منزوعة السلاح فان فى استطاعة فرنســـا أن تظل مهددة لالمانيا أو على الاقل هذا ماكان يبدو • وكان يؤرق انجلترا خوفها منأن تتكررأحداث ١٩١٤مما قديورطهم فىحربمن أجل تشكوسلوفاكيا أو بولندا بالصورة التى يعتقدون أنهم تورطوا بها من قبل من أجل روسيا ولكن عودة ألمانيا لاحتلال الراين أزال تلك المخاوف • فمنذ ذلك الوقت أصبح مفروضا على فرنسا أن تلتزم سياسة دفاعية سواء أرادت أم لم ترد وهو أمر لم يشك منه أغلبالفرنسيين•

لقد تقبل فلاندان رفض بلدوين دون نقاش كثير • فهو لم يفكر مطلقا فى أن تنفرد فرنسا بالعمل وكان يعتقد أن أى محاولة لتقليد رجال السياسة الفرنســـــين فى عام ١٩١٤ • سوف يؤدى الى قطيعة مع بريطانيا كذلك قرر جاملان أن القيام بأى عمل كان محالا فى مثل هذه الظروف • وكانت انجلترا تصر على اتباع الوســـائل الدبلوماسية • ولذا كان لابد من هذه الدبلوماسية فانعقد مجلس العصـــبة فى لندن وانفرد لتفينوف مندوب روسيا باقتراح توقيعالعقوباتعلى ألمانيا وكان فى دفاعه مايكفى لرفض اقتراحه فقرر المجلس ــ وان كان ذلك دون اجماع ــ أن معاهدتى فرســـاى ولوكارنو قد خرقتا • وقد دعى هتلر للاشتراك فى مفاوضات للوصول الى اتفاقجديد

بشأن الأمر الاوربى يقوم مقام الاتفاقات التى نقضت · وقد استجاب هتلر للدعوة وقال انه « ليست له مطامع فى أوروبا » وانه يريد السلام ويقترح عقد ميثاق عدم اعتداء لمدة خمس وعشرين سنة مع الدول الشرقية · وقد حاول الانجليز أن يحصلوا على بيانات محددة بتقديم عدد من الأسئلة الدقيقة ولكن هتلر لم يجب اطلاقا على تلك الأسئلة وأعقب ذلك صمت مطبق فقد تلاشت البقية الباقية من معاهدة فرساى ومعها معاهدة لوكارنو · لقد انقضى بذلك عهد وانقضى معه رأس مال «الانتصار» ·

لقد كان يوم ٧ مارس ١٩٣٦ نقطة تحول فى التاريخ وان كان ذلك من ناحية المظهر أكثر منه من ناحية الحقيقة·فمن الناحية النظرية كان احتلال الالمان لاقليم الراين قد جعل من الصعب ان لم يكن من المستحيل على فرنسا أن تقدم المساعدة لحلفائها الشرقيين فى بولندا أو تشيكوسلوفاكيا · وفى الحقيقة أن فرنسا كانت قد أقلعت عن هذه الفكرة من سنوات مضت ان كانت حقيقة قد اعتنقتها يوما ما · واحتلال ألمانيا لحوض الراين لم يؤثر على فرنسا من الناحية الدفاعية · فلو أن خط ماجينو كان قويا كما تدعى لبقيت سلامتها أما اذا اتضح عدم فائدة خط ماجينو فان فرنسا لم تكن تتمتع بالامن مطلقا فى أى وقت من الاوقات · ولم تكن فرنسا هى وحدها التى خسرت نتيجة تلك الظروف فألمانيا بعودتها لاحتلال الراين استنفدت رصيدها الثمين الذى عاد عليها بالكثير من الفائدة وكان ذلك الرصيد هو بقاؤها منزوعة السلاح · فالغرض من الجيوش هو انزال الهزيمة بجيوش أخرى · وللهزيمة فى حد ذاتها نتائج سياسية فهى تزعزع العزيمة القومية للمهزومين وتجعلهم يدينون بالطاعة للمنتصرين · ولكن ماذا يمكن أن يفعله الجيش لولم يكن هناك جيش آخر لينتصر عليه ؟ ان فى امكانه أن يغزو أمة منزوعة السلاح ولكن العزيمة القومية للمهزومين تبقى غير مزعزعة ويمكن تحطيمها فقط عن طريق الارهاب كالبوليس السرى وغرف التعذيب ومعسكرات الاعتقال وهى طرق يصعب تطبيقها وقت السلم ولقد وجد الالمان من الصعب عليهم تطبيق تلك الطرق حتى فى زمن الحرب على البلاد التى غزوها دون حرب مثل الدانمرك · فالبلاد الديمقراطية على وجه الخصوص لايمكنها ممارسة أعمال الارهاب الاعلى نطاق محدود فى مستعمراتها خارج أوروبا ولهذا وقعت فرنسا وحلفائها فى حيرة فيما يتعلق بما يمكن عمله فى ألمانيا طالما بقيت منزوعة السلاح · فمادامت قد احتلت أقليم الراين وأخذت فى بناء جيش كبير فانه أصبح فى الامكان ممارسة أعمال الارغام معها بالطريقة العادية وهى الحرب · ولكن الدول الغربية لم تكن مستعدة للحرب اطلاقا · ولقد قيل فى ذلك الوقت · كما قيل كثيرا بعد ذلك ـ أن يوم ٧ مارس ١٩٣٦ كان « آخر فرصة » فكانت أمام الدول الغربية آخر فرصة سانحة لايقاف الالمان عندحدهم دون أن يتعرضوا لحرب طاحنة ·

وكان هذا حقا من الناحية الفنية ولكن على الورق ٠ ففرنسا كانت تمتلك جيشا كبيرا ولم يكن لدى الالمان جيش مطلقا ٠ أما من الناحية النفسية فقد كان العكس هو الصحيح فقد ظلت شعوب الغرب حائرة لاتدرى كيف تجيب على السؤال : ماذا يمكن أن تفعله ؟ فالجيش الفرنسى قادر علىدخول البلادالالمانية وقادر علىانتزاع الوعودمنالالمانأنيحسنوا سلوكهم ثم يرحل أخيرا عن المانيا فتبقى الامور كما كانت من قبل ٠ أو تصبح أسوأ مماكانت عندما يتملك الالمان الحقد فيزدادون قلقا ٠

وعلى هذا لم يكن من الصواب الوقوف فى وجه ألمانيا الا اذا كانت هناك قوة يمكن الوقوف فى وجهها وحتى تنهار تسوية فرساى وتعود ألمانيا الى التسلح ٠ فالامة التى تسعى الى النصر هى وحدها التى يمكن أن تهددها الهزيمة٠وعلى هذا يكون يوم٧مارس ذا وجهين اذ فتح الباب أمام نجاح ألمانيا كما فتح الباب أمام فشلها النهائى ٠

الفصل السادس

السلام نصف المسلح ـ (١٩٣٦ ـ ١٩٣٨)

كانت عادة احتلال الألمان لمنطقة الراين تعتبر نهاية لمحاولات استقرار الأمن التى بدأت بعد الحرب العالمية الأولى • ولما كانت عصبة الأمم مجرد خيال فقد استطاعت ألمانيا أن تتسلح من جديد وتتخلص من جميع قيود المعاهدات فصارت ضمانات لوكارنو وكأنها لم تكن وفشلت مثالية ولسن وواقعية فرنسا على السواء فعادت أوروبا الى النظام ـ أو انعدام النظام ـ الذى كان سائدا قبل ١٩١٤ واضطرت كل دولة صغيرة وكبيرة أن تعتمد على القوة المسلحة والدبلوماسية والاحلاف من أجل ضمان سلامتها ولم تعد هناك ميزة يمتاز بها المنتصرون القدماء ولاما يقف فى سبيل المهزومين وبذا عادت من جديد « الفوضى الدولية » • ويعتقد كثير من الناس وبينهم بعض المؤرخين أن هذا فى حد ذاته دليل كاف لتفسير أسباب الحرب العالمية الثانية وهذا صحيح من بعض النواحى فطالما لا تعترف الدول بقيود تحد من سلطاتها فلابد أن تقوم الحروب بينها فتنشب بعضها طبقا لخطة مرسومة وينشب البعض نتيجة لسوء التقدير • والعيب فى هـــذا التفسير أنه فى الوقت الذى يفسر فيه كل شىء فهو كذلك لا يفسر شيئا مطلقا • فاذا كانت الفوضى الدولية تؤدى دائما الى الحرب لما ذاقت أوروبا طعم السلام منذ خاتمة القرون الوسطى والحقيقة أنه كانت توجد فترات طويلة من السلام وقبل سنة ١٩١٤ كانت الفوضى الدولية هى التى منحت أوروبا أطول فترة من السلام منذ نهاية الامبراطورية الرومانية •

فالحروب تشبه كثيرا حوادث الطريق التى تنجم عن أسباب عامة وتعزى فى نفس الوقت الى مسببات خاصة فكل حادث فى الطريق سببه اختراع المحرك ذى الاحتراق الداخلى ثم رغبة الانسان فى الانتقال من مكان الى مكان وفى هـــذه الحالة يكون علاج الحوادث هو منع استخدام السيارات ولكن السائق الذى توجه اليه تهمة القيادة الخطرة يكون مخطئا لو اتخذ من وجود السيارات فقط ذريعة للدفاع عن نفسه فرجال البوليس والمحاكم لا يهتمون بالأسباب البعيدة بل يبحثون عن أسباب محددة تسبب الحادث كخطأ من جانب السائق أو زيادة السرعة عن الحد المقرر أو شرب الخمر أو عيوب الفرامل أو سوء حال الطريق وكذلك الحالة فيما يتعلق بالحرب • « فالفوضى الدولية » تجعل الحرب أمرا محتمل الوقوع ولكنها لا تجعل من الحرب أمرا لا مفر منه • فبعد عام ١٩١٨ اشتهر بعض المؤرخين بما عرضوه من أســـباب عميقة للحرب العالمية الأولى ومع أن

ماعرضوه من أسباب كان فى أغلب الأحيان صحيحا الا أنهم بذلك حولوا الأنظار عن تفسير قيام تلك الحرب بالذات فى ذلك الوقت بالذات • وكلا الأمرين يبدو معقولا على مستويات مختلفة ويكمل كل منهما الآخر • ولا ينفيه • فالحرب العالمية الثانية كانت لها كذلك أسباب عميقة ولكنها نجمت عن احداث معينة يجدر بنا أن نمحصها تمحيصا دقيقا •

فالناس تناولوا بالحديث الأسباب العميقة للحرب قبل ١٩٣٩ أكثر مما فعلوا من قبل وبهذه الطريقة كانت تلك الاسباب تنبنى عليها أسباب أكثر • ولقد شاع بين الناس بعد عام ١٩١٩ أنه من المستطاع تجنب أى حرب فى المستقبل لو نجحت عصبة الأمم أما الآن وقد فشلت العصبة فقد أخذ الناس يقولون بأن الحرب لامناص لها • وكان الكثيرون يشعرون أنه من الحماقة محاولة منع الحرب بالوسائل القديمة من المحالفات والدبلوماسية وقال الناس أيضا أن الفاشيستية تؤدى الى الحرب لا محالة وهذا مالايمكن انكاره لو صدق الانسان ما كان يتفوه به الزعيمان الفاشيان بالذات• فهتلر وموسولينى كانا يمجدان الحرب ويشيدان بفضائلها واستخدما التهديد بالحرب للوصول الى أغراضهما ولكن كل هذا لم يكن أمرا جديدا فلقد كان السياسيون يعملونه دائما فبلاغة الدكتاتوريين الكلامية لم تكن أسوأ من « قرقعة السيوف » فى عهد الملكيات القديمة ولما كان يتعلمه الطلبه فى انجلترا فى عهد الملكة فكتوريا ومع ذلك فقد ساد السلام حينذاك فترات طويلة بالرغم من العبارات النارية وحتى فان الدكتاتوريين الفاشيين ما كانا ليستطيعا الدخول فى حرب لولا أنهما رأيا أسبابا لكسبها • وهكذا كان سبب الحرب يرجع الى أخطاء الآخرين بقدر ما يرجع الى اجرام الدكتاتوريين بالذات • وربما كان هتلر يعتزم خوض حرب كبرى ضد روسيا السوفييتية لو كانت له خطة محددة ولكننا نستبعد أنه كان يعتزم خوض الحرب ضد بريطانيا وضد فرنسا فى ١٩٣٩ولقد تملك هتلر الهلع فى ٣ سبتمبر ١٩٣٩ بقدر ماتملك بتمان من الهلع فى ٤ أغسطس ١٩١٤ • أما موسولينى فبالرغم مما كان يتشدق به دائما فقد بذل كل مايستطيع ليتجنب الحرب وحتى أكثر مما بذله المحتقرون من آخر زعماء الجمهورية الفرنسية الثالثة ولكنه دخل الحرب عندما ظن أن النصر محققا • ومع أن الالمان والايطاليين كانوا يهتفون لزعمائهم الا أنهم لم يكونوا يحبون الحرب بقدر ماكانوا يحبونه فى عام١٩١٤ وعندما رحبت الجماهير الهاتفة باعلان الحرب• أما فى عام ١٩٣٨ فقد ساد الوجوم ألمانيا أثناء أزمة تشيكوسلوفاكيا ثم استسلم الناس للمقادير فى العام الثانى عندما نشبت الحرب • فالحرب لم يرحب بها أحد بل كان يبغضها الجميع أكثر من أى حرب مضت فى التاريخ •

وهناك سبب آخر من الاسباب العميقة تناوله الناس بالبحث قبل عام ١٩٣٩ حين كانوا يعتقدون أن الظروف الاقتصادية لابد وأن تؤدى الى الحرب • وكان هذا الرأى من بين المبادىء الماركسية المعترف بهافى ذلك الحين • وقد لاقى قبولا أكثر من كثرة ماتردد بين الذين لايعتبرون أنفسهم ماركسيين • وقد كانت تلك فكرة جديدة لم يعرف ماركس نفسه عنها شيئا • وقبل عام ١٩١٤ تنبأ اتباع ماركس أن الدول الرأسمالية الكبرى

سوف تقتسم العالم فيما بينها أما عن الحروب التى تنبأوا بها فقد كانوا يتوقعون صراعا من أجل التحرر القومى من جانب شعوب المستعمرات خارج أوروبا وكان لينين أولمن قال بأن الرأسمالية هى التى تجعل الحرب أمرا لامفر منه وقد اكتشــف ذلك فقط فى الوقت الذى كانت الحرب العالمية الاولى دائرة الرحى • ولا شك أنه كان على حق فىذلك لانه مادامت جميع الدول فى عام ١٩١٤ تعتنق المبدأ الرأسمالى فالرأسمالية هى اذن بلا شك التى سببت الحرب العالمية الاولى ولكن من الحق أيضا أن نقول انها « سببت » كذلك ماسبق ذلك من عهود السلام • وهنا نجد أمامنا تفسيرا آخر يفسر كل شىء ولا يفسر شيئا • فقبل عام ١٩٣٩ كانت الدولة الرأسمالية الكبرى ـ انجلترا وأمريكا ـ أكثر الدول رغبة فى تجنب الحرب وكذلك كان الحال فى كل دولة بما فى ذلك ألمانيا ـ حيث كانت طبقة الرأســماليين هى التى تعارض قيام الحرب • ولو كان هنـاك من الاتهامات ما يوجه الى الرأسماليين فهو الاتهام بالمسالمة والخوف لا بالجرى وراء الحرب •

كذلك يمكن أن نجد ما ندين به الرأسمالية بطريقة أكثر تحديدا فمع أن الدول الاستعمارية الناجحة ربما كانت هى التى تنادى بالسلام وتجزل العطاء الأن الفاشيستية كان يقال بأنها تمثل المرحلة الرأسمالية العدوانية الآخذة فى الانقراض والتى لا يمكن أن تحتفظ ببقائها الا عن طريق الحرب وهذا رأى يحمل بعض الحق لا الكثير منه فالقضاء قضاءا تاما على مشكلة البطالة الذى كانت ألمانيا النازية أول دولة حققته كان يعتمد قبل كل شىء على انتاج الذخيرة ولكن كان فى الامكان أن يتحقق كذلك بطرق أخرى من الأعمال العامة كأعمال الطرق واقامة المبانى وقد تحقق فعلا الى حد ما • فالسر الذى كانت تخفية النازية لم يكن انتاجالسلاح بل كان التحرر من المبدأ الثابتفى ذلك الوقت عن شئون الاقتصاد • فنفقات الحكومة كانت تهيىء الأسباب السعيدة لتضخم هادىء بينما الدكتاتورية السياسية بقضائها على اتحادات العمال وسيطرتها التامة علىالبورصة كانت تحول دون وقوع النتائج السيئة كارتفاع الأجور وارتفاعالاسعار فالقول بالحرب لم يكن هناك ما يسنده حتى لو أن النظام النازى كان يعتمد على انتاج الأسلحة فحسب فألمانيا النازية لم تكن غارقة فى فيض من السلاح بل على العكس كان القادة العسكريون الالمان يصرون بالاجماع فى عام ١٩٣٩ على القول بانهم لا يملكون المعــدات الكافية للحرب وأنه لا بد من انقضاء سنوات كثيرة حتى يتم «التسليح فى عمق» وعلى هذا لم يكن هناك ما يدعو للانزعاج من القضاء على البطالة • أما فى ايطاليا الفاشيستية فكان حديث الافتعال لا ينطبق على الواقع ولم تكن هناك سياسة فاشيستيه اقتصادية وانما كانت هناك أمة فقيرة يحكمها خليط من الارهاب والابهة فايطاليا لم تكن مستعدة للحرب كما برهن موسولينى على ذلك عندما ظلت ايطاليا دولة «غير محاربة» فى عام ١٩٣٩ • فلما ألقى بنفسه فى معترك الحرب فى عام ١٩٤٠ كان استعداد ايطاليا الحربى من جميع وجوهه أسوأ مما كان عليه عندما دخلت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٥ •

وقد بدأ أثر الفاشيستية على الاخلاق العامة لا على الشئون الاقتصادية فقد كانت تعمل باستمرار على الحط من قدر الشئون الدولية وكان هتلر وموسوليني يفخران بأنهما لايتقيدان بالمستويات المتواضع عليها وكانا يقدمان الوعود ويتعمدان عدم المحافظة عليها وكان موسوليني يتحدى ميثاق العصبة الذى ترتبط به ايطاليا وكان هتلر يتمسك بمبادىء لوكارنو سنة ويحاربها فى السنة التالية • فلما قامت الحرب الأهلية الاسبانية أخذا يسخران من سياسة عدم التدخل التى تقيدا بها • وكانا يبالغان فىهذا عندما يظهران الغيظ لو أن أحدا تشكك فى وعودهما أو ذكرهمابوعودهما التى نقضاها وقد استاء سياسيو الدول الأخرى منعدم تقيدهما بالمبادىء المتفق عليها ولكن لم يكن هناك بد من ذلك • وكانوا دائبون فى العمل على الوصول الى اتفاقية تروق الحكام الفاشيين فتعيدهم من جديد الى حظيرة الايمان • وقد فعل ذلك تشمبرلين فى ميونيخ عام ١٩٣٨ وفعل ذلك ستالين بالميثاق النازى السوفيتى عام ١٩٣٩ وقد استاء كلاهما فيما بعد حين استمر هتلر فى التصرف كما كان يتصرف دائما • ولكن ماذا كان يمكنهما أن يفعلاه ؟ فاتفاقية بأى صورة من الصور كانت هى الطريقة الوحيدة لتجنب الحرب وقد بقى حتى النهاية شعور بالغيظ من أن استحالة الاتفاق كان دائما أمرا متوقعا • كذلك فان غير الفاشيين من السياسيين لم يسلموا من هذه العدوى ففى الوقت الذى كانوا يتظاهرون فيه بمعاملة الدكتاتورين الفاشيين كرجلين مهذبين لم يكونوا هم أنفسهم يتصرفون تصرف الرجال المهذبين فوزراء بريطانيا وفرنسا بعد أن وثقوا من انعدام الروح الطيبة فى الدكتاتورين تملكهم الغيظ أيضا عندما استمر الآخرون فىشكوكهم • وكان هتلر وموسوليني يكذبان علنا فيما يتعلق بعدم التدخل أما تشمبرلين وايدن وبلوم ودلبوس فلم يكونوا أحسن منهم وكان ساسة الدول الغربية فى أوروبا يتحركون فى ظلام عقلى ومعنوى فأحيانا يخدعهم الدكتاتوران وأحيانا يخدعون أنفسهم وفى أغلب الاحيان يخدعون جمهورهم • وأخيرا أصبحوا يعتقدون أن سياسة الخداع هى الملاذ الوحيد • ومن العسير أن نعتقد أن رجلا مثل سير ادوارد جراى أو دلكاسيه كان يضع توقيعه على اتفاقية ميونيخ ومن العسير أن نعتقد أن رجلا مثل لينين أو تروتسكى — بالرغم من احتقارهم للاخلاق البرجوازية — كان يضع توقيعه على الميثاق النازى — السوفيتى •

ان المؤرخ مضطر الى أن يخترق حجب العبارات اللفظية ليصل الى مادونها من الحقائق الواقعية فلقد كانت لاتزال هناك حقائق فى الشئون الدولية • فالدول العظمى كانت تحاول — وان كان بلاجدوى — ان تحافظ على مصالحها واستقلالها • فالوسائل المتبعة فى أوروبا • قد تغيرت تغيرا شاملا بسبب احداث ١٩٣٥ و ١٩٣٦ اذ انتهجت الدولتان الغربيتان أسوأ السبل فى المشكلة الحبشية وكانتا تحاولان الجمع بطريقة غير حاسمة بين سياستين متناقضتين ففشلتا فى الناحيتين • فلم يكن فى وسعهما الاحتفاظ بعصبة الامم اذا أدى ذلك الى الحرب أو حتى القضاء على موسوليني فى ايطاليا كذلك لم تكن واحدة منهما علىاستعداد للاطاحة بالعصبةمنأجله وقدظلت هذه المتناقضاتقائمة حتى بعدانتهاء الحربالحبشية وأصبحالامبراطور منفيا ويبدو أنه لميكن منالمستطاع عمل

شيء من أجل هذا الرجل الذى ذهب ضحية المثالية الغربية • فالعقوبات توقفت عندما وضعها نفيل تشمبرلين بمنتهى الحماقة ولكن ايطاليا ظلت موصومة بالعدوان ولم تجد الدولتان الغربيتان فى استطاعتهما أن تعترفا بملك ايطاليا أمبراطورا على الحبشة • وقضى على جبهة ستريزا الى غير رجعة واندفع موسولينى الى جانب هتلر وكان هذا عكس مايريد • وقد كان موسولينى أثناء مهاجمته الحبشة يعتزم استغلال توتر الموقف فى منطقة الراين لأن يناصر ألمانيا ولكن بدلا من ذلك نراه قد فقد حرية الاختيار •

لقد وجد هتلر الحرية فى الوقت الذى فقدها موسولينى • فنهاية لوكارنو جعلت من ألمانيا قوة كاملة الإســـتقلال لاتغل أيديها قيود صناعية وأصبح منتظرا أن يكون لالمانيا أعمال أكثر من أعمال المبادأة فى الشـــئون الدولية ولكن بدلا من ذلك بقيت السياسة الالمانية ملتزمة الهدوء لمدة عامين تقريبا وهذه الفترة التى سماها تشرشل فترة «السكون المعبأ» كانت نتيجة حتمية لما تتطلبه خطط التسليح كى تكتمل • وعلى هذا كان لابد لهتلر أن ينتظر حتى تصبح ألمانيا مسلحة تسليحا حقيقيا وقد قدر لذلك عام ١٩٤٣ ولكنه كان لايدرى ماذا يفعل بعد ذلك حتى لو أصبحت لديه القوة الكافية للعمل • وأيا كانت مشروعاته طويلة المدى (ومن المشكوك فيه انه كانت لديه مثل هذه المشروعات) فان الهدف الاول لسـياســته كان تحطيم معاهدة فرساى وكان هذا هو الموضوع الرئيسى الذى تناوله فى كتابه «كفاحى» كما انطوى عليه كل خطاب القاه عن السياسة الخارجية وكانت هذه السياسة تلقى قبولا اجماعيا من الشعب الالمانى كما كانت تمتاز بميزة كبرى من الناحية العملية وهى أن تلك المعاهـدة كانت نصـوصا مكتوبة • فبعد كل نجاح يحققه هتلر كان يقرأ المعاهدة وهناك يجد فقرة حان أوان تحطيمهما • وقد كان يظن أن هذه العملية سوف تستغرق زمنا طويلا وانه سوف يواجه مصاعب جمة وان كل انتصار يحققه كان يرفع من اسهمه ، ولكن الذى حدث هو أن القضاء على معاهدتى فرساى ولوكارنو على السواء لم يستغرق أكثر من ثلاث سنوات ولم يترتب على هذا العمل أى خطر يذكر حتى أننا لنتساءل اليوم لماذا لم يقم هتلر بذلك العمل فى وقت أقصر • وبعد عام ١٩٣٦ لم يتبق أمام هتلر من المجد مايمكن أن يعتصره من مهاجمة معاهدة فرساى حتى أنه عندما هاجم احدى الفقرات الباقية والخاصة بتدويل انهار ألمانيا لم يحس أحد بذلك فى الداخل أو فى الخارج وهكذا انقضت الايام التى كان النصر فيها أمرا هينا فالقضاء على معاهدة للسلام يختلف أختلافا كبيرا عن القضاء على استقلال دول أخرى حتى الصغيرة منها • وبالاضافة الى ذلك لم تكن طريقة هتلر أن يعتمد على المبادأة بل كان ينتظر غيره ليعمل من أجله ولذا بقى يترقب الانهيار الداخلى فى أوروبا بنفس الطريقة التى بقى بها يترقب أن تحطم التسوية السلمية نفسها • وربما سارت الامور فى طريق يختلف عن الذى سارت فيه لو أن هتلر كان تقدم بمطالب مادية عاجلة بعد اعادة احتلال اقليم الراين ولكن مطالب الالمان كانت فى تلك الفترة

قليلة جدا • فكثير من الالمان كانوا ناقمين على مسألة دانزج والممر البولندى غير أن ميثاق عدم الاعتداء مع بولندا لم يكن قد مضى عليه أكثر من عامين وكانت هذه المشكلة هى أكبر ضربات هتلر فى السياسة الخارجية ولكنه كان مترددا فى الاقدام عليها كذلك لم يكن الالمان المقيمين فى يوجوسلافيا قد شعروا بعد أنهم أقلية مضهدة •

لم يبق اذن سوى النمسا • ولقد كانت ثورة النازى الفاشلة فى النمسا فى ٢٥ يوليه ١٩٣٤ ومقتل دلفوس الذى صاحبها ، تعتبر ضربة أليمة ضد هتلر من بين الضربات القليلة التى تلقاها ولكنه قابل ذلك بحركة بارعة اذ أرسل « بابن » سفيرا له فى فينا وهو الرجل الذى ساعد هتلر على أن يصبح مستشارا • وكان الاختيار مناسبا بصورة عجيبة • وكان بابن كاثوليكيا مخلصا عظيم الولاء لهتلر ومن ثم كان مثالا لرجال الكنيسة فى النمسا كما كان هو الواضع للاتفاقية مع البابا • كذلك كان على وشك أن يفقد حياته فى عملية التطهير التى تمت فى ٣٠ يونيه ١٩٣٤ وبذلك كان أليق شخص يمكنه أن يقنع حكام النمسا أن لايهتموا كثيرا بمحاولات القتل التى يقوم بها النازيون• وقد نجح بابن فى مهمته وكانت الحكومة النمساوية قوية النفوذ كما كانت على استعداد أن تقوم باضطهاد الاشتراكيين وان كانت لا تريد اضطهاد الكاثوليك أو اليهود • كذلك كانت على استعداد أن تستخدم عبارات القومية الالمانية طالما سمح للنمسا أن تبقى بصورة ما • وكان هذا هو مايريده هتلر فمع أنه كان يريد من النمسا أن تعتمد على ألمانيا فى الشئون الدولية الا أنه لم يكن متعجلا فى القضاء عليها تماما بل ربما أن الفكرة لم تطرأ على خاطره مطلقا فبصفته نمساويا لم يكن يريد للنمسا أن تختفى وحتى لو حدث ذلك فانه لم يكن يرحب بفكرة سيطرة برلين على النمسا •

ولقد ظل بابن عامين حتى استحوذ على ثقة الحكومة النمساوية فخفت حدة التشكك المتبادل ان لم تكن قد تلاشت • وفى ١١ يوليه ١٩٣٦ عقدت الدولتان معاهدة (الجنتلمان) وهى أول مرة تستخدم فيها هذه التسمية الغريبة التى كانت من ابتكار بابن وسرعان ما وجد من قلدوه وقد اعترف هتلر فى المعاهدة « بالسيادة التامة » للنمسا واعترف شوشنيج فى مقابل ذلك بالنمسا « دولة ألمانية » ووافق على ضم أعضاء ممن كانوا يسمون « بالمعارضة الوطنية » فى حكومته أما الاحداث التى وقعت فيما بعد فقد جعلت الاتفاقية تبدو وكأنها خداع من الطرفين ولكن الامور لم تكن كذلك مع أن كلا من الطرفين الموقعين عليها وجد بها ماكان يريد أن يسمعه فهتلر كان يفترض أن النازيين النمساويين سوف يشقون طريقهم بالتدريج الى الحكومة هنا ثم يحولون النمسا الى دولة نازية ولكنه كان راضيا أن يتم ذلك دون أن يحس به أحد ودون أن تترتب عليه أزمة عنيفة • وقد حصل بمقتضى اتفاقية يوليه ١٩٣٦ نفس ماكان عرضه على موسولينى فى اجتماع البندقية قبل ذلك بسنتين باستثناء أن شوشينج لم يسمح (بشخصية ذات اتجاه مستقل) وبدلا من ذلك أصبح شوشينج تلك الشخصية المحايدة أو هكذا كان يرجو هتلر وكان واثقا أن حصون فينا سوف تنهار من تلقاء ذاتها • ففى فبراير عام ١٩٣٨ قال لزعماء النازيين فى النمسا : « ان المشكلة النمساوية لايمكن أن تحل عن طريق انقلاب••• اننى أريدكم أن تعملوا على أن تتطور الامور لا أن تحصلوا على حل عن طريق العنف ما دام الخطر الذى يتهددنا فى ميدان السياسة الخارجية يقل عاما بعد عام » •

أما شوشينج فقد كان من جانبه مرتاحا لتخلصه من تبعيته لايطاليا وهى تبعية كان يمقتها النمساويون وكان معظمهم يعتبرونها أمرا لايمكن الاعتماد عليه • ولم تكن فى النمسا ديمقراطية يمكن المحافظة عليها ولكن كان هناك اسم قائم بذاته • وكان شوشينج يستسيغ أى مطلب من مطالب النازى فيما عدا استبعاده هو وكان يعتقد أنه أصبح الآن بعيدا عن هذا الخطر • ولقد كانت اتفاقية يوليه ١٩٣٦ تعطى شوشينج الصورة وتعطى هتلر الجوهر وكان هذا يرضى الطرفين كما كان يرضى موسولينى الذى لم يكن يستطيع الدفاع عن استقلال النمسا الا بتسوية مجحفة مع الدول الغربية وقد لايمكن ذلك حتى بهذه الوسيلة •

ولقد كان هو أيضا يرضى بالناحية الصورية التى تحتفظ باسم النمسا • أما خلف الستار فكان الصراع لايزال قائما بين السياسة الالمانية والسياسة الايطالية • فموسولينى كان يريد الاحتفاظ بفرض حمايته على النمسا وعلى المجر وباتساع نفوذه فى البحر الابيض على حساب فرنسا بوجه خاص وكان هتلر يريد أن يجعل من ألمانيا أقوى دولة فى أوروبا • وتكون ايطاليا على الأقل شريكا صغيرا وهكذا لم يكن أى منهما يريد أن يحقق الآخر اطماعه وكان كل منهما يحاول استغلال احتكاك الآخر بدول الغرب لينتزع المطالب لنفسه • وفى مثل هذه الظروف قد يؤدى النقاش فى أمر من الامور الى شجار • ولكنهما بدلا من هذا كانا يؤكدان تشابههما من الناحية الايديولوجية التى تتمثل فى روحهما البناءة فى دولتيهما مما جعلهما يظهران بمظهر التفوق على الديمقراطيات المنحلة وهذا هو محور روما ـ برلين الذى أعلنه موسولينى فى نوفمبر ١٩٣٦ والذى كان يأمل أن تدور حوله شئون أوروبا السياسية منذ ذلك الحين •

كان هتلر يتبع نفس السياسة فى الوقت نفسه مع اليابان • وهنا أيضا لم تكن الدولتان متفقتين تمام الاتفاق فى الشئون العملية • فهتلر كان يعمل على تحريض اليابان ضد روسيا وضد انجلترا دون أن يضحى هو بعلاقاته الوثيقة بالصين التى كانت جيوشها لاتزال تتدرب على أيدى القادة الالمان أما اليابان فلم تعد تحتمل وجود ألمانيا فى الشرق الاقصى أكثر من أى دولة أوروبية أخرى • وكانت كل من الدولتين تريد أن تبدأ الاخرى حتى تجنى هى الثمرة وهنا تقدم بالحل روبنتروب مستشار هتلر الخاص وكان ثمرة أول نجاح له أن أصبح وزيرا للخارجية بعد ذلك بأقل من عام وكان ذلك الحل هو الميثاق المناهض للشيوعية وكان عبارة عن اعلان عن مبادئ رنانة لم يقيد أيا من الطرفين بالقيام بعمل ما • ولما كان الميثاق موجها الى الشيوعية دون سواها فلم يعتبر حتى محالفة ضد روسيا وكما اتضح فيما بعد لم تكن الدولتان حليفتين فى حرب ضد روسيا ولكن الميثاق كان يبدو فى ظاهره وكأنه حلف ضد روسيا • وقد كان زعماء السوفييت قد صوروا بصورة الزعماء المرعبين ولو كان هناك مايكشف عن

سياستهم فهو ذلك الحلف • وقد اعتقد هؤلاء السوفييت أنهم سوف يتعرضـــون لهجوم سريع ربما من ناحية ألمانيا وربما من ناحية اليابان وربما من الدولتين معا •وكان كل ما يخشونه أن تقع بين اليابان وبينهم حرب فى الشرق الاقصى ومن الامور العجيبة التى كثيرا مايجود بها التاريخ أن تلك الحرب لم تنشب بينما كان نشوبها متوقعا فى ذلك الوقت •

وميثاق مناهضة الشيوعية المعقود بين ألمانيا واليابان بالاضافة الى محور روما ـ برلين المناهض للشيوعية أيضا والذى كان أكثر غموضا ـ لم يؤثر فقط فى السياسة السوفيتية بل كان له تأثير كبير فى انجلترا وفرنسا كذلك • فروسيا والدول الغربية يمكن أن تتقارب طالما كانت العلاقات الدولية تسير فى طريق مجرد منعزل على السياسة الداخلية • ففرنسا عملت الميثاق الفرنسى ـ السوفيتى والدول الغربية قبلت روسيا عضوا فى عصبة الامم وان كان بشىء من الامتعاض وكانوا جميعا مقيدين بواجب الاخلاص لروسيا طبقا لعبارة لتفينوف « الامن الجماعى » فلما جاء ميثاق مناهضة الشـــيوعية ودفع بالافكار السياسية الى المقدمة أخذ الناس فى الدولتين الديمقراطيتين يشعرون بواجبهم نحو مناهضة الشيوعية فكانوا يميلون الى الوقوف موقف الحياد فى النضال بين الشيوعية والفاشية أو ربما الى الجانب الفاشستى • ولقد كانوا يخشـــون هتلر كحاكم لدولة ألمانية قوية عدوانية ولكنهم فى نفس الوقت رحبوا به ـ أو الكثيرون منهم ـ باعتباره حاميا للمدنية الاوربية ضد الشيوعية • ولقد كان الوضع يختلف بين الرجل الانجليزى والرجل الفرنسى فكثير من الانجليز سيما فى حزب المحافظين كانوا يقولون : « خير لنا أن نواجه هتلر من أن نواجه ستالين » ولكن لم يخطر ببال أى رجل انجليزى ـ فيما عدا سير ازوالد موزلى الزعيم الفاشستى ـ أن يقول : « خير لنا أن نواجه هتلر من أن نواجه بلدوين أو تشمبرلين أو حتى اتلى » • أما فى فرنسا فان الانتخابات العامة التى جرت فى مايو ١٩٣٦ نتج عنها جناح يسارى من الاغلبية المكونة من الراديكاليين والاشتراكيين والشيوعيين ـ فلما جاءت بعد ذلك حكومة من الجبهـة الشعبية فان الاغنياء من الفرنسيين المحافظين لم يقتصروا فقط على القول : « خير لنا أن نواجه هتلر من أن نواجه ستالين » بل قالوا : « خير لنا أن نواجه هتلر من أن نواجه ليون بلوم » •

ولم يكن هذا هو السبب الوحيد الذى من أجله تدهورت العلاقات بين روســيا والغرب بعد أن أخذت فى التحسن • ففى عام ١٩٣٦ بدأت حركة التطهير الكبرى فى روسيا اذ قتل أو وضع فى السجن جميع زعماء البلشفيك القدماء وأرسل الى سيبريا آلاف بل ربما ملايين من الروس الاقل درجة وفى العام التالى امتدت حركة التطهير الى الجيش وفيها أعدم رميا بالرصاص بعد محاكمة سرية أو بدون محاكمة على الاطلاق كل من توخاشفسكى رئيس أركان حرب الجيش وثلاثة من أربعة مارشلات وثلاثة عشر من خمسة عشر من قادة الجيش وغيرهم كثيرون • ولا يدرى أحد ماذا كان السبب فى تلك المذبحة فهل أسكرت ستالين قوة السلطان ؟ أم هل تجمع لديه من الأسباب ما جعله

يشك فى أن قادة الجيش أو منافسيه السياسيين كانوا يعملون على الاستعانة بألمانيا للقيام بانقلاب ضده أم هل كان هو نفسه يضع خطة للاتفاق مع هتلر فأراد التخلص من معارضيه وتقول احدى الروايات أن بنيش رئيس جمهورية تشكوسلوفاكيا اكتشف أن توخاشفسكى مع آخرين كانوا يفاوضون هتلر فأبلغ الامر الى ستالين وتقول رواية أخرى أن البوليس السرى الالمانى هو الذى افتعل هذه الادلة ودفع بها الى بنيش. واننا لاندرى من أمر هذه المذبحة شيئا وربما لن نعرف عنها شيئا فى المستقبل أما نتيجتها فكانت واضحة اذ اقتنع كل المراقبين الغربيين تقريبا أن روسيا السوفيتية كانت حليفا لاجدوى منه وكان رئيسها دكتاتورا عاتيا ليس له وازع من ضمير وكان جيشها فى حالة من الفوضى وان نظامها السياسى على وشك الانهيار من أول صدمة ولكن كان جوزيف ديفز السفير الامريكى هو الرجل الوحيد الذى كان يصر على القول بوجود مؤامرة حقيقية وان المحاكمات كانت عادلة وان روسيا قد زادت قوة بعد عملية التطهير. ولكنه هو أيضا كان يخمن فلم يكن هناك من يعرف الحقيقة فى ذلك الوقت ولا من يعرفها الآن . فقد وقفت الجيوش السوفيتية وقفة قوية أمام الالمان عام ١٩٤١ وان كان ذلك بعد أن أصيبت بكوارث هائلة فى بداية الامر. وهذا قد يدل على أن تلك الجيوش كانت قوية كذلك بين عامى ١٩٣٦ و ١٩٣٨ . ولكن من ناحية أخرى قد يكون هذا دليلا على انها لم تكن مستعدة للحرب حتى فى عام ١٩٤١. فكل افتراضـــات فى هذه النـــاحية لاتظهر الحقيقة . وكانت النتيجة العملية لذلك أن انساقت دول الغرب لتقف خلف خطوطها الدفاعية وهى نتيجة تدعو للدهشة عندما يفكر الانسان فى أن الميثاق الفرنسى ـ السوفيتى كان هو العذر الذى انتحله هتلر للقضاء على معاهدة لوكارنو .

لم تقف الدولتان الغربيتان مكتوفتى الايدى بعد احداث مارس ١٩٣٩ بل أخذتا فى تقوية مراكزهما الدفاعية ـ أو هكذا ظنوا ـ خوفا من ألمانيا وان كان ذلك أيضا للتقليل من علاقتهما بروسيا . فلما زحف هتلر الى أقليم الراين غيرت الحكومة البريطانية من ضمانها ذى الوجهين بمقتضى معاهدة لوكارنو لتجعله وعدا صريحا بتقديم العون لفرنسا اذ تعرضـــت لهجوم مباشر وكان هذا يعتبر وضعا مؤقتا حتى يتم وضـــع بديل لمعاهدة لوكارنو بطريق المفاوضات ولكن تلك المفاوضات لم تؤد الى نتيجة اذ لم يوجد مايحل محل لوكارنو . وبهذه الطريقة المعارضة قيدت انجلترا نفسها ـ لاول مرة فى تاريخها ـ بمعاهدة مع دولة عظمى من دول القارة فى أيام السلم . ولا شك أن هذا يقوم دليلا على التغيير الذى طرأ وربما دليلا على زيادة اهتمام انجلترا بالشئون الاوربية. بل ربما دليلا على ازدياد الضعف . ولكن هذا فى الحقيقة لم يكن تغييرا عميقا . فالزمالة مع فرنسا بقيت قائمة مدة طويلة بدافع المصالح المشتركة أما التحالف الرسمى وان كان فى ظاهره التزاما محددا فانه لم يقدم كتمهيد للعمل بل على العكس فانه قدم ليحول

دون رد فرنسي فعال على احتلال اقليم الراين فالاختبار العملى لاى محالفة عبارة عن الخطة العسكرية التى ترافقه • فقد عقدت محادثات بين ضباط أركان الحرب الانجليز والفرنسيين على أثر زحف الالمان على اقليم الراين واستمرت المناقشات مدة خمسة أيام ثم فشلت ولم تستأنف حتى شهر فبراير ١٩٣٩ ولم تحصل فرنسا على زيادة فى الضمان أو القوة من محالفتها مع بريطانيا ولكنها بالاحرى حصلت على حليف يشدها الى الخلف بصورة مستمرة خشية أن تصبح المحالفة فعالة غير أن الفرنسيين بدورهم لم يكونوا فى حاجة الى من يشدهم الى الخلف •

ان احتلال الالمان لاقليم الراين لم يضعف من مركز فرنسا الدفاعى بصورة مباشرة وان كان ربما عرقل مشروعاتها الهجومية التى لم يكن لها وجود فى الواقع • ولكن هذا الاحتلال كانت له نتائج خطيرة غير مباشرة • فبلجيكا كانت حليفة لفرنسا منذ ١٩١٩ وكان جيشا الدولتين متناسقين تناسقا دقيقا أما الآن فقد وجدت بلجيكا جيوش ألمانيا على حدودها بعد أن أعيد تسليحها فهل تظل معتمدة على محالفة فرنسا التى اتضح أنها غير مجدية ؟ أم هل تنتحى جانبا حتى تتحاشى هبوب العاصفة المقبلة ؟ لقد اختارت بلجيكا الامر الثانى • ففى خريف ١٩٣٦ انسحبت من محالفتها مع فرنسا وفى أوائل ١٩٣٧ عادت الى وضعها الحيادى الذى كانت متمسكة به قبل ١٩١٤ وقد خلق هذا مشكلة استراتيجية عنيفة أمام الفرنسيين • فخط ماجينو الدفاعى القوى كان يمتد فقط من الحدود السويسرية الى الحدود البلجيكية • وقد ظل الفرنسيون حتى ذلك الوقت يفترضون أن البلجيكيين سوف يقومون باقامة تحصينات مشابهة لخط ماجينو على طول حدودها القصيرة مع ألمانيا • أما الآن فماذا يمكنهم أن يعملوا ؟ فليس فى استطاعتهم أن يطالبوا بتحصينات بلجيكية أو حتى يستفسرون عن أمرها دون أن يخرق ذلك من حيادها أن الحدود المشتركة بين بلجيكا وفرنسا حدود طويلة جدا تكلف مبالغ طائلة لو أريد تحصينها زيادة على ذلك فان الفرنسيين لا يمكنهم الشروع فى بناء هذه التحصينات على حدود بلجيكا دون أن يكون فى ذلك اعتراف ضمنى بأن فرنسا قد تخلت عن دفاع بلجيكا وانها أصبحت تتوقع عداءها • وعلى هذا فقد فعل الفرنسيون ما يمكن أن يفعله انسان اذا ماواجهته مشكلة عسيرة الحل اذ أغلقوا عيونهم وتظاهروا بأن المشكلة ليس لها وجود • فلم يقوموا بأى محاولة لحماية حدودهم مع بلجيكا وظل هذا الاهمال حتى بعد نشوب الحرب وكانت الجيوش الفرنسية ترابط على طول الحدود البلجيكية طول شتاء ٣٩ ــ ١٩٤٠ وجاءت التقارير بعدم وجود وسائل للدفاع ووصلت هذه التقارير الى (هور بليشيا) وزير الحربية فلما رفع الامر الى السلطات العليا طرد من الوزارة وبعد بضعة أسابيع غزا الالمان بلجيكا وبفضل اخطاء جاملان الاستراتيجية وكان القائد الاعلى لجيوش الحلفاء ــ تمكن الالمان من الحصول على النصر الحاسم الذى أفلت من أيديهم فى عام ١٩١٤

وما علمناه من هذه الاحداث التى وقعت فيما بعد يجعل من الصعب علينا أن نرى صورة حقيقية للمناقشات التى سبقت الحرب بشأن سياسة فرنسا وانجلترا فنحن نعلم أن جيوش الحلفاء فى فرنسا قد أبادها الالمان وعلى هذا يمكننا أن نستنتج بسهولة أنها لم تكن مستعدة استعدادا كاملا من الناحية العسكرية وهذا استنتاج تعززه الارقام ففى عام ١٩٣٨ عندما كان الالمان يخصصون ٦ر١٦ ٠/٠ من انتاجهم لشئون التسليح كانت انجلترا وفرنسا تخصصان فقط ٧ ٠/٠ من انتاجهما ولكن قبل أن نتقبل هذا التفسير الذى يقول بأن هزيمة الدول الغربية كان نتيجة لفشلها فى اعادة التسلح بصورة وافية فاننا يجب أن نتساءل : « من أى النواحى تكون الكفاية ؟ » فهل كانت زيادة نفقات التسليح مثلا سوف تتغلب على الاهمال الاستراتيجى فى بلجيكا ؟ فقد قيل فى ذلك الوقت كما لا يزال يقال الآن أن الهدف الرئيسى يجب أن يكون المساواة فى التسلح مع العدو المحتمل أو الاعداء المحتملين • وهذا فى الواقع هدف لا معنى له: فالتسليح فى هذه الحالة يكون أكثر مما يجب لو أن الدولة كانت تريد الوقوف موقف الدفاع ولكنه يكون أقل مما يجب لو أن الدولة ارادت أن تفرض ارادتها على الجانب الآخر • فقيادة البحر البريطانية لم تقتنع بالمساواة بل كانت ترمى الى تفوق حاسم على الالمان والايطاليين ومنذ عام ١٩٣٧ وما بعده رغبت فى التفوق على اليابانيين كذلك• ولكن ذلك مستوى لم يمكن الوصول اليه وكان ذلك راجعا الى عامل الزمن لا الى قلة المال ولقد كان للتسليح أهمية حاسمة فيها يتعلق بأوروبا وهنا يصبح الهدف من المساواة فى التسلح أمرا مضللا • ففى الحرب العالمية الأولى كانت وسائل الدفاع أقوى بكثير من وسائل الهجوم ولذا كان على المهاجم أن يتفوق على خصمه المدافع بنسبة ٣ : ١ ان لم يكن ٥ : ١ ولكن حملة ١٩٤٠ دلت على خطأ هذا التقدير فالالمان حصلوا على نصر حاسم دون أن يكون لهم تفوق كبير لا فى الرجال ولا فى المعدات• والواقع أن حملة فرنسا لم تبرهن على شىء فيما عدا أنه حتى الجيوش نفسها ــ لو كانت معدة اعدادا كافيا من الناحيــــة الدفاعية ــ يمكن أن يقضى عليها اذا كانت قيادتها سيئة • والذى حدث بعد ذلك أن الحلف الكبير المكون من بريطانيا وروسيا والولايات المتحدة اضطر للانتظار حتى حصل على التفوق بنسبة ٥ : ١ قبل انزال الهزيمة بألمانيا فلو أن فرنســـا وانجلترا كانتا تعتزمان الدفاع عن أنفسهما فقط فان فى استطاعتهما تحقيق ذلك بزيادة بسيطة فى أسلحتها الارضية وكان هذا متوفرا بين عامى ١٩٣٦ و ١٩٣٩ • ومن جهـــة أخرى لو أرادتا انزال الهزيمة بألمانيا واستعادة مركزهما من النصر والسلطان الذى كان لهما فى عام ١٩١٩ لكان واجبا أن تضاعفا من تسليحهما لا بنسبة ٢ : ١ بل بنسبة ٦ : ١ أو حتى ١٠ : ١ وهو أمر عسير التحقيق ولكن هذا الامر لم يدخل فى تقدير أحد بل ظل الناس متعلقين بمسألة المساواة فى التسليح معتقدين أن هذا سوف لا يضمن لهم السلامة فقط بل والقوة كذلك ــ وقد كان الوزراء يتكلمون عن «الدفاع» ومع ذلك كانوا يقصدون

أن النجاح فى أمور الدفاع كان يساوى النصر وكان نقادهم يقولون أن نجاح الدفاع كان اما مستحيلا أو لايختلف عن الهزيمة · ومن هذا نرى أنه من الصعب الاجابة على السؤال الذى يقول : « هل كان تسليح بريطانيا وانجلترا كافيا قبل عام ١٩٣٩ ؟ لقد كان كافيا للدفاع عن الدولتين لو أحسن استعماله ولكنه كان غير كاف لمنع التوسع الالمانى فى شرق أوروبا » ·

ويبدو أن التفوق العادى فى التسليح بنسبة ٣ : ١ لايمكن تطبيقه فى ناحية واحدة فقد كان هناك اعتقاد عام بأنه لا يمكن الدفاع ضد هجوم جوى وقد عبر بلدوين عن ذلك حين قال : « ان القاذفة قادرة دائما على شق طريقها »وعلى هذا كان من المنتظر أن تدمر كل مدينة كبرى تدميرا تاما بعد اعلان الحرب مباشرة · وبناء على هذا الافتراض أقامت الحكومةالبريطانية الاستعدادات لاستقبال ضحاياالغارات فى لندن وحدهاخلال الاسابيع الخمسة الاولى من نشوب الحرب أكثر مما كان يكفى لجميع ضحايا الشعب البريطانى خلال السنوات الخمس من الحرب · وكان كل مايمكن عمله لمواجهة الهجوم الجوى هو « الاعاقة » وذلك عن طريق قوة من القاذفات فى حجم قوة العدو · ولم يكن فى مقدور فرنسا ولا انجلترا أن تحصلا على ذلك فى عام ١٩٣٦ أو حتى فى ١٩٣٩ ومن هذا كان خوف رجال الدولة · ولكن اتضح أن كل هذه التقديرات غير صحيحة فالالمان لم يضعوا مطلقا خطة هجوم قوى بالقاذفات · فقوة قاذفاتهم كانت سلاحا مساعدا لجيوشهم الارضية ثم اضطروا الى وضع خطة عاجلة للهجوم على انجلترا من الجو فى صيف ١٩٤٠ وقد أمكن الوقوف فى وجه ذلك الهجوم لا بالقاذفات البريطانية بل بواسطة قيادة المقاتلات التى كانت محتقرة ومهملة قبل الحرب · فلما قام البريطانيون بدورهم بقذف ألمانيا من الجو عاد عليهم ذلك باضرار فاقت مانزل بالالمان اذ أن ذلك كان يقتضى استخدام عدد من الرجال والمعدات أكبر مما كانت تخسره ألمانيا · ولم يكن أحد يعلم ذلك قبل حدوثه كما عجز الكثيرون عن تفهمه فيما بعد · وهكذا كانت الامور تسير فى السنوات السابقة للحرب مبنية على تقديرات خاطئة ·

ان الحروب التى تأتى تختلف دائما عن الحرب التى كنا نتوقعها ويكون النصر فيها للجانب الذى يرتكب عددا أقل من الاخطاء لا للجانب الذى كانت تخميناته صحيحة وفى ضوء هذه الحقيقة نجد أن فرنسا وانجلترا لم تكونا مستعدتين استعدادا كافيا ولقد كانت نصائح الخبراء العسكريين خاطئة كما اتبعوا سياسة استراتيجية خاطئة كذلك لم يفهم الوزراء ماقاله لهم الخبراء ولم يتفهم الساسة والجمهور ما قاله لهم الوزراء · أما النقاد فلم يكونوا أقرب الى الرأى الصحيح · ولقد كان مستر تشرشل مثلا «على حق»فى أمر واحد فقط هو المطالبة بالزيادة فى كل شيء· فهولم يطالب بتسليح أو باستراتيجية من نوع جديد ولقد كان فى كثير من الموضوعات عنيدا وبصفة خاصة فى تمسكه بالخطأ كموضوع قوة الجيش الفرنسى وتأثير قوة القاذفات وكان سوء التقدير الفنى هو السبب الرئيسى فى فشل انجلترا وفرنسا كما لعبت المصاعب السياسية دورها وان كان ذلك بقدر أقل مما قيل · ففى فرنسا كانت حكومة الجبهة الشعبية التى تسلمت

الحكم فى يونيه ١٩٣٦ ينتظر منها أن تقف موقف الحزم ضد الدول الفاشستية ولكنها اهتمت بادخال الاصلاحات الاشتراكية التى كانت معطلة منذ زمن • وقد تسببت هذه الاصلاحات المتواضعة فى اثارة الغضب الشديد بين طبقات الملاك وكان الذى دفع الثمن هو تسليح الجيش • ولما طالب قادة الجيش بزيادة مخصصات التسليح ـ • وكان هؤلاء من المحافظين ـ كانوا بلا شك يطالبون بمطالب حقيقية ولكنهم كانوا يأملون أن هذه الزيادة فى النفقات سوف تقضى على الاصلاحات الاشتراكية ـ أما أنصار الجبهة الشعبية ـ وهم أغلبية الشعب الفرنسى ـ فكان ردهم بنفس الطريقة ذلك انهم رفضوا تصديق مايقال من أن زيادة نفقات التسليح كان لابد منها لانهم كانوا يعرفون أن بعض نفقات التسليح كانت مطلوبة لتقف فى سبيل الاصلاح الاجتماعى •

أما التسليح فى بريطانيا فقد عرقلته أسباب أخرى • حقيقة أن الحكومة كانت تدعى أحيانا أن ماكان ينادى به حزب العمال المعارض من المسالمة لدوافع غير وطنية كان يقف فى سبيلها ثم بولغ كثيرا فى قيمة هذا العذر فيما بعد عندما كشفت الاحداث عن عيوب الحكومة • حقيقة أن الحكومة البريطانية اختارت عن عمد أن تحد من نفقات التسلح الى قدر متواضع • وكانت لها أغلبية هائلة فى مجلس العموم (مجموعها ٢٥٠ صوتا) وبذا لم يكن فى استطاعة حزب العمال أن يقف فى طريق مقترحات الحكومة • هذا عدا أن الكثير من رجال حزب العمال كانوا يريدون زيادة التسليح • وقد سارت الحكومة فى هذا الامر ببطء لاسباب متعلقة بالمبدأ وبالاعتبارات الاقتصادية أكثر من خوفها من معارضة حزب العمال • وقد تسببت الهجمات التى قام بها تشرشل فى أول الامر من عرقلة عمل الحكومة ولما كان الوزراء قد نفوا التهم التى اتهمهم بها فقد أصبح عسيرا عليهم أن يعترفوا بأنه كان على حق • حتى عندما بدأوا فى زيادة التسلح كانوا يعملون ذلك فى حذر شديد وهذا على عكس ماكان يفعله هتلر تماما اذ كان يفخر بالتسليح الذى لم يكن يمتلكه وكان يقصد من وراء ذلك أن يهز أعصاب خصومه بينما كان هؤلاء يعملون على مصالحته وكسبه الى جانبهم بالمفاوضات السلمية• ولهذا حاولت الحكومة البريطانية من أجل خاطر هتلر أن تجعل اجراءاتها تبدو عديمة الاثر غير مؤذية وفى نفس الوقت كانت تؤكد للشعب البريطانى ـ وحتى لانفسهم ـ أن بريطانيا سوف تحقق أمنها فى القريب وقد عارض بلدوين معارضة شديدة فى انشاء وزارة للتموين ولما اضطر أخيرا لتسليم المركز الحالى الى وزير تنسيق الدفاع لم يختر مستر تشرشل أو حتى أوستن تشمبرلين ولكنه اختار سير توماس انسكيب وهو تعيين وصف بحق أنه أعجب ما يكون منذ كاليجولا الذى عين حصانه قنصلا • ولقد كان هناك فى الحقيقة من التعيينات البريطانية المماثلة ما يكفى لتكوين فرقة من خيالة كاليجولا •

لقد كانت حكومة انجلترا تخشى أن تسىء الى المبادىء الاقتصادية أكثر مما تخشاه من الاساءة الى هتلر • فلم تكن تلك الحكومة قد عرفت بعد سر « صندوق باندورا » الذى فتحه شاخت فى ألمانيا والذى اكتشفه المشروع الجديد فى أمريكا • فقد تمسكت

بثبات الاسعار وثبات سعر الجنيه وكانت تعتبر الزيادة فى النفقات العامة شرا كبيرا لا يمكن السماح به الا فى حالة الحرب الحقيقية وحتى فى هذه الحالة تكون أمرا يدعو للاسف ولم يدر بخلدهم أن الانفاق العام فى أى ناحية حتى على التسليح كان يجلب زيادة فى الانتعاش وقد ظلوا يعتبرون المالية العامة وكأنها مالية خاصة لفرد من الافراد وذلك ما كان يراه رجال الاقتصاد والمعاصرين تقريبا ماعدا ج٠ج كينس طبعا ٠ واذا كان الفرد ينفق أمواله على أشياء لا فائدة منها لما وجـــد من المال ما يكفيه فى الوجوه الاخرى وبهذا يقل « الطلب » ٠ وعندما تنفق الحكومة المال فان هذا يترتب عليه زيادة فى « الطلب » ثم زيادة فى الانتعاش تبعا لذلك فى جميع أنحاء المجتمع ٠ وهـــذا أمر واضح لنا فى الوقت الحاضر ولكن كان لايعرفه فى ذلك الوقت الا القليل ٠ وقبل أن نسرف فى لوم بلدوين ونيفل تشمبرلين يجب أن نفكر أنه حتى فى عام ١٩٥٩ كان يرقى الى مجلس اللوردات كل اقتصادى يدعو الى مبدأ التقتير فى المنفعات العامة الذى كان يسفه سياسة بريطانيا قبل عام ١٩٣٩ ٠ وقد لا نكون ازددنا علما وانما ازداد خوفنا من انفجار شعبى يحدث لو أن رجال الاقتصـــاد كان لهم ما أرادوا فتعود البطالة على نطاق واسع ٠ وقبل عام ١٩٣٩ كانت مشكلة البطالة تعتبر قانونا طبيعيا وكان يمكن الحكومة أن تقول بكل اخلاص أنه ليست هناك موارد لم تستغل فى البلاد بينما يقاسى حوالى مليونى شخص من البطالة ٠

وهنا أيضا نجد أن هتلر يمتاز على البلاد الديمقراطية فلقد كان أكبر عمل قام به هو الانتصار على البطالة ولم يكن أغلب الالمان يبالى بالطرق الملتوية التى كان يتبعها طالما أنه كان قادرا على القيام بذلك ٠ زيادة على ذلك فانه بالرغم من اعتراض رجـال المال من الالمان الا أنه لم يكن فى مقدورهم أن يقولوا ذلك وعندما أبدى شـــاخت قلقه لهذه السياسة لم يكن فى وسعه الا الاستقالة فلم يهتم أحد بذلك ــ فدكتاتورية مثل دكتاتورية هتلر كان فى استطاعتها أن تتجنب النتائج الطبيعية للتضخم فطالما لم تكن هناك اتحادات للعمال فانه كان من الممكن تثبيت الاجور وتثبيت الاسعار بينما تمنع الرقابة الشديدة على البورصـــة أى تخفيض فى قيمة المارك وكانت الحكومـــة فى ذلك تستند الى أسلحة الارهاب والبوليس السرى وكانت الحكومة البريطانية لاتزال تعيش فى الجو النفسانى لعام ١٩٣١ وتخشى هروب الجنيه أكثر مما تخشى الهزيمة فى الحرب٠ ولهذا كانت اجراءاتها فى التسليح تقررها الاحتياجات الاستراتيجية ــ حتى لو كانت معروفة ــ أكثر مما تقررها مقدرة دافع الضرائب٠ ولما كان يقال لدافع الضرائب باستمرار أن الحكومة قد جعلت من بريطانيا دولة قوية لهذا لم يكن يحتمل كثيرا من الضرائب ٠ وقد بدىء بتحديد ضريبة الدخل والثقة فى حى الاعمال بلندن ثم تجىء بعد ذلك أمور التسليح ٠ وفى مثل هـــذه الظروف لم يكن من الضرورى التوسل الى معارضـــة حزب العمال كى نفهم أسباب تخلف استعدادات بريطانيا الحربية عن اســـتعدادات ألمانيا فى عام ١٩٣٩ ٠ وانما العجب انه عندما قامت الحرب كانت انجلترا مســـتعدة بالدرجة التى رأيناها مما يعد انتصـــارا للعلم والعبقرية الفنية على رجال الاقتصاد ٠

وقد يكون من أسهل الامور أن تفسر ما حدث بين عامى ١٩٣٦ و ١٩٣٩ بأن نقول فقط ان استعداد انجلترا وفرنسا للحرب كان أقل من استعداد ألمانيا وايطاليا ولابد للحكومات أن تعلم مقدار قوتها ومواردها قبل أن تقدم على عمل ما أو لا تقدم عليه ولكن قلما تعمل ذلك الحكومات وحقيقة الواقع أن الحكومات التى لا تريد أن تعمل شيئا تصر كل الاصرار على أن بلادها ضعيفة • وبنفس الطريقة تصبح مقتنعة كل الاقتناع بقوتها فى اللحظة التى تكون فيها راغبة فى العمل • فألمانيا مثلا لم تكن مستعدة للحرب بين عامى ١٩٣٣ و ١٩٣٦ أكثر مما كانت مستعدة قبل أن يتولى هتلر الحكم أما الفرق فهو أن هتلر كان يمتلك أعصابا قوية بينما لم يكن الذين جاءوا قبله يتملكونها • أما الناحية الأخرى للقصة فان الحكومة البريطانية فى مارس سنة ١٩٣٩ لم يكن لديها من الاسباب ما يجعلها تعتقد أن بريطانيا فى استطاعتها أن تجابه أخطار الحرب أكثر مما كان يمكنها قبل ذلك ـ بل أن الأمر على العكس من الناحية الفنية ـ ولقد كان التغيير من الناحية النفسية ـ عناد لا يستند الى أساس كالتهيب والخوف الذى سبقه وليس هناك دليل على أن حكام البلاد الديمقراطيـة (أو البلاد الدكتاتورية فى هـذه الناحيـة) كانوا يستشيرون الخبراء العسكريين قبل تقرير سياسة ما • ولكنهم كانوا يقررون سياستهم أولا ثم يناقشون الخبراء لمعرفة المبررات الفنية لهذه السياسة • وكان هذا هو ما حدث عندما ترددت بريطانيا وفرنسا فى مؤازرة عصبة الأمم بصورة حاسـمة فى خريف ١٩٣٥ • وكذلك حدث هذا فيما يتعلق باقتناعهما عن الوقوف فى وجه الدكتاتوريين فى عام ١٩٣٦ • ولقد كانت الحكومة البريطانية تنشد السلام من أجل دافعى الضرائب وكانت فرنسا تريده لتتمكن من تنفيذ برنامج الاصلاح الاشتراكى • وكانت الحكومتان تتألفان من رجال حسنى القصد من كبار السن الذين كانوا يعملون على تحاشى الحرب لو كان فى الامكان تحاشيها • كذلك كان من سياستهم الخارجية أن يرفضوا سياسة المصالحة والتفاهم التى كانوا يطبقونها فى بلادهم •

وربما كان الأثر مختلفا لو أن هتلر أعقب احتلال اقليم الراين بمعارضة صريحة للتسوية الاقليمية القائمة فى أوروبا أو لو أن موسولينى كان سعى وراء توسع جديد بعـد استيلائه على الحبشة مباشرة ولـكن هتلر التزم السكوت أما ايطاليا فـكانت قد استنزفت قواها• أما الحدث الكبير فى عام١٩٣٦ فكان فى اتجاه آخر ـ صراع عقائدى ـ أو هكذا كان يبدو ـ بدلا من تصادم مسلح تلك هى الحرب الأهلية الاسبانية • ففى عـام ١٩٣١ تحولت أسبانيـا الى جمهورية وفى ١٩٣٦ تمخضت الانتخابات العـامة هناك ـ كما حدث فى فرنسا ـ عن اعطاء السلطة الى اتحاد الراديكاليين والاشتراكيين والشيوعيين ـ الذين تألفت منهم الجبهة الشعبية وكان برنامجها ديمقراطيا ومضادا للكنيسة أكثر منه اشتراكيا • وكان هذا كافيا لثورة أصحاب المصـالح القدامى من الملكيين والعسكريين والفاشستيين • وكانت قد نبتت فى عام ١٩٣٤ فكرة القيـام بثورة مضادة للديمقراطية وكان موسولينى قد باركها بطريقة مبهمة • وفى عام ١٩٣٦

حدث انفجار عسكرى شامل وانطلقت الثورة . وكان هناك اعتقاد عام فى ذلك الوقت. ان تلك كانت المرحلة التالية فى خطة استراتيجية فاشستية مقصودة للتوسع وكان الاستيلاء على الحبشة هو مرحلتها الأولى واحتلال حوض الراين هو المرحلة الثانية أما الآن فهو دور أسبانيا . وكان المفروض أن الثوار يأتمرون بأمر الدكتاتوريين الفاشستيين ولكن ما نعلمه عن تاريخ أسبانيا والخلق الأسبانى كان يجب أن يدلنا على خطأ تلك الفكرة فالاسبانيون — حتى الفاشستيون منهم كان لهم من روح الاستقلال ما لا يمكن أن يجعلهم لعبة فى أيدى أحد . وقد أعدت الثورة دون مشاورات جدية مع روما أو برلين وقد أمد موسولينى الثورة بالطائرات بدافع كراهية الديمقراطية . وكان بعض العملاء الالمان يعطفون على الثوار ولكن هتلر لم يكن يعلم أكثر من غيره شيئا عن الثورة قبل حدوثها .

لقد كان الثوار يتوقعون نصرا سريعا كما كان يتوقعه الكثيرون ولكن بدلا من ذلك حشدت الجمهورية عمال مدريد الذين قضوا على المتآمرين من العسكريين فى العاصمة وقبضوا على ناصية الامر فى أغلب أجزاء أسبانيا . وهكذا بدأ شبح الحرب الأهلية وزاد موسولينى فى مساعدته للثوار بالمعدات فى أول الأمر ثم بالرجال بعد ذلك أما هتلر فأرسل مساعدات جوية على نطاق صغير ولكن من ناحية أخرى بعد انقضاء عشرة أيام على اندلاع الثورة بدأت روسيا السوفيتية ترسل معدات عسكرية الى رجال الجمهورية . ومن السهل أن نعرف سبب معاونة الدكتاتوريين للثوار . فموسولينى أراد أن يثبت عدم أهلية النظام الديمقراطى وكان يأمل — خطأ — فى امكان استخدام قواعد أسبانيا البحرية ليهدد فرنسا فى البحر الأبيض . وكان يريد الفاشستيون الأسبان أن ينجحوا سريعا بأقل ما يمكن من الخسائر لموارد ايطاليا الهزيلة . وكان هتلر كذلك سعيدا باثبات عدم أهلية النظام الديمقراطى ولكنه لم يكن ينظر للحرب الاسبانية نظرة جدية وكان أكبر همه تشجيع التوتر بين ايطاليا وفرنسا لا أن يعمل على انتصار الفاشستيون الاسبان. أما السلاح الجوى الألمانى فقد استخدم أسبانيا كحقل للتجارب لطائراته وطياريه وفيما عدا ذلك كان هتلر يؤيد الثوار الاسبان بالكلمات فقط . وكان المعتقد فى ذلك الوقت أن الالمان والايطاليين سوف يحاربون بأنفسهم الى جانب الثوار لو أن تدخلهم لقى مقاومة . ومن العجيب أن هذا لم يكن حقا . اذ ثبت من وثائق ذلك العهد أن هتلر وموسولينى لم يعتزما المخاطرة بالاشتراك فى حرب فى أسبانيا ولو أنهما لقيا مقاومة لانسحبا فكان موقفهما من هذه الناحية كموقف انجلترا وفرنسا بشأن المشكلة الحبشية وهو العمل حتى بلوغ حافة الحرب دون أن يتخطياها ففى عام ١٩٣٥ كان هتلر يتحدث عن « تهويش » الدولتين الديمقراطيتين . فلما جاء دور هاتين الدولتين فى عام ١٩٣٦ لم يتحدثا عن « تهويش » الدكتاتوريين .

لقد كانت سياسة انجلترا وفرنسا ـ أو عدم وجود هذه السياسة ـ لا سياسة هتلر وموسولينى هى التى قررت مصير الحرب الاهلية الاسبانية · فالجمهورية كانت من خلفها موارد كبيرة وقوة أكبر من الرجال فكان يمكنها احراز النصر لو أنها حصلت على المعاملة الصحيحة التى تستحقها بمقتضى القانون الدولى كالحصول على السلاح من الخارج من أجل الحكومة الشرعية دون أن يرسل السلاح الى الثوار وحتى كان يمكنها النصر لو أن الجانبين قد حصلا على العون الخارجى أو لم يحصلا عليه أما الثوار فكانت فرصتهم فى النصر أن يتلقوا المساعدة من الخارج دون أن تتلقاها الجمهورية أو تتلقى القليل منها وهذا هو ما عملته لندن وباريس وان كان بغير قصد · فقد كان أول ما فكرت فيه الحكومة الفرنسية التى تستند الى جبهة شعبية أن تسمح بتصدير السلاح الى الجمهورية ثم بدأت الشكوك · فالراديكاليون الفرنسيون مع أنهم كانوا سيتعاونون مع الاشتراكيين فى الحكومة عارضوا فى تقديم المساعدة لما كان يقال عنها «قضية شيوعية فى الخارج» · وكان الاشتراكيون الفرنسيون يخشون الاشتباك فى حرب مع الدول الفاشستية · فذهب ليون بلوم رئيس الوزارة الى لندن للمشاورة وهناك لقى معارضة أكبر · أما الحكومة البريطانية فتقدمت باقتراح جميل فى مظهره اذ قالت ان فرنسا لو أنها أحجمت عن تقديم المعونة للجمهورية الاسبانية لاصبح فى الامكان حمل ايطاليا وألمانيا على عدم مساعدة الثوار فيترك للشعب الاسبانى أمر تقرير مصيره وعند ذلك يكون من المحتمل جدا ـ لو طبقت فكرة عدم التدخل ـ انالجمهورية سوفتنتصر واننا لا ندرى لماذا تقدمت انجلترا بهذا الاقتراح الذى يتنافى مع تقاليد السياسة البريطانية فعندما قامت حرب أهلية فى أسبانيا قبل ذلك بحوالى قرن من الزمان عملت انجلترا على مساعدة الملكية الدستورية بالسلاح ورفضت مبدأ عدم التدخل الذى كان ينادى به الحلف المقدس · أما الآن فى ١٩٣٦ فتقول الحكومة البريطانية أنها انما تعمل من أجل السلام وحده · ولو أن جميعالدول العظمى تخلت عن أسبانيا فسوف تقضى الحرب الاهلية على نفسها بنفسها كماكانمترنيخ يرجو أن يحدث فىثورة اليونان بعدعام١٨٢٠ ، وكانالنقاد منالیساريين يقولون بأن الحكومة تحظى بعطف الفاشستا ويريدون أن ينتصر الثوار · أما رجال المال الانجليز ذوى المصالح فى أسبانيا فلم يكونوا متحمسين للجمهورية وقد تكون الحكومة تأثرت بهم ولم يكن رؤساء الادارات يعطفون على الجبهة الشعبية · وربما كانت الحكومة البريطانية أقل تحمسا لعدم التدخل لو انقلب الوضع وكانت هناك ثورة شيوعية أو راديكالية فى أسبانيا ضد حكم فاشستى قائم هناك فليس لدينا دليل على شىء · وربما كان الخوف والرغبة فى تجنب موضوع جديد للصراع فى أوروبا هو أهم ما كانت تفكر فيه ثم يأتى فى المرتبة الثانية عطف الفاشيست لو كان له وجود ·

وعلى أى حال كان للحكومة الانجليزية ما أرادت فقد قبل (بلوم) سياسة عدم التدخل وأكثر من هذا فانه أقنع زعماء حزب العمال بمساندة هذه السياسة ايضا حتى لا يسوء مركزه فى فرنسا وهكذا فرضت الحكومة القومية سياسة عدم التدخل على بلوم وفرضها هو على زعماء حزب العمال وهؤلاء فرضوها على أتباعهم كل هذا باسم السلام الاوروبى فشكلت لجنة لعدم التدخل فى لندن مثلت فيها جميع الدول العظمى الاوروبية وعملوا جاهدين على منع ارسال أسلحة الى أسبانيا ولكن لم يبد على ألمانيا وايطاليا انهما حافظتا على عهدهما اذ أخذت الاسلحة تتدفق من كلا الدولتين بل أرسلت الجنود من ايطاليا كذلك وبدا أن الجمهورية فى أسبانيا تسير فى طريقها المحتوم نحو الانهيار ولكن روسيا السوفيتية قلبت هذه الدول اذ أعلنت أنها سوف تحافظ على عهودها من عدم التدخل بالقدر الذى تحافظ فيه ألمانيا وايطاليا على عهودهما وبذلك أخذت روسيا ترسل الاسلحة الى أسبانيا وان لم يكن بالدرجة التى كان الفاشيست يرسلون بها أسلحتهم وبفضل هذه الاسلحة تمكنت الجمهورية من الصمود أكثر من سنتين ٠

وليس محتملا من أن التدخل السوفيتى كان بدافع المبادىء فالسياسة السوفيتية لم تكن ذات أثر يذكر تحت قيادة ستالين فى نصرة الشيوعية فما بالك بالديمقراطية فلقد سمحت لتشانج كاى شك بالقضاء على الشيوعيين فى الصين دون أن تقول كلمة وكانت على استعداد أن تستمر فى صداقتها مع ألمانيا النازية لو أراد هتلر ذلك ٠ وكان شولنبرج سفير ألمانيا فى موسكو يظن أن روسيا السوفيتية كانت تقـدم المساعدة للجمهورية الاسبانية حتى تستعيد مكانتها أمام الشيوعيين فى غرب أوروبا بعد مأساة عملية التطهير الكبرى وربما لم تكن هناك أسباب قوية فالصراع فى أسبانيا كان فى نظر الروس خيرا من صراع يقع قرب حدودهم كذلك كانوا يؤملون أن يترتب على هذا الصراع تباعد بين الديمقراطية الغربية والدول الفاشستية ولكن روسيا بالطبع لم تكن تعتزم المخاطرة بالاشتراك فى حرب وكانت مصلحتها فى أن تستمر الحرب دائرة لا أن تكسب الجمهورية الحرب وهو نفس الموقف الذى كان يقفه هتلر نحو الفاشيين الأسبان ٠

ولقد غطت أخبار الحرب الاسبانية على كل ما عداها من المشاكل الدولية وأصبحت الأمر الشاغل لجميع الانجليز والفرنسيين اذ كان يبدو أن الصراع بين الديمقراطية الفاشستية سوف يتقرر فى أسبانيا ٠ ولكن هذا لم يكن صحيحا فالجمهورية الاسبانية لم تكن ديمقراطية بالمعنى الصحيح وكانت كلما طال أمد الحرب تزداد سيطرة الشيوعيين عليها اذ كانوا يتحكمون فى امدادهم بالسلاح ومن الناحية الأخرى كان الثوار ولا شك أعداء للديمقراطية ولكن اهتمامهم كان موجها الى أسبانيا لا الى « الفاشستية الدولية » وكان زعيمهم فرانكو لا يعتزم أن يربط أسبانيا بعجلة أى دولة أو أى قضية خارجية ومع أنه كان يكيل المديح لهتلر وموسولينى فيما يصدر من بيانات عن تضامنه معهما فى الأمور العقائدية الا أنه كان صـعب المراس اذا تناول الحديث ناحية الامتيازات الاقتصادية أما فى الشئون الاستراتيجية فلم يكن يتنازل عن شىء مطلقا ٠ ولقد كسب الثوار الحرب فى النهاية ولكن الذى يدعو للدهشة أن انتصارهم لم يؤثر فى التوازن الأوروبى مطلقا ٠ فلم يتطلب الأمر أن ترسل فرنسا جنودا الى منطقة جبـال البرانس بالرغم

مما قيل عن اضعاف قوتهم بفتح جبهة ثالثة معادية ولم تتملك انجلترا القلق على جبل طارق وقد أعلن فرانكو حياده أثناء أزمة تشكوسلوفاكيا عام ١٩٣٨ وكان هذا مما أثار استياء هتلر وقد ظلت أسبانيا ملتزمة الحياد طول الحرب العالمية الثانية الا فيمايتعلق بروسيا وحتى فى هذه الحالة لم تكن « الفرقة الزرقاء الاسبانية » أكثر من ايماءة معنوية٠

ان هذه النتيجة الغريبة للحرب لم يكن يتوقعها الا القليلون فالحرب الأهلية الاسبانية كان لها أهمية دولية عندما كانت دائرة ٠ اذكانت ذات أهمية كبرى فى منع الوحدة القومية فى انجلترا وفىفرنسا٠وربما كانتالمرارة التىشعر بها البعض بعدالنصر الانتخابى للجبهةالشعبيةهى التىجعلتالوحدة الفرنسيةمستحيلة علىأىحال٠ولكنكانت هناك مجهودات كبيرة تبذل من أجل حكومة قومية حقيقية فى بريطانيا بعد احتلال هتلر لاقليم الراين ٠ ولكن الخلاف فى الرأى بشأن مشكلة عدم التدخل وضع حدا لهذه المجهودات ٠ فالأحرار والعمـــال كانوا يتهمون الحكومة بخيانة قضية الديمقراطية أما الوزراء الذين كانوا يلتمسون الأعذار لما ظهرت به لجنة عدم التدخل فقد ازداد حنقهم عندما انكشف أمر عدم أمانة هذه اللجنة ٠ ولقد كانت الحرب الاسبانية سببا فى انصراف الانظار عن مشاكل أخطر ترتبت على استعادة ألمانيا لقوتها ٠ وكان الناس يعتقدون أن كل شىء سوف ينتهى بخير لو أن فرانكو هزم ولكنهم لم يفكروا كيف يمكن أن يوقف هتلر عند حده ففى أوائل عام ١٩٣٦ كان مستر تشرشل يبدو وكأنه البؤرة التى يتجمع عندها الرأى الديمقراطى الوطنى وكان محايدا فى الحرب الأهلية الاسبانية أو يميل قليلا الى ناحية فرانكو ٠ ولقد أخذت مكانته فى الانحدار ولم يستعيدها حتى خريف ١٩٣٨

كذلك كانتالحرب الاسبانية سببا فىاتساعالهوة بين روسيا السوفيتيةوالدول الغربية أو بالأحرى بينروسيا السوفيتية وبريطانيا التى كانت قطبالسياسة الغربية٠ فالحكومة البريطانية لم يكن يهمها نتيجة الحرب وانما كان يهمها أن تنتهى سريعا٠ كذلك كانتايطاليا تريد نهايةسريعة لها بشرط أنينتصر فرانكو وقد انحاز سياسيو بريطانيا الى رأى ايطاليا ٠ فانتصار فرانكو سوف ينهى الحرب وهذا أمر لا يهم سوى الاسبانيين وبهذا يكون الثمن غير كبير ٠ كذلك فان هتلر كان سيرضيه نصر فرانكو وان كانت

لقد كان البعض يقول أن هتلر كان سيندفع لغزو أسبانيا بعد هزيمة فرنســـا أو أن الجمهوريةكانت كسبت الحرب وبهذا يكون نصر فرانكو قد عاد بالفائدة على الحلفاء ولكن هذه الافتراضات لامكان لها فى التاريخ ٠ فبنفس الطريقة يمكن أن يقال أن انتصار الجمهوريين كان سوف يزعزع الفاشيستية ٠ وبذا لن تقوم الحرب ٠ ولقدتوقف هتلر عند الحدود الاسبانيةلقلة موارده من ناحية ولانه لم يكن مهتما بمنطقة غربالبحر الابيض من ناحية أخرى أما نظام الحكم فى أسبانيا فلم يكن يهمه ٠

السياسة الألمانية يهمها أن يمتد أجـــل الحرب وتحولت كراهية الانجليز الى روسيا السوفيتية • وقد فضح مايسكى ممثل روسيا فى لجنة عدم التدخل زيف اللجنة وامتدح الديمقراطية فقد كانت الامدادات الروسية هى التى شدت أزر الجمهورية • وكان الانجليز يتساءلون عما يهم روسيا من ناحية الديمقراطية ولماذا تتدخل فى أسبانيا البعيدة عن حدودها ان هذا لم يكن الا لالحاق الاذى أو أكثر من هذا لنشر الشيوعية الدولية وقد يقول بعض المراقبين غير المتحيزين أن التدخل الايطالى ثم الالمانى هو الذى حول الحرب الأهلية الاسبانية الى مشكلة دولية • فالوزراء البريطانيون الذين كانوا يخشون قيام أزمات أخرى وتضايقهم المعارضـــة كانوا يعتقدون أن الحرب يمكن أن تنتهى سريعا لولا مساعدة روسيا للجمهورية • ومن الناحية الاخرى كان زعماء السوفييت ــ هناك بعيدا فى موسكو ــ تدور فى رؤوسهم شكوك أخرى • وكانوا يقولون بأن رجال الحكومة البريطانية لم تكن تهمهم الديمقراطية كما كانوا هم لا تهمهم الشيوعية الدولية بل لا تهمهم المصالح القومية • وكانت السياسة البريطانية تفهم فى موسكو على اعتبار واحد فقط وهى رغبتها فى انتصار الفاشيستية • فالانجليز هم الذين سمحوا لهتلر بأن يتسلح من جديد وأن يحطم مشروع الأمن وكانوا يساعدون فرانكو لينتصر فى أسبانيا • ولا شك أنهم فى المستقبل القريب سوف يقفون جانبا عندما يهاجم هتلر روسيا السوفيتية أو قد يتعاونون معه فى هذه المغامرة •

وتركت هذه الشكوك المتبادلة أثرا عميقا فى المستقبل وكان الأثر الأول للحرب الأهلية الاسبانية هو اسراع رجال الحكومة البريطانية لاسترضاء موسولينى الذى بدا وكأن فى يديه المفتاح المؤدى للســـلام وكان بعض الانجليز من أمثال « فانسيتارت » يعتقد أن فى الامكان ارجاعه الى جانب جبهة ستريزا والى موقف المعارضة التامة لهتلر وكان آخرون ممن هم أكثر اعتدالا لا يعارضون فى وجود « المحور » وكانوا يأملون أن يعمل موسولينى على تهدئة هتلر • وكان موسولينى مستعدا لتقديم الوعود ولم يكن مستعدا للقيام بعمل • فقد كان يعلم أن ايطاليا قد حصلت على مكاسبها فى الماضى بفضل وجود التوازن بين الجانبين لا بالانحياز الى أحد الجانبين كما كان يعتقد أنه لا يزال مطلق اليد ولكنه كان ينتظر من الانجليز أكثر مما يمكنهم أن يمنحوه فقد كانوا يظنون أنه سوف يقنع بالمكانة التى نالها من النصر فى اسبانيا ولكنه كان يطمع فى الحصول على مطالبه من فرنسا مما يتيح لايطاليا السيادة فى البحر المتوسط • ومما زاد فى عيوب المشروع أن الجمهوريين الاسبانيين بعد أن اشتد ساعدهم قليلا بما تلقوه من أسلحة سوفيتية فوتوا عليه أمر النصر الذى كان الانجليز يحاولون أن يرتبوا أمره وأبادوا الجنود الايطاليين فى « جوادى لاجارا » • ومع ذلك استمر الانجليز فى محاولاتهم ففى يناير ١٩٣٧ عقدت (معاهدة جنتلمان) بين انجلترا وايطاليا أكدت فيها كل من الدولتين

للاخرى عدم عزمها على تغيير « الوضع الراهن » فى البحر المتوسط وفى يناير تغيرت الحكومة البريطانية فاستقال بلدوين الذى أظهر براعة فى خلع الملوك أكثر من براعته فى القضاء على الدكتاتورية وحل محله نيفل تشمبرلين برئاسة الوزارة ٠ وكان تشمبرلين أصعب مراسا وأكثر اتجاها للناحية العملية لا يرضيه انسياق فى تيار السياسة الخارجية ويرى أن فى امكانه أن يوقف الامور عند حدها ٠ فكان يرى ضرورة عقد اتفاقية مع موسولينى وفى ٢٧ يوليه أرسل رسالة خاصة الى موسولينى يأسف فيها لتدهور العلاقة بين بريطانيا وايطاليا فرد موسولينى ردا كريما بخط يده كما كان يفعل من قبل مع أوستن تشمبرلين أورامس ماكدونالد ٠

ولكن حدثت نكسة تدعو للاسف ــ فقد هاجمت بعض الغواصات «المجهولة الجنسية» السفن الروسية التى كانت تحمل المعدات للجمهوريين الاسبان واصابتها بالطربيدات التى أصاب بعضها كذلك بعض السفن البريطانية عند ذلك صحت قيادة البحر البريطانية من غفوتها لاول مرة كما صحا ايدن وزير الخارجية الذى لم يكن حتى تلك الساعة قد أصبح « الرجل القوى » ومع أنه جاء للوزارة نتيجة للكراهية التى انصبت على مشروع هور ــ لافال الا أنه دفع عصبة الامم الى التخلى عن الحبشة وتغاضى عن احتلال هتلر لمنطقة الراين دون أن يقدم احتجاجا فعالا وكان يبارك الاعتذارات التى كانت تنتحلها لجنة عدم التدخل ٠ ولعله كان ضعيفا عندما ترك له بلدوين المسئولية ثم تملكه الغضب فأصبح أكثر تصميما عندما تسلم تشمبرلين المسئولية ٠ أو لعله قد فقد الايمان بوعود موسولينى ٠ وعلى أى حال فقد دعت انجلترا وفرنسا الى عقد مؤتمر فى نيون وهناك أقاموا داوريات بحرية تجوب البحر المتوسط لتقضى على عدوان الغواصات المجهولة ولقد أظهرت هذه المظاهرة أن موسولينى انما يحترم مظهر القوة ومع ذلك فانها فى حد ذاتها لم تكن لتحل المشاكل فالاسباب السياسية التى دعت الى التدخل الالمانى والايطالى فى أسبانيا كانت لا تزال قائمة واقتصر مؤتمر نيون على تقرير ان التدخل يجب أن لا يأخذ صورة صراع بين الدول الكبرى ٠

ولقد كانت الامور فى الشرق الاقصى فى ذلك الوقت تجعل بريطانيا تتحاشى القيام بأى عمل بحرى فى البحر المتوسط ٠ ففى يوليه ١٩٣٧ تحولت العلاقات الهادئة بين الصين واليابان الى حرب سافرة ٠ ففى خلال ثمانية عشر شهرا بسط اليابانيون سلطانهم على شاطىء الصين وبذا حالوا بينها وبين تلقى أى مساعدة من الخارج كما هددوا المصالح البريطانية فى شنجهاى وهونج كونج وهنا لجأت الصين من جديد الى عصبة الامم التى لم يكن فى استطاعتها سوى تحويل الشكوى الى مؤتمر الدول فى بروكسل ففى المشكلة السابقة بشأن منشوريا كانت انجلترا هى التى تلقت الصدمة الكبرى من الاستنكار الأدبى الذى لم تكن تستحقه اذ كانت تبدو وكأنها تعارض المبدأ الامريكى الذى يقول بعدم الاعتراف بدلا من أن تظهر أنه لن يعود بفائدة على الصين ٠ أما فى

بروكسل ... الانجليز الصدمة فى أول الأمر وأبدوا استعدادهم لمســاندة أى مساعدة تقدم الى الصين وتقترح أمريكا القيام بها • وكما حدث قبلا لم يكن الامريكيون على استعداد لعمل أى شىء • انهم انما كانوا يريدون الاكتفاء بالناحية المعنويةمن سياسة عدم الاعتراف الى جانب الناحية المادية التى تعود عليهم بالفائدة من الاتجار مع اليابان • وسياسة عدم الاعتراف هى بدعة أمريكية تدفع بها الآخرين ـ سيما الانجليز ـ ضد اليابانيين فالامريكيون يغضبون أما الانجليز فهم الذين يقومون بالمعارضة ولم يكن هذا بالعرض الذى يرتضيه أحد • ان مؤتمر بروكسل لم يقم بأى عمل لمساعدة الصين وحتى لم يتدخل فى مسألة امداد اليابانيين بالسلاح • ولقد سمح الانجليز بارسال بعض الامــدادات الى الصين عن طريق بورما ولكن غرضها من ذلك العمل انما كان تعزيز مواقفها فى الشرق الأقصى ضد أى متاعب تحدث فى المستقبل • ان تداخل المشاكل الأوربية فى مشاكل الشرق الأقصى كان من الصعب تتبعها فى تفصيل فكان كل قسم فى وزارة الخارجية يسير فى طريق مستقل ولكن الصلة كانت قائمة وكانت بريطانيا تسعى لأن تكون دولة عظمى أوربية ودولة عالمية فى نفس الوقت • وكانت المحاولة أكبر من أن تحتملها اذ كانت المتاعب تكتنفها فى أحد المجالين عندما تحاول أن تعمل فى المجال الآخر •

ولقد كان لمؤتمر بروكسل أثر حاسم على العلاقات بين بريطانيا والولايات المتحدة فالسياسة البريطانية كانت تقوم دائما على عدم الشجار مع الامريكيين ولم تحد مطلقا عن هذه القاعدة وفى السنوات التى تلت ١٩٢٠ ذهبت الى أبعد من ذلك اذ سعت الى اســتدراج أمريكا الى الشئون الأوربية فرحبت مثلا باشـــتراك أمريكا فى مشاكل التعويضات ونزع السلاح • وقد انتهى هذا الاشتراك بسياسة « العزلة » التى جاءت مع انتصار ف •د روزفلت والديمقراطيين • لقد كان الامريكان مشغولين بالوضع الجديد بحيث لم يكن لديهم متسع من الوقت لمشاكل أوروبا ومشاكل الشرق الأقصى وكان كل ما يستطيعون تقديمه هو عدم الموافقة المعنوية وكان أثر ذلك على الدكتاتوريين أقل من أثره على الدول العظمى التى فشلت فى الوقوف فى سبيلهما • وقــد كانت انجلترا وفرنســا تتهمان بجريرة عدم انقاذ الحبشة وبتخوفهما من مواجهة الحرب الأهلية الاسبانية وبخوفهما من هتلر ومع ذلك فان الولايات المتحدة لم تقم بأى عمل فى واحدة من هذه المشاكل سوى الاحتفاظ بحيادها الذى كان دائما فى صالح المعتدى • وقد أظهر مؤتمر بروكسل أن هذا سوف يكون نفس الشىء فيما يختص بالشرق الأقصى فقد طلب من الدول العظمى أن تلتزم سياسة عدم الاعتراف من أجل خاطر الولايات المتحدة ولكن هذه الدول اذا قاومت اليابان فلن تتلقى مساعدة من أمريكا بل على العكس سوف تتغلب اليابان عليها بفضل المعدات الأمريكية •

ولقد كانت سياسة العزلة التى أتبعتها أمريكا سببا فى أن تصبح عزلة أوروبا

كاملة وقد لاحظ المعلقون الاكاديميون بحق أن مشكلة الدكتاتوريين يمكن أن « تحل » لو أمكن أن تشترك فى المشاكل الأوروبية الدولتان الكبيرتان روسيا والولايات المتحدة وكانت هذه رغبة لا سياسة • فرجال السياسة فى الغرب كانوا يتعلقون كل التعلق بالمساعدة المادية من وراء المحيط الأطلسى ولكن هذه المساعدة لم تعرض عليهم فالولايات المتحدة لم تكن مسلحة الا فى المحيط الهادى بينما يجعل قانون الحياد من الصعب عليها أن تجعل من نفسها حتى قاعدة للامداد ولم يكن فى استطاعة روزفلت أن يقدم أكثر من التشجيع الأدبى وهذا بالذات هو ماكان يخشاه رجال الحكم فى الغرب وهذا مايغل ايديهم فى معاملة هتلر وموسولينى ويقف فى سبيل العروض الذى كانوا على استعداد لمنحها • فبريطانيا وفرنسا لديهما ما يكفى من الرصيد المعنوى وان ما كان ينقصهما انما هو القوة المادية ولم يكن من المنتظر أن يأتى شىء منها من الولايات المتحدة •

ولقد كان التعاون مع روسيا السوفيتية يثير اشكالات أخرى • فرجال الحكومة فى روسيا كانوا تواقين الى القيام بدور فى السياسة الأوروبية أو هكذا كان يبدو لنا فلقد عاونوا عصبة الأمم ودعوا لسياسة الأمن الجماعى وعضدوا قضية الديمقراطية فى أسبانيا والحقيقة أن أهـــدافهم كانت لغزا غامضا • هـل كانوا حقيقة يتحمسون لسياسة الامن الجماعى ؟ أم هل كانوا ينادون به ليسيروا بالدول الغربية الى مواطن المشاكل ؟ هل كانت روسيا تملك قوة فعالة ؟ وهل اذا كانت تملكها هل هى مستعدة لاستخدامها ؟ لقد اتخذت الحكومة السوفيتية موقفا لا غبار عليه فى لجنة عدم التدخل • أما الأمور فى أسبانيا فكانت تختلف عن ذلك • فالامدادات الروسية كانت تستخدم لاقامة دكتاتورية شيوعية فوق القوات الديمقراطية • ولقد كان واضحا لسياسة الغرب أن الحرب الأهلية فى أسبانيا سرعان ما تنتهى لو أن روسيا تخلت عن مساندة قضية الجمهورية ومن هذا يتضح أن الروس ـ لا الدكتاتوريين الأوربيين ـ هم الذين كانوا يظهرون من الناحية العملية بمظهر من يعكر السلام فى أوروبا • ولقد حدد ايدن سياسة الغرب بعبارة « السلام بأى ثمن » ولكن وجود روسيا السوفيتية والولايات المتحدة جعل من الصعب دفع هذا الثمن ولم يكن فى استطاعتهما أن يقدما على السخط المعنوى وبهذا كان على الدول الغربية أن تحتمل الحياة مع الدكتاتوريين وكان رجال الحكم فى الغرب يريدون أن تحل أوروبا مشـاكلها بعيدا عمن يذكرهم بالديمقراطية والامن الجماعى والتسوية السلمية كذلك ربما كانت هناك رغبة مشتركة فى عدم قبول تدخل من خارج أوروبا بدافع الغيرة حتى تبدو الدول الأوروبية كأنها لا تزال دولا عظمى • فقد سبق أن جربت فى الحرب العالمية الأولى فكرة دعوة الدنيا الجديدة لاصلاح التوازن فى الدنيا القديمة وكان تدخل أمريكا فاصلا فى الحرب التى انتهت بفوز الحلفاء • أما بعد ذلك بعشرين عام فلم تكن النتيجة سارة فالنصر لم يحل المشكلة الألمانية فهى لا تزال تواجه انجلترا وفرنسا بل ازدادت تعقيدا عن ذى قبل • ولو اننا عاودنا النظر فى مشاكل الماضى ـ ألم يكن من الخير للحلفاء ـ لو أنهم اضطروا للصلح مع ألمانيا فى عام ١٩١٧ وهى بين الضعف والقوة • والآن أليس من الخير لهم محـاولة الوصول الى تسوية وحتى

لو أمكن حمل الولايات المتحدة الآن على التدخل فانها سوف تنسحب فيما بعد وعندها تضطر الدول الغربية أن تسوى أمورها مع ألمانيا بطريقتها الخاصة أما عن تدخل السوفييت فأى الحالين سيكون أكثر خطرا : نجاحه أم فشله ؟ فألمانيا لو أنها هزمت روسيا لأصبحت ألمانيا خطرا لا يحتمل ولو أن روسيا هى التى انتصرت لكانت الأمور أكثر سوءا اذ يصبح معنى هذا انتشار الشيوعية فى جميع انحاء أوروبا أو هكذا كان الناس يظنون · فساسة أوروبا كانوا يريدون الاحتفاظ بالوضع الراهن قدر الامكان وهذا لم يكن مستطاعا مع أمريكا أو روسيا ·

هكذا تقررت الأوضاع بصورة حاسمة فى العامين اللذين ساد فيهما السلام نصف المسلح وربما لم يكن من المستطاع حمل روسيا أو الولايات المتحدة على التدخل فى أوروبا فى الوقت المناسب · ولأسباب كانت تبدو وجيهة فى ذلك الوقت حاول ساسة أوروبا أن لا يسمحوا بتدخلهما ·

لقد كان حكام أوروبا يتصرفون وكأنهم يعيشون فى عهد مترنيخ أو بسمارك عندما كانت أوروبا هى مركز العالم فقد كانت مصائر أوروبا تقرر فى حلقات مقفلة وكانت مفاوضات السلام قاصرة تقريبا على الدول الأوروبية · فاذا جاءت الحرب كان لابد أن تكون حربا أوروبية ·

الفصل السابع

نهاية النمسا

لقد امتدت فترة مابين الحربين العالميتين عامين اثنين بالضبط ٠ ففترة ما بعد الحرب الاولى انتهت باحتلال الالمان لحوض الراين فى ٧ مارس ١٩٣٦ وابتدأت فترة ماقبل الحرب العالمية الثانية عندماضمت ألمانيا دولة النمساالبهافى ١٣مارس ١٩٣٨ ٠ ومنذ ذلك اليوم لم تنقطع التغييرات والفورات حتىالوقت الذى اجتمع فيه فى بوتسدام ممثلو الدول المنتصرة فى الحرب الثانية فى يوليه ١٩٤٥ ٠ فمن الذى أثار العاصفة ودفع بالاحداث فى طريقها ٠ لقد كان ذلك الرجل هو هتلر كما يتفق الجميع ٠ كذلك يتفقون على الوقت الذى بدأ فيه ذلك العمل وهو يوم ٥ نوفمبر ١٩٣٧ فان لدينا سجلات بالبيانات التى ألقاها فى ذلك اليوم ويطلق عليها « مذكرات هوسباخ » باسم الرجل الذى كتبها وهذه السجلات تكشف عن خطط هتلر وقد جاء ذكرها كثيرا فى محاكمات نورمبرج ٠ ويقول ناشرو « وثائق السياسة الخارجية الالمانية » أنها تعطينا ملخصا لسياسة ألمانيا الخارجية فى ٣٧ ــ ١٩٣٨ وبذلك فهى تستحق الدراسة بالتفصيل وقد نجد فيها تفسيرا للحرب العالمية الثانية أو قد نجد فيها مصدرا لاحدى الاساطير ٠

فى عصر ذلك اليوم جمع هتلر مؤتمرا فى دار المستشارية حضره بلومبرج وزير الحربية ونويرات وزير الخارجية وفرتشى رئيس هيئة أركان حرب الجيش وجورنجالقائد الاعلى للقوات الجوية وكان هتلر هو المتحدث الرئيسى فى المؤتمر فبدأ بخطاب عامشرح فيه حاجة ألمانيا الى « المجال الحيوى » ولكنه لم يذكرأين يكون ذلك المجال ولعله كان يقصد أوروبا ولو أنه تعرض لمكاسب المستعمرات كذلك وشرح ضرورة الحصول على تلك المكاسب وكان مما قاله : « ان ألمانيا لابد وأن تصفى حسابها مع خصمين يملأ الحقد قلبهما وهما بريطانيا وفرنسا ٠٠٠ ان مشكلة ألمانيا لاتحلها الا القوة وهذا لايكون بالمجازفة » ولكن متى وكيف يمكن استخدام هذه القوة ؟ لقد ناقش هتلر ثلاث « حالات » ٠٠ أما « الحالة » الاولى فكانت فترة ١٩٤٣ ــ ١٩٤٥ وبعدها يمكن فقط أن يسوء الموقف ٠ فعام ١٩٤٣ يجب أن يكون وقت العمل ــ أما الحالة الثانية فكانت وقوع حرب أهلية فى فرنسا فاذا حدث ذلك فسيكون معناه : أنه قد آن أوان العمل ضد التشك ــ أما الحالة الثالثة فكانت وقوع حرب بين ايطاليا وفرنسا وهذا قد يحدث فى عام ١٩٣٨ وعندها « يجب أن يكون هدفها هو القضاء على تشكوسلوفاكيا والنمسا فى وقت واحد » ٠ ولكن الذى حدث انه لم تتحقق حالة واحدة من الحالات الثلاث ومن هذا يتضح انها

لم تصلح أن تكون أساسا للسياسة الالمانية كذلك لم يعلق عليها هتلر أهمية كبرى • ثم أخذ يقول بأن ألمانيا سوف تحصل على مطالبها دون قيام حرب كبرى ويبدو انه كان يعنى « بالقوة » التهديد بالحرب لا الحرب ذاتها وسوف تكون الدول الغربية محاطة بالمتاعب والمخاوف بحيث لن يمكنها التدخل « فبريطانيا بكل تأكيد — وربما فرنسا كذلك — قد استبعدتا مسألة التشك ورضيا بالحقيقة الواقعة وهى أن المسألة الالمانية سوف تنجلى فى الوقت المناسب» ولايمكن لدولة أخرى أن تتدخل« فبولندا لن ترضى بالاشتباك فى حرب ضد ألمانيا المنتصرة بينما تتربص بها روسيا من خلفها » أما روسيا فسوف توقفها اليابان عند حدها •

ان ما أفصح عنه هتلر كان فى أكثره مجرد أحلام يقظة لا علاقة له بما حدث فعلا وحتى لو كان هذا هو المقصود بصفة جدية فانه لم يكن دعوة للعمل أو للحرب وانما كان يقصد به أن الحرب لا ضرورة لها • وبالرغم من الحديث التمهيدى عن ٤٣ — ١٩٤٥ فان جوهر هذا الحديث كان تلمس الفرص من أجل الحصول على نصر بطريق السلم فى ١٩٣٨ حين تكون فرنسا مغلولة اليد فى مكان آخر • وقد كان المستمعون لحديث هتلر يتشككون فيه • فقادة الجيش كانوا يؤكدون أن الجيش الفرنسى سوف يكون متفوقا على الجيش الالمانى حتى ولو كان مشتبكا مع ايطاليا فى نفس الوقت • وكان نويرات يشك فى احتمال نشوب حرب فى القريب بين فرنسا وايطاليا فى البحر الابيض • وقد طرح هتلر هذه الشكوك جانبا وكان مقتنعا بعدم اشتراك بريطانيا • ولذلك لم يكن يعتقد فى احتمال القيام بعمل حربى من ناحية فرنسا ضد ألمانيا وكانت هناك نتيجة واحدة يمكن استخلاصها من هذا الحديث الشارد وهى أن هتلر كان يبنى آماله على وقوع احدى ضربات القدر تجىء اليه بالتوفيق فى سياسته الخارجية علىصورة تلك المعجزة التى جاءت فى عام ١٩٣٣ وجعلت منه مستشارا • فلم تكن لديه خطة محددة ولا طريقا مرسوما لسياسة ألمانيا فى عام ١٩٣٧ و ١٩٣٨ وان كان هناك شىء فانما هو الانتظار لما تأتى به الاحداث •

لماذا اذن عقد هتلر ذلك المؤتمر ؟ هذا سؤال لم يوجه فى محاكمات نورمبرج ولم يسأل عنه أحدمن المؤرخين • ولا شك أنه من القواعد التى يتبعهاالمؤرخ أن لايقتصر على السؤال عن محتويات وثيقة ما ولكن عن سبب خروجها الى الوجود • ولقد كان مؤتمر ٥ نوفمبر ١٩٣٧ اجتماعا عجيبا • وكان جورنج هو وحده الرجل النازى أما الآخرون فكانوا من المحافظين القدماء الذين ظلوا فى مراكزهم يحدون من تصرفات هتلر وقد طردوا جميعا من مراكزهم بعد ذلك فى خلال ثلاثة شهور فيما عدا ريدر • وكان هتلر يعلم أنهم جميعا أعداء له فيما عدا جورنج كما أنه لم يكن يثق فى جورنج كثيرا •فلماذا اذن يكشف عما يدور فى رأسه لهؤلاء الرجال الذين لم يكن يثق فيهم والذين تخلص منهم بعدذلك بوقت قصير ؟ انالاجابة علىهذا السؤال أمر يسير• ذلك أنهلم يكشفلهم عن سريرته فلم تكن هناك أزمة فى السياسة الخارجية تستوجب البحث والوصول الى قرارات شاملة بل كان الاجتماع مناورة فى الشئون الداخلية • وقد كانت هناك

عاصفة على وشك الهبوب اذ أن عبقرية شاخت الاقتصادية جعلت فى الامكان اعادة التسلح والقضاء على البطالة أما الآن فان شاخت كان يمانع فى التوسع فى برامج التسلح • وكان هتلر يخشى شاخت ويعجز عن معارضة آرائه المالية وكان يعلم فقط أنها خاطئة والنظام النازى لايستطيع التراخى فى اندفاعه وكان هتلر يسعى الى عزل شاخت عن غيره من المحافظين وكان عليه أن يكسبهم الى جانبه من أجل برامج زيادة التسلح ولم يكن له غرض آخر من سياسته الجغرافية • وتقدم الدليل على ذلك مذكرات هوسباخ نفسها اذ جاء فى الفقرة الاخيرة منها : « ان الجزء الثانى من المؤتمر جاء موجها نحو مسائل التسلح » وهذا كان بلا شك السبب فى دعوة المؤتمر ولقد استنتج هذه النتيجة الذين اشتركوا فى المؤتمر أنفسهم فبعد أن خرج هتلر صرح ريدر أن الاسطول الالمانى لم يكن من القوة بحيث يستطيع مواجهة حرب تستمر سنوات • عند ذلك انتحى به بلومبرج وجورنج جانبا وأفهماه أن الغرض الوحيد من المؤتمر انما هو حمل فريتش على المطالبة ببرنامج أوسع للتسليح • أما نويرات فلم يقل شيئا فى ذلك الوقت ويقال أنه بعد ذلك بأيام تحقق تماما من سوء قصد هتلر مما تسبب فى تعرضه الى عدة « نوبات قلبية حادة » وقد عرف أمر هذه النوبات لاول مرة فى ١٩٤٥ أثناء محاكمة نويرات كواحد من مجرمى الحرب • ولكنه لم تظهر عليه أعراض المرض فى عام ١٩٣٧ ولعدة سنوات بعد ذلك التاريخ • وقد تقدم فريتش بمذكرة طالب فيها بعدم المجازفة باشتباك الجيش فى حرب مع فرنسا فحمل المذكرة الى هتلر فى يوم ٩ نوفمبر فأجاب هتلر أنه لم تكن هناك مجازفة حقيقية كما قال أنه يجدر بفريتش على أى حال أن يسرع فى شئون التسليح بدلا من الخوض فى مسائل السياسة وبالرغم من هذا التأنيب نجحت مناورة هتلر ومنذ ذلك الحين لم يعد فريتش وبلومبرج وريدر يرتاحون لوساوس شاخت المالية • وفيما عدا ذلك لم يحدث أن واحدا من الرجال الذين حضروا الاجتماع فى ٥ نوفمبر فكر فى الامر مرة ثانية حتى اكتشفت جورنج أن هذه المسألة استخدمت ضده فى محاكمات نورمبرج كدليل على ادانته ومن ذلك الحين أخذت تشغل بال المؤرخين • وكان ذلك هو أساس الرأى القائل بأنه ليس هناك مايمكن اكتشافه عن أسباب الحرب العالمية الثانية • ويقال أن هتلر استقر رأيه على الحرب ووضع خطته تفصيلا فى ٥ نوفمبر ١٩٣٧ الا أن مذكرات هوسباخ لاتضم خطة من هذا النوع وماكان ذلك ممكنا حتى ظهر الامر فى محاكمات نورمبرج • فالمذكرات تقول لنا مانعرفه فعلا وهو أن هتلر كأى سياسى ألمانى آخر كان يريد أن تصبح ألمانيا أقوى دولة فى أوروبا كما تقول لنا انه فكر فى طريقة تحقيق ذلك فكانت افتراضاته خاطئة اذ لايكاد يكون لها أى علاقة بنشوب الحرب الفعلى فى ١٩٣٩ وما كان فى استطاعة أحد أن يقدم رأيا صائبا فى هذا الموضوع حتى لو بلغ مبلغ تفكير هتلر •

لقد كانت جميع الافتراضات خاطئة وبعيدة عن الموضوع . فهتلر لم يضع خططا للسيطرة على العالم أو لاى شيء آخر . ولكنه يعقد الآمال على الفرص التى يتيحها له الآخرون فيغتنمها ولكن الفرص التى كان ينتظر حدوثها يوم ٥ نوفمبر ١٩٣٧ لم تأت ولكن أتت فرص أخرى . فعلينا اذن أن نبحث فى أى مكان آخر عن الرجل الذى أتاح الفرصة لهتلر ليغتنمها وبذلك قام بأول خطوة فى طريق الحرب . ويعتبر نيفل تشمبرلين أنه هو ذلك الرجل فمنذ اللحظة التى أصبح فيها رئيسا للوزراء فى مايو ١٩٣٧ كان يعتزم أن يقوم بعمل ما . وطبيعى أن العمل الذى كان يعتزم القيام به انما كان لمنع الحرب لا لاشعالها ولكنه لم يكن يعتقد أن الحرب يمكن تجنبها بعدم القيام بعمل ماوكان يبغض طريقة بلدوين فى التشكك وترك الامور السياسية تسير مع التيار كذلك لم يكن يثق فى المثالية المترددة التى ترتبط بعصبة الامم والتى وضعها ايدن دون أن يكون متحمسا لها . وقد تزعم تشمبرلين فكرة المطالبة بزيادة تسلح بريطانيا ولكنه فى نفس الوقت كان حانقا على الاموال التى تنفق فى هذا السبيل ويعتقد أنها ليست ضرورية . وكان مقتنعا أن سباق التسلح كان ناتجا عن سوء الفهم الموجود بين الدول وليس عن المنافسات المتغلغلة أو خطة اجرامية تضعها دولة ما للسيطرة على العالم . كذلك كان يعتقد أن الدول المتذمرة ــ وخصوصا ألمانيا كانت محقة فيما تطالب به وان مطالبها يجب أن ينظر فيها . وكان يوافق الى حد ما على آراء المركسيين التى يعتنقها الكثيرون ممن لم يكونوا مركسيين والتى تقول بأن تذمر ألمانيا كان يرتكز على أسباب اقتصادية كحرمانها من الاسواق الخارجية كما كان يوافق تماما على رأى «الاحرار» بأن الالمان كانوا فريسة للاجحاف الدولى ولم يكن من الصعب عليه أن يرى مواقع هذا الاجحاف . فهناك ستة ملايين من الالمان فى النمسا ممنوعين من الوحدة القومية بمقتضى معاهدات الصلح المعقودة فى ١٩١٩ وهناك ثلاثة ملايين ألمانى فى تشيكوسلوفاكيا لم ينظر فى مطالبهم و ٣٥٠٫٠٠٠ فى دانزج من الالمان . ولقد دلت التجارب فى الازمنة الحديثة أن التذمر القومى لايمكن الوقوف فى وجهه أو كبته وكان تشمبرلين نفسه قد اعترف بهذا على الرغم منه فيما يتعلق بايرلنده والهند . وكان الرأى السائد وان كانت لاتدعمه التجربة ــ ان الامم تصبح قانعة مسالمة اذا ما تحققت مطالبها .

لقد ابتكر تشمبرلين برنامجا لاقرار السلام فى أوروبا لم يمله عليه هتلر . وكانت تلك الافكار تدور فى الرؤوس ويوافق عليها تقريبا كل انجليزى يفكر فى الشئون الدولية وكان يعارضها فئتان فقط احداهما صغيرة جدا لاتوافق على أهمية المطالب القومية وكانوا يرون أن السياسة تقررها أمور الدول لا النواحى الادبية وان المسائل القومية يجب أن تخضع لشئون الامن . ولقد حارب تشرشل منذ زمن قصير معركة انفرد بها ضد مطالب الهند وكانت معارضته لمطالب ألمانيا تتمة منطقية لهذا الموقف وكان يعتنق نفس الرأى فانسيتار وبعض كبار موظفى وزارة الخارجية ولكنه كان رأيا يثير امتعاض أكثر الانجليز بما يبدو فيه من تشكك ولهذا حرم كثيرا من معتنقيه من التأثير فى السياسة . ولقد كان يعتقد أن القوة قد جربت أثناء الحرب العالمية الاولى وبعدها ولكنها فشلت ويجب أن تحل محلها القواعد الاخلاقية ــ أما الفئة الثانية وكانت أكبر

وتسيطر على حزبى الاحرار والعمال فكانت تقر ألمانيا على مطالبها ولكنها كانت تعتقد أن تلك المطالب يجب أن لاينظر اليها مادام هتلر باقيا فى الحكم • وكان سبب كراهيتهم لهتلر هو طغيانه الداخلى خصوصا اضطهاده لليهود ثم يعودون فيقولون أن سياسته الخارجية تهدف الى الغزو لا لتحقيق العدالة ويمكن الرد على ذلك بأن عدم التدخل فى شئون البلاد الاخرى كان تقليدا معمولا به فى السياسة الخارجية البريطانية نادى بها جون برايت والد تشمبرلين فى أيامه الراديكالية • وأن تشمبرلين كان يقف حيال ألمانيا النازية نفس الموقف الذى طالبت الحركة العمالية على الدوام أن يتخذ حيال روسيا السوفيتية • كذلك يمكن القول أن الهتلرية كانت ثمرة « فرساى » وسوف ينتهى اذاها اذا انتهت «فرساى » • تلك كانت آراء لها قوتها وان كانت غير حاسمة • ولقد بقى هناك كثيرون ممن يريدون مقاومة هتلر ولكن كان يضعف من موقفهم انهم كانوا يقرون عدالة مطالبه ولكنهم كانوا ينكرون عليه أن يطالب هو بها • ولقد كانوا يحاولون أن يفرقوا بين ألمانيا وبين هتلر فيقولون أن ألمانيا على حق ولكن هتلر على خطأ ولكن المؤسف أن هذه تفرقة لم يكن يرضاها الالمان •

غير أن تشمبرلين على أى حال كان يعتقد أن برنامجه سوف يلقى نجاحا وكان هدفه هو تهدئة الامور فى أوروبا وكان مدفوعا بالامل لابالخوف • ولم يدر برأسه أن بريطانيا وفرنسا كانتا عاجزتين عن معارضة مطالبه بل كان يفترض أن ألمانيا — وهتلر بوجه خاص — سوف يحمدون له تحقيق مطالبهم بمحض ارادته • وهى مطالب يمكن أن ترفض لو أن هتلر لم يتقبلها بنفس الروح الطيبة • وكان تشمبرلين يشارك هتلر فى حبه أن يعمل بدافع من نفسه فاتخذ سيرهوراس ولسن مستشارا له فى الشئون الخارجية وقد اشتهر بقدرته على تقريب وجهات النظر فى المنازعات الصناعية ولم يكن يهتم كثيرا بآراء وزارة الخارجية • فلما اتصل بهتلر أول مرة كان ذلك عن طريق لورد هاليفاكس الذى كان وقتئذ رئيسا لمجلس اللوردات — لا عن طريق ايدن وزير الخارجية • وقد كان هاليفاكس يمتاز بميزة فريدة ذلك أنه كان دائما فى خضم الاحداث ولكنه كان يتمكن من الظهور بمظهر من لاعلاقة له بها • ولقد حدث أن تشمبرلين وكل شخص اشترك معه فى سياسة بريطانيا الخارجية قبل الحرب أدينوا بصورة قاطعة عندما أتت الكارثة فى عام ١٩٤٠ بينما خرج هاليفاكس من هذه الاحداث دون أن يمس بالرغم من مسئوليته كوزير للخارجية حيث كان يلى تشمبرلين مباشرة واستطاع أن ينال تقدير الملك جورج الثالث له وتقدير الكثيرين بما فيهم زعماء حزب العمال كأصلح رئيس لحكومة تعمل على انقاذ البلاد • ومن العسير أن نفسر كيف حدث ذلك •

فى ١٩ نوفمبر ١٩٣٧ اجتمع هاليفاكس بهتلر فى برختسجادن بصورة طارئة فمن الناحية الرسمية كان هاليفاكس فى ألمانيا لزيارة معرض للصيد فى برلين وفى الاجتماع قال هاليفاكس كل ماكان هتلر يريد أن يعرفه حيث قال يمتدحه : « ان ألمانيا النازية هى الحصن الذى يحمى أوروبا من البلشفية » كما أظهر عطفه على ما تقدمت به ألمانيا من مطالب واشار بصفة خاصة الى بعض المسائل التى قال عنها : « يحتمل أن تجد أمور بمرور الزمن » وكانت هذه المسائل هى دانزج والنمسا وتشيكوسلوفاكيا

ثم قال « ان انجلترا يسرها أن ترى التغييرات تحدث نتيجة تطورات سلمية مع تجنب الوسائل التى قد تؤدى الى قلاقل بعيدة الاثر » • وكان هتلر يستمع الى هذه الاقوال وهو يسير ذهابا وجيئة من وقت لآخر وكان سلبيا طول الوقت كعادته حين يتقبل مايقدمه له الغير دون أن يطلب شيئا بنفسه • وقد جاءت كلمات هاليفاكس مؤكـــدة ما سبق أن قاله هتلر لقادة الجيش قبل ذلك باسبوعين من أن انجلترا لن تســعى الى الابقاء على التسوية القائمة فى أوروبا الوسطى وكان يلحق بالعروض شرط واحد وجوب أن تحدث التغييرات دون أن تقوم حرب عامة وكان هذا هو نفس ما يريده هتلر • ولو كان هناك معنى عملى لملاحظات هاليفاكس لكان هو دعوة هتلر الى زيادة القلاقل القومية فى دانزج وتشكوسلوفاكيا والنمسا كما كان تأكيدا بأن هذه القلاقل لن تجد معارضة من الخــارج • ولم يكن ذلك التحريض يأتى من جانب هاليفاكس وحده • ففى لندن قال ايدن لروبنتروب : « ان الشعب فى انجلترا يعترف بأن ارتباطا أوثق بين ألمانيا وبين النمسا لابد وان يأتى فى وقت من الأوقات» وفى نفس الوقت جاءت أخبار مماثلة من فرنسا فان «بابن» اثناء زيارته لباريس «أدهشه أن يرى ان شوتان رئيس الوزراء وبونيت وزير المالية يعتبران أن تعديل أوضاع السياسة الفرنسية فى أوروبا الوسطى هو أمر قابل للبحث من أساسه» كذلك « لم يكونا يعترضان على حدوث توسع ملحوظ فى نفوذ ألمانيا فى النمسا عن طريق حدوث تطورات » كما لم يعترضا على أن يحدث ذلك فى تشكوسلوفاكيا « على أساس اعادة تنظيمها كأمة من قوميات » •

كل هذه الملاحظات زادت من يقين هتلر انه لن يلقى معارضة من انجلترا أو فرنسا ولم تقدم هاتان الدولتان حلا للمشكلة العملية الاستراتيجية وهى كيف يمكن أن يبدو نمو قوة ألمانيا كنتيجة «لاتفاقيات معقولة أمكن الوصول اليها بطرق معقولة» كما قال هاليفاكس • قد يكون فى استطاعة ألمانيا الاستيلاء على تشكوسلوفاكيا والنمسا ولكن كان أصعب من هذا ترتيب الاوضاع التى تجعل هاتين الدولتين تنتحران وهو ما كان يريده رجال حكومتى انجلترا وفرنسا • ولقد كان هناك عيب آخر فى التشجيع المنبعث من لندن وباريس اذ أن كل الاهتمام كان موجها الى النمسا • فهتلر عندما كان يفكر من الناحية العملية كان يريد أن يبدأ بتشكوسلوفاكيا وهو ترتيب للأمور حسب أهميتها كما جاء فى مذكرات هوسباخ • فتشكوسلوفاكيا كانت تمتلك جيشا قويا ووعيا سياسيا ولهذا قد تهب لمساعدة النمسا • أما النمسا فلم يكن لها شىء من هذا ولذا لم يكن محتملا أن تهب لمساعدة تشكوسلوفاكيا ـ هذا بالاضافة الى نقطة أخرى غاية فى الاهمية وهى أن موسولينى لم يكن يهمه أمر تشكوسلوفاكيا وانما كان يعتبر نفسه مسئولا عن استقلال النمسا وربما لم يغب ذلك عن بال بريطانيا وفرنسا عندما دفع بالمســـــألة

النمسويةالى المقدمة ولكن هتلر لم يحقق لهما ما أرادوا وألقى بالمسألة النمسوية الى المؤخرة وفى خريف ١٩٣٧ أخذ يثير القلاقل فى تشكوسلوفاكيا بينما عمل على تهدئة الامور فى النمسا وصرح تصريحا قاطعا «بأنه لابد من الوصول الى حل عن طريق تطور الاحداث» وهكذا لم يخط الخطوة الاولى فى المسألة النمسوية فلم يرد أن يبدأ بها كذلك لم تقم انجلترا وفرنسا بالمبادأة • وقد تقدم هاليفاكس وغيره باقتراحات اكاديمية تضمنها ماكان يصدر عنهم من بيانات تهدف الى المصالحة وهو نفس مافعله هتلر فى مؤتمره الذى عقده فى ٥ نوفمبر وكانت الاقتراحات تقول بأنه من المستحسن أن تمد ألمانيا سلطانها بصورة سلمية على جارتيها ولكن لم تحدد أى من الدولتين كما لم يحدد هو الطريقة التى يمكن أن يتم بها ذلك اذ كان كل شيء قاصرا على الكلمات دون الافعال •

وعلى أى حال كان لابد أن تبدأ الامور من ناحية ما ويجدر بنا أن نلقى نظرة الى الجانب النمسوى • لقد كان شوشنيج لايزال مستشارا للدولة النمسوية ذات الاستقلال الاسمى وكان يقاسى الامرين من ذلك منذ ابرام « اتفاقية الجنتلمان »فى ١١ يوليه ١٩٣٦ مع ألمانيا التى كان يظن أنها سوف تقضى على متاعبه حيث تعلن النمسا صبغتها الجرمانية ويشترك فى الحكومة النمسوية ممثلون محترمون من « المعارضة الوطنية » ويطلق صراح النازيـين • وبهـذا يقضى عـلى عـوامـل الاضـطراب والمؤامرات وتتوقف حركة التسلح السرى والدعاية غير المشروعة • ولكن شوشـنيج لم يلبس أن خاب أمله اذا اسـتمرت الاضطرابات النازية كما كانت من قبل وحتى أوامر هتلر لم تعد قادرة على وضع حد لها • وكان زملاء شوشنيج المقربون أنفسهم يتآمرون مع برلين ضده فأخذ يشكو من وليه وحاميه السابق موسولينى ولكن دون جدوى • ولقد كان موسولينى يصور نفسه فى وضع حامى حمى استقلال النمسا والصورة العكسية لترنيخ ليثأر لما حل بايطاليا من اذلال منذ قرن مضى وكان يصغى لتحذيرات زعماء الفاشيستى ابتداء من شيانو زوج أبنته الذين كانوا يقولون له أن هتلر كان زميلا شديد الخطورة سوف يدمر ايطاليا بعد أن يلتهم الآخرين• ولقد كان موسولينى يبدو وكأنه يستمع لنصائحهم ولكن اذا جاء وقت العمل لم يكن يستجيب لتحريضهم • فموسـولينى كان الرجل الواقعى الوحيد فى مجموعة الفاشيست وهو الوحيد الذى كان يعلم أن ايطاليا ليس لها قوة ذاتية تعتمد عليها وانما كان فى استطاعتها أن تمثل دور القوة فى حالة واحدة فقط وهى السير فى ركاب هتلر فهو حين يتكلم عن السياسة المستقلة التى ينتهجها أو عن تأكيد اهتمام ايطاليا بشئون أوروبا الوسطى الا أنه كان يعلم أنه لابد أن يفسح الطريق لهتلر اذا تأزمت الامور • ولهذا ضاق ذرعا بشوشنيج الذى كان يأخذ كلام موسولينى على محمل الجد • فموسولينى بالرغم من كلماته الرنانة الا أنه كان فى نفس الوضع الذى كان فيه رجال الحكومات فى غرب أوروبا اذ كان يريد أن يستفيد من النمسا طالما كانت الامور تسير فى سلام وبطريقة مقبولة وعلى هذا لم يجد شوشنيج سندا قويا بل مجرد نصائح متكررة تطلب منه أن يتعقل فى تصرفاته حتى تبقى الامور على ماهى عليه من هدوء •

ولكن شوشنيج كان آخر ضحية لوهم نمساوى وهو الاعتقاد بأن ضمير أوروبا سوف يدفعها الى العمل لو أن المؤامرات والاضطرابات القومية انكشف أمرها • فقد سبق أن وقع سياسيو النمسا فى هذا الوهم بشأن القومية الايطالية فى أواسط القرن التاسع عشر كما وقعوا فيه فيما يتعلق بقومية السلاف الجنوبيين فى السنوات الاولى من القرن العشرين • ففى عام ١٨٥٩ كان يبدو لهم بما لايحتمل الشـــك أن نابليون الثالث سوف يتخلى عن كافور كما ستعارضه الدول العظمى الاخرى بمجرد أن ينكشف أمر اشتراكه فى اثارة الاضطرابات القومية • كذلك كان مقررا فى اعتقـــادهم فى يوليه ١٩١٤ أن جميع الدول سوف تتخلى عن الغرب عندما يقوم الدليل على أن عملاءها هم الذين قتلوا فرانزفرديناند فى سراجيفو • وكانوا فى كل مرة يجدون دليلا لايتطرق اليه الشك وفى كل مرة كانوا يقومون بعمل حاسم يعود عليهم بالوبال اذ هزموا فى الحرب النمساوية الفرنسية عام ١٨٥٩ كما هزموا وحاق بهم الدمار فى الحرب العالميـــة الاولى • ومع ذلك بقى نفس الشعور عند شوشنيج • فهو أيضا كان يعتقد أن النازيين النمساويين سوف يثيرون غضب الدول جميعا لو قام دليل قاطع على أعمالهم فيثيرون غضب موسولينى بل غضب هتلر نفسه الذى كان رئيسا شرعيا لدولة تلتزم بالقانون ظاهريا ••• وقد وجد شوشنيج الدليل ففى يناير ١٩٣٨ هاجم البوليس النمسوى مراكز النازيين وعثر على خطط مفصلة لثورة مسلحة وكان هتلر لايدرى عن هذه الخطة شيئا اذ أنها دبرت رغما عن أوامره ولقد كان شوشنيج على حق الى هذا الحد • والنازيون النمساويون يتصرفون من تلقاء أنفسهم ولكن كانت الامور تختلف لو فكرنا فيما اذا كان هتلر سوف يعتذر عن أعمال أتباعه الذين غلب عليهم الحماس •

لقد كان شوشنيج يمتلك الدليل على أى حال ولكن المشكلة هى كيف يستخدمه فحمل الدليل الى بابن السفير الالمانى الذى كان رجلا مهذبا وارستقراطيا واسع الثراء ومحافظا لايتطرق اليه الشك وكاثوليكيا مخلصا • لاشك اذن أنه سوف يصعق عندما يواجه بهذا الدليل على مؤامرات النازى ـ ولكن شكوى شوشنيج كان لها وقع الموسيقى فى أذنى بابن • لقد أبدى امتعاضه من أعمال النازى السرية فى النمسا التى القت ظلالا من الشكوك فى حسن نيته وعرقلت سعيه للوصول الى حل عن طريق تطور الاحداث• ولكن هذه المعارضة لم يأبه لها أحد فى برلين فرأى شوشنيج أن يعزز طلبه فاقترح بابن على شوشنيج أن يتقدم بشكواه الى هتلر • ومن العسير أن نعرف ماذا كان يدور فى رأس بابن فى ذلك الوقت فربما كان يتوقع أن يبدى هتلر استياءه من أعمـــال النازيين المتطرفين وربما كان يتوقع أن يرغم شوشنيج على التسليم ببعض المطالب الجديدة لصالح قضية القومية الالمانية فى النمسا وربما كان يفكر فى كلا الامرين أما بابن فكان هو الذى سوف يكسب على أى حال فهو من جهة سوف يتغلب على منافسيه الخارجين عن الطاعة ومن جهة أخرى سوف تزداد مكانته قوة بالعمل على اعلاء شـــأن القضية الالمانية • فهو يضع خطة النجاح السلمى فى النمسا كما مهد السبيل لتولى هتلر الحكم • فى تلك اللحظة بالذات دق جرس التليفون يوم ٤ فبراير فى السفارة الالمانية فى فينا حيث أبلغ بابن فى ايجاز بأمر من برلين انه عزل من منصبه •

ولم يكن عزل بابن من منصبه مرتبطا بالاحداث فى النمسا بل كان نتيجةلصراع هتلر مع شاخت • ففى ٨ ديسمبر ١٩٣٨ استقال شاخت من منصبه كوزير للاقتصاد فلم يرد هتلر أن يكشف أمر هذا التصدع فبقيت استقالة شاخت سرا وهنا جاء المخرج من هذا المأزق بصورة غير متوقعة ففى ١٢ يناير ١٩٣٨ تزوج بلومبرج وزير الحربية وكان هتلر وجورنج شاهدى العريس ولكن حدث بعد ذلك بوقت قصير ان جاء هملر رئيس البوليس السرى بدليل على أن زوجة بلومبرج كانت امرأة سيئة السلوك اشتغلت قبل ذلك بالدعارة ولها سجل بادارة البوليس • واننا لا ندرى ان كان هذا الحادث ضربا من ضربات القدر لحسن حظ هتلر أم أنه كان مؤامرة مدبرة وهذا لايهم فالنتيجة واحدة فى كلا الحالتين فلقد ثار غضب هتلر لاشتراكه فى ذلك الزواج وثار قادة الجيش على تصرف بلومبرج واصروا على وجوب طرده كما اقترحوا أن يخلفه فى منصبه (فرتش) القائد الاعلى للجيش ولكن فرتش كان معارضا للنازية أكثر من بلومبرج ولذا يجب استبعاده وعلى هذا قدم هملر الدليل ضده باتهامه بالشذوذ الجنسى وكانت هذه التهمة ملفقة ولكنها صدقت فى وسط ثورة الاحداث هذه • وعندها قام هتلر بعملية تنظيف اذ طرد بلومبرج ليحل محله هتلر نفسه كذلك ذهب فرتش ولم يذهب وحده بل ذهب معه جميع المحافظين الذين ظلوا فى مركزهم لكبح جماح هتلر • فقد طرد نويرات وحل محله ربنتروب وطرد بابن وكذلك هاسل من سفارة ايطاليا ولكن الأهم من هذا كله ان استقالة شاخت قد حشدت بين كل هذه التعديلات لتمر فى هدوء وهذا كان بالطبع الهدف من كل هذه العملية ومع ذلك مر كل شيء وسط هذه القلاقل دون أن يثير انتباه أحد •

وفى برلين غادر هؤلاء الرجال مناصبهم دون احتجاج • وفيما بعد أصبح نويرات «حامى» بوهيميا واختفى الآخرون من الحياة العامة • وكان بابن وحده الذى يرتعد وقد سبق له أن وقع فى مشكل كهذا فى ٣٠ يونية ١٩٣٤ حتى كان على وشك أن يحكم عليه بالاعدام وكان دائما ينجو منتصرا وهكذا صمم على أن ينجو هذه المرة أيضا • ففى ٥ فبراير ذهب الى هتلر فى برختسجادن متظاهرا بالرغبة فى توديعه ولكنه أخذ يعرض سياسته الناجحة فى النمسا كما أخذ يشرح المتاعب التى سوف تواجه خلفه فى السفارة الالمانية بفينا ثم تطرق فى الحديث ليذكر أن شوشنيج كان تواقا لمقابلته ولقد كانت هذه فرصة عظيمة ولكنها ذهبت بلا شك ــ وقد كان لهذا الحديث الوقع الذى كان يتوقعه بابن ــ اذ كان هتلر يفكر فى كيف يمكنه أن يتقدم باستقالة شاخت لاجتماع الريخستاغ الذى دعاه للانعقاد يوم ٢٠ فبراير ــ ولكن هاقد وجد فرصته لصرف الانظار عن استقالة شاخت ــ ان زيارة شوشنيج سوف تتيح له فرصة نوع من النجاح يغطى به موضوع احتجاجات شاخت على الشئون المالية • وهنا انفرجت اسارير هتلر فقال لبابن : انها لفكرة عظيمة • أرجوك أن تعود الى فينا فى الحال وترتب أمر مقابلتنا فى ظرف أيام قلائل ولكن بابن تظاهر بعدم الرغبة فى العودة بحجة أنه لم يعد سفيرا فلما الح هتلر عليه • عاد وقبل • وفى يوم ٧ فبراير عاد الى فينا يحمل الدعوة لشوشنيج فلم

يتردد فى قبولها ففكرة الاجتماع بهتلر كانت فكرته قبل كل شىء أو هكذا خيل اليه الآن • وفى يوم ١٢ فبراير وصل شوشنيج الى برختسجادن حيث سبقه بابن وهكذا أصبحت المسألة النمساوية فى الميزان فهو لم يبدأ العمل فيها ولكنها هى التى جاءت اليه وحدها فانتهز الفرصة كعادته • لم يكن هناك عدوان مرسوم ولكن كان كل شىء مرتجلا ارتجالا سريعا • وهكذا كان بابن وليس هتلر هو الذى دفع بالاحداث فى مجراها تحت تأثير دوافع املتها المكانة الشخصية • ولاشك ان الفرص هى التى أتاحت له القيام بهذه الحركة الحاسمة ومع ذلك كان اتفاقا عجيبا ان يكون الرجل الذى جاء بهتلر الى الحكم فى استهتار هو نفس الرجل الذى دفع بألمانيا نحو السيطرة على أوروبا بنفس الاستهتار •

ولقد كان شوشنيج يعتزم أن يظهر فى برختسـجادن فى دور المظلوم فيعرض شكاياته ويتقدم ببعض العروض للمحترمين من الوطنيين فى مقابل استنكار أعمال النازيين المتطرفين • ولكن خطته اخطأت الهدف• فلقد كان هتلر يعتقددائما أن الهجوم هو خير وسيلة للدفاع فضرب ضربته أولا • وبمجرد وصول شوشنيج أخذ هتلر يمطره بالاتهامات عن عدم احترامه (لاتفاقيةالجنتلمان)المعقودة فى ١١يوليه ١٩٣٦ وكان هتلر هو الذى وضع شروط التعاون المستقبل وكان على شوشنيج ان يجعل سيس انكوارت وزيرا للداخلية ورئيسا للبوليس وكان معروفا بأنه وطنى محترم • وكان على النمسا أن تنسق سياستها الخارجية والاقتصادية مع ألمانيا ولكن شوشنيج تقدم باعتراضات دستورية فقال أنه لايسـتطيع أن يرتبط بوعد دون أن يحصـل على موافقة الحكومة النمساوية ورئيس الجمهورية • ولكن هتلر استخدم معه طرق التهديد فأمر فى كبرياء باستدعاء القادة الالمان الذين كانوا ينتظرون فى الخارج • ومع ذلك فانه بالرغم من هذه الوسائل البغيضة حصل شوشنيج على معظم مايريد واحترمت وجهة نظره الدستورية وفى المسودة النهائية اقتصر على تمسكه بما ينتظر أن يتخذ من اجراءات • ولم يكن سـايس انكوارت سوءا من غيره من الوطنيين الالمـان الذين كانوا فى الوزارة فعـلا وكان زميلا فى الطفولة لشوشنيج ولكن هذا لم يمنعه من أن يصبح نازيا فيما بعد • ولقد اعترف شوشنيج قبل ذلك بزمن طويل ان النمسا «دولة المانية» وكان هذا معناه تسيق للسياسة • وقد تلقى ماكان يعتبره مطلبا حيويا وهو أن أوجه النشـاط غير المشروع للنازيين النمساويين استنكرت واتفق على ان كل النازيين النمساويين غير المرغوب فيهم يجب أن ينقلوا أماكن اقامتهم الى الرايخ •

ولم تكن اتفاقية ١٢ فبراير هى نهاية النمسا انما كانت خطوة أخرى فى الحل التطورى الذى رسمه هتلر • ولم يحاول شوشنيج أن ينقذ الاتفاقية بعد أن تخلص من اجتماعه بهتلر بل على العكس جعل الحكومة النمساوية تلتزم بها • اما هتلر فانه تظاهر من جانبه ان الازمة قد انقضت وفى يوم ١٢ فبراير أخبر قادة الجيش الذين معه أن

يوالوا «الضغط العسكرى مع التظاهر بالعمل» حتى ١٥ فبراير وبعد ذلك لم يقم أحد بالتظاهر بالعمل ففى ٢٠ فبراير خطب هتلر فى الرايخستاخ وكان همه أن يوضح سبب طرد الوزراء المحافظين ولكن اتفاقية ١٢ فبراير مع النمسا مكنته من أن ينتقل الى موضوع أكثر خطرا فلم يهاجم شوشنيج كما كان سيهاجمه لو أنه التزم الاعتداء على النمسا بل على العكس أخذ يمتدح «التعاون الودى بين البلدين فى جميع الميادين» واختتم خطابه قائلا « اننى أشكر المستشار النمسوى باسمى وباسم الشعب الالمانى على حسن ادراكه وعطفه» وفى اليوم التالى حافظ هتلر على مايخصه فى الصفقة فاستدعى ليوبولد زعيم الحركة النازية السرية فى النمسا وقيل له أن نشاطه كان « جنونيا » وأمره بمغادرة النمسا مع رفاقه الآخرين • وبعد ذلك بأيام قابل هتلر هؤلاء النازيين مرة ثانية ونبههم من جديد الى ضرورة التزام الطريق « التطورى » سواء كان يبدو أو لا يبدو أن النجاح ممكن • فالاتفاقية المعقودة مع شوشنيج تعتبر شاملة بحيث أن التزام العمل بها سوف يؤدى الى حل المشكلة النمساوية من تلقاء ذاتها •

لقد كان هتلر راضيا ولم يقم باستعدادات من أجل العمل ولكنه بقى ينتظر ان يجنى ثمار حل يأتى من تلقاء نفسه • أما الآخرون فكانوا أقل استسلاما لما ليس منه بد أو ربما يسعون على الاقل للحصول على فائدة من ورائه • وفى ايطاليا كان موسولينى راضيا عن نجاح هتلر بالرغم من بعض فورات الضيق وكان شيانو وزير خارجيته معارضا فى أن يرتبط بعجلة الآخرين ولكن لم يتحقق ما كان يحلم به من انتهاج سياسة خارجية مستقلة وربما كان ذلك مجرد حلم لا أكثر• وعلى أى حال حاول شيانو أن يستفيد من الموقف ففى ١٦ فبراير كتب الى جراندى سفير ايطاليا فى لندن يقول له أن هذه هى آخر لحظة يمكن فيها تسوية الامور مع بريطانيا وقال « اذا أصبحت الرابطة بين ألمانيا والنمسا حقيقة مقررة فسوف يكون من الصعب جدا أن نصل الى اتفاق مع انجلترا أو حتى نجرى محادثات معها» ولقد رحب جراندى بهذه البداية اذ كان دائما يود أن يعيد سياسة ايطاليا الى وضعها التقليدى بالقدر الذى يوافق فيه أى فاشيستى على هذه السياسة كذلك رحب تشمبرلين بهذا الاتجاه ولكنه أثار ثائرة ايدن أخيرا فلقد كان غاضبا لان تشمبرلين — دون ان يستشيره — رفض اقتراحا من الرئيس رزوفلت لعقد مؤتمر دولى تناقش فيه جميع انواع الشكاوى • وقد كان ايدن يظن — ربما فى اخلاص ان مثل هذا الاجتماع سوف يجر الولايات المتحدة الى جانب الدول الغربية • وكان تشمبرلين يخشى —لبررات أقوى— انه سيكون صورة مكررة لمؤتمر بروكسل بشأن الشرق الاقصى حيث تتقدم الولايات المتحدة بمبادىء معنوية ويطلب من انجلترا وفرنسا ان تقدما القوة العسكرية اللازمة لتطبيق تلك المبادىء ولقد كان العرض الايطالى على أى حال هو الذى أدى للنزاع بين الرجلين ان يبلغ ذروته • فايدن لم ينس ما أصابه من اذلال بسبب الحبشة وقد غاظته الخيانات التى لاحصر لها من جانب لجنة عدم التدخل فأصر على عدم امكان القيام بأى محادثات حتى يفى الايطاليون بوعدهم بسحب ماكانوا يسمونه بالمتطوعين من أسبانيا• أما تشمبرلين فكان مستعدا أن يتقبل النصر للفاشستى فى أسبانيا لو أن ذلك أكسبه مساعدة ايطاليا لتهدئة هتلر •

وفى ١٨ فبراير بلغ النقاش غايته بين ايدن وتشمبرلين بحضور جراندى وكان ايدن متشبثا بموقفه فيما يتعلق بالمتطوعين الايطاليين فى أسبانيا أما تشمبرلين فتنازل عن اعتراضـــاته بموافقة جراندى ومعاونته . وبعد يومـين استقال ايدن وحل محله هاليفاكس وزيرا للخارجية ليسير وفق سياسة تشمبرلين وقد قامت ايطاليا بما وعدت به وبدأت المفاوضات فى الحال واتفق مقدما على الموافقة على شروط ايطاليا بالاعتراف بجمهوريتها فى الحبشة وبتقديم الوعد لها بأن تكون شريكا على قدم المساواة فى البحر المتوسط ولكن لم يذكر شىء عن النمسا وأرسل جراندى يقول ان موقف بريطانيا سوف يظل موقف «التسليم بالواقع مع السخط» وكان هذا حقا اذ لم يكن تشمبرلين يعتزم عمل أى شىء بشأن النمسا ولكنه كان يأمل أن مجرد بدء المحادثات بين انجلترا وايطاليا سوف يحمل هتلر على التردد بل ربما يوحى الى موسولينى بالمقاومة . غير ان هتلر لم يكن الرجل الذى يسهل خداعه فقد ظل الايطاليون يوالونه بأخبار المحادثات ويؤكدون له أن مسألة النمسا سوف لاتثار قائلين : «أنهم لن يسمحوا بأى محاولة تضر بالعلاقات الالمانية الايطالية» وكان هذا هو السبيل الوحيد الذى يمكن أن تســلكه ايطاليا . فالايطاليون لم يكن فى استطاعتهم الوقوف فى وجه هتلر ولقد كتب شيانو فى ٢٣ فبراير يقول : «ماذا يمــكن أن نفعله فى الواقع ؟ هل نشــن حربا على المانيا ؟ اننا بمجرد أن نطلق الطلقة الاولى سوف يهب النمساويون عن بكرة ابيهم يناصرون الالمان ضدنا » . وقد لايكون تشمبرلين عرض على الايطاليين ثمنا غاليا ولكن لم يكن هناك ثمن يمكن أن يحمل الايطاليين على القيام بحرب لدعم قضية منهاره . هى استقلال النمسا .

ولقد كانت تلك الاحداث التى تجرى فى لندن سببا فى ان يزداد هتلر ثقة فى نفسه اذ أخذ خصومه ينهارون على الطريق وكان نفوذ المحور آخذا فى الازدياد للتأثير فى شئون أوروبا وكان هتلر هو الذى يرسم سياسة المحور . ومع ذلك ظل هتلر لايعمل شيئا وظل على رأيه من أن الاحداث هى التى تعمل له مايريد . وقد حدث للمرة الثانية والاخيرة أن شوشنيج هو الذى بدأ العمل . ففى شىء من الارتباك والتردد أخذ يزداد حنقا من المعاملة التى لقيها فى برخستجادن ومن نتائج ضعفه شخصيا . وصمم أن ينتهز فرصة مالابد أن يقع من انزلاق النمسا فى اتجاه الوطنية الاشتراكية ويقف فى وجه هتلر بصورة دراماتيكية . وربما كان يدفعه للقيام بهذا العمل ماكان يتلقاه من وزير النمسا فى فرنسا من أن الفرنسيين لن يقفوا مكتوفى الايدى لو أن النمسا تعرضت لتهديد علنى . وقد تكون هذه الفكرة من بنات أفكاره هو فهذا مالا علم لنابه . ولكنه على أى حال اعتزم أن يتبع طريقة هتلر نفسه من القيام باستفتاء فيسأل النمساويين عما اذا كانوا يودون البقاء مستقلين . وفى ٧ مارس ارسل الى موسولينى يطلب منه الرأى فأجابه فى حزم أن هذا خطأ ولكن شوشنيج تجاهل هذا التحذير الضعيف وفى ٨ مارس أخبر وزراء النمسا بقصده وفى ٩ مارس أعلن هذا على العالم وكان الاستفتاء

سوف يتم بعد ذلك بثلاثة أيام فى ١٢ مارس ولم يكن شوشنيج قد أعد العدة لهـــذا الاستفتاء ولم يفكر فى كيفية السير فيه وكان كل همه موجها الى الاسراع فيه قبل أن يقوم هتلر بأى عمل رداعلى هذا • وأيا كانت شروط ذلك الاستفتاء فان العالم أجمع كان يعلم أنه تحد صريح لهتلر • وهكذا حانت اللحظة الحاسمة للصراع بين القومية الالمانية وبين النمسا المستقلة • وربما خطر على بال شوشنيج تلك الكلمات التى قالها اندراسى مرة لاحد رؤساء وزراء النمسا حين شرح يختط لنفسه سياسة جريئة اذ قال له :

« هل أنت على استعداد أن تستمر فى خطتك هذه بقوة المدفع ؟ اذا لم تكن على استعداد لهذا فلا تسر فيها » •

أما هتلر فقد استجاب للموقف كما لو كان أحد الناس قد وطأ بقدمه على جرح مؤلم ولم يكن قد تلقى تحذيرا أو قام باى استعدادات ولكن اتضح له أن « الحل عن طريق تطور الحوادث » لم يعد له وجود • فاما أن يعمل الآن واما أن يلحقه الاذلال • ولم يكن ليقبل الاذلال ومن ورائه هذا الصدع بسبب الوزراء المحافظين فاستدعى القادة العسكريين الى برلين على عجل ولم يكن الجيش الالمانى قد أصبح مستعدا لمواجهة أى حملة جديدة ولكنه أصدر أوامره بأن تكون كل القوات المعسكرة بقرب النمسا على قدم الاستعداد لعبور الحدود يوم ١٢ مارس • ثم ارسل خطابا الى موسولينى ذكر له فيه مابذل من محاولات للوصول الى اتفاق مع شوشنيج ثم اختتمه بقوله « لقد رسمت حدودا نهائية ••• بين ايطاليا وبينى هى منطقة برينر » وحمل برنس أوف هيس الخطاب الى موسولينى وكان روبنتروب فى لندن فى زيارة للوداع فاستدعى نويرات ليقوم بالاعمال العادية فى وزارة الخارجية • وأصـــبح جورنج هو الذى يتولى ادارة الشئون العامة فى برلين عندما ذهب هتلر ليلحق بقوات الغزو •

لقد أشعل شوشنيج الفتيل ليفجر قنبلة ضخمة وجاء دوره حتى يؤخذ على غرة فيدمره الانفجار ففى يوم ١١ مارس علم أن الحدود بين ألمانيا والنمسا قد أغلقت وأصر الوزراء الوطنيون فى الوزارة ـ طبقا لتعليمات جورنج ـ على أن يلغى الاستفتاء فالتجأ شوشنيج وهو مكتئب الى الدول العظمى التى هبت فى الماضى لحماية استقلال النمســـا فلم يجد الاعزاء فاترا اذ رفض موسولينى أن يرد على مكالمة تليفونية أما فى لندن فقد قال هاليفاكس لريبنتروب أن التهديد باستخدام القوة طريقة لايمكن السـكوت عليها• وقد فترت حدة هذه الاحتجاجات عندما قال تشمبرلين « انه من الممكن القيام بعمل جدى للوصول الى تفاهم ألمانى بريطانى عندما نجتاز جميعا هذه المسألة البغيضة » كمافترت أكثر عندما اتفق نيفل هندرسون مع جورنج على « أن شوشنيج قد ارتكب حماقة كبرى» وكان الرد الوحيد الذى قدمته الحكومة البريطانية الى فينا كان قولها انها لا تسـتطيع

تحمل مسئولية اعطاء نصيحة قد تسبب المتاعب للنمسا • أما الحكومة الفرنسية فكانت قد اصطدمت ببعض المشاكل الداخلية قبل ذلك بأيام ثلاثة فقرر الوزراء الذين كانوا لايزالون فى وضع غير مستقر أن يتخذوا « اجراءات عسكرية » اذا وافقت انجلترا ويقصدون بذلك استدعاء بعض جنود الاحتياط • ولما لم تأت موافقة انجلترا لم يستدع أحد من الاحتياط •

هكذا تخلى الجميع عن شوشنيج فأصبح وحيدا وفى عصر يوم ١١ مارس وافق على تأجيل الاستفتاء ولكن هذا لم يعد كافيا فقد اتصل جورنج بسايس انكوارت تليفونيا وأخبره أن الالمان لم يعودوا يثقون بشوشنيج ويجب أن يستقيل ليحل محله سايس انكوارت • ولقد كانت هذه حلقة فريدة فى نوعها فى التاريخ حيث نرى أزمة عالمية تدار من بدايتها الى نهايتها بتهديدات تليفونية • وقد استقال شوشنيج ولكن رئيس الجمهورية ميكلاس رفض أن يعين سايس انكوارت رئيسا للوزارة وكانت هذه آخر علامة أملاها اليأس تدل على استقلال النمسا • فاتصل جورنج بالتليفون مرة ثانية ليقول أن الجنود الالمان سوف يقفون عند الحدود فى حالة واحدة فقط هى أن يصبح سايس انكوارت مستشارا قبل الساعة السابعة والنصف مساء • فلما تمسك ميكلاس بموقفه أقام سايس انكوارت نفسه مستشارا فى الساعة الثامنة ولكن بعد فوات الاوان اذ طلب من سايس انكوارت أن يطلب مساعدة الالمان لمعاونته على استقرار القانون والنظام ففعل ذلك برسالة تلغرافية أرسلها فى الساعة التاسعة وعشر دقائق ولكن هتلر لم ينتظر ليصله هذا الرجاء اذ كان قد أصدر أمره بغزو النمسا فى الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والاربعين ومع ذلك بقى الالمان مترددين حتى آخر دقيقة • وكانت خطة غزو النمسا قد تأجلت فى عصر ذلك اليوم عندما جاءت الاخبار باستقالة شوشنيج • ومع أن احتجاج بريطانيا لم يكن ذا أهمية تذكر الا أن الالمان كانوا يخشون حتى آخر لحظة تدخل تشكوسلوفاكيا ولكن جورنج قال للوزير التشيكى « اتعهد لك بشرفى أنه ليس هناك أى سبب يدعو تشكوسلوفاكيا للشعور بالقلق » فأجابت تشكوسلوفاكيا أنها لن تعبىء جيشها والتشك وان كانوا لم يثقوا كثيرا بتأكيدات جورنج الا أنهم كانوا يشعرون كغيرهم بأنه ليس فى استطاعتهم القيام بعمل ما • وكان موسولينى آخر من تكلم • ففى الساعة ١٠و٢٥ خاطب هيس هتلر تليفونيا من روما وأبلغه تهنئة موسولينى الذى لم تكن النمسا تهمه مطلقا • فتنفس هتلر الصعداء ورد بقوله « قل لموسولينى اننى لن أنسى له هذا الصنيع مطلقا • مطلقا • مطلقا مهما حدث فلو انه احتاج لاى مساعدة أو واجهه أى خطر فليثق اننى لن أتخلى عنه مهما حدث حتى لو وقف العالم كله ضده • » وكان هذا وعدا أوفى به هتلر •

بدأ الجيش الالمانى غزوه للنمساأو بالاحرى سارت جنوده وسط حماس الشعب ولكن ماهو الغرض من ذلك ؟ لقد أصبح سايس انكوارت مستشارا • وكان جورنج قد وعد هندرسون أن الجنود الالمانية سوف تنسحب « بمجرد استقرار الاوضاع » ثم « تعمل بعد ذلك انتخابات حرةدون أىضغط»وكانتهذه هىخطة النازيينالاصلية كماقمت يوم ١١ مارس وظن سايس انكوارت أنكل شىء قد انتهى بخير بمجرد تعيينه ولهذا طلب يوم ١٢ مارس الساعة ٣٠ر٢ أن يوقف الغزو وكان الرد أن هذا أصبح مستحيلا واستمر الجنود يتدفقون وان كان ذلك فى شىء من الصعوبة • فالجنود لم يكونوا على استعداد للقتال وتعطل ٧٠ ٠/٠ من مركباتهم على الطريق من الحدود الى فينـا • ثم دخل هتلر النمسا فى صباح يوم ١٢ مارس وعند مدينة لينر ـ حيث كان تلميـذا بمدرستها ـ قام يخطب وسط الجموع المتحمسة • ولقد وقع هو نفسه فريسة ذلك الحماس • فعندما ذهب ليخطب من شرفة دار البلدية فى لينر أصدر قرارا فجائيـا لم يكن يتوقعه أحد فبدلا من أن يعلن قيام حكومة طيعة فى فينا أعلن ضم النمسـا الى الرايخ • وهكذا أمر سايس انكوارت ـ الذى بقى فى منصب المستشارية يوما واحدا ـ أن يصدر قانونا يخرج نفسه ويخرج النمسا من الوجود وقد قام بذلك يوم ١٣مارس• ثم قدم قرار الضم ليوافق عليه شعب ألمانيا الكبرى وفى ١٠ ابريل كانت نتيجـة التصويت ٩٩٫٠٨ ٠/٠ لصالح قرار الضم وهى صورة صادقة للشعور الالمانى •

لقد نجح هتلر • فقد حقق الهدف الاول من أطماعه وان لم يكن ذلك بالطريقـة التى أرادها فقد كانت خطته أن يمتص النمسا دون أن يحس به أحد حتى لايدرى أحد بالوقت الذى فقدت فيه استقلالها وكان يريد أن يستخدم وسائل ديمقراطية لتحطيم استقلال النمسا كما حطم الديمقراطية فى ألمانيا من قبل • ولكنه بدلا من ذلك اضطر لاستدعاء الجيش الالمانى ولاول مرة فقد ما كان يستند اليه فى شكاياته من النواحى الاخلاقية وظهر بمظهر الفاتح الذى يعتمد على القوةوهكذا أصبح الجميع يعتقد أناستيلاء هتلر على النمسا كان مؤامرة مرسومة دبرت قبل ذلك بزمن وكانت الخطوة الاولى نحو السيطرة على أوروبا • وهذا الاعتقاد ماهو الا أسطورة فأزمة مارس ١٩٣٨كانشوشنيج هو الذى أثارها وليس هتلر • اذ لم تكن هناك استعدادات ألمانية سواء عسـكرية أو دبلوماسية وهكذا ارتجل كل شىء فى مدى يومين بين سياسة ووعود وقواتمسلحة• ومع أن هتلر كان يعنى بكل تأكيد بسط سلطانه على النمسا الا أن الطريقة التى حقق بها ذلك كانت شاقة وخروجا على سياسة طويلة الامد ولم تكن نتيجة خطط مرسومة فى دقة تنتظر الساعة التى يحين فيها وقت العمل أما آثار ذلك فلم يكن فى الامكـان الرجوع فيها • فلقد كان هناك الاثر على هتلر نفسه حيث خرج سليما بعد أن قضى على

استقلال دولة وان كان استقلالها فى الحقيقة صوريا فازدادت ثقته بنفسه كما ازداد ازدراؤه لرجال الحكم فى البلاد الاخرى وأصبح متعجلا قليل الحذر مستعدا للاسراع فى مفاوضاته تحت التهديد باستخدام القوة ٠ ومن الناحية الاخرى أخذ رجال الحكم فى جميع البلاد يتشككون فى نواياه وحتى هؤلاء الذين كانوا يعلقون الآمال على امكان تهدئته أخذوا يفكرون الآن فى الوقوف فى طريقه ٠ وهكذا أخذ الميزان يميل بالتدريج الى ناحية الحرب فربما كانت أهداف هتلر مما يمكن تبريرها الا أن وسائله كانت تثير غضب الجميع ٠ فقرار ضم النمسا أو بالاحرى الطريقة التى تم بها ـ كان الخطوةالاولى فى سياسته التى وصمته كأكبر مجرم حرب ومع ذلك كانت هذه الخطوة على غير قصد منه وما من شك أنه لم يكن يعرف أنه قد اتخذها ٠

الفصل الثامن

أزمة تشكوسلوفاكيا

المعروف أن باستش رئيس وزراء صربيا قال بعد أن قسمت الامبراطورية العثمانية فى عام ١٩١٣ « اننا كسبنا الجولة الاولى ويجب أن نستعد للجولة الثانية ضد النمسا » وقد جاءت الجولة الثانية بعد ذلك بعام واحد ولو أن ذلك لم يكن من صنع يده وكان هذا هو ما يشعر به كل انسان فى أوروبا فى مارس ١٩٣٨ بعد الوحدة الالمانية النمساوية • لقد انتهت الجولة ضد النمسا وحان موعد الجولة ضد تشكوسلوفاكيا ولم تكن هناك ضرورة للاستعداد لتلك الجولة فقد تولت العوامل الجغرافية والسياسية من تلقاء ذاتها أن يأتى دور تشكوسلوفاكيا • فوضعها كحليف لفرنسا والدولة الديمقراطية الوحيدة الواقعة الى شرق نهر الراين كل هذا جعلها تحز فى نفس هتلر سيما وان بلادها متعمقة فى داخل الاراضى الالمانية هذا الى أنه لم يكن فى الامكان تقديم المساعدة لها • فالايطاليون — لو أنهم أرادوا — لامكنهم الوصول الى أراضى النمسا بصورة مباشرة أما تشيكوسلوفاكيا فكانت معزولة من جميع النواحى اذ تفصلها ألمانيا عن فرنسا وتفصلها بولندا ورومانيا عن روسيا السوفيتية • أما جيرانها المتاخمون لحدودها فكانوا يناصبونها العداء فالمجر كانت تعمل جهدها لتعديل حدودها كذلك بولندا فانه بالرغم من محالفتها لفرنسا كانت تسعى لتعديل حدودها فيما يتعلق باقليم «تسين» الذى ضمته تشيكوسلوفاكيا بعد الحرب العالمية الاولى وهى واثقة ثقة عمياء فى ميثاق عدم الاعتداء بينها وبين ألمانيا • من كل هذا نرى أنه لم يكن هناك سبيل لتقديم العون الى تشيكوسلوفاكيا • فاما أن تنشب حرب على نطاق واسع فى أوروبا أو لا تقوم حرب على الاطلاق •

وربما بعد الخطر قليلا عن تشيكوسلوفاكيا لو أن الامور اقتصرت على العوامل الجغرافية وحتى صبغتها الديمقراطية ومحالفاتها لم تكن لتتسبب فى تعجيل الأزمة ولكن تشيكوسلوفاكيا كانت تعانى من جرح عميق فى قلبها فبالرغم من مظهرها الخارجى الا أنها لم تكن موحدة القومية بل تضم قوميات عدة • فالتشك وحدهم هم الذين يمثلون التشكوسلوفاك الحقيقيين وحتى هم كانوا يفهمون هذا على أن معناه دولة مركزية ذات طابع تشيكى • أما القوميات الاخرى فتضم السلوفاك والمجريين والروثينيين وأهم من كل هؤلاء الالمانيين وكل هؤلاء يمثلون أقليات ترضى حينا وتتذمر أحيانا ولكنهم لم يعترفوا فى يوم من الايام بالطاعة الصحيحة للنظام القائم أما الملايين الثلاثة من الالمانيين — الذين سموا خطأ بالسوديت تجاوزا — فكانوا يرتبطون بالنمساويين ارتباطا وثيقا من ناحية التاريخ والدم فلما تم توحيد النمسا وألمانيا حرك ذلك فيهم عوامل الاضطراب

الذى لايمكن كبحه وربما كان من الخير لهم أن يقنعوا بما هم فيه كمواطنين أحرار فى مجتمع ديمقراطى وان لم يعاملوا على قدم المساواة ولكن الناس يفقدون فضيلة التعقل عندما يندفعون فى تيار العاطفة. فهناك تتاخمهم على حدودهم دولة ألمانية كبرى قوية متحدة قومية انضم اليها منذ وقت قريب أبناء عمومتهم من النمساويين فلم لاينضمون هم اليها كذلك ولا شك أنهم كذلك كانوا يودون أن يبقوا فى تشيكوسلوفاكيا بصورة ما ولكنهم لم يعرفوا كيف يمكن التوفيق بين الامرين ولكن الحركة القومية فى تشيكوسلوفاكيا كانت حقيقة واقعة بالرغم مما يكتنفها من اضطراب ولم يكن الذين يودون الوقوف الى جانب تشيكوسلوفاكيا يدرون كيف يواجهون هذه الحقيقة أما هتلر فانه لم يكن سببا فى هذه الحركة ولو أن الحركة كانت فى انتظاره تعد نفسها فى لهفة لتستغل وحتى على خلاف ماحدث فى النمسا لم يكن هتلر فى حاجة الى أن يعمل هنا . ولكن كان هناك من هم على استعداد للقيام بالعمل بدلا منه وهكذا أعدت أزمة تشيكوسلوفاكيا من أجل هتلر ولم يبق عليه الا أن يستغلها .

ولاشك أن هتلر كان يود «تحرير» الالمانيين فى تشكوسلوفاكيا كذلك كان يهتم بصورة عملية أكبر بازالة العقبة التى أقامتها فى سبيل زعامته للجنس الجرمانى تلك هى قوة تشكوسلوفاكيا العسكرية ومحالفتها لفرنسا ولروسيا ولكنه لم يكن يدرى على وجه التحقيق كيف يمكنه أن يفعل ذلك . وكان هتلر ككل انسان فى أوروبا يبالغ فى قوة فرنسا العسكرية وفى قوة تصميمها ولذا ظن ان هجوما ألمانيا على تشكوسلوفاكيا سوف يترتب عليه تدخل فرنسا وكان الحل الذى يراه هو ما يرجو ان يقع من صراع فى البحر المتوسط بين فرنسا وايطاليا كما جاء فى بيان له فى مؤتمر ٥ نوفمبر ١٩٣٧ ثم عاد فحدد لذلك شهر ابريل ١٩٣٨ حين قال «سوف نعود ونحن نضع تشوسلوفاكيا فى حقيبتنا» ولكن اذا لم تتحرك ايطاليا« فسنعود بالحقيبة خالية» غير ان هذه الخطة كذلك كانت ترتكز على خطأ فى التقدير اذ أن قدرة ايطاليا على الهجوم قد بولغ فيها . ولكن سواء وقعت الحرب فى البحر المتوسط أم لم تقع فانه لابد من ترتيب الامور فى تشكوسلوفاكيا لتشجيع حركة السوديت . والحقيقة التى لاشك فيها أن هتلر لم يعتزم مطلقا الاطاحة بالتنظيمات الفرنسية بأوروبا عن طريق هجوم مباشر فلقد كانت «ميونيخ» تسيطر على تفكيره ولم تكن «ميونيخ» فى ذلك الوقت تعنى فى نظره مؤتمر النصر الذى عقد فى سبتمبر ١٩٣٨ ولكن كانت تعنى نكبة الثورة النازية التى حدثت فى نوفمبر ١٩٢٣ . ولقد كان يريد أن ينال النصر عن طريق المؤامرات والتهديد باستخدام القوة لا باستخدامها فعلا . وفى يوم ٢٨ مارس استقبل ممثلى السوديت واقام من زعيمهم (هينلين) « نائبا»له وكان على هؤلاء أن يقوموا بمفاوضة الحكومة التشكوسلوفاكية وكان هينلين يقول «يجب أن نطالب دائما بمطالب لايمكن أن نجاب اليها» وكان لابد للحركة أن تلتزم حدود القانون والنظام حتى لاتجد الحكومة مبررا لسحقها بالقوة . وقد ترتكب تشكوسلوفاكيا بعض الخطأ وقد تفقد فرنسا أعصابها . وفى ربيع ١٩٣٨ لم يكن هتلر قادرا على أن يتبين طريقه فى وضوح فعمل على زيادة حدة التوتر أملا فى أن تتمخض الامور عن شىء جديد فى جهة ما .

ولقد كان بنيش رئيس جمهورية تشكوسلوفاكيا وعدو هتلر يهدف الى نفس الغرض اذ كان يريد أن تشتد حدة التوتروان كان يهدف الى نتيجة تختلف الىحد ما عما يقصد هتلر • اذ كان أمله أن تثوب انجلترا وفرنسا الىرشدهما اذا ظهرت الأزمة فتقفان الى جوار تشكوسلوفاكيا فيضطر هتلر الى التراجع فيتسبب اذلاله هذا لا فى اعتراض سيطرته على أوروبا فقط بل قد يتسبب أيضا فى انهيار النظام النازى فى ألمانيا نفسها • وكان للرئيس بنيش عشرون عاما من التجارب الدبلوماسية الناجحة كما كان يعتبر «مترنيخ» الديمقراطية وله نفس ثقة مترنيخ بنفسه ونفس العبقرية فى الوسائل والجدل وان كانت له كذلك نفس المبالغة فى الاعتماد على المعاهدات وعلى الحقوق الدولية• فلقد كان يعالج مشكلة السوديت بصورة تتشابه كثيرا مع ما كان يعالج مترنيخ المشكلة الايطالية قبل ذلك بقرن من الزمان • ذلك بأن المشكلة ان لم يكن فى الامكان حلها داخل البلاد فان فى الامكان تسويتها فى المجال الدولى • وكان بنيش راغبا فى مفاوضة السوديت كما كانوا هم راغبين فى التفاوض معه وان لم يكن هناك أمل فى الوصول الى تسوية • وكان يقلل من هذا الامل ان الاستجابة الى مطالب الاقلية الالمانية فى تشكوسلوفاكيا سوف يترتب عليها تقدم الاقليات الاخرى بمطالبها وهو ما سوف يقضى على الدولة — وقد أخذ السوديت وبنيش يتفاوضان وآذانهما مرهفة لسماع ما يتمخض عنه الرأى فى فرنسا وانجلترا • وكان زعماء السوديت يحاولون أن يظهروا بمظهر من يطالبون فقط بالمساواة فى المعاملة داخل تشكوسلوفاكيا بينما بنيش يدفعهم الى المطالبة بما يؤدى الى انحلال تشكوسلوفاكيا وبذلك يبدو الامر جليا فى نظر الدول الغربية • وكان بنيش قد خبر هذه الدول الغربية أثناء السنوات التى اقامها فى فرنسا ابان الحرب العالمية الاولى ومن تجاربه بعد ذلك عندما كانوا يتحكمون فى عصبة الامم فى جنيف • ولكنه — كبقية الناس بما فيهم هتلر — لم يكن قد تبين ضعفهم فى ذلك الوقت من الناحيتين المادية والمعنوية وخصوصا فرنسا بوجه خاص •

وكان الرئيس بنيش يشعر ببعض نواحى القصور فالأحلاف التى كانت تشترك فيها تشيكوسلوفاكيا كانت خطيرة على الورق فقط فهناك محالفة الدفاع المشترك مع فرنسا المبرمة فى ١٩٢٥ وهناك المحالفة مع روسيا السوفيتية المبرمة فى ١٩٣٥ والتى تنص على أن تنفيذ شروطها متوقف على أن تبدأ فرنسا العمل • وكان هناك « التحالف الصغير » وكان يضم رومانيا ويوغسلافيا لمواجهة المجر • ولكن بنيش لم يحسن استغلال هذا الموقف فقد تعمد اهمال محالفته مع روسيا اذ كان يعتبرها ملحقا لمحالفته مع فرنسا لابديلا لها • فربما كان يتشكك البعض فيما اذا كانت روسيا سوف تهب لمساعدة تشيكوسلوفاكيا حتى ولو بقيت فرنسا على الحياد وان بنيش لم يتعرض لهذه المسألة اذ كانت ميوله غربية كخليفة للرئيس مزاريك الذى حصل على استقلال تشيكوسلوفاكيا بمساعدة الغرب لا بمساعدة روسيا فقد قال لنيوتن الوزير البريطانى: «ان علاقات تشيكوسلوفاكيا بروسيا كانت دائما وسوف تظل فى المرتبة الثانية وان بلاده

سوف تظل متتبعة لسياسة الغرب ومرتبطة بها » • فالحرب الاسبانية قدمت تحذيرا جديدا ضد الدفاع عن « الديمقراطية » بمساعدة الروس ولكن بنيش لم يكن فى حاجة الى ذلك التحذير اذ أنه رسم سياسته قبل ذلك بزمن طويل • حتى لو أنه وجد مايغريه فقد كانت هناك عوامل تقف فى طريقه من داخل تشـــيكوسـلوفاكيا فالزراع فى تشيكوسلوفاكيا ويعتبرون أكبر حزب فى الحكومة المتحدة كانوا يخشون أى رابطة تربطهم بروسيا الشيوعية وكان من رأيهم أنه من الخير لهم أن يكونوا مع هتلر لا أن يكونوا معستالين — زيادة علىذلك فقد كان بنيش رجلسلام•فالجيش التشكوسلوفاكى كان قوة عسكرية خطيرة يتألف من أربعة وثلاثين فرقة مسلحة خير تسليح وهذه القوة فى حد ذاتها قد تكون كافية للوقوف فى وجه الجيش الالمانى الذى كان ناقص التدريب فى عام ١٩٣٨ • ولكن بنيش لم يكن يعتزم استخدام ذلك الجيش الا فى حالة حرب شاملة وهو مالم يكن محتمل الوقوع • فالتشيكيون كانوا شعبا صغيرا بقوا حوالى ثلثمائة عام يجاهدون حتى أفاقوا من كارثة « الجبل الابيض »فىعام ١٩٢٠ وكان بنيش مصمما على أن لا يتعرض شعبه مرة ثانية لمثل هذه الكارثة • لقد كان على اســـتعداد أن يقامر بالكثير ضد هتلر ولكنه لم يكن مستعدا ان يجازف بالمقامرة الكبرى وكان آخر ما يستطيع عمله أن يحنى رأسه للعاصفة أملا فى أن يجنب التشك أخطارها كما حدث فعلا •

لقد كان هتلر وبنيش على السواء يريدان زيادة حدة التوتر الى أقصى حد • أما انجلترا وفرنسا فكانتا على عكس ذلك •اذكانتا تودان تفادى الازمة حتى يتجنبا مواجهة الموقف الفظيع للاختيار بين الحرب أو الاذلال • وكانت انجلترا أكثر الدولتين لهفة على ذلك أما فرنسا فكانت أكثر تعرضا لهذه الازمة اذ كانت مرتبطة بمحالفة صريحة مع تشكوسلوفاكيا بينما لم يكن الانجليز مرتبطين الا بعضويتهم فى عصبة الامم المتداعبة غير أن الفرنسيين كان فى امكانهم القاء هذه الورقة على عاتق الانجليز فالفرنسيون كانوا يتحدثون عن الوقوف فى وجه هتلر فاذا رفض الانجليز مناصرتهم وقع اللوم على الانجليز وكانت نتيجة ذلك عجيبة • اذ أن هتلر وبنيش وحتى الفرنسيون كان فى امكانهم أن ينتظروا حتى تبلغ الازمة ذروتها وهم واثقون ان هذا سيرغم الانجليز على اصدار قرار حاسم ، ولهذا السبب وحده اضطر الانجليز للعمل • فهم وان كانوا أبعد مايكون عن المشكلة التشكوسلوفاكية الا أنهم كانوا أكثر الجميع اصرارا على اثارتها وكانت الدوافع لذلك كبيرة فهم يريدون الحيلولة دون وقوع حرب كبرى كذلك كانوا يودون الوصول الى تسوية تتفق مع المبدأ الهام لتقرير المصير أكثر مما حدث فى عام ١٩١٩ غير أن النتيجة كانت على عكس ما كانوا يقصدون بالضبط • فالانجليز كانوا يتصورون أنه كان من الممكن ايجاد «حل» لمشكلة السوديت الالمان بطريق المفاوضات • ولكن الواقع هو ان تلك المشكلة لم تكن قابلة للحل بطريق التسوية وكانت كل خطوة فى المفاوضات تزيد ذلك الامر وضوحا وهكذا تسبب البريطانيون فى أثارة أزمة وهم يحاولون أن يتجنبوا الازمة • وهكذا نرى ان المشكلة التشكوسلوفاكية لم تكن من صنع بريطانيا ولو أن الازمة التشكوسلوفاكية فى عام ١٩٣٨ كانت من صنعها •

لقد تنبه الانجليز لهذه المشكلة منذ الساعة التى تم فيها اتحاد النمسا مع ألمانيا قبل أن يرسم هتلر خططه بوقت طويل • ففى ١٢ مارس عندما دعا السفير الفرنسى الى بحث المسألة النمسوية أجاب هاليفاكس بأن سأله : « ما هو رأى فرنسا فى تقديم المساعدة لتشكوسلوفاكيا ؟ » فلم يكن فى استطاعة السفير أن يجيب برد قصير حاسم وبعد ذلك بعشرة أيام تقدم الانجليز باجابتهم على هذا السؤال أو أن هذه لم تكن اجابة عليه ، ففى مذكرة قدموها للحكومة الفرنسية أكدوا التزاماتهم بمقتضى اتفاقية لوكارنو « وهذه الالتزامات فى رأيهم ليست مساهمة ضئيلة فى المحافظة على السلم فى أوروبا ومع أنهم لا يعتزمون التخلى عن تلك الالتزامات فانهم لا يدرون كيف يزيدون فيها » • ولم يكن هناك الا أمل ضئيل فى أن تستطيع العمليات الحربية من جانب فرنسا والسوفييت أن تحول دون احتلال الالمان لتشكوسلوفاكيا • أما الانجليز فانهم حتى لو دخلوا الحرب لما كان فى استطاعتهم أن يقوموا بأكثر من « ضغط اقتصادى » أو حصار • وعلى هذا فالحكومة التشكوسلوفاكية يجب أن يطلب منها ايجاد « حل لمشكلة الاقلية الالمانية يتفق مع ضمان سيادة الدولة التشكوسلوفاكية » ثم أضاف هاليفاكس الى ذلك بعض العبارات بصفة شخصية فقال : « بكل صراحة هذا الموقف ليس مناسبا فان خططنا من ناحية الدفاع والهجوم لم تكتمل بما فيه الكفاية » كذلك قال للسفير الفرنسى : « لقد كان الفرنسيون أكثر استعدادا منا للاكثار من شأن التصريحات القوية » • وقد سبق أن رفض الانجليز واحدا من مثل هذه التصريحات • وفى ١٧ مارس اقترحت الحكومة السوفيتية القيام « داخل عصبة الأمم أو خارجها » بمناقشة بعض الاجراءات العملية لغرض القيام بعمل جماعى لانقاذ السلام • ولكن هاليفاكس لم يكن يعتقد بأن هذه الفكرة « لها قيمة كبيرة » وقيل للروس أن انعقاد مؤتمر يعمل للوصول الى حل للمشاكل الكبرى أقل مما يعمل على تنظيم تنسيق العمل ضد العدوان سوف لا يؤدى حقا الى نتائج مرضية فيما يتعلق بالآمال المعقودة على السلام الأوروبى •

والفرنسيون بطبيعتهم يكرهون أن يدفعهم أحد الى السير فى هذا الاتجاه أو ذاك ، ففى ١٥ مارس أخذت اللجنة الفرنسية للدفاع القومى تناقش مسألة تقديم العون لتشكوسلوفاكيا فأجاب جاملان بأن فى استطاعة الفرنسيين «شغل » بعض الجنود الألمان ولكنهم لا يستطيعون اختراق خط سيجفريد (الذى لم يكن قد أقيم فعلا فى ذلك الوقت) وعلى هذا فان خير طريقة لمهاجمة الألمان يكون عن طريق بلجيكا ولامكان الحصول على التصريح بذلك لا بد من الحصول على العون الدبلوماسى من انجلترا وكانت هذه هى نفس طريقته المعهودة فى الحديث الذى يحتمل معنيين فرجال السياسة يستفسرون عن أمور عسكرية يجيبهم جاملان عنها باللغة الدبلوماسية • وقد حاول بول بونكور وزير الخارجية أن يسير على هذا المنهاج فيما يتعلق بالأمور الدبلوماسية فقال للسفير البريطانى فيبس يوم ٢٤ مارس « ان انذارا حاسما يرسل الى ألمانيا

بواسطة انجلترا وفرنسا هو خير طريقة لتجنب الحرب • فالزمن ليس فى جانبنا لأن ألمانيا تزداد قوتها باضطراد حتى تصل فى النهاية الى بسط سلطانها الكامل على أوروبا » •

فلم تجب انجلترا على هذه الملاحظات التى كثيرا ما سمعتها من قبل وفى ١٠ أبريل سقطت حكومة ليون بلوم بعد أن بقيت فى الحكم أقل من شهر • ففكر دلادييه خلفه فى رئاسة الوزارة أن يستبقى بول بونكور ولكنه انزعج لحديثه الذى قال فيه بالوقوف موقف الحزم الآن بدلا من دخول الحرب فيما بعد فى ظروف اسوأ بكثير • فاتصل دلادييه ببول بونكور وقال له : « ان السياسة التى توصى بانتهاجها لتعتبر سياسة طيبة وجميلة بفرنسا ولكننى أرى اننا لسنا فى حالة تسمح بانتهاجها • واننى سوف أتخذ جورج بونيه » وقد بقى دلادييه رئيسا للوزارة حتى أبريل ١٩٤٠ وظل بونيه وزيرا للخارجية حتى سبتمبر ١٩٣٩ وكان هذان الرجلان هما اللذين قادا فرنسا الى الحرب •

ولن تكن زمالة الرجلين بالأمر الهين فدلادييه كان راديكاليا من المدرسة القديمة حريصا على الاحتفاظ بسمعة فرنسا ومقتنعا أن سياسة الحزم هى وحدها التى يمكن أن توقف هتلر عند حده ولكنه كان لا يدرى ماذا يفعل وقد سبق له الاشتراك فى الحرب العالمية الأولى وكان يفزع من حدوث دمار جديد • وفى كل مناسبة كان يتحدث فى حزم ضد سياسة التهدئة ثم يعود فيوافق عليها أما بونيه فكان مشبعا بسياسة التهدئة مستعدا لتقديم أى ثمن حتى يظل هتلر ساكنا • ولقد كان يعتقد أن دعائم قوة فرنسا قد انهارت وكان هدفه أن يلقى باللوم فيمـــا يتعلق بنتيجة ذلك على عاتق الانجليز والتشيك والبولنديين والروس ولم يكن يهمه أن يقع اللوم على أى واحد من هؤلاء طالما كانت صفحته هو وصفحة فرنسا نظيفتين على الورق • ولم يحدث فى مرة من المرات أن عمل دلادييه أو بونيه على السير فى المقدمة أملا فى أن يتبعه الانجليز أو غيرهم ولكنهما بدلا من ذلك كانا يتطلعان فى خنوع الى لندن عسى أن يقع ما يمكنهما من التهرب من موقفهما الذى لا يحتمل •

كذلك كان الحال فى لندن حيث لم تكن زمالة تشمبرلين وهاليفاكس بالأمر الهين فتشمبرلين كان أقوى شخصية بين الرجال الأربعة الذين يتحكمون فى ســـياسة بريطانيا وفرنسا • فالخوف أو التشكك فى قوة بريطانيا لم يؤثرا فى تقديره للموقف ولو أنه كان بطبيعته يبغض الحرب • وكان يعتقد أنه من الممكن استمالة هتلر الى جانب السلام • كذلك كان يعتقد أن قضية هتلر كانت عادلة فيما يتعلق بتشكوسلوفاكيا وعلى ذلك كان مستعدا للعمل على أساس هاتين العقيدتين مهما كانت درجة المعارضة فى الداخل أو فى الخارج • وكثيرا ما اتهم بجهله للشئون الخارجية ولكن كان يشاركه فى هـــذا الرأى من كان يظن أنهم صادقو الحكم • كذلك كان نيفل هندرسون سفير انجلترا فى برلين واثقا من امكان اجتذاب هتلر الى ناحية السلام وكان قد اختير لهذا

المنصب بواسطة فانسيتارت باعتباره خير دبلوماسي مناسب وكان هندرسون فى برلين ونيوتن فى براغ يصران على أن مطالب السوديت كانت عادلة من الناحية المعنوية وان الحكومة التشكوسلوفاكية لم تقم بمحاولة جدية للنظر فيها • وكان فيبس فى باريس يؤكد ضعف فرنسا وربما كان يبالغ فيه • كذلك كان بعض رجال وزارة الخارجية يعارضون سياسة تشمبرلين ولكنهم كانوا فى نفس وضع دلادييه فبالرغم من معارضتهم لسياسة تشمبرلين لم يكن فى استطاعة أحدهم أن يقترح غيرها وكانوا يلومون انجلترا وفرنسا لأنهما لم تعملا على ايقاف اعادة احتلال الالمان لاقليم الراين كما كانوا يعتقدون أن هتلر « لا بد وأن يضرب على أم رأسه » ولكنهم لم يكونوا يعرفون كيف يمكن القيام بهذا العمل كما أنه لم يكن بينهم من يعلق أى أمل على الولايات المتحدة ولم ينصح أحدهم بعقد محالفة مع روسيا وأولهم شيلستون سفير بريطانيا فى موسكو فقد كتب مثلا يوم ١٩ أبريل يقول : « مع أن الجيش الروسى يصلح بلا شك لحرب دفاعية داخل حدود الاتحاد السوفيتى الا أنه لا يستطيع الاشتباك فى حرب داخل بلاد العدو واننى شخصيا أعتقد أنه من المستبعد جدا أن الحكومة السوفيتية يمكن أن تعلن حربا لا لشىء الا لغرض الوفاء بالتزاماتها أو حتى للسبق لتحاشى ضربة موجهة الى الكيان السوفيتى أو تهديد غير مباشر لسلامة السوفييت • فالاتحاد السوفييتى يجب أن يستبعد من السياسة الأوربية » وقد لاقت هذه الآراء قبولا تاما فى وزارة الخارجية وكان على تشمبرلين أن يبتكر سياسته اذ لم تكن هناك سياسة من قبل •

ومن العسير أن نقول ما اذا كان هاليفاكس يوافق على هذه السياسة كما أنه من العسير أن نعرف له سياسة خاصة فقد كان غنيا فى سلبيته وكان يحتقر الساسة الفرنسيين خصوصا بونيه ويبدو أنه كان متشككا فى روسيا والولايات المتحدة ولم يكن يعطف على التشك كما كان يضيق ببنيش — فهل كان يؤمن بسياسة التهدئة ؟ فمن المحتمل أن زيارته لبرخستجادن جعلته لا يطيق هتلر ولكن هاليفاكس قضى الكثير من أيام حياته بين رجاله لا يحبهم فترحيبه بغاندى فى قصره وهو نائب للملك فى الهند لا يمكن أن يكون قــد تأثر بمشاعره الشخصية • فالهــدف الذى كان يرمى اليه بسياسته — لو كانت له سياسة — كان هو كسب الزمن وان كان ذلك دون أن تكون له فكرة صحيحة عن كيفية استغلاله • فهدفه القريب — مثل بونيه — كان المحافظة على أن يجعل صفحة حياته نظيفة وقد نجح فى ذلك على عكس بونيه فهاليفاكس كان دائما مخلصا لتشمبرلين وبلغ اخلاصه له الحــد الذى جعله يسمح له بتحمل جميع المسئوليات وهو ما كان يريده • ومع ذلك فقد كان هاليفاكس بين وقت وآخر يبدى شيئا من المعارضة ولكنها كانت معارضة لا تؤثر فى اللحظة الحاسمة • لقد كان هؤلاء هم الرجال الأربعة الذين أخذوا فيما بينهم يقررون مصير المدنية الغربية •

لقد كان هؤلاء الرجال الاربعة يقومون بأعباء واجباتهم وهم كارهون وكم كانوا يودون أن يطرحوا مشاكل أوروبا الوسطى وراء ظهورهم لو أنهم عرفوا كيف يكون ذلك ٠

وفى أوائل ابريل أخذ بنيش يفكر فيما يمكن أن يمنحه للسوديت الالمان من امتيازات وكان هدفه من ذلك أن يحصل على مساندة بريطانيا ، فلو أن تلك الامتيازات لاقت قبولا من الانجليز أفلا يسعون لدى برلين لقبولها ؟ ولكن الانجليز أحجموا اذ لم يكونوا يريدون أن تلتزم تشكوسلوفاكيا بشىء بل كانوا يقولون انهم اذا لم يذكروا شيئا فى برلين فربما لا تجتذب تشكوسلوفاكيا انظار هتلر ٠ كذلك كان لا بد أن يقرر بونيه رأيه فى هذا الموضوع ٠ وكان نويل ــ السفير الفرنسى فى وارسو وفى براج سابقا ــ قد زار تشكوسلوفاكيا ثم عاد الى باريس يحمل توصياته ٠ وقد اشار الى أنه لا محالفة فرنسا مع بولنده ولا محالفتها مع تشكوسلوفاكيا قد استكملت اتفاق عسكرى ٠ وعلى هذا فان المحالفتين لم تكونا الا ضمانات على الورق فى عصبة الامم ولا يمكن أن تترجما الى حقائق الآن ٠ وقال لبونيه «اننا نسير فى طريق الحرب أو الاستسلام ٠» وكان من رأيه أنه يجب ابلاغ بنيش أن يعمل على استرضاء السوديت فى فترة لاتتجاوز أوائل يوليه ، وبعد ذلك التاريخ يجب أن لا يعول على مساعدة فرنسا ٠ وكان هذا أمرا لا يستطيعه بونيه الذى لم يكن لديه من العزيمة حتى ما يكفى للاستسلام ٠ فبدلا من هذا رأى أن تنتقل مسألة البت فى الامر الى انجلترا التى يجب أن يطلب منها أن تقف الى جانب تشكوسلوفاكيا موقفا حازما علنيا ٠ ولكن ماذا لو رفضت انجلترا ؟ ان بونيه لم يكن يعرف الجواب ٠

وفى ٢٨ ابريل ذهب دلادييه وبونيه الى لندن للتشاور مع الوزراء الانجليز مدة يومين فكانت الخطوط العامة للسياسة واضحة فالانجليز أكدوا التزاماتهم لفرنسا بمقتضى ضمان مارس ١٩٣٦ ولكن كان ذلك باعتباره أقصى ما يمكن أن يقدموه أكثر منه وعدا جديا ٠ وحتى لم يكونوا على استعداد لتجهيز فرقتين « من أجل القتال فى القارة الأوروبية » ولم يكونوا على استعداد للدخول فى محادثات بحرية خوفا من اغضاب ايطاليا ٠ وقد قال تشمبرلين أن الرأى العام فى انجلترا لن يسمح للحكومة بالمجازفة بدخول الحرب حتى ولو كانت فرصة ذلك ١ : ١٠٠ وأخذ هو وهاليفاكس يعيدون بحث الآراء المعارضة للحرب وهى الآراء التى من السهل العثور عليها ٠ فانجلترا وفرنسا لا تستطيعان انقاذ تشكوسلوفاكيا حتى ولو أمكنهما الدفاع عن نفسهما وحتى هذا كان أمرا مشكوكا فيه ٠ أما روسيا فلم تكن منها فائدة وكانت بولندا مترددة ٠ وقد قال تشمبرلين : « لو أن ألمانيا ارادت القضاء على تشكوسلوفاكيا فانى لا أرى ما يمكن أن يحول دون ذلك » ثم عاد يبعث شيئا من الأمل ٠ فالناس عادة يعتقدون فى الأمور التى يريدون أن يعتقدوها فكانت تشكوسلوفاكيا على استعداد أن تعتقد أن هتلر سوف يكتفى باجابة مطالب السوديت وعلى هذا لو ضغطت انجلترا وفرنسا على بنيش كى يرضخ اذن لتم كل شىء على ما يرام ٠

أما دلادييه فلم يكن راضيا عن هذه الآراء • « فالحرب يمكن تجنبها فقط لو أن بريطانيا وفرنسا عقدتا العزم ـ دون غموض ـ على وجوب المحافظة على السلام فى أوروبا باحترام حريات وحقوق الشعوب المستقلة ••• فلو أننا استسلمنا مرة ثانية عندما تواجهنا التهديدات فاننا بهذا نمهد الطريق أمام الحرب التى نريد أن نتجنبها • » هكذا كان دلادييه أيضا يعتقد فيما يريد أن يعتقده : « ان السياسة الالمانية ما هى الا تهويش••• واننا لا زلنا قادرين حتى الآن على الوقوف فى طريقها » وكان الفرنسيون يريدون أيضا أن يحملوا بنيش على اســـتجابة المطالب ولكن الانجليز يجب أن يوافقوا على الوقوف الى جانب تشكوسلوفاكيا لو أن هذه الاستجابة لم تنل رضاء هتلر • ولكن الانجليز رفضوا فتعقدت الأمور وكانت مأدبة الغـــذاء يخيم عليها الكآبة •• ولكن الفرنسيين عادوا فوافقوا بعد ذلك اذ لم يكن دلادييه مستعدا للعمل طبقا لما يعتقـد ولم يكن يرضى أن يسير فى المقدمة أمام بريطانيا وأوروبا • أما تشمبرلين فكان مستعدا أن يعمل وفق ما يعتقـــد فاستجابة تشكوسلوفاكيا للمطالب يمكن أن تجنب أوروبا الحرب • ولا شـــك أنه لم يكن يهمه ضخـــامة تلك المطـــالب • فكلمة « لا » هى دائمـا أقوى من كلمـة « نعم » فرفض القيـــام بالعمـــل يرجح التردد وقد أمكن الوصول الى توفيق بين وجهـات النظر تتمشى مع وجهـة النظر البريطانية • فانجلترا وفرنسا تطلبان من تشكوسلوفاكيا أن تستجيبا للمطـــالب بينما تطلب انجلترا من هتلر أن يتريث • فاذا فشلت مسألة المطالب فان انجلترا عنـــد ذلك تحذر الحكومة الالمانيـــة « من الأخطار التى لا تخفى عليها •• وهى أن فرنسا سوف تضطر للتدخل وان حكومة جلالة الملك لا تضمن انها لن تحذو حذوها » •

وعلى ذلك ففى آخر أبريل ١٩٣٨ لم تعد مشـــكلة الالمان الموجودين بداخـــل تشكوسلوفاكيا موضع نزاع بين الالمان السوديت وبين الحكومة التشكوسلوفاكية بل أنها لم تعد أو بالأحرى لم تصبح بعد ذلك نزاعا بين تشكوسلوفاكيا وألمانيا ـ فقـد تدخلت انجلترا وفرنســـا وكان هـــدفهما ـ بالرغم من محاولة اخفائه ـ هو حمل تشكوسلوفاكيا على التسليم بمطالب الســـوديت لاكبح جماح ألمانيا ـ وكان أكثر الضغط يأتى من ناحية انجلترا • أما فرنسا التى كانت لا تزال من الناحية النظرية حليفة لتشكوسلوفاكيا فكانت تسير فى اعقابها على غير هدى ـ ولقد قلب هذا التطور ما كان بنيش قد وضعه من خطط • اذا كان طوال شهر ابريل يتقدم بمقترحاته للزعماء السوفييت أملا فى أن يظهرهم بمظهر العناد والرفض •• وقد نجح فى ذلك • ففى ٢٤ أبريل قال هينلين فى خطاب له فى كارلسباد أنه يطالب بتحويل تشكوسلوفاكيا الى « دولة من القوميات » تتمتع بكامل الحرية المطلقة والدعاية الوطنية الاشتراكية • وأكثر من ذلك أن تغير تشكوسلوفاكيا من سياستها الخارجية بحيث تصبح دائرة فى فلك ألمانيا • وهكذا اتضح للرئيس بنيش ولنيوتن كذلك أن تشكوسلوفاكيا لن تصبح دولة مستقلة اذا هى رضيت بمطالب السوديت ـ ومع ذلك يبدو أن هذه الظاهرة لم تؤثر فى حكومتى انجلترا وفرنسا اذ بقيتا تطالبان بنيش أن يقوم بعملية انتحار حتى يتيح لهما هدوء البال •

ولم تكتف بريطانيا وفرنسا بحث تشكوسلوفاكيا على استجابة مطالب السوديت بل أن بريطانيا أخذت تحث هتلر على التقدم بالمطالب • وقد كان ذلك مفاجأة له اذ رأى الأحداث تتوالى فى سرعة وفى صـــالحه بأكثر مما كان يؤمل وان لم يكن ذلك طبقا لما كان يتوقع • فالحرب بين فرنسا وايطاليا فى البحر المتوسط لم تبد الدلائل انها سوف تقع • والاتفاقية البريطانية الايطالية التى كان تشمبرلين يلح على ايدن بعقدها عقدت فعلا فى ١٦ أبريل فحسنت العلاقات بين البلدين وبين فرنسا وايطاليا ضمنا • وقد حمل هتلر هذا الأمر على محمل الجد حتى أنه زار روما فى أوائل مايو حتى يدلل على أن المحور لايزال باقيا • وقد جاءته الانباء وهو هناك أنه لم يعد فى حاجة كبيرة الى شريكته ايطاليا اذ كان الانجليز تواقين الى الانحياز الى جانبه وكان الانجليز جادين فى هذا فقد قال هندرسون «ان فرنسا تقوم بدور التشك والالمان بدور الالمان السوديت وانجلترا هى التى تساعد الالمان فى هذه الحالة» وقد قال كيرك باتريك — الرجل الثانى بعد هندرسون — لاحد رجال الحكومة الالمانية فى احدى حفلات الغداء « لو أن الحكومة الالمانية تقدم النصحية بصفة سرية للحكومة الانجليزية بشأن الحل الذى تهدف اليه فيما يتعلق بالالمان السوديت فان الحكومة الانجليزية سوف تقوم بالضغط الذى يجعل الحكومة التشكوسلوفاكية فى براج مضطرة للاستجابة للمطالب الالمانية» وقد أنب هاليفاكس نائبه على هذا الاندفاع ولكنه لم يتوان فى العمل فقد قال للسفير الالمانى فى رقة ظاهرة «ان خير مايمكن عمله هو أن تتحد الامم الثلاث الكبرى التى ترتبط بصلة القربى وهى المانيا وبريطانيا والولايات المتحدة فتعمل سويا من أجل السلام» ولكن هذا لم يدفع هتلر الى الاسراع فى العمل فكلما طال أمد المشاكل وكلما زاد التوتر كلما ساعد ذلك على أن تقوم الدول الغربية بالعمل من أجله بل قد تتحطم تشكوسلوفاكيا دون أن تقوم المانيا بمجهود ما لهذا أرسل هيملين الى لندن حيث قام بعرض أعماله من أجل تلاقى وجهات النظر وقال انه لم يكن يعمل بوحى من برلين وكان يقتنع باخلاصه أمثال تشرشل وفانسيتارت من النقاد • وحتى كان هناك دليل بارز — بسبب سريته — على تعقل هتلر ، ففى ٢٠ مايو تقدمت هيئة أركان حرب الجيش الالمانى — بايعاز منه — بمشروع خطة للعمليات ضد تشكوسلوفاكيا وقد بدأت بهذه العبارة : «اننى لاأقصد تحطيم تشكوسلوفاكيا عن طريق العمليات الحربية فى المستقبل القريب مالم يكن هناك استفزاز» وعلى أثر ذلك ظهرت الظنون القديمة عن احتمال نشوب الحرب بين ايطاليا والدول الغربية •

لقد كانت هناك دولة أخرى تهتم بمسألة تشكوسلوفاكيا ولو أن الجميع — بما فى ذلك تشكوسلوفاكيا — كانوا يتظاهرون بأن ذلك لم يكن حقيقيا — تلك الدولة هى روسيا السوفيتية التى تربطها بتشكوسلوفاكيا محالفة فى نطاق محدود وكان لابد أن تتأثر كثيرا باختلال توازن القوى فى أوروبا • وكانت بريطانيا وفرنسا تعترفان بوجود روسيا لسبب واحد فقط هو التدليل على ضعفها العسكرى وكان هذا الرأى مبنيا على ما لديهما

من معلومات كما كان يعبر عن الرغبة التي تجول في نفوسهما . فهما تريدان استبعاد روسيا من أوروبا ولهذا كانتا تقولان بأن هـــذا هو ما أملته الظروف . فهل تعدت رغباتهما هذا النطاق وهل وضعتا خطة لا لحل مشاكل أوروبا بعيدا عنروسيا السوفيتية فقط ولكن ضدها كذلك ؟ وهل كان قصدهما أن تقوم ألمانيا النازية بالقضاء على الخطر الشيوعي ؟ هذا هو ماكانت تخشاه روسيا في ذلك الوقت وفيما بعده ولكن ليس هناك دليل عليه من السجلات الرسمية أوحتى خارجها فرجال الســياسة في فرنسا وفي انجلترا كانت تشغلهم المشكلة الالمانية بحيث لم يكن في استطاعتهم أن يفكروا فيما قد يقع لو أن ألمانيا أصبحت القوة الكبرىفي أوروبا الغربيةوما من شك انهما كانتا تفضلان أن تتجه ألمانيا بقوتها نحو الشرق لا نحو الغرب لو أنها تحركت ولكن كان همهما منع الحرب لا التمهيد للحرب . وكانتا تعتقدان باخلاص — أو كان تشمبرلين على الاقل يعتقد — أن هتلر سوف يقنع ويلتزم الهدوء لو أن مطالبه قد أجيبت .

أما سياسة روسيا فكانت لغزا غامضا لرجال السياسة من الغربيين ولازالت كذلك فمركز روسيا على الورق لم يكن في امكان احد ان ينال منــه شيئا فبمقتضى تحالفهم مع تشكوسلوفاكيا كانوا يؤكدون استعدادهم للعمل لو أن فرنسا بدأت أولا بالعمل وبما أن فرنسا لم تكن لتبدأ بالعمل مطلقــا فان (تهويش) الروس لم يكن في الامكان الكشف عنه ان كان هناك تهويش . ولاشك أنه كان من صالحهم شد أزر تشيكوسلوفاكيا سواء أرادوا ذلك أو لم يريدوا . أما ماكان ســوف يعمله الروس لو طلب منهم العمل فسؤال لا يمكن الاجابة عليه مطلقا . ويكفى أن نسجل أعمال الروس على قدر مالدينــا من حقائق مؤكدة . ففي ربيع عام ١٩٣٨ بدأت الحــكومة السوفيتية تقلل من معونتها للجمهورية الاسبانية ثم مالبثت أن قطعتها نهائيا . وكان من رأى المعلقين النابهين أن ذلك تمهيد لتحسين العلاقات مع هتلر ولكن هتلر كان يود أن تستمر الحرب الاهلية في أسبانيا وعلى هذا لم يتأثر بالعون السوفيتي للجمهورية بل كان يود أن يستمر ذلك العون . وأمامنا تفسير أسهل فيما كان يقع من أحداث في الشرق الاقصى حيث كانت اليابان غارقة في غزو بلاد الصين ولهذا كانت روسيا في حاجة الى جميع أسلحتها للدفاع عن نفسها . أما اذا كانت تهتم بأوروبا فان ذلك الاهتمام كان ينحصر في انهاء التدخل الروسى في أسبانيا . وسوف يؤدى هذا الى تحســين العلاقات مع بريطانيا وفرنسا ولكن خاب هذا الامل .

ومساعدة السوفييت لتشكوســـلوفاكيا لم تكن ذات وجهــين على الورق ففي ٢٣ ابريل ناقش ســتالين هذا الموضوع مع كبار زمــلائه ثم قيل لتشكوســلوفاكيا : «لوطلب منا العمــل فان الاتحاد الســـوفيتي على اســـتعداد — بالاتفاق مع فرنســا وتشكوسلوفاكيا لاتخاذ جميع الخطوات المتصلة بسلامة تشكوسلوفاكيا وسيقدم كل الوسائل الضرورية من أجل هذا الغرض ... ان فوروشيلوف القائد الاعلى في غاية التفاؤل . » وفي ١٢ مايو قام لتفينوف وزير الخارجية الروسية باثارة مشـــكلة

تشكوسلوفاكيا مع بونيه أثناء انعقاد عصبة الامم بجنيف وقد سأل بونيه كيف يمكن لروسيا السوفيتية أن تقدم المعونة التشكوسلوفاكية نظرا لان رومانيا وبولندا ترفضان السماح للجيوش السوفيتية بالمرور فى أراضيها فأجاب لتفينوف أن فرنسا يمكنها أن تحصل على تصريح بذلك بصفتها حليفة لهما • ولعل هذا كان طريقة أخرى للتهرب من العمل ولكن يحتمل كثيرا أن لتفينوف لم يستطع أن يتبين انهيار مكانة فرنسا وكان يرى أن فى امكان فرنسا أن تملى سياستها على حليفاتها كما تملى روسيا سياستها على حليفاتها لو أن لها حليفات فلم يكن من بونيه الا أن تنهد وكان هذا خاتمة الحديث كما قال لتفينوف •

حقيقة أن سياسة لتفينوف لم يكن من بين أغراضها أن يجعل التدخل السوفيتى ممكنا وهناك دليل آخر على ذلك • ففى أواسط مايو حضر الى باريس كولوندر سفير فرنسا فى موسكو وكان أحد الرجال الاقوياء القلائل فى السلك الدبلوماسى الفرنسى وقد أخذ يلح فى ضرورة بدء المحادثات العسكرية فى الحال بين رؤساء أركان حرب السوفييت والتشك والفرنسيين فوافق بونيه بطريقة الضعف المعروفة عنه فلما عاد كولوندر الى موسكو لم يتم شيئا ولم تصله أى أنباء من باريس عن المحادثات • وفى يوليه علم من زميله السفير التشيكى أن المحادثات لم تتم خشية الاساءة الى المحافظين من الانجليز ولم يكن هذا الامر قد بحث فى لندن ولكن بونيه هو الذى عارض المحادثات من تلقاء نفسه وهكذا احتفظ السوفييت بمركزهم الادبى كما احتفظت الدول الغربية بضعفها المادى •

ومع كل ذلك كان هناك من يعتقدون أن هتلر سوف يتراجع قبل أن يستعرض عضلاته وقد تم هذا الاستعراض فعلا • ففى ٢٠ مايو استدعى جنود الاحتياط فى تشكوسلوفاكيا وعززت مواقع الحدود بالجند واذاعت تشكوسلوفاكيا أن هتلر على وشك القيام بهجوم مفاجىء كما سبق أن فعل فى النمسا • ولكن الالمان نفوا ذلك وأضافوا أن كرامتهم قد جرحت • وقد ظهر من المستندات التى ضبطت بعد الحرب أن ما قالوه كان صحيحا • اذ لم تكن جنودهم قد تحركت ولم يكونوا قد قاموا بأى استعدادات • فما هو السر فى هذه الحلقة الغامضة ؟ وقد بقى هذا السر مغلقا • من الممكن القول أن التشكيين قد ضلوا الطريق على أثر انزعاج لا أساس له كذلك يمكن القول أن بعض المتطرفين من السوديت كانوا يضعون الخطط بالطريقة التى اتبعت فى النمسا بالرغم من التعليمات الصارمة التى تعارض ذلك • أوربما كان الالمان قد اطلقوا الاشاعات الكاذبة بين التشيكيين حتى يدفعوهم الى العمل وليس بين كل هذه التفسيرات ما يمكن ترجيحه • ومن المحتمل أن يكون التشيكيون قد قاموا بالمظاهرات لمعارضة سياسة التهدئة وليدللوا على أن هتلر من الممكن أن يتراجع أمام مظاهر القوة • ولقد كان التشيكيون أنفسهم هم الذين فكروا فى هذا وليس الروس الذين لم يكونوا أقل دهشة من غيرهم وهناك شبه دليل على أن تلك الحركة قد أوحى بها الافراد المتشددون فى وزارة الخارجية البريطانية والذين كانوا يعارضون الطريقة التى تتبعها الحكومة ويرفضون تصديق تكذيبات هندرسون مع أنها كانت صحيحة •

ولكن هتلر على أى حال قد «ضرب على أم رأسه» اذ كانت ظواهر الامور تدل على أن تلك السياسة قد نجحت فقد أخذ الالمان يدللون على نواياهم السلمية فرفع ذلك من الروح المعنوية بين التشيكيين ولكن الاثر الحقيقى كان على العكس من ذلك تماما٠ فقد ذعرت حكومتا انجلترا وفرنسا عندما بدأ أمامهما شبح الحرب فقال هاليفاكس للسفير الفرنسى أن انجلترا سوف تقف الى جانب فرنسا فى حالة واحدة فقط وهى وقوع هجوم غير متسبب عن استفزاز كذلك قال بونيه لالفيبس وحده بل وللسفير الالمانى : « انه اذا لم تكن تشيكوسلوفاكيا على حق لاشك فيه فان الحكومة الفرنسية سوف تعلن أن فرنسا تعتبر نفسها متحللةمن التزاماتها » ٠وقد أوفدت وزارة الخارجية مبعوثها سترانج الى براج وبرلين لاستطلاع آراء الممثلين البريطانيين فعاد يحمل توصيات محددة ذلك أنه يجب على تشيكوسلوفاكيا أن تتخلى عن محالفاتها وتصبح دولة تدور فى فلك ألمانيا وأن تتمتع مناطق السوديت بالحكم الذاتى اذ ربما تضم الى ألمانيا ٠ ولما كان التشيكيون يقفون موقف العناد لهذا يجب على الحكومة البريطانية أن تحملهم على قبول هذه السياسة ٠ وبذلك تكون هذه « أول محاولة جدية تبذل منذ الحرب لمعالجة أحد أسباب التقلقل الأوروبى أكثر من مجرد معالجة الاعراض وللقيام بتغيير سلمى فى أحدىمناطق الخطر فى أوروبا فالحركة التى قامت بها تشيكوسلوفاكيا دفعت انجلترا الى العمل ولكن ليس فى الاتجاه الذى أراده التشيكيون ٠

كذلك كانت لاحداث ٢١ مايو آثار عميقة على هتلر فقد تملكه الغضب لما لحقه من اذلال ظاهرى فقد أمسك بمسودة البيان المؤرخ ٣٠ مايو والذى أعده له كيتل فشطب العبارة الاولى الواردة به والتى تستنكر استخدام القوة ضد تشيكوسلوفاكيا وكتب بدلا منها هذه العبارة « لقد قررت قرارا لا رجوع فيه أن أحطم تشيكوسلوفاكيا بعمل عسكرى فى المستقبل القريب » وهذا دليل قاطع على أن هتلر كان مصمما على مهاجمة تشيكوسلوفاكيا مهما كانت الظروف ولكن الدليل ليس قاطعا بالنسبة للصورة التى يبدو بها فحتى السجلات التى نقلت عنها هذه العبارة العنيفة تؤكدبطريقة هتلر— المعتادة — أن فرنسا سوف تتردد فى التدخل « نتيجة لموقف ايطاليا الصريح الى جانبنا» فتلك العبارة لم تكن فى الحقيقة سوى فورة من فورات الغضب لاتلبث أن تزول اذ أن هتلر مالبث أن رجع الى سياسته القديمة فقد ورد بالبيان الاستراتيجى العام المؤرخ١٨ يونيه ما يأتى : « اننى سوف أقرر مايجب أن يتخذ من اجراءات ضد تشيكوسلوفاكيا فى حالة واحدة فقط — كما كان الحال فى احتلال المنطقة المنزوعة السلاح والدخول فى النمسا — ذلك أن أكون متأكدا كل التأكد أن فرنسا سوف لاتزحف بجيشها وعلى ذلك لاتتدخل بريطانيا » ٠ ولا شك أن هتلر كان يعلم أن قادته العسكريين كانوا يخشون الحرب ضد فرنسا وربما عمل علىمايسوقهمالى تلك الحرب على غير مايريدون٠ فقد كان هتلر يتبع سياسة (التهويش) مع كل انسان مع الدول الغربية ومع قادته العسكريين وحتى مع نفسه فهناك دلائل لاتحتملالشكعلى أن ذلك لم يكن الا (تهويشا) فلم تكن هناك الا استعدادات قليلة حتى لحرب دفاعية ضد فرنسا فقد كان قسم صغير

من القوات الجوية الالمانية يرابط فى ألمانيا الغربية «ليمنع فرنسا من الحصول على الحرية الكاملة للعمل فى الجو» وكانت هناك فرقتان فقط من الجيش ترابطان فى خط سيجفريد أضيفت اليهما فرقتان أخريان فى سبتمبر وذلك فى مواجهة قوة فرنسية كبرى تتألف من أكثر من ثمانين فرقة ٠ وبالرغم من أن هتلر قد حدد يوم أول أكتوبر كحد فاصل مع هيئة أركان الحرب الا أنه لم يعلن هـــذا الامر ليحفظ لنفســه خط الرجعة حتى يتضح له أن التراجع ليس ضروريا ٠

ولقد كانت الحكومة البريطانية واثقة أن هتلر وضع حدا فاصلا ولكنها لم تكن تعرف ماهو ذلك الحد فحملت نفسها على الاعتقاد «انه لن ينتظر أكثر من هذا» وأن صبره قد نفذ مع أن الصبر كان هو صـــفته البارزة حتى ذلك الحين ٠ فقد قر رأى الحكومة البريطانية ـ لمجرد وحى الخاطر ـ أن هتلر حدد يوم ١٢ سبتمبر كحد فاصـــل وهو اليوم الاخير من اجتماع حزب النازى فى نورمبرج وظلوا بعد ذلك وكان ذلك التـاريخ قد نومهم مغناطيسيا ٠ وقد أرادت بريطانيا أن تسبق هتلر بالعمل فتســتعد ليوم ١٢ سبتمبر بدلا من أول أكتوبر فنجحت فى ذلك ٠ فقبل ذلك التاريخ ترى انجلترا أن تدفع بنيش للتسليم بمطالب محددة تجعل هتلر لايقدم على الحرب فيجب أن تتخلى تشيكوسلوفاكيا عن محالفتها مع فرنسا ومع روسيا ويجب أن ينال السوديت الالمان كل ما يطلبونه ٠ ولـكن كيف يمكن أن يتم ذلك ؟ فلقـد كان بنيش عنيدا «له رأس خنزير» كما كان يقول هندرسون ٠ وكانت انجلترا تتحاشى ارغام بنيش وتحاول أن تلقى مسئولية ذلك على غيرها ولم يكن هذا بالامر السهل فمن الواضـح أن الروس لم يكونوا يرغبون فى التخلى عن محالفتهم بل كانوا على العكس يتمسكون بها مما سبب ارتباكا للجميع أما فرنسا فربما كانت أسهل فى الانقياد ٠ ولكن انجلترا لم توفق فى هذا أيضا فالفرنسيون تباطأوا أولا ثم أخذوا يحثون بنيش على استجابة مطالب الالمان قائلين أن ذلك سوف يجعل مساعدة بريطانيا أكثر احتمالا ٠ وقد شكا هاليفاكس من أن تلك المذكرة لم تتضمن أى تحذير محدد بأن فرنسا سوف تعيد النظر فى موقفها من المعاهدة لو أن الحكومة التشيكية وقفت موقفا غير معقول من مسألة السوديت ٠

اذن لم يكن هناك مفر ـ ففرنسا لن تقوم بمـا تفرضـــــه عليها محـالفاتها مع تشيكوسلوفاكيا ولكنها من ناحية أخرى تتمسك بتعهداتها ٠ ولما كان الضعف تنتقل عدواه فان فرنسا أخذت تجر بريطانيا وراءها٠ فبريطانيا كانت أبعد الدول عن المشكلة التشيكية ومع ذلك كان عليها أن تسير فى المقدمة ولما كانت عاجزة عن مهاجمة المحالفات التشيكية هجوما مباشرا لذلك كان عليها أن تقوم بحل المشكلة التشيكية على أى صورة تحول دون وقوع الحرب ٠ وسرعان ماتعلقت فرنسا بتلك الفكرة التى أزالت المسئولية عن عاتقها غير أن معارضة تشيكوسلوفاكيا ازدادت اذ أخذ بنيش يعرض قضيته فى صورة صراع بين تشيكوسلوفاكيا وبين ألمانيـا ولكن الاقتراح البريطانى صوره فى صورة نزاع بين الالمان السوديت وبين الحكومة التشيكية ٠ عند ذلك عادت من جديد فكرة المعونة البريطانية فقد كتب هاليفاكس يقول : «لو أن الحكومة التشيكية تقدمت

الينا تطلب المعونة فى هذا الموضوع فان هذا سوف يقابل بارتياح دون شك من الرأى العام هنا » • وهنا تراجع بنيش مرة أخرى • فقد اتضح له أن العون البريطانى أبعد منالا مما كان يرجو ولكنه ظل يفترض أن ذلك العون سوف يأتى فى النهاية • وفى ٢٦ يوليه استطاع تشمبرلين أن يصرح فى مجلس العموم أن لورد رانسيمان سوف يذهب الى براج كوسيط « استجابة لرجاء الحكومة التشيكية » • وقد انتزع ذلك الرجاء بشكل أصعب مما ينتزع به الضرس • وقد كان رانسيمان فى الماضى رئيسا لمجلس ادارة الحرف • وقد اختير بطريقة صورية لما كان يقال عن براعته فى تسوية المنازعات المتعلقة بالصناعة • ولكن ربما كان هذا الاختيار بسبب جهله بخطورة النتائج المرتقبة• وقد كان فى الماضى من الاحرار من أنصار اسكويث ومن المتحمسين لمبدأ حرية التجارة ثم صار فيما بعد من الاحرار القوميين الذين رحبوا بحماية التجارة وكان يمكن الاعتماد عليه للوصول الى حل « رخو » فذهب الى براج كفرد من الافراد لا كممثل للحكومة • وقد جاء فى خطاب له الى هاليفاكس قوله : « انك تدفع بى الى رحمة التيار فى قارب صغير وسط المحيط » وهذا تعبير يكشف عن نشأة رانسيمان كأحد أصحاب السفن ولقد كان فى الواقع ذاهبا الى دولة تحصرها الارض وسط أوروبا •

وكانت بعثة رانسيمان تحمل أسوأ النتائج بالنسبة للمؤرخ فقد كانت آخر المحاولات التى ظلت تبذل قرابة قرن من الزمان للوصول الى تسوية للعلاقات بين الالمان وبين التشيك المقيمين فى بوهيميا ولاكتشاف نظام يمكن أن يعيش الشعبان بمقتضاه فى دولة واحدة وفى شىء من الرضا • ولكن لم يمكن الوصول الى مثل هذا الحل بالرغم من الجهود التى بذلها من هم خير من رانسيمان فى المقدرة السياسية كذلك لايوجد حل لهذه المشكلة فى الوقت الحاضر • فلما ذهب رانسيمان فى مهمته كان يعتقد كما تعتقد الحكومة البريطانية أن هناك حلا يمكن الوصول اليه • وعندما كانت الحكومة التشيكية تتظاهر بالسؤال عن رانسيمان كان ذلك معناه قبول نصيحته • ولذا لم يكن عليه الا أن يجد مايرضى الالمان السوديت فتوافقه الحكومة التشيكية على رأيه • ولكن تلك الخطة فشلت اذ أن زعماء السوديت الذين كانوا يتلقون التعليمات من هتلر كانوا دائما يسبقون بمطلب جديد وبذلك يثيرون رانسيمان وبنيش على السواء • ولكن ماخفى كان أعظم فالرئيس بنيش كان مفاوضا لايشق له غبار مهما كانت له من عيوب أخرى وكانت تلك الموهبة التى جعلت منه ندا للويد جورج فى عام ١٩١٩ هى التى واجهت رانسيمان فى عام ١٩٣٨ • وقد أرسل رانسيمان الى تشيكوسلوفاكيا ليحمل بنيش على التسليم ببعض المطالب أو ليفضح عناد التشيك • فاذا نجح فى الاولى فقد أمكن تجنب الكارثة واذا نجح فى الثانية فسوف تهبط أسهم بنيش فيمكن اذن التخلى عن تشيكوسلوفاكيا مع الابقاء على شرف الدول الغربية • ولكن بدلا من أن يحدث ذلك وجد رانسيمان نفسه مساقا الى الاعتراف بوجاهة مطالب التشيك واستنكار عناد التشيك لاعناد بنيش وهكذا بدت فى الافق بوادر النتائج الوخيمة فلو أن بنيش استجاب لجميع مطالب

رانسيمان وزيادة فان ذلك سوف يضع على كاهل بريطانيا المسئولية الادبية للوقوف الى جانب تشيكوسلوفاكيا فى الازمة القادمة • ولتجنب هذه العواقب أخذ رانسيمان يعمل على ارجاء المشكلة بدلا من أن يدفع بنيش الى العمل • ولكن بنيش لم يسمح له بالافلات ففى يوم ٤ سبتمبر استدعى زعماء السوديت وطلب منهم التقدم بشروطهم كتابة فلما أحجموا عن ذلك مذعورين كتب تلك الشروط بنفسه • وقد وعد السوديت رسميا باستجابة جميع مطالبهم • وعند قبول بنيش لهذه المطالب كان يعلم بالطبع أن عمله سيقابل بالرفض ولكن ذلك أكسبه المعركة الدبلوماسية وقد اضطر رانسيمان الى الاعتراف أنه لم تعد هناك ضرورة لاقتراح شروط للاتفاق فى الوقت الذى أبدى فيه التشيك استعدادهم لقبول جميع المطالب التى يقترحها • وحتى زعماء السوديت أنفسهم أصبحوا لايدرون ماذا يفعلون لرفض العرض الذى تقدم به بنيش وهكذا أحرز بنيش آخر نصر فى المهارة الدبلوماسية •

غير أن هذا النصر المعنوى لم يؤثر فى تصارع القوى • ولكنه كان ذا أهمية حاسمة فى نفس الوقت ففى أوائل ١٩٣٨ كان أغلب الشعب الانجليزى يعطف على مطالب الالمان وان كانوا يبغضون طريقة هتلر فى شرح هذه المطالب فقضية السوديت كانت عادلة اذ لم يكونوا متمتعين بالمساواة القومية أو مايشابهها وفى سبتمبر كشف الغطاء عن هذه القضية بفضل بنيش وبقى القليلون ممن يعطفون على مطالب السوديت الذين كانوا هم أنفسهم يعتقدون بصحة تلك المطالب • عند ذلك أقلع هتلر عن فكرة الظهور بمظهر المحرر لبنى جنسه وبدأ بدلا من ذلك فى صورة الفاتح الذى لا تهمه المبادىء ولكنه مصمم على الغزو والسيطرة • فسياسة التهدئة كانت فى الاصل محاولة نبيلة لازالة المظالم دون تحيز • ولكن بعد أن ظهرت نتيجة النقاش بين بنيش وبين السوديت اتضح أن تلك السياسة كانت سياسة يمليها الضعف وانه لم يكن هناك مفر من اتباعها والخضوع للقوة • ولقد كان الانجليز يتساءلون أول الامر : « هل لمطالب الالمان مايبررها ؟ » ولكنهم أصبحوا الآن يتساءلون : « هل لنا من القوة مايجعلنا نقف فى وجه هتلر ؟ » ولقد كان رانسيمان على الرغم منه سببا فى أن تتضح معالم الطريق نحو الحرب • ولما كان بنيش قد فوت عليه مايريد لهذا لم يجد بد من أن يغرق سفينته ويعود أدراجه وبعد أن بقيت بعثة رانسيمان فى براج بضعة أيام عادت الى لندن دون أن تحمل معها حلا لمشكلة السوديت وقد حدث فيما بعد على أثر رحلة تشمبرلين الى برختسجادن أن كتب رانسيمان تقريرا أملته عليه وزارة الخارجية يحبذ فيه مشروع تقطيع أوصال تشيكوسلوفاكيا وهو ماسبق الاتفاق عليه بين تشمبرلين وهتلر ولكن لم يلتفت أحد الى هذا ولم يعره أهمية فقد كان صدى من الماضى الذى انقضى •

وهكذا فشلت سياسة انجلترا فى تجنب الكارثة وأخذ يوم ١٢ سبتمبر يقترب ولم تعد المشكلة قاصرة على النزاع بين تشيكوسلوفاكيا والسوديت ولكنها أصبحت مشكلة الدول العظمى التى ظلت سياستها غير محدودة المعالم وقد ظل هتلر أول من يحاول ارجاء المشكلة ويرفض الكشف عن خططه ولعله كان لايدرى كيف يخرج من هذه الورطة منتصرا كما كان يحدث له فى المناسبات السابقة • وقد عملت الاستعدادات لمهاجمة تشيكوسلوفاكيا يوم أول أكتوبر ولم يكن هذا قرارا باشعال الحرب اذ أن قادة

الجيش الالمانى كانوا لايزالون يعتقدون أن الجيش لايستطيع مواجهة حرب شـــاملة وكان هتلر يجيب بأن الحرب لاضرورة لها • وقد أخذ بعض القادة يتحدثون فى أمر التخلص من هتلر وربما كانوا يعنون مايقولون ولكنهم ادعوا فيما بعد أن خطتهم قـــد أحبطتها قلة التشجيع من الدول الغربية وخصوصا بطيران تشمبرلين الى برختسجادن• ولكن الذى أحبط خطتهم فى الواقع هو هتلر فقد كان اقدامهم على العمل متوقفا على اشراف ألمانيا على حافة الحرب ولكن هتلر لم يفعل ذلك فلقد كان يزمع الحرب عندمـا يستسلم الجانب الآخر فقط ولكنه حتى تلك اللحظة كان يحتفظ بحريةالعمل • وفى خلال شهر أغسطس كان لايزال يحاول العثور على باب خلفى يتراجع منه • فالحرب بين ايطاليا وفرنسا وهى التى عقد عليها آماله لم تتحقق ولكن العكس هو الذى كان • فموسولينى كان يمتلىء بالغرور عندما يبتعد شبح الحرب أما الآن فقد ازداد احجـامه حتى عن الوقوف الى جانب ألمانيا فى مشكلة تشيكوسلوفاكيا • وكان يطلب أن يحاط علما على الاقل بالزمن الذى ينتوى فيه هتلر دخول الحرب وكان هتلر يرد بقوله :« ان الفوهرر لايستطيع أن يحدد موعدا للحرب لانه لايدرى » وكان هذا هو كل مايعرف عن خططه • ولكن حدث أن انفتح باب آخر عندما تقدمت المجر تطلب أن تحصل على نصيب عندما تقطع أوصال تشيكوسلوفاكيا وكان هذا أيضا مما يدعو لخيبة الامل • فالمجر تسير فى أعقاب هتلر غير أنها لم تكن تستطيع الاقدام على العمل بسبب عدم تسلحها فلو أن هتلر أراد الحرب فلابد أن يعطى الاشارة بنفسه وقد ترتب على ذلك نتيجة تدعو للدهشة فقد حل يوم ١٢ سبتمبر الذى كانت الدول تخشاه وفيه ألقى هتلر خطابا حماسيا فى نورمبرج وعاد يكرر قصة مطالب الســـوديت ويلح فى ضرورة أن تعمل تشيكوسلوفاكيا على علاج هذا الامر • أما أكثر من هذا فلا شىء • فلم تعلن التعبئـة فى ألمانيا ولم يهدد أحد بالحرب وهكذا لم ينفذ صـــبر هتلر وبقى هو ينتظر تحطيم أعصاب غيره •

ولم يكن انتظار هتلر عبثا ففى ١٣ سبتمبر وهو اليوم التالى لخطاب هتلر قطع زعماء السوديت مفاوضتهم مع بنيش وأعطوا اشارة بدء الثورة ولكن الثورة فشلت وأعيد النظام الى نصابه خلال أربع وعشرين ساعة والاكثر من كل ذلك أن كثيرين من الالمان السوديت ظلوا حتى ذلك الحين يلتزمون الصمت ولم يتحيزوا لاحد الجانبين وقالوا فى اصرار انهم يدينون بالولاء للتشيكوســـــلوفاكيا ولا يريدون الخروج على الحكومة القائمة • وتختلف تشيكوسلوفاكيا عن دولة النمسا وعن امبراطورية النمسا قبلها فى أن تفككها لم يبدأ من الداخل فانهيارها بدأ فى باريس وليس فى براج وكـانت الحكومة الفرنسية تتحاشى الوصول الى قرار حتى آخر لحظة • وكان بونيه فى أشـــد حالات القلق وهو يبحث لنفسه عن مخرج من ذلك الطريق المســـدود دون أن يضطر الى القتال كذلك كان شديد القلق وهو يحاول القاء اللوم على الآخرين وقد حاول من جديد أن يلقى المسئولية على روسيا ولكن لتفينوف كان أقوى من أن يتراجع أمامه ورد عليه ردا حاسما فقال أنه لابد من الالتجاء الى عصبة الامم بمقتضى المادة ١١ من ميثاقها

حتى يمكن للجنود السوفيتية من التقدم عبر الاراضى الرومانية وانه لابد من اجراء محادثات بين هيئات أركان حرب كل من فرنسا وتشيكوسلوفاكيا والاتحاد السوفيتى وبالاضافة الى ذلك لابد من عقد مؤتمر يضم كلا من فرنسا وبريطانيا وروسيا لاصدار بيان قوى ضد العدوان الالمانى • وعلى أى حال فان روسيا السوفيتية مستعدة للقيام بجميع التزاماتها طبقا للميثاق السوفيتى التشيكوسلوفاكى ولكن لابد أن تقوم فرنسا بالخطوة الاولى وربما كان القرار السوفيتى كاذبا ولكن يمكن أن يوضع موضع الاختبار بالموافقة على محادثات هيئات الاركان حرب كما اقترح لتفينوف • ولكن بونيه عندما تحاشى هذا العمل برهن على خوفه من أن يكون القرار السوفيتى حقيقة لاغبار عليها •

ولكن بونيه أحسن التصرف فى ناحية أخرى وقد كان مبدأ العزلة الامريكية فى أوجه • ففى ٩ سبتمبر قال الرئيس روزفلت لمؤتمر صحفى أن اشتراك الولايات المتحدة فى عمل مع فرنسا وانجلترا لتأليف جبهة للوقوف فى وجه هتلر لهو خطأ مائة فى المائة • وكان كل ماتلقته الدول الغربية من عبر الاطلنطى هو تأنيب من المفكرين الامريكيين لان تلك الدول أظهرت خوفا أقل مما أظهرته الولايات المتحدة • ولكن القرار الحاسم لابد وأن يأتى من جانب انجلترا ولكن هنا أيضا تكررت الطرق القديمة ففرنسا تظهر مخاوفها من الخضوع لمطالب هتلر • وهاليفاكس يرفض أن يؤيد أى اتفاقية من أجل قيام حرب مؤكدة وضد احتمال قيام الحرب فيما بعد فى ظروف قد تكون أقل ملاءمة • وقد ظهرت المحاولات التى أبداها كل من الجانبين للتهرب فقد قال بونيه يسأل انجلترا: « ما هو جواب حكومة جلالة الملك على سؤال الحكومة الفرنسية فى حالة وقوع هجوم ألمانى على تشيكوسلوفاكيا فاننا سوف نزحف فهل تزحفون معنا ؟ » فأجاب هاليفاكس يقول : « ان هذا السؤال وان كانت صيغته واضحة الا أنه لايمكن الفصل بينه وبين الظروف التى يقدم فيها والتى هى بضرورة الحال افتراضية محضة فى هذه المرحلة » ويظهر أن بونيه قد سرته الصيغة السلبية للجواب وليس هذا بالامر المستغرب فقد كان يجمع الاجابات السلبية ليحمى نفسه من ناحية وليثبت من هم زملاؤه من ناحية أخرى•

كذلك أخذ دلادييه يكرر طريقته القديمة فيبدأ عنيفا ثم تضعف همته ثم يستسلم أخيرا ففى ٨ سبتمبر قال لفيبس : « اذا تخطت الجنود الالمانية حدود تشيكوسلوفاكيا فان فرنسا سوف تزحف بكل قوتها » • ثم جاء يوم ١٣ سبتمبر والالمان السوديت على وشك الثورة والمعروف أن هتلر سيهب لمساعدتهم • أما مجلس الوزراء الفرنسى فقد انقسم شر انقسام اذ وقف ستة من الوزراء فى صف تشيكوسلوفاكيا ووقف أربعة منهم بونيه فى جانب الخضوع أما دلادييه فلم يقف مع هذا الجانب أو ذاك • وقد خرج بونيه من الاجتماع وتوجه رأسا الى فيبس حيث قال له : « ان السلام يجب أن نحتفظ به بأى ثمن » فأراد فيبس أن يستوثق من انهيار فرنسا ولذا طلب مقابلة دلادييه الذى كان لايزال مترددا حتى المساء فلما واجهه فيبس بسؤال صريح أجاب فى ضعف ظاهر

بقوله : « لو أن ألمانيا استخدمت القوة فسوف تستخدم فرنسا القوة كذلك » فأبلغ فيبس لندن عن مخاوفه من أن تكون فرنسا تحاول (التهويش) وفى الساعة العاشرة مساء أبلغ فيبس رسالة تليفونية عاجلة الى لندن موجهة من دلادييه الى تشمبرلين وتقول الرسالة : « ان الاحداث تسير فى سرعة كبيرة وبطريقة خطيرة بحيث أصبح محتملا أن يفلت الزمام فجأة فدخول الجيش الالمانى تشيكوسلوفاكيا يجب أن يمنع بأى ثمن » وأخذ دلادييه يحث رانسيمان أن يعلن عن خطته فى الحال فاذا لم يكن هذا كافيا فلا بد أن يعقد اجتماع من الدول الثلاث : ألمانيا عن السوديت وفرنسا عن التشيك وبريطانيا عن لورد رانسيمان • لقد استقر رأى دلادييه أخيرا على الاستسلام •

هنا سنحت الفرصة لتشمبرلين وهى فرصة قرار فرنسا بين المقاومة والاستسلام الذى حاول أن يحصل عليه منذ شهر ابريل وهو قرار يتمشى مع الرأى الاخير الذى كان ينادى به تشمبرلين فلم يحاول أن يعقد اجتماع الدول الثلاث الكبرى اذ كان يعرف من تجاربه أن دلادييه لو تحداه أحد فانه ينكص على عقبيه متخاذلا • وبدلا من ذلك طار تشمبرلين الى ميونيخ فى الخامس عشر من سبتمبر ولم يكن برفقته سوى سير هوراس ولسون وقابل هتلر فى برختسجادن دون أن يكون معه مترجم وقد استاء دلادييه عندما علم أنهم تجاهلوه ولكنه رضى أخيرا • وكما علمنا من الوثائق فان تشمبرلين أخذ معه عرضا مطولا للمشكلة التشيكية • ولم يستفسر عما اذا كانت تشيكوسلوفاكيا بعد أن تقتطع من أطرافها يمكن أن تبقى مستقلة كذلك لم يسأل عما يترتب على ذلك من نتائج استراتيجية فيما يتعلق بالدول الغربية ولم يتحدث عن امكان تحقيق التكوين القومى لتشيكوسلوفاكيا ولكنه ذهب وليس فى يده سلاح سوى حقد أغلب الانجليز على فرساى ويقينه بأن هتلر سوف يجنح الى السلم لو استجيبت المطالب القومية الالمانية • كذلك لم يعد هتلر العدة للاجتماع ولكنه بقى على عادته ينتظر الارباح وهى تتساقط بين يديه وكان كل همه منصبا على ضرورة استمرار الازمة حتى تتفكك تشيكوسلوفاكيا وقد أصر على ضرورة الاستجابة الى مطالب السوديت معتقدا أنها لن تستجاب وهكذا تبقى له الميزة الادبية • كذلك كان هتلر يتمتع بميزة أدبية أخرى فخططه العسكرية لن يتم نضجها قبل أول أكتوبر حتى لو أراد القيام بتنفيذها وعلى ذلك لم يكن يستطيع الا أن يمد يده دون أن يتنازل عن شىء •

لقد كان اجتماع برختسجادن وديا وناجحا لدرجة لم يكن يتوقعها أى من الطرفين ولقد أفزع تشمبرلين طريقة هتلر الصاخبة التى يفتتح بها المحادثات ولكنه ظل يلتزم سياسته التى تهدف الى التهدئة فقال :

« اننى من ناحية المبدأ ليس لدى ماأقوله لمعارضة فكرة فصل الالمان السوديت عن بقية تشيكوسلوفاكيا على شرط أن نتغلب على الصعوبات العملية • وكان هذا عرضا لم يسع هتلر أن يرفضه وان كان لايحقق هدفه الحقيقى الذى يرمى الى تحطيم استقلال تشيكوسلوفاكيا فى الشئون الدولية وقد وعد هتلر بأن لايقوم بأى تحركات عسكرية طول مدة المفاوضات وهو وعد وان لم يكن له معنى الا أنه أثر فى تشمبرلين كثيرا • لقد كان هذا نصرا لسياسة التهدئة حيث يمكن تسوية المشاكل دون الالتجاء الى الحرب •

ولكن الامور سارت على غير ما كان يرجى لها • فتشمبرلين كان يعتزم الاستجابة الى بعض المطالب على أساس من العدل الذى لاتحيز فيه ولهذا السبب كان معظم بعيدى النظر الذين ينادون بهذه السياسة مثل نيفل هندرسون يقولون بأن الدول الغربية سوف يكتب لها النصر لو قامت الحرب • ولكن قضيتنا الادبية يجب أن يكون لها أساس متين وهو أمر غير صحيح بالنسبة لتشيكوسلوفاكيا اما الآن فانه بسبب انهيارفرنسا فلم تعد هناك أهمية للناحية الادبية فقد حل محلها الخوف ــ لم تكن العدالة هدف هتلر وانما كان يسأل عن الثمن الذى يريده حتى لايشعل الحرب ــ وقد تسبب التشيك بأن تزداد الحالة سوءا عندما كانوا ينجحون فى اعادة النظام بالرغم من الثورة التى كان يدعو اليها السوديت • فبدلا من أن ينجوا من التفكك كان يطلب منهم أن يتنازلوا عن بعض أراضيهم التى كانوا يتمسكون بها حتى تنجو فرنسا من الحرب •

عاد تشمبرلين الىلندن ليحصل على موافقة زملائه وموافقة الفرنسيين وقد وافق مجلس الوزراء البريطانى وان كان ذلك قد تم بعد شىء من الجدل كما يقال • أما رنسيمان فقد مزق التقرير الذى كان يعده وكتب تقريرا آخر وهو راضخ ضمنهلطالب هتلر وقد تكرر فيما بعد ادخال التعديلات على ذلك التقرير فى الايام القليلة التالية كلما ازدادت مطالب هتلر • وفى ١٨ سبتمبر ذهب دلادييه وبونيه الى لندن للاجتماع بالوزراء البريطانيين فأخبرهما تشمبرلين بكل مادارت المناقشات بشأنه مع هتلروكان يقول فى اصرار أن المسألة تنحصر فى أمرين اما قبول تقسيم تشيكوسلوفاكيا أوقبول مبدأ تقرير المصير كما كان يسميه • أما دلادييه فكان يحاول نقل المسألة الى ناحية أخرى اذ كان يخشى أن يكون هدف ألمانيا الحقيقى هو تقطيع أوصال تشيكوسلوفاكيا وتحقيق أهداف انشاء جامعة ألمانية عن طريق الزحف صوب الشرق • وهنا تدخل هاليفاكس بالرأى العملى الذى كان ينادى به دائما وهو :

ليس هناك شىء أبعد عن الظنون من أن لاتقوم الحكومة الفرنسية بتنفيذ التزاماتها نحو الحكومة التشيكوسلوفاكية • ولكننا جميعا نعلم من ناحيةأخرى أنه مهما كانت الخطوات التى نتخذها نحن أو تتخذها الحكومة الفرنسية أو تتخذها الحكومة السوفيتية فى أى لحظة معينة فانه من المستحيل أن يؤدى ذلك الى حماية الدولة التشيكوسلوفاكية حماية فعالة ــ ولاشك أنه كان يرى أن مستشاريهم الفنيين سوف يتفقون معهم فى ذلك ــ وقد نخوض حربا ضد العدوان الالمانى ولكنفى مؤتمر الصلح الذى يعقب تلك الحرب لايظن أن رجال السياسة المختصين سوف يعيدون تخطيط الحدود الحالية لتشيكوسلوفاكيا •

وقد تقدم تشمبرلين بفكرة بارعة فالتشيك يعارضون فى التنازل عن شىء من أراضيهم بمقتضى عملية استفتاء خوفا من أن يحتذى هذا المثل البولنديون والمجر وعلى هذا فلا بأس من أن يتنازلون عنها بلا استفتاء ويمكنتصوير هذا العمل بأنه اجراء اتخذته تشيكوسلوفاكيا من تلقاء ذاتها • وهذا العمل يزيح عن كاهلنا الرأى الذىيقول بأننا نحن الذين نقطع أوصال تشيكوسلوفاكيا • وقد سلم دلادييه بهذا الرأى ولكنه

اشترط شرطا هاما هو أن تشترك بريطانيا فى أن تضمن سلامة ما يتبقى من تشيكوسلوفاكيا • ولم يكن هذا الشرط من أجل خاطر تشيكوسلوفاكيا فالانجليز والفرنسيون كانوا يعلمون أنه ليس فى مقدورهم القيام بأى عمل لمساعدة تشيكوسلوفاكيا سواء فى ذلك الوقت أو فيما بعد وانما كان يطلب من الانجليز أن يزيدوا على بيان هتلر الذى كان يقول بأنه انما كان يطلب العدالة ولا يسعى وراء السيطرة على أوروبا فقد قال دلادييه :

انه لو كان واثقا من أن هتلر يقول الحقيقة عندما كان يكرر ماتنطق به الدعاية الالمانية دائما من أن المانيا لاتريد أكثر من ضم السوديت الالمان وان مطالبها تقف عند ذلك الحد • لوكان واثقا من ذلك لما أصر على الحصول على ضمان انجليزى • ولكنه كان واثقا فى قرارة نفسه أن المانيا تسعى وراء ماهو أكثر بكثير •

فالضمان الانجليزى فيما يتعلق بتشكوسلوفاكيا سوف يساعد فرنسا لانه سيساعد فى الوقوف فى وجه الزحف الالمانى صوب الشرق •

وقد وقع الانجليز فى الفخ فسياسة تشمبرلين كانت ترتكز على عقيدة ثابتة وهى ان هتلر كان مخلصا فيما يفعله ولم يكن تشمبرلين يستطيع أن يتنكر لتلك العقيدة دون أن يسلم بما يقوله دلادييه بشأن المقاومة وعلى هذا كان لابد من تقديم الضمان • وبعد ان انسحب الوزراء الانجليز لمدة ساعتين عادوا ومعهم تشمبرلين يقول : « اذا قبلت الحكومة التشكوسلوفاكية الاقتراحات المقدمة لها الآن • وبشرط أن لايحدث انقلاب عسكرى فى نفس الوقت فان حكومة جلالة الملك على استعداد اذن أن تشترك فى الضمان المقترح» • بهذه الطريقة العرضية تعهد الانجليز بضمان وضع تشكوسلوفاكيا وهى ضعيفة ، واكثر من ذلك فانهم تعهدوا ضمنا بضمان الحدود القائمة فى جميع دول أوروبا الشرقية مع أن انجلترا كانت ترفض دائما أن تتعدى ضماناتها الحدود الشرقية لنهر الراين كما ابدت فى الماضى عدم استعدادها لمعاونة تشكوسلوفاكيا وهى قوية الجانب • ولقد أعطت انجلترا هذا الضمان وهى ترجو بصورة مؤكدة انه لن ينفذ وقد اعطته لتبطل آخر حجة لممانعة فرنسا • ولكن دلادييه قد حصل على ماهو أكثر فقد الزم بريطانيا بالوقوف فى وجه زحف هتلر نحو الشرق وبعد ذلك بستة شهور أصبح هذا الالتزام حقيقة ففى حوالى السابعة والنصف من ليلة ١٨ سبتمبر ١٩٣٨ دفع دلادييه بانجلترا دفعة حاسمة ـ وان جاءت متأخرة ـ القت بها فى معترك الحرب العالمية الثانية •

وقد سأل تشمبرلين دلادييه سؤالا أخيرا وهو : « ماذا يكون الموقف لو أن دكتور بنيش قال لا ؟ » فاجاب دلادييه : «ان هذا السؤال لابد أن يناقش فى مجلس الوزراء» • ولكن الاحداث سارت فى غير ماقدر لها • ففى ١٩ سبتمبر وافق الوزراء الفرنسيون على المقترحات البريطانية الفرنسية ولكن دون أن يصلوا الى قرار فيما يتعلق بما يمكن أن يحدث لو أن هذه القرارات رفضها التشيك • فمن الناحية النظرية كانت المعاهدة الفرنسية التشيكية لاتزال نافذة المفعول • زيادة على ذلك فانه فى يوم ١٩ سبتمبر

وجه بنيش سؤالين الى روسيا وهما : « هل ستقدم روسيا مساعدة فعالة اذا ظلت فرنسا مخلصة فيما تقول وقدمت مساعدتها ؟ وهل تقدم روسيا المساعدة الى تشكوسلوفاكيا كعضو فى عصبة الامم طبقا للمادتين ١٦ ، ١٧ ؟ » وفى ٢٠ سبتمبر أجابت روسيا على السؤال الاول بقولها : « نعم وفى الحال وبصورة فعالة » وأجابت على الثانى بقولها : « نعم من جميع الوجوه » وقد حاول بنيش أن يعرف كذلك من جوتوالد الزعيم التشيكى الشيوعى ما اذا كانت روسيا سوف تشترك حتى ولو لم تعمل فرنسا . ولكن جوتوالد رفض أن ينساق وأجاب بأنه « ليس من حقه أن يجيب بالنيابة عن روسيا ولكن لم يكن هناك من يشك فى أن روسيا سوف تقوم بالتزاماتها غير انه اذا كان هناك أمر يتعدى تلك الالتزامات فان على الرئيس بنيش أن يحدد هذا الامر بالضبط وان يسأل الحكومة السوفيتية بشأنه » ولكن ذلك مالم يكن بنيش يريد أن يفعله فقد قال لرانسيمان فى اجتماعهما الختامى : « ليس لتشكوسلوفاكيا اتفاقيات خاصة مع روسيا حتى فيما يتعلق بظروف نشوب الحرب كما انها لم تفعل شيئا ولن تفعل شيئا بدون فرنسا» وقد ظل بنيش محافظا على نزعته الواليه للغرب بالرغم مما لاقاه من خيبة الامل وحتى لوكان يعتزم الاعتماد على روسيا وحدها فان غالبية مجلس الوزراء التشيكى — وعلى رأسهم هودزا رئيس الوزراء كانوا من القوة بحيث يستطيعون الوقوف فى وجهه .

ان بنيش لم ييأس حتى تلك الساعة فقد كان على اتصال دائم بجماعات قوية فى باريس تضم بعض الوزراء وكان لايزال يعتقد أنه من المستطاع جر فرنسا وراء تشكوسلوفاكيا لو أنه لعب دوره بمهارة . ولقد كان بنيش دائما يبالغ فى امكان تغيير سياسة فرنسا وربما كان يقلل من شأن امكان تغيير سياسة بريطانيا . وعلى أى حال فقد كان اهتمامه لايتحول عن باريس انتظارا للحظة الحاسمة ففى ٢٠ سبتمبر رفضت الحكومة التشكية المقترحات البريطانية الفرنسية وطالبت بدلا منها باتفاقية تحكيم بينها وبين ألمانيا . وبعد ذلك بنصف ساعة يبدو أن هودزا أخبر ممثلى انجلترا وفرنسا ان تلك المقترحات لوقدمت كنوع من الانذار النهائى فان بنيش مع الحكومة سوف لايجدون بدا من الرضوخ «للقوة الجبرية» وطبقا لمايقوله هودزا فانه انما كان يحاول أن يرى ما اذا كانت فرنسا تعتزم حقيقة التخلى عن حليفتها ولكن طبقا لما يقوله الوزير الفرنسى فان هودزا كان بكل تأكيد يطلب انذارا نهائيا حتى يغطى مركز الحكومة التشكية التى كانت تريد الاستسلام . وهذه نقطة سوف تبقى دون أن تعرف حقيقتها . فربما كان هودزا وزملاؤه يريدون الاستسلام ولاشك ان بونيه كان يريد منهم أن يفعلوا ذلك . ولو كان بنيش مشتركا فى مناورة هودزا هذه فربما كان ذلك أملا فى اشعال روح المقاومة بين المتشددين فى باريس وعلى أى حال فقد تلقف بونيه الفرصة سواء كان مدفوعا بواسطة هودزا أم لا فقد كتب مشروع الانذار النهائى فى باريس

وامضاه عند منتصف الليل دلادييه والرئيس لوبران وحدهما وقدم الى بنيش فى الساعة الثانية صباحا يوم ٢١ سبتمبر وكان واضحا لا لبس فيه اذ يقول أن التشيك لو رفضوا المقترحات البريطانية الفرنسية فانه سوف تقع عليهم مسئولية الحرب المترتبة على ذلك وسوف يتحطم التضامن البريطانى الفرنسى وفى هذه الظروف سوف لاتزحف فرنسا لان العون الذى سوف تقدمه لن يكون فعالا • وفى الصباح التالى عندما قال بعض الوزراء الفرنسيين أن الدول قد تخلت عن تشكوسلوفاكيا دون أن يصدر بذلك قرار من مجلس الوزراء أجاب بونيه بأن ذلك قد تم بناء على طلب هودزا وهكذا هدأت المعارضة • ولقد كان هذا عملا يدعو للخجل ولكنه عبر بصورة واضحة مكتوبة عن الامور التى لم يكن هناك مفر منها منذ تلك اللحظة فى شهر ابريل عندما قرر الفرنسيون انهم لن يستطيعوا الدخول فى حرب دون عون من انجلترا وعندما قرر الانجليز بدورهم انهم لن يقحموا انفسهم فى أمور الدفاع عن تشكوسلوفاكيا ولاشك انه كان من الاوفق ومن الاشرف ان يقال ذلك لبنيش منذ البداية ولكن الامم التى ظلت دولا عظمى لعهود طويلة تتهرب من الاعتراف بأنها لم تعد دولا عظمى • فبريطانيا وفرنسا كلاهما كانا فى عام ١٩٣٨ يعتنقان مبدأ «السلام بأى ثمن» فكلاهما كان يخشى الحرب أكثر من الهزيمة وهكذا نرى أنه لم يكن هناك مايدعو لتلك الموازنة بين قوة ألمانيا وقوة الحلفاء ولا للجدل فيما يتعلق بامكان انزال الهزيمة بالمانيا • أما هتلر فقد استطاع أن يشق طريقه عن طريق التهديد بالحرب دون حاجة الى التفكير فى النصر •

لم يعد التشيك يترددون ، ففى منتصف يوم ٢١ سبتمبر قبلوا المقترحات البريطانية الفرنسية دون قيد أو شرط على أن بنيش كان لايزال يرفض الهزيمة فلقد كان يفترض أن هتلر اذا ماصادف هذا النجاح فانه سوف يقدم شروطا وعند ذلك سوف يثور الرأى العام فى بريطانيا وفرنسا وهذا ماكان يؤمله • ولقد كان افتراضه صحيحا • ففى يوم ٢٢ سبتمبر قابل تشمبرلين هتلر مرة أخرى فى جودسبرج حيث قال له هتلر ان المقترحات البريطانية الفرنسية لم تعد كافية وقال له أن السوديت الالمان يذبحون ـ ولم يكن هذا صحيحا ـ ولهذا فان بلادهم يجب أن يحتلها الجنود الالمان فى الحال • ولكن لماذا سلك هتلر هذا الطريق فى الوقت الذى كان يحصل على كل مايطلبه بطريق المفاوضة ؟ فهل كان يريد الحرب للحرب ؟ هذا هو التفسير الذى يتقبله معظم المؤرخين • ولكن هتلر كان لايزال المتآمر الناجح ولم يكن قد صار بعد أكبر قائد حربى فى التاريخ • وهناك تفسير أكثر قبولا لقد كان هناك آخرون ساروا على نهج المانيا فتقدموا بمطالب لاقتطاع بعض الاراضى من تشكوسلوفاكيا فالبولنديون كانوا يطالبون بالحصول على تيسين والمجر تقدموا أخيرا يطالبون بتشكوسلوفاكيا وهكذا أصبحت الفرصة مهيأة لتفكك تشكوسلوفاكيا كما حدث فعلا فى شهر مارس سنة ١٩٣٩ فألمانيا تعمل على التدخل بحجة توطيد أركان السلم ولوضع أساس نظام

جديد لالتحطيم النظام القديم فهتلر كان يحق له أن يضحك فى وجه تشمبرلين ولهذا كان هتلر فى جودسبرج يحاول كسب الوقت ٠ فدفاع تشمبرلين وتهديداته كانت كلها غير ذات موضوع وحتى ماكان يلمح به من أن حدود تشكوسلوفاكيا الجديدة يمكن أن تعدل من جديد عن طريق المفاوضات أما هتلر فلم يعد يهتم بتشكوسلوفاكيا اذ كان يتوقع انها سوف تختفى من الوجود عندما تنفجر الاحداث من جانب البولنـديين والهنغاريين ٠

هكذا كان الفشل مصير اجتماع جودسبرج فعاد تشمبرلين الى لندن وهو مضطر أن يختار بين أمرين اما الحرب واما تخلى بريطانيا عن مركزها كدولة عظمى ويبدو أنه كان يفضل الناحية الاخيرة لوانه تمكن من الحصول على فتات من التقدير ٠ فلقد كان يرى أنه ليس هناك مايحول دون تقسيم تشكوسلوفاكيا فلماذا اذن يخوض الحرب من أجل مجرد تحديد الوقت الذى يتم فيه هذا التقسيم ٠ أما فى لندن فقد ثارت ثائرة هاليفاكس ربما كما يقال بدافع من ضميره «الذى كان يؤرقه» ولكن الامر الاكثر احتمالا هو أنه كان مدفوعا أمام الموظفين الدائمين بوزارة الخارجية ٠ ففى ٢٣ سـبتمبر أبلغ التشيك أنه لم يعد هناك مايحول دون تعبئة جيوشهم ـ على عكس ماكان يراه تشمبرلين وقد قاموا بالتعبئة فعلا ٠ كذلك استفسر هاليفاكس من لتفينوف الذى كان حاضرا فى اجتماع عصبة الامم فى جنيف فسأله عما يمكن أن تقوم به روسيا فى حالة اشتباك تشكوسلوفاكيا فى حرب مع ألمانيا وكان هذا أول اتصال بروسيا من جانب انجلترا طول مدة الازمة فاجاب لتفينوف بقوله ان روسيا تقوم بالعمل لوأن فرنسا هبت لمعاونة التشيك ٠ وهكذا يبدو أن الروس قدتبينوا طريقهم فى وضوح عندما هددت بولندا بمهاجمة تشكوسلوفاكيا اذ انفتح أمامهم الطريق الى داخل أوروبا فاذا ما نشبت الحرب فانهم سوف يستطيعون استعادة الاراضى التى فقدوها فى عام ١٩٢١ واستولت عليها بولندا حتى اذا لم يعد هذا بالفائدة على تشكوسلوفاكيا ٠ وفى ٢٣ سبتمبر وجهت الحكومة السوفيتية انذارا الى بولندا بأنها سوف تنقض معاهدة عدم الاعتداء المعقودة بينهما اذا هاجمت بولندا تشكوسلوفاكيا ٠ وفى ٢٤ سبتمبر سأل جاملان أيضا روسيا عما يمكن أن تفعله فاجابت بأن لديها ثلاثين فرقة من المشاة على حدودها الغربية ـ وبينما كان لفرنسا فى الوقت نفسه خمس عشرة فرقة فقط فى خط ماجينو ـ كذلك قالت روسيا ان قواتها الجوية وقواتها المدرعة على تمام الاستعداد كما أخذت تصر على بدء المحادثات فى الحال بين أركان الحرب الفرنسيين والتشيك وأركان حربهم ٠ وقد وافق جاملان وربما كان ذلك بموافقة انجلترا ولكن الواقع أن هذه المحادثات لم تتم ٠

لقد استمر الفرنسيون فى ترددهم ففى ٢٤ سـبتمبر أبرق فيبس من باريس يقول : « كل الفرنسيين ضد الحرب مهما كان الثمن » وحذر مما يبدو من تشـجيع الجماعات الصغيرة الفاسدة التى تثير الضوضاء وتدعو للحرب وقد فسر ذلك فى تلغراف أرسله فيما بعد أنه يعنى الشيوعيين الذين تغذيهم موسكو بالمال ٠ ولكن هذه الاجابة لم تقبلها وزارة الخارجية التى طلبت من فيبس أن يقوم بتحريات أوسع ففعل ما أمر به

وأجاب بعد ذلك بيومين يقول « الشعب مستسلم ولكنه يبدى تصميما فالبرجوازى الصغير قد لايشعر بالرغبة فى المخاطرة بحياته من أجل تشيكوسلوفاكيا بينما يقال أن معظم العمال يرون أن تقوم فرنسا بالتزاماتها » • أما مجلس الوزراء الفرنسى فلم يبد مثل هذا التصميم ففى ٢٤ سبتمبر لم يصل الوزراء الى قرار بشأن مايجب أن تعمله فرنسا لو أن هتلر غزا تشيكوسلوفاكيا وذهب دلادييه وبونيه يبحثان عن الاجابة فى لندن وفى ٢٥ سبتمبر اجتمعا بالوزراء البريطانيين فبدأ دلادييه كعادته متحمسا للحرب وقال بأن هتلر يجب أن يطلب منه الرجوع الى المقترحات البريطانية الفرنسية المقدمة فى ١٨ سبتمبر أما اذا رفض « فان على كل منا أن يقوم بواجبه » فأجاب تشمبرلين بأن الانسان يجب أن لايلقى بنفسه فى مثل هذا الصراع الهائل وهو معصوب العينين والاذنين فلابد من معرفة الظروف قبل اصدار قرار ولهذا طالب بالمزيد من المعلومات كما طلب من سيرجون سيمون أن يقدم بعض النقاط لمسيو دلادييه عند ذلك أخذ ذلك المحامى الكبير يستجوب رئيس وزراء فرنسا كما لو كان يستجوب شاهد الخصم أو مجرما • فكان يسأل : هل تغزو فرنسا ألمانيا ؟ هل ستستخدم سلاحها الجوى ؟ كيف يمكنها تقديم المساعدة لتشيكوسلوفاكيا ؟ وكان دلادييه يحاور ويداور ويستنجد بقوة السوفييت ثم لايلبث أن يعود الى مسألة المبادىء ويقول أن هناك أمرا واحدا لن يوافق عليه وهو القضاء على أمة وسيطرة هر هتلر على العالم • وهكذا ظهرت العقدة القديمة : الخوف من الحرب من ناحية وعدم الرغبة فى الاستسلام من الناحية الاخرى • وأخيرا تقرر مطالبة جاملان بالحضور والاجتماع مرة ثانية فى اليوم التالى •

لم تكن آراء جاملان تبعث الامل فقد كانت ألمانيا متفوقة فى السلاح الجوى « مما سوف يسبب الكثير من الخسائر سيما بين السكان المدنيين أما اذا ظلت الروح المعنوية عالية فان هذا سوف لايحول دون الوصول الى نتيجة طيبة لقواتنا » كذلك كان جاملان يظن أن التشيك بما لهم من ثلاثين فرقة من الجند مقابل أربعين فرقة للالمان كان فى استطاعتهم الصمود لو أنهم انسحبوا الى مورافيا • ثم قال بعد ذلك للخبراء العسكريين البريطانيين أن روسيا السوفيتية على وشك غزو الاراضى البولندية وهو أمر لم يكن يرتاح له الحلفاء•أما الوزراء المجتمعون فلم يناقشوا جاملان أو يعيروا آراءه اهتماما•فلما اجتمعوا أبلغهم تشمبرلين أنه سيرسل هوراس ولسون الى هتلر برسالة شخصية يرجوه فيها أن يحافظ على السلام فوافق الوزراء الفرنسيون على ذلك الاقتراح وانصرفوا أما هاليفاكس فكان لايزال يشعر بالقلق • وقد حضر ونستون تشرشل الى وزارة الخارجية وحثه على الصمود • وقد قام أحد الموظفين ـ ركس ليبر ـ بحضور الرجلين بصياغة بلاغ يقول فيه : « اذا قامت ألمانيا بهجوم على تشيكوسلوفاكيا فان فرنسا تكون ملزمة بتقديم المساعدة لها كما أن بريطانيا وروسيا ستقفان الى جانب فرنسا بكل تأكيد » وبالرغم من أن هاليفاكس وافق على ذلك البلاغ الا أنه لم يوقع عليه وبهذه الطريقة الملتوية

احتفظ بموقفه سليما فى الحاضر والمستقبل كما احتفظ بثقة تشمبرلين ومع كل ذلك فقد كان فيما بعد هو (رجل ميونيخ) الوحيد الذى استمر محتفظا بحظوته لدى تشرشل • أما البلاغ فلم يكن له أثر يذكر فى ذلك الوقت ففى باريس هاجمه بونيه كعمل من أعمال التزييف • ثم أنكره تشمبرلين فيما بعد فى المساء ببيان أصدره بنفسه يعد فيه هتلر مرة أخرى بتلبية مطالبه •

وقد قام ولسون بمقابلة هتلر يوم ٢٦ سبتمبر دون جدوى • بل على العكس من ذلك تماما ألقى هتلر خطابا فى ذلك المساء أعلن فيه لاول مرة تصميمه على احتلال أراضى السوديت قبل أول أكتوبر عند ذلك صدرت التعليمات الى ولسون بتقديم رسالة خاصة تعبر عن الاسى أكثر مما تعبر عن الغضب فتقول : « اذا هاجمت ألمانيا تشيكوسلوفاكيا فان فرنسا سوف ترى من واجبها أن تقوم بالتزاماتها بمقتضى معاهدتها • فاذا كان هذا معناه أن جيوش فرنسا سوف تقوم بأعمال هجومية صريحة ضد ألمانيا فان الحكومة البريطانية سوف تجد نفسها مضطرة لمساعدة فرنسا » •

ولقد ثارت ثائرة هتلر لهذا الذى اعتبر تهديدا مقدما له والذى لم يكن بصورة جدية فقد كانت انجلترا تحث فرنسا على أن لا تقوم بدور هجومى حتى لو أن ألمانيا قامت بغزو تشيكوسلوفاكيا نظرا لان هذا سوف يؤدى بصورة آلية الى قيام حرب عالمية دون أن يكون له أثر على انقاذ تشيكوسلوفاكيا ووافق بونيه على ذلك كل الموافقة فأرسل فيبس تقريرا يقول فيه : « ان فرنسا لن تحارب بدافع قلبى فى حرب هجومية ضد ألمانيا اذ أنها ليست مستعدة لهذا العمل » عند ذلك أخذت رسائل الرجاء تنهال على هتلر : رسائل جديدة من تشمبرلين وتأكيدات من فرنسا ان فى استطاعة ألمانيا أن تحصل على أى حال على ثلاثة أرباع السوديت قبل أول أكتوبر وأخيرا وصله رجاء من موسولينى يوم ٢٨ سبتمبر • ولقد استجاب هتلر لهذا الرجاء الاخير بقبول حسن قائلا أنه سوف يمسك يده لمدة أربع وعشرين ساعة حتى يمكن عقد مؤتمر من الدول الاربع الكبرى فى ميونيخ • ولكن لماذا توقف هتلر فى آخر لحظة ؟ هل قلل من عزمه ما كان يتلقاه من تحذيرات من قادة جيشه ؟ هل كان يظن أن الشعب الالمانى يعارض فى الحرب؟ هل صدمه تردد موسولينى ؟ كل هذه افتراضات محتملة لو أنه كان يعتزم الحرب • ولكن تفسير ذلك هو على العكس • فحكم هتلر على الامور قبل استفحال الازمة وبراعته فى ترك الباب مفتوحا للمساومة أو بالاحرى للحصول على نصر سلمى كل هذا يدل على أنه لم يفقد سيطرته على نفسه • فلقد ظل ينتظر تشيكوسلوفاكيا حتى تتفكك ولكن هذا لم يتم • ومطالبة بولندا باقليم تسين لم تتحقق وان كانت قد أبدت تشددا فى ذلك المطلب • وكان الامر الوحيد الذى يهز كيان تشيكوسلوفاكيا هو عمل تقوم به المجر ولكن المجر لم تقم بعمل ما ولعل ذلك كان راجعا لخوفها من (الحلف الصغير) بل لعلها كانت تخشى أن تلقى بنفسها تماما الى جانب هتلر • وكان يوم ٢٨ سبتمبر هو آخر موعد يمكن أن يستبعد فيه هتلر فكرة وقوع الحرب فكان يبدو بمظهر من يريد الوصول الى تسوية ولكنه فى نفس الوقت يجمع المكاسب •

وفى يوم ٢٨ سبتمبر ألقى تشمبرلين خطابا فى مجلس العموم البريطانى وكان قد سبق أن طلب من موسولينى أن يقوم بدور الوسيط كما كان لديه من الاسباب مايحمل على الاعتقاد أن تلك الوساطة سوف تكلل بالنجاح أما الرأى العام البريطانى فكان آخذا فى الميل الى التشدد • فالتشيكيون ، لا السوديت الالمان ، كان ينظر اليهم الكثيرون كشعب مضهد • ولكن تشمبرلين أراد أن يثبت تلك المعارضة فعمل على المبالغة فى خطر الحرب لاعلى شرح عدالة المطالب الالمانية وقد أفلحت تلك المناورة فلما قارب من الانتهاء من خطبته أعلن ، بصورة درامية تنم عن عدم الرغبة ، ان الدول الاربع الكبرى سوف تجتمع فى ميونيخ فانفض المجلس بصورة هستيرية من جانب المحافظين على أى حال • وقد حمد الجميع الله على ماقام به رئيس الوزراء الذى كان يعتبر نصرا مر المذاق • وقد بدأت فكرة المسالمة فى شكل التفكير فى المطالب المتعارضة بصورة لاتحيز فيها ثم معالجة الاخطاء السالفة ، ثم وجدت تلك الفكرة مايبررها بسبب خوف فرنسا من الحرب أما الآن فيبدو أن الدافع اليها كان هو الخوف الذى يشعر به الانجليز أنفسهم فذهاب تشمبرلين الى ميونيخ لم يكن سعيا وراء الحصول على حقوق السوديت ولا حتى لانقاذ فرنسا من الحرب ، بل أنه ذهب لانقاذ الانجليز أنفسهم من الهجوم الجوى أو هكذا يبدو • وهكذا فقدت سياسة المسالمة قوتها المعنوية • وقبل ذهاب تشمبرلين الى ميونيخ أبرق الى براج يقول « أرجو أن تؤكدوا للدكتور بنيش أن مصالح تشيكوسلوفاكيا لم تبرح خاطرى » وفى الحقيقة كان استبعاد التشيك من الاجتماع هو الخوف من أن يثيروا بعض الصعوبات • كذلك استبعد الروس وحاول هاليفاكس أن يبقى على باب المستقبل مفتوحا عندما أكد للسفير السوفيتى ان استبعاد روسيا لم يكن معناه بأى حال قلة الرغبة من ناحيتنا ولا من ناحية فرنسا بلا شك فى الاحتفاظ بعلاقتنا وتفاهمنا مع الحكومة السوفيتية • أما موقف مايسكى من هاليفاكس وكان يبدو مشوبا بالتشكك كما كان يحتمل أن يكون •

لم يتقابل تشمبرلين ودلادييه قبل الاجتماع لتنسيق سياستهما فلم تكن هناك حاجة لتنسيق الاستسلام وربما كان تشمبرلين يخشى أن يحاول دلادييه من جديد أن ينسق سياسة المقاومة دون جدوى • أما هتلر فقد اجتمع بموسولينى وأثار رعبه بخططه المتعلقة بالقيام بحرب خاطفة ضد فرنسا ويفترض أن تشترك فيها ايطاليا • وقبيل انعقاد المؤتمر تلقى موسولينى من أتوليكو سفيره فى برلين شروطا وضعتها وزارة الخارجية الالمانية دون علم هتلر على مايقال وسواء أكان ذلك صحيحا أم لا فلقد لقى ذلك قبولا من هتلر • عند ذلك قدم موسولينى الشروط فى صورة الوسيط الذى لايتحيز لأحد وتظاهر هتلر بقبول التسوية بموافقته على تلك الشروط متحاشيا أن يظهر بمظهر الدكتاتور فلم يتقدم هتلر بشىء من المطالب حتى النهاية بل كان يتظاهر بأنه يتقبل بامتنان ماكان يعرضه الآخرون • أما الشروط المتفق عليها فكانت تسوية تقول بأن يقوم الالمان باحتلال أراضى السوديت على مراحل تتم قبل يوم ١٠ أكتوبر بدلا من أن

يتم الاحتلال طفرة واحدة يوم أول أكتوبر • وهو عمل لم يكن ممكنا من الناحية الفنية بأى حال • كذلك لم يسأل أحد عن المناطق التى سوف تسلم لالمانيا • أما تشمبرلين فأخذ يكابر فى التفاصيل المالية كما أثار موسولينى المطالب العنصرية التى تطالب المجر بتحقيقها ولكن هتلر أقفل هذا الباب اذ لم يعد يهتم بشئون المجر بعد أن فشلوا فى تدمير تشيكوسلوفاكيا • وقد استمر ضجيج المناقشات حتى بعد منتصف الليل بقليل مع فترة طويلة لتناول الطعام وأخيرا تم الاتفاق على تنفيذ الشروط الاصلية التى تقدم بها موسولينى دون أن يدخل عليها تعديل من الناحية العملية • ولما جلس الساسة الاربعة لتوقيع الاتفاق لم يجدوا مدادا بالمحبرة الفاخرة •

أما ممثلو تشيكوسلوفاكيا فكانوا ينتظرون فى غرفة مجاورة أملا فى أن يثيروا بعض الصعوبات العملية ولكن لم يسمح لهم أحد بالكلام • فلما بلغت الساعة الثانية بعد منتصف الليل استدعوا لمقابلة تشمبرلين ودلادييه واطلعوا على الاتفاقية وأوضح لهم دلادييه أن ذلك كان حكما لا يملك أحد حق استئنافه وليس فى الامكان تعديله ولا بد أن تقبله تشيكوسلوفاكيا قبل الخامسة صباحا والا فانها تتحمل نتائج الرفض • أما تشمبرلين فأخذ يتثاءب دون أن يعلق بكلمة فلقد كان متعبا ولكن فى شىء من السرور • وفى الصباح التالى ولى بنيش وجهه فى يأس صوب السفير الروسى فى براج قائلا أن تشيكوسلوفاكيا تواجه أحد أمرين : اما أن تبدأ بالحرب مع ألمانيا فتقف فى وجهها انجلترا وفرنسا أو تسلم للمعتدى•وسأل ماذا يكونموقف روسيا ازاء هذينالاحتمالين وهما اما الاستمرار فى النضال واما الاستسلام • وقبل أن تناقش الحكومة السوفيتية هذا الموضوع وصلها تلغراف آخر يقول انه لاداعى للرد اذ أن الحكومةالتشيكوسلوفاكية قد قبلت جميع الشروط • ومن العسير علينا أن نعتقد أن ذلك السؤال كان موجها لروسيا بصورة جدية فلقد ظل بنيش يصر على عزمه على أن تشيكوسلوفاكيا لايمكن أن تحارب وحدها ولا أن تحارب معتمدة على محالفة روسيا وحدها • وفى عام ١٩٤٤ بعد ذلك بعدةسنوات أخذ بنيش يدعى أن التهديد البولندى بشأن تيسن هو الذى دفع به الدفعة الاخيرة نحو الاستسلام ولو كان هذا صحيحا فان معناه أن الدفعة كانت فى الاتجاه الذى كان يعتزم أن يسلكه • وقد ظل بنيش يعتقد بحق ـ كما برهنت الاحداث فيما بعد ـ ان فى استطاعة هتلر أن يحصل على أكثر مما يريد ولكن ذلك استغرق وقتا أطول مما كان يؤمل • وفى نفس الوقت أمكن تشيكوسلوفاكيا أن تجنب نفسها أحوال الحرب لافى عام ١٩٣٨ وحدها ولكن طول فترة الحرب العالمية الثانية • ولقد كان فى استطاعة بنيش فيما بعد أن يقول وهو يتطلع الى براج من قصرالرئاسة : « أليس هذا جميلا ؟ ان هذه المدينة التى تقع فى وسط أوروبا هىوحدها التى لم تدمر وهذا كله بفضلى » وفى ٣٠ سبتمبر عقد تشمبرلين وهتلر اجتماعا آخر قال فيه تشمبرلين : « انى مسرور جدا للنتائج التى وصلنا اليها أمس » وبعد مناقشات طويلة بشأن نزع السلاح والمشكلة الاسبانية قال: « من الخير لبلدينا وللعالم بوجه عام لو أننا

اصدرنا بيانا نوضح به اتفاق وجهـة نظرنا على أهمية تحسـين العلاقات البريطانية الالمانية مما سوف يؤدى الى استقرار أكبر فى أوروبا »ثم قدم مشروع بيان كان قد أحضره معه جاء فيه : « ان الاتفاقية التى وقعت فى الليلة الماضية والاتفاقية البحرية المعقودة بين انجلترا وألمانيا هى دليل على رغبة شعبينا فى ضرورة عدم قيام الحرب بينهما » وجاء فى البيان :

« لقد عقدنا النية أن تكون طريقة المباحثات هى الوسيلة التى سوف تتبع مستقبلا لمعالجة أى مشكلة تتعلق ببلدينا كما اننا مصممون أن نستمر فى بذل جهودنا لتلافى أى سبب يمكن أن يؤدى الى الخلاف وبهذا نساهم فى اقرار السلام فى أوروبا » ٠

فلما ترجم المشروع لهتلر رحب به فى حماس ووقع عليه الرجلان ثم عاد كل منهما الى بلده أما دلادييه فكان يتوقع أن تستقبله الجماهير استقبالا عدائيا ولكنه دهش حين رأى الجماهير تقف فى انتظاره لتهتف له وأما تشمبرلين فلم تكن تنتابه مثل تلك المخاوف اذ أنه عندما نزل من الطائرة أخذ يلوح بالورقة التى تحوى البيان الذى وقعه مع هتلر قائلا : « لقد حصـلت على ماأريد » وفى الطريق الى لنـدن أخذ هاليفاكس ينصحه بألا يستغل الحالة النفسية السائدة فى ذلك الوقت فيجرى انتخابات عامة لتشكيل حكومة وطنية حقيقية من الاحرار والعمال مع تشرشل وايدن ٠ ويقال أن تشمبرلين كان يشارك هاليفاكس مخاوفه كما يقال انه قال عن الهتافات : « ان كل هذا سوف ينقضى فى بحر ثلاثة شهور » ولكنه فى ذلك المسـاء أطل من شرفة المنزل رقم ١٠ داونتج ستريت ليقول للجماهير : « ان هذه هى المرة الثانية التى عدت فيها من ألمانيا الى داونتج ستريت أحمل لواء السلام مع الشرف واعتقد أن السلام يجب أن يسود هذا العهد »٠

الفصل التاسع

السلام لفترة ستة شهور

لقد كان اجتماع ميونيخ يعين بداية عهد من عهود الشئون الأوربية • فمعاهدة فرساى التى رسمت السياسة فى عام ١٩١٩ لم تكن قد أسلمت الروح فحسب ولكنها وريت التراب • وكان لابد لسياسة جديدة أن تحل محلها،سياسةترتكزعلى المساواة والثقة المتبادلة بين الدول الأوربية العظمى الأربع • وقد قال تشمبرلين: أعتقد ان هذا سلام للعهد الذى نعيش فيه • وقال هتلر : لم تعد لى بعد الآن مطالب اقليمية فى أوروبا • ولكن كانت لاتزال هناك أمور كبرى تنتظر الحلول فى الشئون الدولية فالحرب الأهلية الاسـبانية لم تكن قد وضعت أوزارها بعد وألمانيا لم تكن قد اسـتعادت مستعمراتها • ثم يأتى بعد ذلك ضرورة الوصول الى اتفاقيات فيما يتعلق بالسياسة الاقتصادية والتسليح قبل أن يعود الاستقرار الى أوروبا• ولكن لم تكن هناك واحدة من هذه المسائل تهدد باشعال حرب عامة • فلقد كان هناك ما يدل أنألمانيا فىمقدورها الوصول عن طريق المفاوضات السلمية الى أن تتبوأ فى أوروبامركزا يتفق ومواردها • أما العقبة الكبرى فى هذا السبيل فقد أزيلت ، فالسياسة التى كانت مرسومة لتقف فى وجه ألمانيا قد انهارت عن طريق الاتفاقيات لا عن طريق الحرب • ومع ذلك فلم تمض ستة شهور حتى بدأت سياسة جديدة تخطط ضد ألمانيا اذ لم ينقض عام واحد حتى كانت بريطانيا وفرنسا وألمانيا مشتبكة فى حرب فهل كانت « ميونيخ » خدعة منذ البداية ؟ وهل كانت من ناحية ألمانيا مجرد فكرة ترمى الى السيطرة على العالم أم هل كانت من ناحية بريطانيا وفرنسا مجرد حيلة لاكتساب الوقت حتى يستكملا تسليحهما ؟ • هكذا تبدو لنا الأمور لو رجعنا بنظرنا الى الماضى • ولما فشلت سياسة ميونيخ قال كل انسان انه كان يتوقع لها الفشل أما من ساهموا فى صنعها فانهم لم يكتفوا باتهام غيرهم بالغش ولكنهم كانوا يفخرون بأنهم كانوا أنفسهم يغشون • وفى الحقيقة لم يكن لواحد منهم من بعد النظر ما صار يدعيه لنفسه فيما بعد فلقد كان رجال ميونيخ الأربعة جميعهم مخلصين وان اختلفت طرقهم ولو أن كلا منهم كانت له بعض التحفظات التى كان يخفيها عن الآخرين •

لقد خسرت فرنسا أكثر من غيرها وكانت أضعفهم أملا فى المستقبل ٠ اذ تخلت عن مركزها كأعظم قوة فى أوروبا وهومركز يبدو انها كانت تتمتع به منذ ١٩١٩ ولكن ماتنازلت عنه كان أمرا مصطنعا فانها خضعت للحقيقة أكثر مما خضعت للقـــوة ٠ فلقد كان الفرنسيون يفترضون طوال الوقت أنالمزايا التىحصلوا عليها فىعام١٩١٩ـ ثم بعد ذلك التحفظات التى فرضت على ألمانيا والمحالفات المعقودة بينهم وبين دول شرق أوروبا ــ كل هذه كانت مزايا أمكنهم التمتع بها فى غفلة ولم تكن مجرد مكاســـب تستوجب الدفاع عنها بالقوة ٠ فهم لم يحركوا ساكنا لتوكيد النظام الذى فرضته فرسای بعد أن احتلت ألمانيا اقليم الروهر عام ١٩٢٣ وهم تنازلوا عن التعويضات ووافقوا على اعادة تسليح ألمانيا ثمسمحوا باعادة احتلال ألمانيا لاقليم الراين ولم يعملوا شيئا دفاعا عن استقلال النمسا ٠ ولقد تمسك الفرنسيون بمحالفتهم مع دول أوروبا الشرقية لمجرد اعتقادهم أن هذا سوف يحقق لهم المعونة لو أنهموجموا هم أنفسهم من جانب ألمانيا ٠ فهم قد تخلوا عن حليفتهم تشكوسلوفاكيا فى اللحظة التى رأوا انها تعرضهم للخطر بدلا من أن تحقق لهم السلامة ٠ ولقد كانت ميونيخ هى الذروة المنطقية للسياسة الفرنسية وليس نقيضها ٠ فلقد رأى الفرنسيون انهم فقدوا مكانهم فى شرق أوروبا ورأوا أن هذه المكانة لن تقوم لها قائمة ٠ وليس معنى هذا أنهم كانوافى خوف على انفسهم بل على العكس كانوا متفقين مع انجلترا فى الرأى الذى كانت تنادى به منذ لوكارنو وهو أن الخطر الذى يهدد فرنسا يقل لو أنها انسحبتالى ماوراء الراين وهكذا أصبحت فرنسا تفضل السلامة على العظمة ٠ وقد تبدو هذه سياسة غير كريمة ولكنها ليست خطرة ٠ وحتى فى عام ١٩٣٨ مع ان الفرنسيون كانوا يخشون الغارات الجوية الا أنهم لم يكونوا يخشون الهزيمة لو أن الحرب فرضت عليهم فرضا فلقد كان جاملان دائما يؤكد أن النصر سيكون للدول الديمقراطية وقد صدق رجال السياسة مايقول ٠ ولكن ماذا تعنى الحرب ؟ تلك كانت الفكرة التى حالت دون قيام فرنسا بعمل مامنذ عام ١٩٢٣ والتى حالت دون قيامها بالعمل فى الوقت الحالى ٠ فألمانيا ــ حتى لو هزمت ــ لن تزول من الوجود بل ستظل قائمة ، عظيمة قوية مصممة على أن تنال حقوقها ٠ فالحرب قد توقف الساعةولكنها لنتحرك عقاربها الى الوراء ثم تتحركالاحداث الى الامام لنفس الخاتمة ٠ لذلك كانت فرنسا ترضى بأن تتنازل عن أى شىء فيما عدا سلامتها ولم يكن الفرنسيون يعلمون أنهم تنازلوا عن هذه السلامة فى ميونيخ فلقـد كانوا يؤمنون ايمانا لايتزعزع بمناعة خط ماجينو وكانوا على حق فى اعتقادهم وقـد دعاهم هذا الايمان الى الاعتقاد بأن خط سيجفريد الالمانى له نفس المناعة وكانوامخطئين فى هذا الرأى ولهذا أصبحوا يعتقدون أن الموقف فى غرب أوروبا أصبح بحيث لنيتمكن أحد الجانبين من التغلب على الجانبالآخر٠فالفرنسيون لم يكن فى استطاعتهمالوقوف فى وجه التقدم الالمانى فى شرق أوروبا ويقابل هذا عدم استطاعة ألمانيا غزو فرنسا ٠

والفرنسيون لحق بهم الاذلال فى ميونيخ ولم يكن يتهددهم الخطر كما كانوا يفترضون .

أما انجلترا فكان موقفها أكثر تعقيدا . فالناحية الاخلاقية لم تدخل فى حساب فرنسا أو أنها ما كادت تدخل حتى طرحت جانبا . فالفرنسيون كانوا يعلمون أن واجبهم يقتضيهم معاونة تشيكوسلوفاكيا ولكنهم تخلوا عن هذا الواجب اما لأنه يجلب لهم الخطر أو لأنه كان أكثر مما يطيقون .

ولقد عبر ليون بلوم أحسن تعبير عن شعور فرنسا عندما رحب باتفاقية ميونيخ بمزيج من الخجل والارتياح . أما من ناحية بريطانيا فكانت الناحية الاخلاقية توضع موضع الاعتبار الى حد كبير . لقد كان رجال السياسة فى انجلترا يناقشون المسألة مناقشة عملية فقد كانوا يفكرون فى خطر الهجوم الجوى وتخلفهم فى اعادة التسليح وفى استحالة تقديم المساعدة الى تشكوسلوفاكيا حتى فى حالة كفاية التسلح وقد كانت هذه الطريقة من التفكير ترفع من الروح المعنوية ولا تضعفها . ولقد كانت سياسة انجلترا تجاه تشكوسلوفاكيا تتركز على الاعتقاد بأن للألمان حقوقا أدبية فى أراضى السوديت قائمة على مبادىء القومية ومن هذا استنتج أن انتصار مبدأ تقرير المصير سوف يمهد الطريق لاستقرار سلام دائم فى أوروبا . فالحكومة الانجليزية لم تكن مدفوعة الى الاعتراف بتفكيك أواصر تشكوسلوفاكيا لمجرد الخوف من الحرب . فالانجليز عملوا على أن يفرضوا على تشكوسلوفاكيا هذا التنازل عن بعض الأراضى قبل أن يظهر شبح الحرب . فتسوية ميونيخ تعتبر نصرا لسياسة بريطانيا التى كانت تسعى لتحقيق هذا الهدف بالذات لا للحصول على نصر لهتلر الذى بدأ العمل دون أن يكون له مثل هذا القصد الواضح . كذلك لم تكن تسوية ميونيخ مجرد انتصار لسياسيين بريطانيين متشككين انانيين لايهتمون بمصير شعوب نائية أو يدخلون فى حسابهم ان هتلر قد يمكن دفعه الى حرب ضد السوفييت بل أن هذا كان نصرا لكل جانب من جوانب الخير وكل جانب مستنير فى حياة بريطانيا وكان نصرا لجميع من استنكروا القوة وقصر النظر الذين ظهروا فى معاهدة فرساى . ففى عام ١٩٢٠ كتب بريليز فورد الزعيم الاشتراكى والحجة فى الشئون الخارجية يقول عن التسوية السلمية : « ان أكبر ذنب ارتكب هو اخضاع أكثر من ثلاثة ملايين من الالمان لحكم التشيك» وهذا هو الذنب الذى كفرت عنه اتفاقية ميونيخ . ويدعى المثاليون من الناس أن السياسة البريطانية كانت بطيئة ومترددة ولكنها فى عام ١٩٣٨ كفرت عن هذه الذنوب فقد تمكن تشمبرلين بمهارته واصراره على أن يحمل الفرنسيين ثم التشيك على انتهاج هذا السبيل الاخلاقى .

كانت هناك حالة تعترض التنازل عن اراضى السوديت لالمانيا وهى أن الروابط الاقتصادية والجغرافية أهم من الروابط القومية وكان هذا هو وجه الاعتراض على تفكيك أواصر أمبراطورية آل هابسبرج والتشيكيون الذين تزعموا عملية هدم تلك الامبراطورية لم يكن فى استطاعتهم ان يستخدموا هذه الفكرة كما لم يستطع ان يستخدمها انصارهم

فى أوروبا الغربية • وكان لابد لذلك النزاع أن ينتقل من ميدان الاخلاق الى الاعتبارات العملية وهو ماكان يعبر عنه «بالسياسة الحقيقية» وهو تعبير لاينال قبولا : ولقد كان أشد خصوم اتفاقية ميونيخ من أمثال ونستون تشرشل يؤكدون فى بساطة أن قوة ألمانيا فى أوروبا قد تجاوزت الحد المعقول ويجب أن يوضع حد لذلك بالتهديد بتأليف حلف قوى أو بقوة السلاح لو اقتضى الامر • فمبدأ تقرير المصـــير الذى تـدين له تشيكوسلوفاكيا بكيانها قد استبعد باعتباره مبدأ مزيفا أما المبدأ الاخلاقى الذى كان يتبع فيقول بأن حدود الدول القائمة كانت حدودا لها قدسيتها وان كل دولة كان لها حرية التصرف كما تشاء داخل حدودها وهذا هو مبدأ «الشرعية» وهو المبدأ الذى كان ينادى به مترنيخ ومؤتمر فينا • ولو أن هـذا المبدأ قـد طبق لما تفككت امبراطوريـة آل هابسبرج بل لما استقلت المستعمرات البريطانية فى أمريكا وكانت هذه دعوى غريبة نادى بها اليساريون البريطانيون فى عام ١٩٣٨ ولازمتهم فى مشقة ومن هنا كان التردد فى نقدهم وعدم جدواه ولم يكن (دف كوبر) قائد البحرية البريطانية يشعر بهذه الشكوك عندما استقال احتجاجا على تسوية ميونيخ • وباعتباره مؤرخا لحياة (تاليران) ومعجبا به فقد كان اهتمامه منصبا على توازن القوى وشرف بريطانيا لابتقرير المصير واجحاف معاهدة فرساى • وفى نظره لم تكن تشكوسلوفاكيا وليدة ١٩٣٨ أكثر ممـا كـانت بلجيكا وليدة ١٩١٤ وقد حطم هذا الرأى القوة الاخلاقية لموقف بريطانيا فى الحرب العالمية الاولى ولكنه كان يلقى قبولا من الاغلبية المحافظة فى مجلس العموم البريطانى • وقد أجاب تشمبرلين على هذا الرأى بنفس مدلولات القوة التى انطوى عليها فلم يكن فى مقدوره أن يؤكد مابدأ من عدم رغبة فرنسا فى القتال وكان هذا يمثل ناحية الضعف الحقيقية فى جانب دول الغرب ولهذا فقد رأى أن بريطانيا نفسها لم تكن فى مركز يسمح لها بقتال المانيا •

وقد استخدم هذا الرأى الذى أبداه تشمبرلين ضده فلو أن بريطانيا كانت من الضعف بحيث تعجز عن القتال اذن لابد للحكومة أن تسارع فى اعادة التسلح وهذا معناه التشكك فى نوايا هتلر ســـواء أكان ذلك صراحة أم لا • وبهذه الطريقة عمل تشمبرلين أكثر من أى شخص آخر على تحطيم الرأى الذى بنى عليه سياسته • زيادة على ذلك فان أى تشكك ينبنى عليه تشكك آخر ، فلقد كان يشك فيما اذا كان هتلر ينظر نظرة جدية لاخلاص تشمبرلين قبل ميونيخ • ولكن من المؤكد أنه بعدهالم يفعل ذلك لبضعة أيام • فما كان يقصد به المسالمة انقلب الى استسلام كما بدا من تشمبرلين وقد تعلم هتلر من هذا ان التهديدات كانت أقوى سلاح فى يده فما كان يستطيع مقاومة التفاخر بأن تسوية ميونيخ انما كانت انتصارا للقوة ولم يعد يتوقع أن يحصل على مكاسب جديدة بعرض شكواه من معاهدة فرساى ولكنه كان يأمل أن يحصل على هذه المكاسب باستغلال خوف بريطانيا وفرنسا وبهذا برهن على صدق شكوك الذين هاجموا تسوية ميونيخ باعتبارها استسلاما أملاه الخوف • أما الناحية الاخلاقية فى العلاقات الدولية

فلم يكن يحسب لها حساب وقد يبدو من التناقض أن الرئيس بنيش كان هو المنتصر الحقيقي فى ميونيخ كما ظهر بمضى الوقت لانه فى الوقت الذى فقدت فيه تشكوسلوفاكيا أرضها ثم استقلالها فقد هتلر الميزة المعنوية التى جعلت منه حتى ذلك الوقت شخصا لايمكن مقاومته فأصبحت ميونيخ كلمة تثير المشاعر ورمزا للخجل لايمكن أن يتحدث عنها الانسان الا وهو ثائر المشاعر • ولقد كان ماحدث فى ميونيخ أقل شأنا من الطريقة التى تم بها أما ماقاله الطرفان عنها فيما بعد فكان أكثر بكثير •

لقد كان هنا مقعدان شاغران فى ميونيخ أو بالاحرى مقعدان لم يعدا لدولتين كبراوين كان لكل منهما الحق فى الدعوة • فعند مابلغت الأزمة عنفوانها دعا الرئيس روزفلت الى عقد اجتماع فى احدى العواصم المحايدة ولم يذكر ما اذا كان ذلك الاجتماع سوف يضم ممثلا امريكيا ولكن على أى حال قال : «ان حكومة الولايات المتحدة لن تأخذ على عاتقها أى التزامات فى الطريق الذى تسير فيه المفاوضات الحاضرة» وقد امتدح روزفلت مستر تشمبرلين لما بلغته أخبار مؤتمر ميونيخ ونعته بالرجل الطيب • فلما تمخضت سياسة المسالمة عن نتيجتها المرة فيما بعد أبدى الامريكيون اغتباطهم لانهم لم يحضروا اجتماع ميونيخ • واصبحوا يستطيعون توجيه اللوم الى انجلترا وفرنسا لانهما فعلا ماكان الامريكيون سوف يفعلونه لوأنهم كانوا فى مكانهم • ولقد كان عدم وجود العون الامريكى هو الذى ساعد على تداعى الدول الديمقراطية ولكن الامريكيين تعلموا من ميونيخ أن مساعدتهم لتلك الدول المستضعفة يجب أن تقل • ولما أحاطت مشاكل السياسة الداخلية بالرئيس روزفلت رأى أن لايضيف الى متاعبه اثارة الجدل حول المشاكل الخارجية ففى استطاعة أوروبا أن تشق طريقها بدون أمريكا •

ولقد كان الروس أكثر دقة فى خطتهم من أجل عقد مؤتمر اذ كانوا يريدون عقد اجتماع يضم «الدول المحبة للسلام» لتتعاون على مقاومة المعتدى وبذلك استطاعوا هم أيضا أن يظهروا بمظهر من يعتنقون المبادىء الاخلاقية فأبدوا اخلاصهم للالتزامات التى تمليها المعاهدات موجهين كل اللوم الى ضعف فرنسا • وقد قال أحد الدبلوماسيين الروس فى ٣٠ سبتمبر : «لقد ارتكزنا على دعامة باليه وها نحن الآن نسير فى طريق مختلف» وقد فسر هذا المعنى بوتيموكين القوميسار المساعد عندما قال لكولوندر : ماذا فعلتم ياصديقى المسكين ؟ فاننا من ناحيتنا لانرى مخرجا من هذا الامر سوى تقسيم بولندا للمرة الرابعة ولم يبد من الروس مايشعر بأنهم كانوا يخشون شيئا فيما يتعلق بسلامتهم اذ قال لتفينوف لكولوندر : « ان فى استطاعة هتلر أن يهاجم بريطانيا أو روسيا ولكنه سوف يختار الامر الاول ولكى يتمكن من تحقيق هذا الهدف بنجاح لابد له من مصالحة روسيا» غير أن الروس لم يكونوا امرتاحين فى قرارة أنفسهم اذ لم يتقرب هتلر الى ناحيتهم ولكنه بدلا من ذلك كان يدعى أنه هو الذى انقذ أوروبا من البلشفية •

ولقد كان ذوو الحصافة من المراقبين يتوقعون أن تكون الخطوة التالية لهتلر صوب اقليم اليوكرين وهى خطوة كان يتوقعها سياسيو الغرب بشىء من الابتهاج بينما يرتعد لها السوفييت • وكم كان حكام السوفييت يودون لو عزلوا أنفسهم عن أوروبا • لهـــذا وبعد فترة من تبادل الاتهامات كان لابد لهم من المناداة بقيام جبهة عامة وبمبدأ السياسة الجماعية ضد العدوان ولكن يستبعد أنهم كانوا يتوقعون النجاح لهذه السياسة •

لقد كان كل انسان يتحدث عن الخطوة التالية التى سوف يخطوها هتلر فى هذا الاتجاه أو ذاك أما أقل الناس كلاما فى هذا الشأن أو فى التفكير فيه فكان هتلر نفسه أما الترتيب الزمنى للاحداث الذى يعزوه كثير من الكتاب لهتلر فيقولون ميونيخ فى سبتمبر ١٩٣٨ وبراج فى مارس ١٩٣٩ ودانزج فى سبتمبر كل هذا لايرتكز على دليل معاصر • فبعد انتصار هتلر الباهر فى ميونيخ عاد الى برجهوف حيث كان يمضى الوقت فى رسم خطط أحلامه لاعادة بناء مدينة لينز فى النمسا حيث قضى أيام التلمذة وكان من وقت لآخر يبدى استياءه اذ لم تتح له فرصة القتال ضد تشيكوسلوفاكيا ولكن حكمنا على الناس يجب أن يكون مبنيا على مايعملونه وليس على مايقولونه فيما بعد • وقد بقى من جديد يترقب الاحداث كى تهيىء له نجاحا جديدا فى المستقبل • وقد طلب منه القادة العسكريون أن يمدهم بتوجيهاته فيما يتعلق بنشاطه التالى فأجاب هتلر فى ٢١ أكتوبر يقول : « ان الجيش الالمانى يجب أن يكون دائما على قدم الاســـتعداد للقيام بالآتى :

أولا : حماية حدود الرايخ ووقايته من أى هجوم جوى مفاجىء •

ثانيا: تصفية ما تبقى من الدولة التشيكية • »

وكانت هذه الامور اجراءات وقائية لا خططا عدوانية ثم يمضى فى توجيهاتـــه فيقول : « يجب أن يكون فى الامكان تحطيم بقية دولة تشيكوسلوفاكيا لو أنها انتهجت سياسة معادية لالمانيا » •وفى ١٧ ديسمبر أبلغ الجيش الالمانى بمايأتى : « يجب أن يبدو الامر من الظاهر أنه ليس الا عملا سلميا وليس اجراء عسكريا » وكثيرا ما استدل بهذه التوجيهات على أن هتلر لم يكن مخلصا أبدا فى قبول تسوية ميونيخ أما الاقرب الى الحقيقة فهو أن هتلر كان يتشكك فيما اذا كانت التسوية سوف تكون مجدية وبالرغم مما قيل كثيرا عن جهل هتلر من الناحية السياسية الا أنه كان أكثر فهما لمشكلة بوهيميا من الساسة الاوربيين الآخرين فكان يعتقد دون ســـوء قصد ان بقاء تشيكوسلوفاكيا كدولة مستقلة لن يطول اذا ماانتزعت منها حدودها الطبيعية واذا ماجرح كبرياؤها • ولم يكن هذا الرأى عن رغبة فى تحطيم تشيكوســـــلوفاكيا بل انه كان رأيا قال به مازاريك وبنيش عندما أوجدا تشيكوسلوفاكيا عام ١٩١٨ ولكن كان هـــذا هو المبدأ الذى ارتكز عليه استقلال تشيكوسلوفاكيا من البداية الى النهاية •

ولو أن تشيكوسلوفاكيا قد تفككت أوصالها فماذا يقوم مقامها ؟ لقد كان هتلر أثناء الازمة التشيكية يقول فى جودسبرج أنه يرى أن توزع أراضى تشيكوسلوفاكيا بين المجر وبولندا مكافأة لهما على أنهما كانا البادئين ولكنه غير من رأيه هذا فيما بعد فكلا البلدين أحجم عن العمل حتى مرت الازمة وكان واضحا أنهما كانا يرجوان الاحتفاظ بصداقة الجانبين • ففى ١٤ اكتوبر قال هتلر لاحد ممثلى حكومة المجر : « انى لست غاضبا من المجر ولكن الفرصة قد ضاعت منها » ويبدو أنه أصبح يفضل أن تبقى تشيكوسلوفاكيا بوضعها الذى أصبحت فيه خاضعة لنفوذه • وقد كان هتلر سياسيا حصيفا ولكنه كان شريرا بلا شك وكان هدفه هو السعى حثيثا لتوسيع سلطان ألمانيا لا الظهور بمظهر العظمة بطريقة مسرحية • لهذا كانت الدول التى تسير فى فلكه أكثر نفعا له من البلاد التى يضمها اليه ضما مباشرا وهكذا أخذ يزيد من عدد هذه الدول التى تسير فى فلكه ويعمل لذلك فى صبر كثير • فكان يعتبر تلك الدول صورة أخرى لطريقته المفضلة التى كان يجعل بها الآخرين يعملون من أجله • وبعد اجتماع ميونيخ مباشرة أخذ ممثلو الألمان فى اللجنة الدولية يطبقون دون رحمة تلك القواعد التى اصطنعوها بأنفسهم لصالح السوديت بحيث فقدت تشيكوسلوفاكيا من أراضيها بالفعل أكثر مما كانت سوف تفقده طبقا للمطالب المقدمة لها فى جودسبرج • أما عندما اجتمع روبينتروب بشيانو فى فينا لتسوية مسائل الحدود الجديدة بين المجر وتشيكوسلوفاكيا فتلك قصة أخرى فلقد كانت تدور برأس شيانو فكرة ماكرة عقيمة وهى أن يتخذ من المجر حاجزا يقف فى وجه المانيا فادرك ربينتروب فى الحال سياسة شيانو وأخذ يعمل على نصرة قضية السلوفاك بقوة حتى أن شيانو أظهر تذمره من ذلك حيث قال : « انك الآن تستخدم فى صالح تشيكوسلوفاكيا نفس الحجج التى كنت تستخدمها ضدها فى سبتمبر • ولقد كان السلوفاك عنصرا جديدا فى حساب هتلر اذ كان هذا الجنس لايدين بالديمقراطية كما يدين بها التشيك كما لم يكونوا يحلمون بالعظمة التى يحلم بها المجريون لهذا أبدى هتلر أسفه لانه لم يكن يعرف ان السلوفاك يناضلون من أجل الحصول على استقلالهم ويعتقد الكثيرون أن هتلر كان يرى أن يشق طريقه صوب بلاد اليوكرين عن طريق تشكوسلوفاكيا • غير أن طبيعة تلك البلاد الجغرافية لم تكن تجعل ذلك من المستطاع وكذلك كان العكس وهو امكان تهديد روسيا للالمان عن طريق تشكوسلوفاكيا • ولهذا كانت مناصرة هتلر لسلوفاكيا تبذل من اجلها فقط لانها كانت تعتبر تابعا يمكن الاعتماد عليها لتدور فى فلك المانيا كما برهنت على ذلك طوال أيام الحرب العالمية الثانية •

ولو ان هتلر كان يطمع حقيقة فى الوصول الى اليوكرين لكان لابد له أن يزحف بطريق بولندا وقد اتضح فى خريف عام ١٩٣٨ ان هذا الرأى لم يكن وهما سياسيا على الاطلاق فبولندا بالرغم من أنها كانت لاتزال ترتبط بمحالفة مع فرنسا اسميا الا أنها توسعت فى ميثاق عدم الاعتداء حتى أصبح فى صالح المانيا والى بولندا يرجع الفضل

فى ان الميثاق الفرنسى السوفيتى لم يصبح حقيقة واقعة ففى خلال الازمة التشيكية قضى موقفها على كل احتمال أن تقدم روسيا المعونة الى تشيكوسلوفاكيا اما بعد انقضاء الازمة فقد كان الانذار النهائى الذى قدمته بولندا الى تشيكوسلوفاكيا تطالب فيه باستعادة اقليم تيسين سببا فى حمل بنيش ـ حسب تقديره الخاص ـ على التنازل عن أى محاولة ترمى الى مقاومة تسوية ميونيخ • ولقد كانت بولندا وهى تقوم بدور ابن آوى لالمانيا فى الشرق أكثر فائدة لها مما كانت ايطاليا فى حوض البحر الابيض ولم يكن هناك سبب يحول دون تنازل أى من الدولتين عن القيام بذلك الدور اذ كانت هناك عقبة تحول دون ذلك فى كل من الحالتين • فايطاليا كانت تضم ٣٠٠ر٠٠٠ ألمانى فى التيرول الجنوبى وكانت بولندا تضم حوالى مليون ونصف من الالمان فى اقليم سنليزيا فى الممر البولندى ومع ذلك كان من الممكن التغلب على هاتين العقبتين اذ كان هتلر على استعداد أن ينسى هؤلاء الالمان الخاضعين لحكم أجنبى فى مقابل حصوله على تعاون سياسى وانقياد الآخرين له وقد فعل ذلك مع ايطاليا فقد وافق على ابعاد الالمان عن التيرول الجنوبى بالرغم من أنه كنمساوى كان يعطف على قضيتهم عطفا عميقا •

أما عطفه على الالمان فى بولندا فقد كان أقل عمقا وربما كان هتلر يحمل من الصداقة نحو البولنديين أكثر مما يحمل للايطاليين فالعقبة فى هذه الحالة كانت شعور الالمان لاشعور هتلر فاستيلاء بولندا على جزء من الاراضى الالمانية كان فى نظر معظم الالمان اساءة لاتمحى من أعمال فرساى وقد أقدم هتلر على عمل جرىء عندما رأى أن يتعاون مع بولندا ولكن كان هناك مخرج من ذلك الموقف • فالالمان الخاضعين للحكم البولندى قد يمكن نسيانهم أو سحبهم أما مالم يمكن التسامح فيه فهو «الممر البولندى» الذى يفصل بروسيا الشرقية عن الرايخ وهنا أيضا كان فى الامكان الوصول الى تسوية فقد ترضى ألمانيا بالحصول على ممر لها يقطع الممر البولندى وهى فكرة معقدة وان كانت لها سوابق كثيرة فى التاريخ الالمانى • ولكن الشعور فى المانيا يمكن أن يهدأ باستعادة دانزج وكان ذلك يبدو سهلا اذ لم تكن دانزج جزءا من بولندا بل كانت مدينة حرة لها ادارتها الذاتية الخاصة تحت رئاسة مندوب سام تعينه عصبة الامم • ولقد كان البولنديون انفسهم وقد ملأهم الغرور الاجوف بقوتهم كدولة عظمى هم أول من تحدى سلطة عصبة الامم لهذا كان من المؤكد انهم لن يمانعوا فى أن تحل المانيا محل عصبة الامم زيادة على ذلك فان المشكلة قد تغيرت منذ ١٩١٩ ففى ذلك الحين كانت ميناء دانزج ضرورية لبولندا أما الآن وقد أنشأ البولنديون ميناء (جدينيا) فقد أصبحت حاجة دانزج لبولندا أكثر من حاجة بولندا لها • لهذا كان من المستطاع أن تعمل الترتيبات للمحافظة على مصالح بولندا الاقتصادية وفى نفس الوقت تستعيد الرايخ ميناء دانزج وهكذا تزول العقبة الكأداء وتستطيع المانيا وبولندا أن يعملا سويا فى اليوكرين •

وفى ٢٤ أكتوبر أفصح ريبنتروب عن هذه المقترحات لاول مرة للسفير البولندى ليسكى فاذا امكن تسوية مشكلة دانزج والممر اذن لامكن ايجاد سياسة موحدة تجاه روسيا على أساس ميثاق مناهض للشيوعية • ثم كان هتلر أكثر صراحة عندما زاره (بيك) وزير خارجية بولندا فى يناير ١٩٣٩ اذ قال له ان الفرق البولندية التى تعسكر على الحدود الروسية قد وفرت على الالمان الكثير من النفقات ثم اضاف الى ذلك قوله ان دانزج ألمانية وسوف تظل دائما ألمانية وستضم الى ألمانيا ان عاجلا أو آجلا • فلو أن مشكلة دانزج امكن تسويتها فانه على استعداد ان يضمن بقاء الممر الى بولندا • وربما كان هتلر يحاول خداع البولنديين فيما يتعلق بدانزج ويطالب باستعادتها كمقدمة للقضاء عليهم غير ان اطماع بولندا فى اليوكرين كانت متأصلة وكانت دانزج تبدو تافهة اذا قيست بها ولكن بيك لم يكن يخفى سرا حين صرح بأن بولندا كانت لها أطمـــاع فى اليوكرين عندما زار روبنتروب وارسو فى أول فبراير •

ومع ذلك لم يستجب البولنديون للعرض الذى عرضه عليهم هتلر اذ كانوا واثقين كل الثقة فى قوتهم مع احتقارهم لضعف التشيك لهذا عقدوا العزم على أن لايتزحزحوا خطوة واحدة • وهذه الطريقة فى نظرهم كانت الطريقة الوحيدة التى يمكنهم التعامل بها مع هتلر •

كذلك كانت هناك نقطة أخرى غابت عن هتلر فمع أن البولنديين كانوا لا يرضون بالتعاون مع روسيا السوفيتية ضد هتلر الا انهم كانوا فى نفس الوقت مصممين على عدم التعاون مع ألمانيا ضد روسيا اذ كانوا ينظرون الى أنفسهم كدولة عظمى مستقلة وغاب عنهم انهم انما استعادوا استقلالهم فى عام ١٩١٨ لالشىء الا لأن روسيا والمانيا قد لحقت بهما الهزيمة • أما الآن فعليهم أن يختاروا بين المانيا وبين روسيا ولكنهم رفضوا الاثنين • فمشكلة دانزج وحدها هى التى حالت دون التعاون بين ألمانيا وبين بولندا ولهذا السبب عمل هتلر على التخلص منها وكان هذا هو نفس السبب الذى دعا (بيك) الى العمل على أن تستمر مشكلة دانزج ولم يخطر بباله انها ستكون السبب فى الضربة القاتلة •

ان السحابة التى كانت تخيم على العلاقات بين بولندا وألمانيا لم يتبينها أحد فى أوروبا الغربية بل على العكس كان يعتقد أن حملة مشتركة من الدولتين ستوجه صوب اليوكرين فى القريب ولقد كان تشمبرلين متلهفا على أن يعرف من باريس ما اذا كان الميثاق السوفيتى الفرنسى سيوضع موضع التنفيذ لو أن روسياطلبت المساعدة من فرنسا بحجة أن الالمان يشجعون الحركة الانفصالية فى اليوكرين • وكان واضحا أن تشمبرلين لم يكن يود أن يقحم نفسه فى أوروبا الشرقية أما هاليفاكس ومن ورائه وزارة الخارجية البريطانية فكان أقل دقة اذ كتب الى فيبيس فى أول نوفمبر يقول بأن السماح لالمانيا بالتوسع فى وسط أوروبا يعتبر فى نظره أمرا طبيعيا • ولكن لابد من الوقوف

في وجه أي توسع لهافى غربأوروبا والا انهار الموقف من أساسه • فايجاد حالة من توازن القوى ضد ألمانيا كان لايزال ضروريا • ثم قال هاليفاكس لفيبس أن بولندا قد تقع بالتدريج تحت سلطان ألمانيا أما روسيا السوفيتية فيبعد أن تصبح حليفة لالمانيا طالما بقى هتلر على قيد الحياة ثم يستطرد فيقول : « لهذا، وبالنظر لما اؤمله من أن فرنسا سوف تعمل على وقاية نفسها ووقايتنا من أن تجرنا روسيا الى حرب ضد ألمانيا لهذا فانني أتردد فى تقديم النصيحة للحكومة الفرنسية لرفض الميثاق الفرنسى السوفيتى لان المستقبل لايزال يكتنفه الغموض » • ومعنى هذا أن تخوض روسيا الحرب دفاعا عن المصالح البريطانية أما بريطانيا وفرنسا فلن تجاريا دفاعا عن روسيا •

ومع كل هذا لم يعمل شيء للابقاء على صداقة روسيا اذ أن كل اهتمام بريطانيا كان موجها نحو التخلص من التزاماتها فى أوروبا الوسطى كما كانت تفعل من قبل • أما الضمان الذى كان يقدم لتشيكوسلوفاكيا من حين لآخر فقد أصبح الآن عبئاثقيلا على الانجليز • وكان من السخف الواضحأن يقدم الضمانلدولة مستضعفة منالمستحيل الدفاع عنها عندما كانت مكتملة التسلح لهذا تقدم الانجليز بالرجاء للفرنسيين أن يجلوهم من وعدهم • وفى ٢٤ نوفمبر اجتمع الوزراء البريطانيون والفرنسيون فى باريس حيث أصر تشمبرلين على ضرورة أن يكون الضمان جماعيا فقط ، وأضاف الى ذلك قوله أن ضمانا تقدمه حكومة جلالة الملك وحدها لم يكن ذا قيمة فهو لايتصوركيف يمكن لبريطانيا أن تقوم وحدها بالتزاماتها • وقال هاليفاكس أنه يرى أن ضمانا مشتركا لايبدو أنه لايتفق مع خطاب التصريح البريطانى الفرنسى • وحتى بونيه اعترض قائلا ان هذا لايكاد يتفق مع روح السياسة • ولما كان الفرنسيون قد رفضوا التسليم بذلك لهذا تقرر أن يطلب من التشيك انقاذ الانجليز من ورطتهم • ولو أن تشيكوسلوفاكيا رضيت بالضمان الجماعى فان الضمير البريطانى سوف يكون راضيا كذلك ولكن عندما رفض التشيك الاستجابة لهذا الطلب نفذ صبر هاليفاكس وقال :

« ان حكومة جلالة الملك ليست على استعداد أن تفكر فى تقديم ضمان قد يضطرها — وحدها أو مع فرنسا — أن تهب لمعاونة تشيكوسلوفاكيا فى ظروف يستحيل معها تقديم مساعدة فعالة • وهذا سوف يكون نفس الموقف لو أن ألمانيا أو ايطاليا كانت احداهما المعتدية فرفضت الاخرى أن تنفذ الضمان » •

هكذا أصبح الموقف حين أصبحت انجلترا مقيدة بضمان اعتزمت أن لاتحترمه•

وفى خلال شتاء ١٩٣٩/٩٣٨ بلغ تشكك بريطانيا مداه بشأن الموقف فى غرب أوروبا بغض النظر عن استحالةقيامها بالتزاماتها فى الشرق وهكذا أصبح ماكان يعتز به تشمبرلين من تصريحات عن الصداقة البريطانية الالمانية أصبح وقد فقد بهاءه • وقد كان هتلر يسعى الى احداث الشقاق فى الرأى العام البريطانى اذ كان يرى أنزيادة التسلح سوف تثير المعارضة بين أنصار الالمان ولهذا هاجم (تجار الحروب) البريطانيين

من أمثال تشرشل وايدن ودوف كوبر اعتقادا منه أن هذا يثير عاصفة ضدهم • ولكن كان لهذا أثر عكسى فان الاعضاء المحافظين بمجلس العموم البريطانى تملكهم القلق بسبب التحذيرات الخطيرة التى نادى بها تشرشل اذ غضبوا عندما استقال دوف كوبر ولكنهم نقموا على تدخل هتلر فى شئونهم لانهم كانوا يعتنقون مبدأ عدم التدخل من أحد الجانبين فى شئون الآخر فليس مايمنع هتلر من أن يفعل مايريد فى شرق أوروبا اذ يستطيع تحطيم تشيكوسلوفاكيا أو غزو بلاد اليوكرين ولكن يجب أن يترك رجال السياسة فى بريطانيا وشأنهم • فلقد كان المحافظون فيما مضى يقولون بأن مايوجه الى هتلر من نقد خارج ألمانيا انما يقوى سلطانه فيها والآن فان لهتلر الفضل فى ازدياد محبة الشعب البريطانى لما أسماهم « تجار الحروب » وهى محبة ماكانوا ليحصلوا عليها بمجهودهم ولقد أثار تصرف هتلر الذعر بين رجال السياسة فى بريطانيا الذين كانوا يعملون على زيادة التسلح زيادة فى تأمين أنفسهم وهذا يجعل من الايسر عليهم قبول اتساع نفوذ الالمان فى شرق أوروبا ومع ذلك فان هتلر بدلا من أن يشجع هذه السياسة قضى عليها وهب يبرر مايقوله منتقدوها • غير أن هجماته لم تزعزع من تصميم زعماء بريطانيا على أن ألمانيا يجب استرضاؤها بأى طريقة ولكن كل ماأجيب من مطالب هتلر الاقليمية والقومية لم تلطف من حدته لهذا عاد الانجليز الى نوع من السياسة الماركسية الفجة فعادوا يقولون من جديد أن التقدم المادى هو وحده الذى سوف يهدىء من عنف هتلر فانهالت الوفود التجارية على ألمانيا تقدم العروض من أجل اقامة تعاون اقتصادى مع عروض جذابة من الجانب البريطانى تقول بأن هذه المشروعات سوف تعود بالفائدة على ألمانيا فى مواجهة منافسة أمريكا • ولكن كانت كل زيارة يقوم بها أحد كبار رجال الاعمال الانجليز أو أى ممثل لاتحاد الصناعات تزيد من يقين هتلر بضعف انجلترا ولكنه لم يكن يدرى أنهم انما كانوا يتفهمون ما يكتبه اليساريون عن الاسباب الاقتصادية للحرب •

ولكن كان هناك مايقض مضاجع الانجليز خلاف ذلك • فقبل تسوية ميونيخ كانوا هم الذين يتزعمون سياسة التهدئة بينما كانت فرنسا تسير فى اذيالهم فى شىء من الضجر أما بعد ميونيخ فقد تبدلت الاوضاع اذ كان بونيه يحقد على الاتفاقية الخاصة التى عقدها تشمبرلين مع هتلر وتمنى لو بذه فى هذا السبيل وكان روبنتروب يعتقد أن المجاهرة بالصداقة الفرنسية الالمانية سوف تهز من كيان تصميم بريطانيا على التدخل فى أوروبا • ففى ٦ ديسمبر زار باريس حيث تم التوقيع على تصريح من هذا النوع • ان ذلك التصريح فى حد ذاته لم يكن يعنى الا القليل كتبادل النوايا الطيبة • الاعتراف بالحدود والاستعداد للقيام بمفاوضات اذا مانشأت بعض الصعاب الدولية مستقبلا • وربما كان من بين ماحققه الفرنسيون من نجاح ما أعلنه هتلر بطريقته الملتوية انه متنازل عن المطالبة بالالزاس واللورين • وربما كانت لاتفاقيات ميونيخ التالية بعض مايلفت النظر أما الاشاعات فرددت أكثر من ذلك فقيل انه بمقتضى هذا الاتفاق وافق

وربنتروب على أن لاتصر المانيا على مطالبتها بالمستعمرات بينما يتنازل بونيه من ناحيته عن كل مصلحة لفرنسا فى أوروبا الشرقية ومن المحتمل أن المحادثات كان ينقصها الدقة كما لم تكن تحمل على التشاؤم ولاشك ان بونيه لم يستطع ان يظهر بمظهر المتفانى فى الاخلاص للميثاق الفرنسى السوفيتى • ولكن ماذا قيل ياترى عن محالفة فرنسا مع بولندا ؟ لقد ادعى روبنتروب فيما بعد أن بونيه قد نقض تلك المحالفة ولكن بونيه كذب ذلك الادعاء ويبدو ان المسألة البولندية لم يأت ذكرها فى محادثاتهما ففى ديسمبر ١٩٣٨ لم يبد مايشعر بأن بولندا كانت سببا فى اثارة المتاعب فى العلاقات الفرنسية الالمانية وكان كلا الرجلين يقول بأن بولندا كانت تابعا مخلصا لالمانيا وبأن مشكلة دانزج من الممكن تسويتها فى هدوء دون أن تسبب أزمة أوروبية وعلى أى حال فان هذا كان هو الرأى الذى يقوله البولنديون انفسهم وليس غريبا اذن أن يرى روبنتروب وبونيه نفس الرأى •

ولقد أثار التصريح الفرنسى الالمانى قلق بريطانيا • فالانجليز كانوا يحثون الفرنسيين على التقليل من التزاماتهم فى أوروبا الشرقية ولم يكونوا يودون أن تتنحى فرنسا نهائيا عن مركزها كدولة عظمى • لقد كان هذا مأزقا حرجا • فلو أن المانيا كانت مطلقة اليد فى تحقيق أغراضها فى أوروبا الشرقية دون تدخل فرنسا فربما تصبح من القوة بحيث تصبح سلامة فرنسا عرضة لخطر وشيك• ومن ناحية أخرى لو أن الحكومة الفرنسية قررت أن تترك ألمانيا مطلقة اليد فى شرق أوروبا فقد يترتب على ذلك جر بريطانيا الى حرب تقف فيها الى جانب فرنسا • لذلك لجأت انجلترا الى طريقتها القديمة فى محاولة لاستخدام موسولينى لحمل هتلر على الاعتدال • فعملت على تنفيذ الاتفاقية الانجليزية الايطالية التى عقدت فى ١٦ ابريل مع أن الايطاليين لم يقوموا بتنفيذ الاشتراطات التمهيدية بسحب قواتهم من أسبانيا فكتب هاليفاكس يقول : بالرغم من أننا لانؤمل فى انفصال ايطاليا عن المحور الا اننا نعتقد أن الاتفاقية سوف تزيد من قدرة موسولينى على المناورة وتقلل من مقدار اعتماده على هتلر وبهذا يصبح أكثر حرية فى انتهاج سياسة ايطاليا التقليدية لايجاد توازن بين ألمانيا والدول الغربية ومعنى هذا أن يشجع موسولينى عن طريق التهديد للمطالبة بالمزيد • وقد استجاب موسولينى لهذا فقام بحملة يطالب بأراض فرنسية وتردد صدى ذلك فى ايطاليا للمطالبة بكورسيكا وسافوى ونيس غير أن الفرنسيين لم يكونوا يخشون ايطاليا مهما كان مقدار خوفهم من هتلر فهبوا فى عنف ردا على تحدى موسولينى وهكذا أساء الانجليز الى الفرنسيين دون أن يتمكنوا من استرضاء موسولينى • وفى يناير ١٩٣٩ ذهب تشمبرلين وهاليفاكس الى روما ولكنهما عادا صفر اليدين فلقد كان موسولينى يتوقع أن يحصل على مطالبه على حساب فرنسا ولكنه بدلا من ذلك وجد تشمبرلين يطالب بضمانات بأن هتلر لن يدخل الحرب • عندما شمخ موسولينى بأنفه ورد على ذلك بهجوم على صحافة انجلترا • وهكذا بعد أن كانت

هذه الزيارة لروما يقصد من ورائها بلوغ أقصى مدى لسياسة تشمبرلين الا أنها بدلا من ذلك وضعت حدا لاوهام الايطاليين • وأكثر من هذا ـ وان كان ذلك قد غاب عن بريطانيا ـ دفعت هذه الزيارة بموسولينى الى جانب الالمان اذ أنه بعد الزيارة مباشرة ابلغ الالمان أنه على استعداد أن يبرم معهم حلفا رسميا الا أن هتلر اراد أن يلقنه درسا فتركه ينتظر بعض الوقت •

لقد انتهت المحادثات ببريطانيا الى وضع بلغ فيه القلق مداه وزادت من حدته جهودها المبذولة لاتخاذ الحيطة • وكان هاليفاكس ووزارة الخارجية يعتقدان أن هتلر كان يفكر فى شن هجوم على الدول الغربية كما كانا يتوقعان ان يكون الهجوم على هولندا وقررا ان يعتبرا هذا كمبرر للحرب • كذلك كان يعتقد أن سويسرا معرضة لخطر الهجوم عليها وربما وقع هجوم جوى مفاجيء على انجلترا وهكذا كثرت المخاوف دون أن تستند الى أسباب مادية • فلم يكن هناك أى دليل ان هتلر كان يفكر فى مثل تلك الخطط حتى من بعيد • أما نيفل هندرسون فكان أقرب الى الصواب حين كتب فى ١٨ فبراير يقول : «ان الصورة النهائية التى كونتها فى نفسى تدل على أن هتلر لايفكر فى القيام بأى مغامرات فى الوقت الحالى» فما الذى كان يدفعه للقيام بذلك ؟ ان أوروبا الشرقية كانت تتساقط فى احضانه وكانت كل من المجر ورومانيا ويوجوسلافيا تتسابق لتحظى بعطفه كما تخلت فرنسا عن أوروبا الشرقية وحيل بين روسيا السوفيتية وبين الدول الغربية • أما بولندا فقد بقيت محتفظة بصداقة المانيا بالرغم من حنقها على فشلها فى ايجاد حل لمشكلة دانزج • ان الخطر الوحيد كان يأتى من ناحية تشيكوسلوفاكيا لا لأنها قادرة على انتهاج سياسة خارجية مستقلة أو معادية لالمانيا ولكن ـ كما توقع كل من بنيش وهتلر ـ لانه لم يكن من المستطاع الاحتفاظ بكيان الدولة بعد أن تزعزعت كرامتها وقوتها ولم يكن يقدر هذا الامر قدره الا القليل من رجال الغرب • أما اصدقاء تشيكوسلوفاكيا فقد التزموا الصمت فيما يتعلق بذلك •• لقد كان الغرب ينظر الى تشيكوسلوفاكيا كأمة سعيدة ديمقراطية فكك هتلر أوصالها فى استهتار • وفى الواقع كانت أمة من القوميات خلقها اقدام التشيك وحافظ على بقائها نفوذهم فلما تزعزع هذا النفوذ جاء التفكك فى اعقابه بنفس الصورة التى انهارت بها امبراطورية آل هابسبرج بعد الهزيمة التى لحقت بهم فى الحرب العالمية الاولى •

ان السلوفاك بصورة خاصة لم يعترف لهم ابدا بحق الشريك على قدم المساواة ولم يكن الا القليلون منهم يرغبون فى الذوبان فى ذلك المخلوط التشكوسلوفاكى المصطنع وكانت المطالبة بحكم ذاتى للسلوفاك سببا فى ظهور حركات سرية من التذمر طوال العشرين سنة التى عاشتها تشكوسلوفاكيا ثم ظهرت تلك الحركات على السطح بعد اتفاقية ميونيخ • أما هتلر فكان يشجع المطالبين بالحكم الذاتى من السلوفاك ليثير حفيظة المجر التى كانت تتبعها سلوفاكيا من قبل • انه لم يكن سببا فى خلق تلك الحركة ولكنه استغلها فقط كما استغل من قبل النمسويين الالمان والسوديت الالمان •

ولقد كان يرضيه حكم ذاتي يحصل عليه السلوفاك مع بقائهم داخل نطاق دولة تشيكوسلوفاكيا تدين له بالولاء ولكن السلوفاك لم يكونوا يرتضمون ذلك فما أن تخلصوا من خوفهم القديم من براج حتى بدأوا يثيرون المتاعب • فما أن حل شهر فبراير ١٩٣٩ حتى أخذت أوصال تشيكوسلوفاكيا تتفكك • ومما يذكر أن كلمة تشيكوسلوفاكيا صارت منذ شهر أكتوبر السابق تكتب من مقطعين بعدان كانت تكتب من مقطع واحد• وربما بقيت لحكومة براج بعض صور الاستقلال فظلت تعتبر نفسها من القوة بحيث يخشاها السلوفاك وكان هذا امرا لامفر منه ان كان لتشيكوسلوفاكيا ان تظل على قيد الحياة ففي ٩ مارس قضى على الحكومة الذاتية للسلوفاك وأخذ الجنود التشيك يستعدون للتحرك الى داخل سلوفاكيا • وهنا فاجأت الاحداث هتلر من جديد اذ أطلت عليه تلك الأزمة على حين غرة فهو لم يكن ليسمح للتشيك باستعادة كرامتهم المسلوبة ولكنه من ناحية أخرى كان يرى أنه لو أصر على منع جنود التشيك من عدم دخول سلوفاكيا يدخلها جنود المجر كما حاولوا ان يفعلوا في شهر سبتمبر السابق • وهنا انقلب هتلر على المجر فمادامت جنود التشيك لا تستطيع دخول سلوفاكيا للوقوف في وجهها فان عليه اذن أن يفعل ذلك بنفسه •

سارعت ألمانيا بالاعتراف باستقلال سلوفاكيا فقضت بذلك على تشيكوسلوفاكيا نهائيا ولكن ما هو مصير التشيك الذين تبقوا اذ لم يعدهناك من يتولى زعامتهم فقد استقال بنيش وغادر البلاد على أثر اتفاقية ميونيخ • أما هاشا الذى خلفه فقد كان محاميا عجوزا تنقصه الخبرة السياسية فلم يسعه في ضعفه وذعره الا أن يلجأ لدكتاتور ألمانيا العظيم • وكما فعل شوشنيج من قبله طلب هاشا أن يقابل هتلر فاجيب الى طلبه واستقبل في برلين بما يليق بمقام رئيس دولة ثم طلب اليه أن يوقع على وثيقة تقضى على استقلال بلاده وكانت أى عبارة من الاعتراض يقضى عليها بالتهديد بالهجوم الجوى على براج فى الحال وكان هذا التهديد واحدا من كثير من أمثاله قام بها هتلر اذ أنه اعترف فيما بعد أن المطارات الالمانية كانت في ذلك الحين غارقة فى الضباب ولم يكن فى استطاعة أى طائرة أن تغادر المطار • ولم يكن هاشا فى حاجة الى من يحمله على التوقيع اذ أنه وقع كما طلب منه دون أن يبدى شيئا من النقمة حتى انه استمر خادما أمينا للالمان حتى نهاية الحرب • وفى ٢٥ مارس وضعت بوهيميا تحت الحماية الالمانية واحتل الجنود الالمان أراضيها وقضى هتلر ليلة ١٥ مارس فى براج وكانت الزيارة الوحيدة • وقد بدأ هذا العمل فى نظر العالم كذروة لحملة وضعت خطتها منذ زمن بعيد ولكنه فى الحقيقة كان نتيجة غير متوقعة لتطور الامور فى تشيكوسلوفاكيا وكان هتلر بعمله هذا يقصد مقاومة المجريين أكثر من محاربة التشيك كذلك لم يكن بسط الحماية الالمانية على بوهيميا أمرا مدبرا أو عدائيا اذ أن هتلر الذى كان يقال عنه أنه رجل ثورى قد عاد فى بساطة وبأكثر الطرق تحفظا الى الاسلوب الذى كان متبعا فى القرون السابقة • فبوهيميا كانت فى الماضى دائما جزءا من الامبراطورية الرومانية المقدسة

كما كانت جزءا من الاتحاد الجرمانى بين عامى ١٨١٥ ، ١٨٦٦ ثم ضمت الى النمسا الجرمانية حتى عام ١٩١٨ • فالاستقلال لا التبعيـــة كان هو الامر الجديد فى تاريخ التشيك • ولا شك أن الحماية التى بسطها هتلر على بوهيميا قد جرت معها حكم الطغيان من البوليس السرى الى الجستابو الى معسكرات الاعتقال غير أن هذا لم يكن بأكثر مما كان يحدث فى ألمانيا ذاتها • ولقد كان هذا هو الذى أثار الرأى العام فى بريطانيا • فأعمال هتلر الداخلية لا سياسته الخارجية كانت هى الجريمة الحقيقية التى أطاحت فى النهاية به وبألمانيا • ولكن الامور فى ذلك الوقت لم تكن تبدو على هذه الصورة فقد خطا هتلر خطوته الحاسمة فى حياته عندما احتل براج • وقد فعل ذلك دون خطـــة سابقة ودون أن يعود عليه ذلك بفائدة كبيرة • اذ أنه بدأ يعمل فقط عندما أخـذت الاحداث فعلا تحطم تسوية ميونيخ ولكن كل انسان خارج ألمانيا سيما من صنعوا تلك التسوية كانوا يعتقدون أن هتلر قد قضى على نفسه بنفسه •

وحتى موسولينى كان متذمرا اذ اشتكى لكونت شيانو فى ١٥ مارس قائلا أن كل مرة يحتل هتلر فيها بلدا يبعث اليه برسالة • فأخذ يحلم بتكوين جبهة معـــادية لالمانيا ترتكز على المجر • ويوجوسلافيا ولكنه فى المساء ثاب الى رشده وقال « ليس فى استطاعتنا أن نغير من سياستنا الآن فاننا لسنا داعرون سياسيون » ثم عاد من جديد يبدى ولاءه للمحور أما الفرنسيون فقد تلقوا الصدمة الجديدة دون شكوى فقد سبق لهم أن خضعوا فى شهر سبتمبر السابق ولم يعد فى استطاعتهم أن يعملوا شيئا الآن وقد قال بونيه فى رضى واستسلام : « ان الفجوة التى استجدت بين التشيك والسلوفاك انما تدل على اننا كنا على وشك دخول الحرب فى الخريف الماضى لدعم دولة ليس لها مقومات الحياة » أما فى بريطانيا فكان الصدى أكثر قوة • فحتى ١٥ مارس كان الشعب هناك يحاول أن يصدق أن ميونيخ كانت انتصـــــارا للجانب الاخلاقى لا استسلاما أمام القوة • وبالرغم من مخاوف وزارة الخارجية كان كبار الوزراء يقولون بأن كل شىء يسير على مايرام • ففى ١٠ مارس صرح سير صمويل هور فى دائرتـه الانتخابية أن العالم مقبل على عصر ذهبى فقد انقضى عهد التسلح وان التعاون بين الدول الاوربية العظمى سوف يرفع من مستويات المعيشة الى مدى لم يسبق أن حاولنا الوصول اليه وحتى احتلال هتلر لمدينة براج لم يقلل فى بادىء الامر من تفاؤل السياسيين فقد قال هاليفاكس للسفير الفرنسى : « ان الميزة التى أرى انها عوضتنا هى ان ماحدث انما كان نهاية طبيعية للالتزامات والضمانات المحيرة التى ارتبطنا بها نحن والفرنسيين » وقد قال تشمبرلين فى مجلس العموم البريطانى « ان القضاء على تشيكوسلوفاكيا ربما لم يكن وربما كان فى الامكان تجنبه » ثم فسر ذلك سيرجون سيمون بقوله انه لم يكن فى الامكان الوفاء بضمان من أجل دولة لم يعد لها وجود •

ثم جاء فى أثر ذلك انفجارات فى أعماق الرأى العام مما لايستطيع المؤرخ أن يتتبعها فى عبارات دقيقة فاحتلال براج لم يكن يمثل شيئا جديدا فى سياسة هتلر أو تصرفاته • ولقد انزلق الرئيس هاشا وهو أكثر رضى وبأسرع مما انزلق شوشنيج أو بنيش • غير أن الرأى العام فى بريطانيا هاج أكثر مما هاج عند ضياع النمسا أو عند الاستسلام الذى حدث فى ميونيخ فقد رؤى أن هتلر قد تجاوز حدوده ولم تعد كلماته محل ثقة وربما كانت الآمال التى بولغ فيها بعد ميونيخ هى التى أحدثت رد الفعل هذا • فالناس كانوا يفترضون ـ بالرغم من جميع الدلائل ـ ان ماقيل عن سلام فى أيامنا هذه كان معناه أن لايحدث تغييرفىالاوضاعفى أوروبا •وربماكانهناكرأىـ لم يكن له أساس ـ ان التسلح البريطانى أصبح الآن كافيا ثم ان رجال حزب المحافظين كان يقلقهم ذلك الضمان المحير الذى كانوا يعتبرونه أمرا هاما • وبطريقة لا يمكن تفسيرها أصبح اهتمام الناس موجها الىهؤلاء الذينحذروا من خطورة هتلربعد أن كان لايهتم بهمأحدمن قبل وأصبحالمتنبئونبالشر يعملونفىمختلفالنواحى فالبعضمنأمثال تشرشل وأعداء الالمان من رجال وزارة الخارجية كان يعتبر هتلر أحدث متكلم بلسان العسكرية البروسية • وأخذ آخرون يعزون اليه خططا توسعية جديدة قالوا انهم اكتشفوها من خلال قراءتهم النسخة الاصلية من كتاب (كفاحى) الذى منع هتلر نشره باللغة الانجليزية • وأخذ البعض ـ وأغلبهم من اليساريين ـ يصفون الاشتراكية الوطنية بعبارات ماركسية مثل : « آخر مرحلة من التوسع العدوانى » وكانوا يعتقدون أن هتلر لابد وأن يتبع سياسة عدوانية حتى ينال رضاء الرأسماليين الالمان • ولقد كانت الحركة المعادية للسامية هى الدافع للكثيرين ولكن الصداقة مع التشيك والبولنديين لم تؤثر الا فى القليلين • وكان البعض يريدون « تحرير » ألمانيا وآخرون يريدون لها الهزيمة أما طرق العلاج فكانت مختلفة منها الامن الجماعى والعقوبات الاقتصادية وزيادة تسلح بريطانيا ولم تكن الخلافات ذات أهمية فجميع المتنبئونقالوا بأن هتلر لن يركن الى القناعة ولكنه سوف يسير من نصر الى نصر ولن يوقفه عند حده سوى القوة أو التهديد بالقوة وكانت أصوات هؤلاء مثلها كمثل قطرات الماء التى تتساقط على الصخور اذ مالبثت أن اخترقت القشرة التى كانت تعترضها من عدم التصديق ويبدو أنهم كانوا على حق بينما كان دعاة المسالمة هم المخطئون • ولكن هذا التغير لم يكن نهائيا أو حاسما اذ كان لايزال هناك أمل فى مصالحة هتلر من خلفستار التصميم على مقاومته تماما كما حدث فى الماضى عندما كان هناك تصميم على مقاومته تحت ستار من المسالمة • ولكن منذ ذلك الحين أصبح دعاة المسالمة يقفون موقف الدفاع ومن السهل صرفهم عن عملهم وقلما تصيبهم الدهشة لفشلهم •

لقد تأثر تشمبرلين بهذا التغير فى الرأى وهذه عملية أخرى لايستطيع المؤرخ أن يطلب عنها تفسيرا فربما كان دعاة الحكومة يكشفون عن الحقائق فى المقاعد الخلفية وربما استمع هاليفاكس مرة أخرى لنداء الضمير فى ساعات الليل وربما لم تكن هناك أمور

واضحة المعالم بل مجرد سلسلة من الشكوك والاحقاد هزت كيان ماكان يشعر به تشمبرلين من الثقة فيما مضى • وهكذا صار يعتقد ـ لدوافع لايمكن تحديدها ـ انه لابد وأن ينفعل بصورة أكثر عنفا باحتلال هتلر لمدينة براج • ففي ١٧ مارس استدعى نيفل هندرسون من برلين بدعوى التشاور بينما كان ذلك في الحقيقة للاحتجاج وفي نفس المساء خطب تشمبرلين في برمنجهام حيث تساءل : « هل هذا آخر هجوم يشن على دولة صغيرة أم أن هناك هجمات أخرى سوف تتبعه ؟ وهل هذا العمل هو خطوة في سبيل محاولة تستهدف السيطرة على العالم بالقوة ؟ » ولكنه ظل يبرر تسوية ميونيخ حيث قال انه لم يكن هناك من يستطيع انقاذ تشيكوسلوفاكيا من الغزو والدمار حتى بعد حرب تنتهي بالنصر كما لم يكن من المستطاع اعادة بناء تشيكوسلوفاكيا كما خلفتها معاهدة فرساى • كذلك قال أنه لايزال غير مستعد لربط انجلترا بالتزامات جديدة غير محددة تنفذ في ظروف لايمكن التنبؤ بها • غير أن تشمبرلين انفعل بالنداء الذى نادى به دعاة الحكومة والذى صدر عن ضمير هاليفاكس أو من ضميره هو • فقال انه لن يضحى من أجل السلام بالحريات التى نالها العالم في مئات السنين وصرح بأن أى محاولة للسيطرة على العالم بالقوة لهو أمر يجب أن تعمل الديمقراطيات للحيلولة دون وقوعه • غير أن هذا الانذار ظل أمرا نظريا فمحاولة السيطرة على العالم كانت لاتزال تبدو في نظر تشمبرلين أمرا لايمكن تصديقه على الرغم من التحذير الذى نادى به •

هنا كانت نقطة التحول في السياسة الانجليزية ولكنه لم يكن تحولا مقصودا اذ كان تشمبرلين يبدى تغيرا في التأكيدات لا تغيرا في الاتجاهات ولقد كانت انجلترا فيما مضى تحذر هتلر سرا بينما تمارس سياسة التهدئة علنا أما الآن فان انجلترا تحذر هتلر علنا بينما تقوم بسياسة التهدئـــة سرا • وان كانت تقوم بذلك علنا في بعض الاحيان • ولقد اعترفت انجلترا بالسلطات الالمانية في بوهيميا اذ صرف لها بنك انجلترا ستة ملايين من الجنيهات الاسترلينية بالعملة الذهبية التشيكية وهكذا حدد (هور) موقف الحكومة الانجليزية في ضوء الماضى فقال : « ان الدرس الذى تعلمناه من براج لم يكن يعنى أن محاولات أخرى من أجل دعم السلام لم تكن غير مجدية ولكنه كان يعنى انه بدون قوة تدعم تلك المحاولات لن تكون هناك قيمة دائمة للمفاوضات والاتفاقيات مع هتلر » • وهكذا ظل الهدف الذى ترمى اليه انجلترا هو الوصول الى تسوية عامة مع هتلر فظلت تضع العراقيل في طريقه حتى يكون أكثر ميلا لعقد اتفاق • ان الوزراء الانجليز لم يكونوا يخشون الهزيمة في الحرب وان كانوا طبعا يفزعون من فكرة الحرب في حد ذاتها اذ كانوا يفترضون أن مركز بريطانيا وفرنسا في أمان مطلق من الناحية الدفاعية كذلك كانوا يفترضون انه في حالة اشتباك انجلترا وفرنسا في حرب مع ألمانيا فانهما ستنالان النصر كما كانوا يظنون أن هتلر نفسه يعرف الحقيقة اما ماكانوا يخشونه ولهم في ذلك بعض العذر ـ فهو أن هتلر سوف يبنى سياسته على أن انجلترا وفرنسا

سوف لا تدخلان الحرب وعلى هذا أخـذا يدللان على أنهما لن يفعلا ذلك لهذا بـدىء في ادخال نوع محدود من الخدمة العسكرية الاجبارية فى أواخر شهر ابريل كما قدمت الضمانات للدول التى كان يظن انها مهددة غير أن هذه الاستعدادات لم تكن عمليةوذات أثر كبير فى حالة وقوع حرب عامة وانما كانت تحذيرات يقصد بها تجنب وقوع مثل تلك الحرب • وقد أخذ الكثيرون يشتكون من عدم جدية تلك الاجراءات غير أن هذا كان أمرا مقصودا اذ كان الباب لايزال مفتوحا من أجل المفاوضات وكان الضغط يتوالى على هتلر للدخول فى تلك المفاوضات • أما الحكومة الانجليزية فكانت تسعى جهدها لحفظ التوازن • وكانت كلما زاد عدد التحذيرات زاد معه عدد محاولات الاغراء • أما هتلر فيجب أن يحال بينه وبين الاقدام على الحرب لا أن يستفز لدخولها •

هذا هو الاطار العام للسياسة التى كانت انجلترا تحاول انتهاجها أما من الناحية الواقعية فان انجلترا كانت مدفوعة بتيارات الاحداث دون أن تقوى على التحكم فيها بالدرجة التى كانوا يتصورونها وكما ظهر لهم فيما بعد • فبعد احتلال الالمان لمدينـة براج مباشرة كانت انجلترا تتوقع أن يقدموا على خطوتهم التالية فى مكان ما غير أن انجلترا لم تكن تملك الدليل على ذلك • فالفرنسيون كانوا يظنون أن هتلر قد يعمل فى الحال على مساعدة ايطاليا لتحقيق مطالبها فى شمال افريقيا أما الانجليز فكانوا يظنون أنه سوف يقوم بهجوم مفاجىء على أسطولهم ولهذا ظلت الدولتان تتوقعان أحداثـا جديدة • وقد حدث ماتوقعاه • ففى يوم ١٦ مارس ذهب (تليا) وزير رومانيا المفوض فى لندن الى وزارة الخارجية يبلغها أن بلاده فى خطر محدق • وفى اليوم التالى حضر مسرعا يقول بأن الجنود الالمان قد يدخلون رومانيا فى أى لحظة ولكن تلك المخاوف لم تكن حقيقية اذ نفتها بصـــورة قاطعة الحكومة الرومانية ووزير بريطانيا المفوض فى بوخارست • ان رومانيا كانت فى الحقيقة تنجذب بعنف لتدور فى فلك ألمانيا اقتصاديا فكان التهديد واقعا عليها من خطط ألمانيا التجارية الخارجية لامن جيشها • فالوقوف فى وجه مشروعات شاخت المزدوجة عن طريق الضمانات السياسية كان بمثابة محاولة اصطياد حيوان ضخم بواسطة عدد من كلاب الصـــــيد حيث تبدو المحاولة جميلة فى مظهرها ولكنها غير مجدية•وربماكان تيليا يقوم بمحاولة يقصد من ورائها الحصـــول على قرض من انجلترا عندما نادى بالخطر وربما كانمتأثرا بخطأ انجلترافى فهم الامور • وعلى أى حال فان انجلترا صدقت الانذار ولم تصدق التكذيب وقررت أن تفعل شيئا فى الحال لتظهر اعتراضها على أى تقدم ألمانى جديد • ففى ١٥ مارس كتب تشمبرلين بنفسه مسودة بيان للامن الجماعى طلب من فرنسا وروسيا وبولندا التوقيع عليهوينص البيان على أن تلك الدول سوف تقوم فى الحال بالتشاور مع بعضها البعض فيما يجب اتخاذه من اجراءات للقيام بمقاومة جماعية لاى عمل يترتب عليه تهديد للاســـتقلال السياسى لاى دولة أوربية • وبالرغم من عبارات البيان المبهمة الغامضة فان الاقتراح ربط بالتهديد المزعوم لرومانيا ومن هنا كان اختيار من يراد منهم التوقيع عليه •

لقد وافقت فرنسا على البيان في الحال فهي مقيدة فعلا بضرورة مشاورة انجلترا في كل شيء تقريبا وليس هناك ضرر من اضافة بعض المشاورات الاخرى بل على النقيض اذ أن هذا يخفف عن كاهلها عبء محالفتها مع رومــانيا التى كانت لاتزال قائمة من الناحية النظرية • كذلك قبل الروس البيان الذي يتضمن مبدأ الضمان الجماعى الذى طالما نادوا به غير أنهم كانوا مصممين على أن لايوضعوا فى وضع يضطرهم الى مقاومة الالمان وحدهم • فجبهة السلام يجب أن تكون راسخة الاساس قبل أن ينضموا اليها لهذا أضافوا للبيان شرطا جديدا هو أن توقع عليه فرنسا وبولندا أولا • أما فرنســا فلم تكن عقبة فى هذا السبيل أما (بيك) فكان له حق الرفض وقد استخدمه اذ كان لايزال مصمما على حفظ التوازن بين روسيا وألمانيا ولكن البيان يلزمه بالانحياز الى جانب روسيا ومع ذلك فقد كان على استعداد للتوقيع على بيان مع انجلترا مباشرةاذ أن ذلك سوف يقوى قبضته على دانزج دون أن يثير حفيظة ألمانيا غير أنه كان حريصــا على أنه لايخبر انجلترا أن المفاوضات مع ألمانيا قد اصطدمت بعقبة كؤود بل على العكس حاول أن يفهمها أن مسألة دانزج قد قاربت التسوية • وهنا شعرت انجلترا بحــذر جديد اذ صارت تخشى أن تنحاز بولندا الى جانب ألمانيا بدرجة أكبر كما حدث فى عام ١٩٣٨ فاشتراك بولندا « فىجبهة سلام » كانيبدو للانجليز أمرا حيويا فهى وحدها التى كان فى استطاعتها أن تجعل التهديد بفتح جبهة ثانية حقيقة واقعة وقد عبربونيه عن ذلك بالاتفاق مع هاليفاكس فى ٢١ مارس حيث قال :

« ان اشتراك بولندا ضرورة كبرى فمساعدة روسيا لايمكن أن تكون فعالة الا اذا كانت بولندا متعاونة معنا • فتعاون بولندا يمكن روسيا من تقديم مساعدة كبرى أما اذا لم تتعاون فان مساعدة روسيا سوف تصبح أقل بكثير » •

لقد كان الانجليز يعتقدون أن الجيش الاحمر ضعيفا بينما كانوا يبالغون فى قوة البولنديين العسكرية وان كان ذلك غير مبنى على بحث وكان تشمبرلين يقول عنهم انهم أمة قوية عظيمة • ولا شك أن الانجليز كانوا مرتاحين لفكرة عدم الارتباطبروسيا البلشفية حيث وجدوا بديلا عنها فقد كتب تشمبرلين فى ١٥ مارس يقول « لابد لى من أن أعترف بانعدام ثقتى فى روسيا فاننى لاأثق مطلقا فى مقدرتها على القيام بعمليات هجومية فعالة حتى لو أرادت ذلك • كذلك لاأثق فى الدوافع التى تحفزها للعملفهى تبدو لى منعدمة الصلة بمعتقداتنا عن الحرية ولا تهتم الا بالقبض على ناصية الآخرين » غير أن العوامل الجغرافية هى التى كان لها القول الفصل فبولندا كانت الدولة المتاخمة لحدود ألمانيا أما روسيا فلم تكن •

ان بريطانيا لم تكن تدرى انها بمحالفتها بولندا سوف تضيع روسيا من يدها• وقد كان هاليفاكس يستشعر هذه الناحية بما أوتى من موهبة النظر النــاقب الذى يرى الامور من ناحيتها فقد قال فى ٢٢ مارس : « سوف يكون من سوء الطالع لووجدنا أنفسنا الآن مضطرين للعمل بحيث نعطى الحكومة السوفيتية فكرة اننا ندفع بها الى جانب واحد » ولكن لم يعمل شيء لازالة هذه الفكرة ولم يظن أحد أن هناكضرورة لذلك

اذ كان الانجليز يعتقدون اعتقادا راسخا أن روسيا السوفيتية والمانيا النازية عدوان لايتفقان ولذا لم يكن هناك مايدعو الى دفع ثمن صداقة مع روسيا فموسكو ســوف تستجيب شاكرة لاى ايماءه من بريطانيا فاذا لم تفعل فان ذلك لن يترتب عليه أى ضرر • وسوف يكون وقوف روسيا على الحياد لايقل أهمية عن اشتراكها فى الحرب بل خير من اشتراكها مادامت لاتشكل خطرا على بولندا ورومانيا فجبهة السلام سوف تكون أقوى ساعدا وأكثر استقرارا واحتراما لو بقيت روسيا بعيدة عنها • وعلى أى حال كان من المستطاع دعوتها للاشتراك فيها لو أن الآخرين وافقوا على ذلك سيما بولنــدا •

وفى نفس الوقت جاءت أخبار جديدة مزعجة يفهم منها ان المانيا لاتزال آخذة فى الزحف • وكانت هذه الاخبار عن (ميمل) المدينة التى تقع فى أقصى الركن الشمالى الشرقى لبروسيا الشرقية وبالرغم من أن هذه المدينة تضم سكانا من الالمان مثل دانزج الا انها قد ضمت بطريقة ملتوية الى لتوانيا بعد الحرب العالمية الأولى وكان السكان يتوقون للعودة الى المانيا ولكن هتلر ظل يهدىء من اندفاعهم وربما كان يقصد من وراء ذلك محاولة استخدام لتوانيا كحليف ضد بولندا أما السبب الاكثر احتمالا فهو الالقاء بها الى احضان بولندا كتعويض لها فى حالة قيام تحالف المانى بولندى ولكن احتلال المانيا لمدينة براج أثار ثائرة ســـكان (ميمل) حتى لم يعد فى الامكان تهدئتهم وفى ٢٢ مارس ذهب رئيس وزراء لتوانيا الى برلين حيث وافق على تسليم ميمل الى الالمان فى الحال وفى يوم ٢٣ تم ضمها وبمجرد عودة هتلر من براج قام بزيارة ممتلكاته الجديدة وقد ذهب اليها بطريق البحر وتعتبر هذه الرحلة البحرية واحدة من رحلاته البحرية القليلة ويقال أنه أصيب بدوار البحر وكان هذا سببا فى اثارة حفيظته على وجود الممر البولندى • ويبدو ان ضم ميمل كان ضمن خطة المانية مقصودة بعيدة المدى وان لم يعثر على أثر لتلك الخطة فى الوثائق • وتدل الظواهر ان مسألة ميمل قد ثارت من تلقاء نفسها ولكن على أى حال كان الغرض من الضم — ان كان هناك غرض ما — هو مساومة بولندا فقد تعتبر ميمل بديلا عن دانزج ولكن كان فى المسألة أيضا عنصر من عناصر التحذير فان ماوقع لميمل يمكن أن يقع لدانزج أيضا ولكن هذه النتائج لم تكن موضع اعتبار جدى اذ أن ميمل لم يكن لها دور فعال فى العلاقات الالمانية البولندية فيما بعد •

فى ذلك الوقت أضافت عملية الضم عاملا جديدا من عوامل الاهمية فى السياسة الانجليزية فالاسراع فى خلق جبهة مسالمة كان يبدو أمرا بالغ الاهمية لانجلترا وهنـا اتجهت جميع الانظار — صوب بولندا فاذا أمكن استمالتها أصبحت جبهة السلام وطيدة الاركان أما اذا بقيت بعيدة فان تلك الجبهة قلما يكتب لها البقاء • ولم يدخل فى حساب الانجليز أن بولندا نفسها كانت معرضة لخطر وشيك الوقوع من جانب المانيا بل على العكس كان يظن أنها قد تنحاز الى جانب المانيا سيما اذا عرض عليها الحصول على ميمل • كذلك لم يكن البولنديون يستشعرون الخطر اذ كانوا لايزالون يرون أن ينتهجوا حيال

ألمانيا سياسة مستقلة غير منحازة كما فعلوا خلال أزمة ميونيخ غير أنهم كانوا متذمرين من انشاء هتلر لدولة سلوفاكيا دون الرجوع اليهم ودون أن يعوضـــهم عن ذلك أى مكاسب ٠ وهكذا كانوا يصرون على توكيد وقوفهم على قدم المساواة ٠ وفى ٢١ مارس ذهب (ليبسكي) لمقابلة ريبنتروب واحتج على ماعملته ألمانيا بشأن سلوفاكيا قائلا أن ذلك العمل يعتبر ضربة موجهة الى بولندا ٠ أما روبنتروب فقد شعر بضعف حجته ولكنه كي يحمى نفسه تقدم ببعض الشكاوى هو أيضا فقال أن الجرائد البولندية لا تحسن التصرف وهكذا أخذ يظهر التوتر فى العلاقات الالمانية البولندية ٠ فدانزج يجب أن تعاد الى الرايخ وهذا سوف يربط بولندا بعجلة ألمانيا ثم يقدم عندئذ ضمان ألمـانى بشأن المجر ومعاهدة عدم اعتداء لمدة خمسة وعشرين عاما وسياسة موحدة فيما يتعلق باليوكرين عند ذلك ذهب ليبسكى ليطرح هذا العرض أمام بيك ٠ فالتعاون مع بولندا كان لايزال هو الغرض الذى يهدف اليه الالمان وكانت دانزج مجرد ضمان لذلك ولقد كان هتلر نفسه يرى هذا الرأى ففى ٢٥ مارس أصدر التوجيهات الآتية :

« ان الفوهرر لايرغب فى حل مسألة دانزج بطريق القوة كما أنه لايود أن يدفع بالبولنديين الى أحضان بريطانيا بهذا العمل ٠

أما احتمال احتلال دانزج عسكريا فأمر يمكن التفكير فيه فى حالة واحدة فقط اذا بدا من ليبسكي أن الحكومة البولندية لايمكنها أن تبرر لشعبها التنازل عن دانزج بمحض رغبتها وان سياسة الامر الواقع سوف تجعل الحل أسهل فى نظرهم » ٠

ان هتلر انما كان يهدف الى محالفة بولندا لا الى تدميرها ولكن مسألة دانزج كانت بداية متعبة لايمكن ازاحتها عن الطريق ٠ وكما حـدث قبلا ظل بيك يحتفظ بها فى الطريق ٠ فطالما ظلت مشكلة دانزج قائمة بين بولندا وألمانيا فان فى استطاعته تحاشى العرض المحرج لعقد تحالف مع ألمانيا وهذا فى نظره كفيل بالاحتفاظ باستقلال بولندا ٠

لقد كان بيك مصيبا فى تقديره وان لم يكن ذلك كما يشتهى تماما ففى يوم ٢٦ مارس عاد ليبسكى الى برلين يحمل معه رفضا صريحا بتسليم دانزج دون أن يحمل رفض المفاوضة ٠ وحتى تلك الساعة كان كل شىء يجرى فى سرية دون أن يذكر أى تلميح عن توتر العلاقات بين ألمانيا وبولندا أما الآن فقد انكشف الغطاء عن كل شىء ٠ ولكى يدلل بيك على تصميمه استدعى جنود الاحتياط فى الجيش البولندى ٠ أما هتلر فلكى يخفف من دفع الاحداث كما كان يفترض فانه سمح للصحافة الالمانية أن تكتب لاول مرة على الاقلية الالمانية فى بولندا ٠ ثم انطلقت الاشاعات عن تحركات جنود ألمانيين صوب حدود بولندا بنفس الطريقة التى انطلقت بها الاشاعات عن تحركات جنود الالمان صوب حدود تشيكوسلوفاكيا فى ٢١ مارس ١٩٣٨ ولقد كانت هذه الاشـــاعات الجديدة غير صحيحة ويظهر أن البولنديين هم الذين أطلقوها ٠ وقد شجعهم فى عملهم هذا بعض قادة الجيش الالمانى الذين ادعوا انهم خصوم لهتلر ٠ وقد أخذ هؤلاء القادة «يحذرون »

الحكومة البريطانية ولكن ماذا كانوا يقصدون ؟ هل كانوا يريدون من انجلترا أن تعترض سبيل هتلر مهددة اياه بالحرب ؟ أم هل كانوا يريدون منها أن تخدعه ليبتعد عن الحرب بأن تتنازل له بولندا عن دانزج ؟ ربما كانوا يهدفون الى كلا الامرين مع ميل الى تحقيق الغرض الثانى • وعلى أى حال فان هؤلاء القادة العسكريون لقنوا تلك الاخبار لمراسل جريدة الديلى كرونيكل الانجليزية الذى كان يجرى ابعاده عن ألمانيا وفى يوم ٢٩ مارس أبلغ هو التحذير الى وزارة الخارجية فوجد آذانا صاغية • فبعد احتلال براج والتهديد المزعوم لرومانيا كان الانجليز على استعداد لتصديق أى شىء • فهم لم يكونوا يهتمون بدانزج بل كانوا يقولون أن بولندا نفسها فى خطر محدق وهى على وشك الوضوخ • حقيقة انه لم يصل تحذير من السفير البريطانى فى برلين ولكن وزارة الخارجية قدسبق أن وصلتها منه من أنباء مضللة أو هكذا كان اعتقادها ولهذا رأت الآن أن تفضل أنباء الصحفيين لهذا كان لابد من القيام بعمل سريع اذا أريد شد أزر البولنديين وانقاذ « جبهة السلام » •

وفى ٣٠ مارس كتب تشمبرلين بيده مسودة توكيدات قدمت الى الحكومة البولندية قال فيها :

« فى حالة القيام بأى عمل يكون فيه تهديد واضح لاستقلالهم بحيث تجد الحكومة البولندية نفسها مضطرة لمقاومته بقواتها الوطنية فان حكومة جلالة الملك والحكومة الفرنسية سوف تقدمان لها كل عون فى استطاعتهما » •

فى نفس ذلك اليوم كان بيك يجرى محادثات مع السفير البريطانى عن كيفية تنفيذ الاقتراح المقدم منه قبل ذلك بأسبوع عن اصدار تصريح عام — عندما وصلت رسالة تلغرافية من لندن • وقد قرأ السفير توكيدات تشمبرلين فوافق عليها بيك « فى فترة لاتتعدى مابين نفضتين للرماد من سيجارته » فى تلك الفترة القصيرة تقرر أن ينطلق الجنود البريطانيون ليموتوا من أجل دانزج • وفى تلك الفترة القصيرة وقعت بولندا على وثيقة فنائها بعد أن خلقت فى عام ١٩١٩ وظلت تتوهم انها دولة عظمى • لم تكن توكيدات هتلر مرتبطة بأى شروط اذ كان على البولنديين وحدهم أن يحكموا على الظروف التى يجب أن تطبق فيها ولم يعد البريطانيون يستطيعون الضغط من أجل التنازل عن دانزج كما لم يعودوا يستطيعون دفع البولنديين للتعاون مع روسيا السوفيتية • فألمانيا وروسيا أصبح ينظر اليهما فى الغرب كدولتين خطرتين تحكمهما حكومتين دكتاتوريتين لاتعرفان الرحمة فى أساليبهما ومع ذلك أصبح السلام منذ تلك اللحظة متوقفا على افتراض أن هتلر وستالين سوف يكونان أكثر تعقلا وحذرا مما كان تشمبرلين ، وأن هتلر سوف يظل يقبل الاوضاع فى دانزج وهى الاوضاع التى كان يعتبرها معظم الانجليز أوضاعا لاتطاق وأن ستالين سيصبح على استعداد للتعاون بشروط لاتحقق له المساواة ، ولقد كان احتمال تنفيذ هذه الافتراضات بعيدا •

كان هناك افتراض آخر فى سياسة بريطانيا وهو أن فرنسا سوف تسير متعلقة بأذيال انجلترا فى استسلام الى أى مكان تقودها اليه • لقد بلغت توكيدات ٣٠ مارس الى بيك باسم فرنسا واسم انجلترا على السواء قبل أن تستشار فرنسا ولم يكن يسع فرنسا الا الموافقة وان كانت لاحظت فى شىء من المرارة أن بولندا غير معرضة لخطر

قريب وكان لهم الحق فى الاستياء • ان الانجليز لم تكن لهم الوســـائل العملية التى تمكنهم من الوفاء بتوكيداتهم فلم يكن تصريحهم الا مجرد كلمات لو ترجمت الى عبارات عملية فانها لم تكن تعنى سوى وعد من بريطانيا بأن فرنسا لن تتخلى عن محالفتها مع بولندا كما تخلت من قبل عن محالفتها مع تشيكوسلوفاكيا • وبالرغم من هذا فقد كان لدى الفرنسيين معلومات وثيقة جعلتهم يشكون فى القيمة الحربية للجيش البولندى كما لم تكن لهم التزامات أدبية فيمـــا يتعلق ببولندا بعد الدور الذى لعبته ضـــد تشيكوسلوفاكيا ولقد قضى على هذه المسألة أيضا فى الفترة التى نفض فيها (بيك) رماد سيجارته • أما فى سبتمبر ١٩٣٩ فقد كان على فرنسا أن تحارب من أجل خيال عظمتها السابقة بعد أن ضحت بمادة تلك العظمة فى ميونيخ قبل ذلك بعام •

ماكاد الانجليز يتعهدون بتلك الالتزامات حتى تبينوا الثغرات التى فيها فلم تكن هناك اشتراطات تقول بأن البولنديين يجب أن يتصرفوا بحكمة فيما يتعلق بدانزج كما لم يكن هناك تعهد من بولندا بتقديم العون الى رومانيا كما لم يكن هناك رجاء فى تعاون بولندا مع روسيا السوفيتية وقد حاول ــ الانجليز سد تلك الثغوات عندما ذهب بيك الى لندن فى الايام الاولى من شهر ابريل ولكن خاب رجاؤهم فلقد وقف بيك صـــامدا فى وجه هتلر دون وجل ولذا لم يكن هناك أمل فى أن يتزعزع أمام المطالب الرقيقة المقدمة من تشمبرلين وهاليفاكس • ولقد كان بيك فى غطرسته المعتادة باعتبار بلده دولة عظمى « على استعداد أن يحيل الضمان البريطانى ذا الجانب الواحد الى ميثاق للتعاون المتبادل وهذا فى رأيه » هو الاساس الوحيد الذى تقبله دولة تحترم نفسها •

أما فيما عدا ذلك فكان عنيدا على طول الخط ولكنه لم يلحظ أى دليل على خطورة أى عمل حربى تقوم به ألمانيا ولا انه لم تكن هناك مفاوضات تدور بشأن دانزج ، ولا أن الحكومة الالمانية نازعت بولندا حقوقها فى دانزج وانها أكدتها منذ عهد قريب ولا أنه لو أمكن تصديق ماتقوله ألمانيا نفسها لأمكن القول بأن أخطر المشاكل انما كانت مشكلة المستعمرات • وعلى هذا فان بيك بتصرفاته كان يكاد يقول أن بولندا انما كانت تقدم خدمة جليلة لبريطانيا بموافقتها على التحالف معها ولكنه أصر على أن يكون الحلف بين الدولتين حلفا شاملا وبهذا اختفى من الوجود أمر جبهة السلام والضمان الجماعى •ولقد كان من الخطورة توسيع الحلف حتى يشمل رومانيا فان هذا كفيل بأن يدفع بالمجر الى أحضان ألمانيا كما أنه فى حالة نشوب حرب بين بولندا وألمانيا فان المساعدة التى يمكن أن تتلقاها بولندا من رومانيا سوف تكون عديمة القيمة ولقد بلغ من تشدد بيك أن عارض فى أى ارتباط مع روسيا السوفيتية فقد كان هناك أمران لاتستطيع بولندا عملهما وهما جعل سياستها مرتبطة ببرلين أو بموسكو •

فأى ميثاق للتعاون المتبادل يعقد بين بولندا وروسيا السوفيتية سوف يترتب عليه فى الحال رد فعل عدوانى من ناحية برلين وقد يتسبب ذلك فى التعجيل بنشوب الحرب . فلانجلترا أن تفاوض روسيا السوفيتية ان أرادت بل ان فى استطاعتها الارتباط بالتزامات نحوها الا أن تلك الالتزامات لن تمتد بأى حال الى الالتزامات التى تعهدت بها بولندا .

ولقد تقبل تشمبرلين وهاليفاكس هذا الدور الذى مثل فيه بيك دور الاستاذ دون أى احتجاج تقريبا كما أن أقوال بيك لم تقابل بمثل النقد والتشكك اللذين قوبلت بهما تصريحات دلادييه من قبل كما لم تعمل أى محاولة لاختبار قوة بولندا أو للعمل على تسوية المشاكل فقد كان التحذير الخاطىء الذى أبلغ الى الحكومة البريطانية فى ٣٠ مارس سببا فى اندفاعها لتقديم الضمان لبولندا وهكذا أصبح بيك فى مركز يستطيع منه أن يملى شروطه وقد استغل ذلك الموقف الى أقصى حد . ان بولندا لم تشترك فى « جبهة السلام » ولم يكن هناك وعد من بولندا لتقديم المساعدة لرومانيا كما أن بولندا رفضت أى تقرب من روسيا السوفيتية أما انجلترا فلم يسمح لها بأى منفذ تستطيع منه التوسط فى مشكلة دانزج فقد كان التحالف البريطانى البولندى عملا منفردا لايشترك فيه سوى فرنسا وليس له معنى عام . أن بيك لم يكن يصدق أن بولندا مهددة من ألمانيا وانما كان يرمى الى تقوية مركزه أثناء المساومة بشأن دانزج . أما الانجليز فلم يكن يهمهم أمر دانزج وان كان هناك اهتمام بأمرها فانما هو العطف على قضية الالمان . ولقد كانت انجلترا تعتزم أن تقوم فقط بحركة مبهمة كريمة لتقلل من سرعة الزحف الالمانى . ان الثغرة الصغيرة الوحيدة التى تركت ليطل منها الانجليز هى أن التحالف البريطانى البولندى كان قد ظل مؤقتا الى أن توضع الصيغة الرسمية للاتفاقية وكان ذلك رغبة فى اتاحة الفرصة للدول الاخرى للاشتراك فيه بما فى ذلك روسيا . ولكن تلك الثغرة لم يكن لها وجود فعلى فان فى استطاعة بيك أن يبقيها مغلقة اذا أراد وهكذا وقعت الحكومة البريطانية فى الفخ بضمانها لبولندا وأكثر من ذلك بصلاتها السابقة مع تشيكوسلوفاكيا التى فرضت عليها انجلترا اجابة مطالب ألمانيا والتى فشلت فى أن تحترم الضمانات التى قدمتها لها . فانجلترا لاتستطيع أن تتخلى عن وعدها اذا أرادت أن تحتفظ بكرامتها أمام العالم وأمام شعبها ، وربما كانت فرص كسب الحرب هنا أقل مما كانت وقتئذ كما كانت قضية الالمان بشأن دانزج أقوى منها بشأن السوديت . ولكن لم تكن هناك أهمية لواحد من كل هذه الاعتبارات فقد ألزمت انجلترا نفسها بالمقاومة أما بيك فأخذ يحصد ما غرسه بنيش من قبل .

الفصل العاشر

حرب الاعصاب

كان الحلف البريطاني البولندى حدث ثورى في الشئون الدولية وقد تحملت بريطانيا مسئولية أول التزام لها في وقت السلم حيال دولة أوروبية قبل ذلك بثلاث سنوات فقط عندما عقدت محالفتها مع فرنسا • وفى ذلك الوقت أخذ الانجليز يؤكدون ان تلك المحالفة يجب أن تكون فريدة وقاصرة تماما على الاغراض الدفاعية فى غرب أوروبا أما الآن فقد ألقوا بأنفسهم فى خضم محالفة مع دولة تقع بعيدا فى شرق أوروبا وهى دولة كان يقال عنها حتى الامس القريب أنها لاتساوى دم رجل انجليزى واحد • وقد أخذت سياسة الدول الاخرى تدور حول محور هذه الحقيقة الجديدة المفزعة فالالمان أخذوا يحاولون القضاء على المحالفة البريطانية البولندية وحاول الروس استغلالها • أما الفرنسيون والايطاليون فكانوا يخشون على أنفسهم من مضمونها وحاولوا أن يجدوا لانفسهم مخرجا ولكن دون جدوى وهكذا أخذت أوروبا تغلى بالنشاط الدبلوماسى الذى كانت لندن مركزا له لقد جعلت انجلترا من دانزج المشكلة الحاسمة لعام ١٩٣٩ وذلك دون قصد منها كما جعلت من مشكلة السوديت قبل ذلك المشكلة الحاسمة لعام ١٩٣٨ غير أنها فى الحالة الاخيرة كانت تقصد ذلك • ووجه الاختلاف بين المشكلتين ان مشكلة السوديت كانت تتعلق بالتشيك والفرنسيين وكان الضغط واقعا على الدولتين من أجل الرضوخ لبعض المطالب والا واجهتا خطر الحرب أما مشكلة ١٩٣٩ فقد كان الانجليز أنفسهم هم الذين واجهوها وكان أمامهم أحد أمرين اما المقاومة واما المصالحة وقد اختار الوزراء الانجليز الحل الاخير اذ كانوا لا يزالون يعتبرون رجال السلم الذين هللوا لتسوية ميونيخ كما كانوا يبغضون فكرة الحرب ويحاولون ايجاد مخرج عن طريق المفاوضات • وبالاضافة الى ذلك كان اضطراد زيادة الضغط اليابانى فى الشرق الاقصى يزيد من رغبة الانجليز في طرح مشاكل أوروبا خلف ظهورهم كذلك كان تصلبهم فى مشكلة دانزج مما أضعف مركزهم لحد كبير •

ان دانزج كانت أكثر المطالب الالمانية عدالة فهى مدينة كل سكانها من الالمان كما كانوا شديدى الرغبة فى العودة الى الرايخ بينما كان هتلر يحاول أن يكبح جماحهم بمشقة وكان حل هذه المشكلة غاية فى البساطة فهاليفاكس مافتىء يردد اقتراحه بضرورة اعادة دانزج الى الدولة الالمانية مع ضمانات للتجارة البولندية •

لقد كان هتلر يريد ذلك هو أيضا فلم يكن القضاء على بولندا يدخل ضمن أهدافه الاساسية بل على العكس فانه كان يريد الوصول الى حل لمشكلة دانزج حتى تبقى ألمانيا وبولندا على صلات طيبة. فهل كان تصلب البولنديين اذن هو الامر الوحيد الذى حال بين أوروبا وبين السلام. ليست هذه هى الحقيقة. فربما كان فى الامكان حل مشكلة دانزج من قبل دون التعرض لاى اضطراب فى العلاقات الدولية أما الآن فقد أصبحت رمزا لاستقلال بولندا بل ولاستقلال انجلترا كذلك بعد أن عقد التحالف البريطانى البولندى.

أما هتلر فانه لم يعد يرغب فى مجرد تحقيق رغبات الالمان القومية أو ارضاء سكان دانزج بل أخذ يهدف الى الظهور بمظهر من يعرض ارادته على بريطانيا وعلى بولندا بينما كانت هاتان الدولتان من جانبهما ترفضان هذه الظاهرة. ولقد كانت جميع الاحزاب تريد الوصول الى تسوية عن طريق المفاوضات على أن يكون ذلك فقط بعد احراز النصر فى حرب الاعصاب. ولكن هناك طبعا تفسير غير هذا فان بعض الاحزاب أو جميعها ربما كانت تسير متعمدة فى طريق الحرب أما فى بولندا فلم يكن هناك انسان يفكر فى ذلك. وهناك قليلون حتى فى ألمانيا ذاتها يقولون بأن بريطانيا كانت تسعى الى تطويق ألمانيا حتى تفرض عليها من جديد عبودية معاهدة فرساى ومع ذلك يعتقد الكثيرون أن هتلر كان (أتيلا) العصر الحديث يحب التخريب لذاته ولهذا كان تواقا للحرب دون أن يفكر فى سياسة مرسومة. ومثل هذه المعتقدات الراسخة لا تقبل الجدل فلقد كان هتلر رجلا عجيبا وقد يكون هؤلاء الناس على حق أما سياسته فمن الممكن تفسيرها بمقتضى حكم العقل وهذا هو مايرتكز عليه التاريخ. أما الهروب الى غير المعقول فلاشك أنه أسهل. ان مسئولية نشوب الحرب يمكن أن تلقى على رغبة هتلر فى التخريب لذاته بدلا من أن تلقى على عاتق أخطاء وعيوب ساسة أوروبا وقد شاركتهم فيها شعوبهم. ومع ذلك فان أخطاء الناس هى عادة التى تشكل التاريخ أكثر مما تشكله شرورهم ومع ذلك فان هذه هى عقيدة تستحق الاعتبار ولو كعمل أكاديمى ولاشك أن عادات هتلر وطبيعته قد لعبت دورا كبيرا اذ كان التهديد أسهل عليه من المصالحة وليس هذا معناه انه كان يتطلع الى السيطرة على أوروبا أو يتعمد التخطيط لها وهى السيطرة التى حققها فى عام ١٩٤٢. ان كل رجال الحكم يتطلعون الى الكسب وقد يفاجأون غالبا بضخامة مايحصلون عليه من مكاسب.

وقد أمكن الوصول الى أسباب عقلية تفسر تعمد اندفاع ألمانيا نحو الحرب فى عام ١٩٣٩ وأحد هذه الاسباب وهو سبب اقتصادى عبارة عن عقيدة أخرى من النوع الماركسى الفج فى هذه المرة. فيقال أن النهضة الصناعية قد وضعت فى مواجهة ألمانيا أزمة ازدياد الانتاج عن الحد المطلوب ولما رأت مافرضته الدول الاخرى أمامها من الحواجز الجمركية لم تر أمامها الا السعى للحصول على أسواق جديدة أو الانفجار. غير أن هذه الفكرة لايقوم عليها دليل كبير فمشكلة ألمانيا كانت تضخم النقد لازيادة الانتاج عن الحد كما قال شاخت عندما استقال فى عام ١٩٣٨ فقد كانت هناك أوراق مالية أكثر مما

يجب، ومالا يكفي من القوة الانتاجية لاستغراقها • فالقوة الانتاجية كانت تدفع دفعا ولم تكن تختنق بتجاوزها الحدود المقررة • فلما جاءت الحرب لم تأت الفتوحات الالمانية بأسواق جديدة بل استغلت استغلالا كبيرا للانتاج الحربي • ولقد كانت كل دولة تسير في فلك ألمانيا فيما عدا المجر تمتلك رصيدا مالياضخما في برلين عند نهاية الحرب ومعنى هذا أن الالمان حصلوا على الكثير من المال دون أن يصدروا الا القليل من البضائع ومع كل ذلك فان انتاج الاسلحة في ألمانيا قد انتقص في عام ١٩٤٠ ثم في ١٩٤١ حيث كان العبء كبيرا ومن هذا نرى أن الرأى الاقتصادى كان ضد الحرب وليس في جانبه وعلى أحسن تقدير فان الحجج كانت تقضي على نفسها بنفسها فألمانيا كانت في حاجة الى مغانم الحرب لا لشيء الا لكي تزيد من امكانيات الانتصار •

ان التسلح الالماني في حد ذاته يعتبر السبب الثاني الذى ربما دفع بألمانيا نحو الحرب فألمانيا تفوقت على سواها من الدول العظمى في ميدان التسلح ولكن هذا التفوق كان سوف ينتهي بالتدريج وقد كان هتلر نفســـه يقول هـــذا ولكن قاله فقط في صيف ١٩٣٩ عندما لم يكن هناك مناص من الحرب • كذلك لم يكن قوله هذا أكثر جدية من قوله انه كان للحرب ان تنتهي حتى يكرس مجهوده لاعمال البناء الفني وقد سبق له أن أكد ـ وكان أكثر صدقا ـ ان التفوق الالماني سوف يبلغ الذروة بين عامي ١٩٤٣ ، ١٩٤٥ وكانت تلك الارقام كغيرها من الارقام تعنى في الحقيقة : هذا العام والعام المقبل، في وقت ما ••• ، أما القادة العسكريون الالمان ممن هم أقدر على اصدار حكم صحيح فكانوا باستمرار يعارضون في دخول الحرب في عام ١٩٣٩ لاسباب فنية وكان أكثرهم خبرة اكثرهم معارضة غير أن هتلر لم يكن ينكر مايقولون ولكنه كان يرفضه بدعوى انه خارج عن الموضوع فقد كان يعتزم أن يبلغ النجاح دون حرب أو على الاكثر بحرب اسمية يصعب التفريق بينها وبين الحرب الدبلوماسية فهو لم يكن يعتزم خوض غمار حرب كبرى ولهذا لم يكن يهمه أن تكون ألمانيا مستعدة لمثل تلك الحرب فهو قد تعمد استبعاد فكرة « التسلح في عمق » التي كان ينادى بها مستشاروه الفنيون اذ لم يكن راغبا في الاستعداد لحرب طويلة الامد ضد الدول العظمى لهذا ارتضى فكرة « التسلح في اتساع » فيكون له جيش يملأ الخطوط الامامية دون أن يكون له احتياط وبهـذا يصلح فقط للقيام بضربات سريعة وطبقا للخطة التي وضعها هتلر أعد ألمانيا لتنتصر في حرب الاعصاب وهي الحرب التي كان يفهمها ويحبها لا لتغزو أوروبا • ولقد كانت بريطانيا وفرنسا في مأمن من الناحية الدفاعية المحضة • وكلما مرت السنون كانتا تزدادان أمنا ولكن ألمانيا سوف تبقى لها ميزة القدرة على توجيه ضربة ســـريعة فمرور الزمن لن يترتب عليه أي ضرر بل قد يعود بالنفع الكثير من الناحية الدبلوماسية واننا عندما نفكر في مسألة تسلح ألمانيا فاننا نتحاشى النواحي الغامضة من نفسية هتلر ونجد جوابه في عالم الحقائق والجواب واضح • فالحالة التي كان عليها تسلح ألمانيا في

عام ١٩٣٩ تدل دلالة قاطعة أن هتلر لم يكن يفكر في حرب عامة بل لربما لم يكن يعتزم الدخول في حرب على الاطلاق . بقى هناك سبب أعمق قد تكون المانيا سعت الى الحرب من أجله في عام ١٩٣٩ فالميزان العالمى كان آخذا في الميل لغير صالح المانيا لا من ناحية مستوى التسلح القريب بقدر ماكان ذلك من ناحية احتياطى القوى الاقتصادية فالمانيا كانت تتفوق على كل من انجلترا وفرنسا من الناحية الاقتصادية بل قد تتفوق قليلا عليهما مجتمعتين . وكانت بريطانيا لاتزال في مصاف الدول العظمى بينما كانت فرنسا تشرف على الحافة وقد تنحدر الى مصاف دول الدرجة الثانية . وهذا سوف يجعل الميزان يميل باستمرار لصالح المانيا أما الصورة فكانت تختلف عن ذلك اذا ماادخلنا بقية العالم في اعتبارنا . فالولايات المتحدة كان لها من الموارد الاقتصادية ما يجعلها ترجح الدول الثلاث مجتمعة وكان هذا التفوق آخذا في الزيادة بمرور الزمن وربما كان هتلر أقرب الى الصواب لو أنه حاول أن يوحد أوروبا ضد الخطر الامريكى ولكنه لم يفعل ذلك . ولكن لسبب لانعرفه نجد أنه لم يهتم اهتماما جديا بالولايات المتحدة سواء من الناحية الاقتصادية أو من الناحية السياسية وربما كان ذلك جهلا مقصودا من رجل نمسوى في بقعة محصورة من الارض فلقد كان يظن أن الولايات المتحدة قد افسدتها الديمقراطية كما أفسدت دول الغرب وزاد من كراهيته لها ماكان ينادي به روزفلت من المبادىء الاخلاقية اذ لم يكن من المعقول في نظره ان المناداة بتلك المبادىء يمكن أن تترجم الى قوة مادية ولم يخطر بباله أنه قد عرض المانيا لعدو خطير عندما أعلن الحرب على الولايات المتحدة في ديسمبر ١٩٤١ .

ومن ناحية أخرى كان التقدم الاقتصادى في روسيا السوفيتية هو الشغل الشاغل لهتلر فقد كان يسبب له الفزع اذ أنه خلال السنوات العشر من ١٩٢٩ ، ١٩٣٩ بينما ازداد معدل الانتاج الصناعى في المانيا بنسبة ٢٧٪ وفى بريطانيا بنسبة ١٧٪ نجده في روسيا قد ازداد بنسبة ٤٠٠٪ وكانت تلك الزيدة مجرد بداية ففى ١٩٣٨ كانت روسيا تعتبر الثانية بين دول العالم من ناحية القوة الصناعية اذ تأتى بعد الولايات المتحدة فقط وكان طريق التقدم أمامها لايزال طويلا فسكانها كانوا لايزالون فقراء وكانت مواردها لم تكد تمس أما المانيا فلم يعد أمامها الكثير من الوقت كانت تريد أن تتجنب تفوق غيرها عليها كما أنه لم يعد لديها الا أقل القليل من الزمن ان كانت تأمل في الاستيلاء على بلاد (اليوكرين) الروسية . وهذا السبب ربما كان معقولا ليجعل هتلر يشن حربا على روسيا السوفيتية . ولكنه مع أنه كان كثير التحدث عن مثل تلك الحرب الا أنه لم يخطط من أجلها فالتسلح الالمانى لم يكن مصمما بحيث يصلح لذلك فتسلح هتلر « في اتساع » لم يكن يقصد به الا تعزيز حرب الاعصاب الدبلوماسية . وحتى التسلح (في عمق) الذى كان يريده قادة الجيش انما كان يصلح لاعداء المانيا من أجل حرب مرهقة طويلة الامد على الجبهة الغربية كما حدث في الحرب العالمية الاولى . وقد وجد الالمان انفسهم مضطرين أن يعملوا جاهدين لارتجال الوسائل عندما شنوا

الحرب على روسيا فى عام ١٩٤١ ففشلوا فى تحقيق نصر سريع حاسم عليها وكان أهم سبب لذلك هو انهم أهملوا اعداد وسائل النقل لحرب من هذا النوع • وأخيرا يصعب على الانسان أن يقول ما اذا كان هتلر قد اتخذ قرار الهجوم على روسيا بصورة جدية أو أنه كان يعمل تحت تأثير وهم خلاب أملا فى أن يخدر أعصاب الساسة الغربيين • فلو أنه كان جادا لكانت حرب عام ١٩٣٩ ليست موجهة ضد روسيا ولكن ضد الدول الغربية بينما تكاد ألمانيا أن تعقد محالفة مع روسيا وهذا يزيد أسباب الحرب غموضا أو بالأحرى فانه يرجح التفسير البسيط الذى يقول بأن حرب ١٩٣٩ لم تكن متعمدة بل شبت خطأ نتيجة لاخطاء دبلوماسية من كلا الجانبين •

ان هتلر لم يساهم الا بالقليل فى الاعمال الدبلوماسية التى جرت مابين ابريل واغسطس ١٩٣٩ وكما كان يفعل من قبل كان يكتفى بالاستعداد والانتظار وهو على ثقة من أن العقبات التى أمامه سوف تنزاح بطريقة ما فقد سبق له أن واجه جيشا تشيكيا قويا وحلفا بين فرنسا وتشكوسلوفاكيا يبدو قويا فى ظاهره غير أن فرنسا مالبثت أن استضعفت فى النهاية وكذلك التشيك ولذا كان يؤمل أن يحدث هذا فى بولندا فقد قال عن ساسة أوروبا الغربية «ان خصومنا مخلوقات ضعيفة عبارة عن ديدان صغيرة فقد خبرتهم فى ميونيخ » وكان يعلم أنهم ينقادون الى حيث تسوقهم بريطانيا بالرغم من محاولة تلافى الحرب أما فى هذه المرة فقد كانت بريطانيا هى التى سوف تقرر بصورة مباشرة وتوقع أن يقرر الساسة استجابة مطالبه فهل كان يتوقع أيضا ان يستسلم البولنديون دون حرب ؟ ان هذا سؤال تصعب الاجابة عليه • وفى ٣ ابريل طلب من القوات المسلحة ان تقف على قدم الاستعداد لمهاجمة بولندا فى أى وقت بعد أول سبتمبر مع التأكيد بأن هذا لن يقع الا فى حالة عزلة بولندا وهو تأكيد كرره هتلر فى ٢٣ مايو بطريقة أقرب الى العنف • غير أن ذلك الاستعداد كان أمرا ضروريا سواء أكان هتلر يعتزم شق طريقه بالحرب أو بالتهديد • لم يقل لنا أحد عن نواياه الحقيقية وربما كان هو نفسه لم يقرر شيئا اذ أن حرب الاعصاب كانت كافية وهنا أفصح هتلر عن تحديه • ففى ٢٣ ابريل نقض ميثاق عدم الاعتداء مع بولندا المبرم فى ٢٨ ابريل وكذلك الاتفاقية البحرية البريطانية الالمانية التى عقدت فى ١٩٣٥ • وفى نفس اليوم ألقى خطابا فى الرايخستاغ فذكر عروضه التى عرضها على بولندا واستنكر الاستفزاز البولندى فالالمان كانوا يرغبون فى تسوية مشكلة دانزج عن طريق المفاوضات الحرة أما البولنديون فأجابوا بأنهم يعتمدون على القوة • ولقد كان هتلر على استعداد لعقد اتفاقيات جديدة ولكن بشرط أن تغير بولندا موقفها بمعنى أن تسلم بوجهة نظره بشأن دانزج وأن تتخلى عن محالفتها مع بريطانيا • وكان هتلر يتحدث عن بريطانيا بلهجات مختلفة فكان أحيانا يمتدح الامبراطورية البريطانية ويقول عنها انها « عامل عظيم القيمة من أجل الحياة الثقافية والاقتصادية للجنس البشرى أجمع » ويعارض كل فكرة تهدف

الى تحطيمها » لأن مثل تلك الافكار ليست الا نتيجة لطغيان روح التدمير فى الانسان » ثم نراه يتطلع فى شوق الى عقد محالفة جديدة مع بريطانيا عندما تئوب الى رشدها • وهنا كان الثمن الذى يطلبه أيضا هو التسليم له بمطالبه فى لندن ونقض المحالفة مع بولندا • وبعد أن عبر عن هذه الآراء التزم الصمت وظل بعيدا عن متناول السفراء وكذلك كان روبنتروب فلم تعد هناك مبادلات دبلوماسية مع بولندا قبل نشوب الحرب وكذلك مع بريطانيا بصورة مباشرة حتى منتصف أغسطس •

وهكذا أصبح مفتاح الامور فى يد بريطانيـــا أو بالاحرى كان لابد للانجليز أن يبتوا فى الامر بمقتضى تحالفهم مع بولندا ولم يكن فى استطاعتهم التهرب من ذلك الموقف حتى لو أرادوا • ولم يقتصر الامر على وقوف بريطانيا موقف السجين أمام الرأى العام فى انجلترا بل كانت تعلم أنها لو تخلت عن موقفها فانها انما تعود من جديد الى المتاعب التى كانت فيها من قبل • ولقد كانت انجلترا على استعداد ــ بل شديدة الرغبة ــ للتساهل فى مشكلة دانزج انما بشرط أن يخلد هتلر للسلام ولكن هتلر لم يكن يرضيه الا الاستيلاء على دانزج دون شرط ومع كل ذلك رفض البولنديون أن يتزحزحوا عن موقفهم خطوة واحدة • وقد اكتشفت بريطانيا ــ وان كان ذلك متأخرا ــ أن بيك كان « أقل من أن يكون صريحا » فيما يتعلق بدانزج فقد صور للانجليز أن الموقف لم يكن متحرجا بينما كان هتلر فى الواقع يلح فى ضرورة اجابة مطالبه • فقد استخدم الانجليز ذلك ذريعة ليطلبوا من بيك أن يمدهم بالمعلومات بدرجة أكبر فى المستقبل ثم لفتوا نظره أن الضمان سوف يوضع موضع التنفيذ فى حالة واحدة فقط وهى اذا قررت الحكومة البولندية المقاومة فى حالة ما يتعرض استقلال بولندا للخطر بصورة ظاهرة • ولقد كان فى هذا تلميح فى شىء من الحيطة أن بريطانيا لم تكن ملزمة بالمحافظة على الوضع الراهن فى دانزج • أما بيك فلم يبد شيئا من الندم لانه لن يوجد أى سبب يبرر الحرب فيما يتعلق بمسألة دانزج ما لم يلجأ الالمان لوسائل القوة هناك وهو أمر لم يقابل بالاستحسان من وجهة النظر البريطانية • والواقع أن أى الطرفين لم يجرؤ على مناقشة مشكلة دانزج صراحة خوفا من أن يؤدى ذلك الى مشاحنات ولهذا لم يناقش شيئا أملا فى أن يتمكن كل من الطرفين أن يحصل على مايريد فى اللحظـة الحاسمة فلم يبرم الحلف الذى برز فى ابريل الا فى ٢٥ أغسطس وذلك بصورة رسمية •

ولقد كان الانجليز يبذلون قصارى جهدهم بطرق غير مباشرة لكبح جماح التشيك ففى المحادثات التى جرت بين أركان حرب الدولتين لم يكشف الانجليز على نواياهم غير أنه فى ذلك الحين لم يكن لديهم مايكشفون عنه • وكان واضحا أن البولنديين لم يكونوا يعتمدون على عون عسكرى مباشر وكان ذلك يجعلهم يسعون للحصول على عون مالى غير أن الانجليز أظهروا عنادا فى تلك الناحية حين طلب البولنديون الحصول على قرض نقدى قدره ستون مليونا من الجنيهات فأجاب البريطانيون بأنه ليس لديهم نقد ولا يمكنهم أن يقدموا سوى اعتمادات نقدية كما أصروا على ضرورة صرف تلك الاعتمـــادات فى

بريطانيا فلما إنقص الرقم الى ثمانية ملايين قالوا بأن مصانع الاسلحة البريطانية كانت مثقلة بالعمل ولهذا لايمكن استخدام الاعتمادات بأى حالة • وعندما نشبت الحرب لم تكن هناك أى اعتمادات مالية قدمت كما لم تصل الى بولندا قنبلة واحدة أو بندقية واحدة من انجلترا وليس محتملا أن يكون هاليفاكس قد طمأن بولندا حينما قال انه فى حالة وقوع الحرب فان أحد الاسلحة القوية فى يد انجلترا يجب أن يكون سلاح القوة الاقتصادية التى يجب أن لاتضعف لهذا السبب • ولقد كانت هذه المعاملة الغريبة تدل على الطبيعة المزدوجة للسياسة البريطانية فالانجليز كانوا يهتمون بتهدئة البولنديين قدر اهتمامهم بكبح جماح هتلر ولكن آمالهم ذهبت أدراج الرياح فالرئيس بيك كان يختلف عن الرئيس بنيش وكان من رأيه أن خطوة واحدة يخطوها فى اتجاه الاستجابة لمطالب ألمانيا سوف تؤدى لا محالة الى مثل ما حدث فى ميونيخ لهذا لم يتقدم خطوة واحـــدة وهكذا لم تتح للورد رانسيمان الفرصة ليحزم حقائبه لرحلة أخرى الى القارة الأوروبية فى عام ١٩٣٩ •

كان الانجليز يسعون وراء محاولة أخرى عادت عليهم بالفائدة فى العام السابق اذ كانوا يأملون فى امكان الالتجاء الى موسولينى فى أى وقت ليعمل على كبح جماح هتلر • ولكن هذه الخطة كانت هى الاخرى عديمة الجدوى اذ أن الاستياء الوقتى الذى شعر به موسولينى عندما احتل هتلر مدينة براج كان آخر شعور له بالحقد فقد قام هو أيضا بدوره فى العدوان حين حول الحماية الايطالية التى كانت مفروضة على البانيا الى احتلال صريح • وقد ترتب على ذلك الحادث نشاط دبلوماسى كبير اذ قامت بريطانيا بضمان سلامة اليونان دون سبب معين وكذلك سلامة رومانيا ثم دخلت فى مفاوضات لعقد محالفة مع تركيا وهى محالفة لم يقدر لها أن توضع موضـــع التنفيـــذ • ومع أن تلك الحركات استنفذت عددا ضخما من أوراق وزارة الخارجية الا أنها لم تكن ذات أهمية للمشكلة الكبرى بشأن ألمانيا • أما ايطاليا ومثلها فى ذلك مثل فرنسا فقد بقيت على هامش الاحداث فمصير كلا الدولتين كان يتقرر وفق ما تقوم به حليفتاهما الكبريين وقـــد اندفعت فرنسا تدحض مطالب الايطاليين فى شمال أفريقيا حين وجدت فيهـــا خصما من حجمها يمكنها أن تتحداه أما موسولينى فقد اندفع بدوره صوب ألمانيا فعقد معها محالفة رسمية فتم التوقيع على ماسمى بالميثاق الحديدى فى ٢٢ مايو وهو ميثاق يلزم الطرفان بأن يدخلا الحرب معا • ولاشك أن موسولينى بعمله هذا كان يأمل أن تكون له كلمة مسموعة فى المسائل الالمانية فما دام قد تعهد بأن يعاون ألمانيا فى الحرب اذا يمكنه كما كان يرجو — أن يقرر متى تقع الحرب وحاول أن يؤكد أن ايطاليا تستطيع أن تكون مستعدة لدخول الحرب فى عام ١٩٤٢ فقط أو فى عام ١٩٤٣ • أما الالمـــان فلم يعلقوا اهتماما كبيرا على ذلك الحلم اذ نظروا اليه كأمر جاءت به الظروف مما يعوض فشلهم فى عقد محالفة ثلاثية مع اليابان •

فقد كان الشرق الاقصى يعتبر عاملا مؤثرا في دبلوماسية عام ١٩٣٩ ولكن ليس من السهل تقدير قيمة ذلك العامل حتى الآن • ومما لاشك فيه أنه كانت توجد حلقات اتصال بين الموقف فى أوروبا وبينه فى الشرق الاقصى ولكن ماهى ياترى تلك الحلقات؟ كانت اليابان مشتبكة في حرب مع الصين كما كانوا يهددون المصالح الاجنبية هناك سيما المستعمرات البريطانية ولا شـك أن انجلترا كانت تتمنى لو تمكنت من انهاء مشاكل أوروبا حتى تدافع عن مركزها فى الصين غير أنه من الصعب الوقوف على مدى تأثير ذلك فى الناحية العملية من سياستها • ومن ناحية أخرى كان الالمان يريدون أن يزيدوا من متاعب انجلترا فى الشرق الاقصى كما كان اليابانيون يريدون أن يزيدوا تلك المتاعب فى أوروبا • لهذا كانت هنا حالة (شد الحبل) بين الدولتين «المعتديتين» كانت اليابان هى الرابحة فيه • أما الالمان فكانوا يحاولون أن يحولوا الميثاق المعادى للشيوعية الى حلف ضد جميع الدخلاء ولكن اليابانيين لم يوافقوا الا على التعاون ضد روسيا • ومما لاشك فيه أنهم كانوا يأملون انتزاع بعض المطالب من البريطانيين دون حرب وربما كان الرادع لهم هو خوفهم من الاسطول الامريكي وأكثر من كل ذلك فانهم كانوا يشكون فيما اذا كان قيام حلف عام سوف تعقبه حرب فى أوروبا أو بالاحرى تكون هناك ميونيخ جديدة على حساب بولندا فيؤدى ذلك الى ترك اليابانيين وحدهم ضـد الانجليز • ولما انتهت المفاوضات بين الالمان واليابانيين بالفشل أخذ اليابانيون يعتصرون بعض المطالب من الانجليز الذين أخذوا يرضخون بصفة مستمرة • وهكذا تأجل الصراع فى الشرق الاقصى مما زاد من احتمال نشوب الصراع فى أوروبا •

لقد كانت هناك عقبة أخرى تقف فى طريق التعاون بين ألمانيا واليابان وان لم يكشف عنها أى من الطرفين فاليابانيون كانوا يريدون من يعاونهم ضد الروس ولكن الالمان الذين سبق لهم أن حملوا لواء العداء للشيوعيين أخذوا الآن يميلون الى الاتجاه المضاد فمنذ اللحظة التى أصبحت فيها بولندا الهدف المباشر للعدوان الالمانى تحولت روسيا تلقائيا صوب ألمانيا بحيث تقف منها على الحياد بل ربما تصبح حليفة لها ولم تكن روسيا بذات أهمية للألمان وحدهم فكل دولة أوروبية كانت تعمل لها حسابا لهذا كان ذلك حدثا يرسم معالم ذلك العهد • فلقد شهدت سنة ١٩٣٩ نشوب الحرب العالمية الثانية غير أننا لو نظرنا اليها نظرة أكثر تعمقا لوجدنا أنها تبدو أكثر أهمية اذ أنهـا شهدت عودة روسيا السوفيتية كدولة عظمى للمرة الاولى منذ عام ١٩١٧ • فروسيا السوفيتية بعد نشوب الثورة البلشفية كانت تمثل مشـكلة فى أغلب الأحـوال فالشيوعية الدولية كانت خطرا دوليا أو تهدد بأن تصبح خطرا غير أن روسيا السوفيتية لم تكن تعتبر فى مصاف الدول العظمى اذ أن لتفينوف عندما تقدم بمقترحاته لعصبة الامم كان يبدو وكأنه متحدث هبط من عالم آخر • فالدول الغربية لم تدخل فى اعتبارهـا بصفة جدية مسألة التعاون مع روسيا بالرغم من الميثاق الفرنسى السوفيتى • فلا تلك الدول ولا ألمانيا كانت تتوقع أن تتدخل روسيا أثناء أزمة تشكوسلوفاكيا عام ١٩٣٨ •

فروسيا السوفيتية كانت تبدو على بعد سحيق وكان هذا يرجع الى حد كبير للانقسام في الآراء السياسية وللسياسة التقليدية التي انتهجها الطرفان وعدم الإعتراف بها • كذلك كان هذا يرتكز على أساس عملي فروسيا السوفيتية كانت حقيقة منقطعة الصلة بأوروبا طول الوقت الذى كانت مطوقة فيه « بالنطاق الواقعى » فاذا أقدمت على عمل فان ذلك كان يأتى من خارج المنطقة مثلها مثل اليابان أو الولايات المتحدة • ولكن هذا الوضع قد تغير عندما بدأت مسألة بولندا اذ وجدت أوروبا نفسها تقف على عتبة روسيا التى اعتبرت دولة أوروبية من جديد سواء أرادت ذلك أم لم ترد •

ما هو ياترى الدور الذى سوف تلعبه روسياالآن وقد عادت الى أوروبا أوبعبارة أخرى قد عادت أوروبا اليها ؟ كانت كل الدول تسأل نفسها هذا السؤال•لقد سأله الانجليز كما سأله الفرنسيون والبولنديون والالمان كذلك كان الروس يسألون أنفسهم هذا السؤال باستمرار ولقد كان من العسير فى البداية أن نجد جوابا لذلك السؤال أو تكوين فكرة حتى عن الاحتمالات فأغلب المسائل السياسية لها مقدمات طويلة كما أن الساسة يضعون خططهم بناء على تجارب ســـابقة ثم يسيرون فى طريق رسموه لأنفسهم فعلا • أما فى هذه الحالة فلم يكن هناك سوى القليل من المقدمات التى كانت تؤدى الى الاتجاه الخاطىء فتعود الى فترة انعزال روسيا وانسحابها وكانتلتلك السوابق المضللة بعض الأثر فالانجليز لم يكن فى استطاعتهم أن يتخلصوا من عادتهم فى أن ينظروا الى روسيا السوفيتية كدولة لا أهمية لها كذلك كان يسيطر على تفكير الروس ان فى استطاعتهم أن يولوا ظهورهم لأوروبا لو أرادوا • وكان للألمان فى ذلك بعض الفائدةاذ كانت أمامهم سابقة فى صورة معاهدة رابالو وما ترتب عليها من صـــداقة روسية ألمانية • ولكن الزمن قد تغير • ففى رابالو كانت الدولتان مهزومتين يتملكهما الخوف فاتفقتا على أن لا يتخذ من احداهما وسيلة للعمل ضد الأخرى ولكن هذا الأمر لم يسترشد به فى العلاقات بينالدولتين اللتين كانتا تعتبران أعظم دولتين فى أوروبا اذ عاد هتلر يقنع بالانتظار حتى تهيىء الاقدار له السياسة التى ينتهجها • وفى ألمانيا تراخت الحركة المناهضة للشيوعية وحلت محلها الحركة المضادة للســـامية وانطلقت الاشاعات تردد أن ألمانيا راغبة فى زيادة تجارتها مع روسيا السوفيتية أو حتى فى تحسين علاقاتها السياسية ولكن ألمانيا لم تحاول من جانبها أن تفصح عن الصورة التى سوف تكون عليها تلك التحسينات أما روسيا فكانت لاتزال تكتم نواياها أما المبادأة فظلت فى مكان آخر •

لقد كان الفرنسيون من الناحية الأخرى يعرفون تماما ماذا يريدون فيقولون بضرورة قيام محالفة عسكرية صريحة بين روسيا السوفيتية والدول الغربية ولم يكن للفرنسيين أى ايمان فى استرضاء هتلر لهذا لم يكونوا يخشون أن تستثيره محالفتهم للسوفييت • كذلك كانوا يعتقدون أن هتلر سوف لا يرتدع الا بمظاهر القوة الطاغية وهذا ما سوف يحققه التحالف مع روسيا فاذا فشلت المظاهر فى تحقيق ذلك الغرض

فان التهديد الروسى سوف يعمل من جديد على شطر القوات الألمانية كما كان الحال فى عام ١٩١٤ أما اذا وجه الهجوم الألمانى على روسيا فان الفرنسيين سوف يظلون فى مأمن خلف تحصينات خط ماجينو • غير أن الفرنسيين لم يعيروا معارضة البولنديين اهتماما بل أن هذا كان دافعا لهم وهنا كانت قوة الالتزام البولندى لروسيا قد بلغت الحضيض • فتقصير بولندا قضى على أى حال احتمال لقيام جبهة شرقية أثناء أزمة تشكوسلوفاكيا وأصبح الفرنسيون الآن على استعداد أن يكيلوا للبولنديين بنفس الكيل لقاء عدم اعترافهم بالجميل •

وقد كان جاملان ضعيف الثقة بالجيش البولندى كما كان يميل الى الاعتقاد فى قوة الجيش الروسى وان كان ذلك فى شيء من التردد • ولو أن بولندا اذن تذرعت بالتحالف الفرنسى السوفييتى لنقض تحالفها مع فرنسا لكان هذا خيرا من وجهة النظر الفرنسية اذ تكون فرنسا قد تخلصت من التزام بقيدها وحصلت على ميزة • وفى ٢٠ ابريل أخبر بونيه السفير السوفييتى انهما سوف يضعان شروط التعاون العسكرى فيما بينهما ثم أضاف قائلا ان عليهما عندئذ أن يقررا الموقف الذى يمكن اتخاذه فى حالة ما اذا رفضت بولندا أو رومانيا قبول المساعدة • ولقد كان هذا حلا بسيطا ولكنه غير ممكن ففرنسا قد لا تعير تحالفها مع بولندا أهمية ولكنها لا تستطيع أن تفعل ذلك مع بريطانيا لأن مركزها فى العالم متوقف تماما على تحالفهما • فالتحالف البريطانى البولندى كان كارثة على فرنسا ولما كانت بريطانيا لا تملك قوة خاصة بها من أجل خوض غمار حرب فى القارة الأوروبية لهذا كانت المحالفة فى الواقع ضمان بريطانى بأن فرنسا لن تتوانى عن مساعدة البولنديين كما فعلت مع التشيك الا أنذلك هو ما كانت فرنسا تريده تماما فاذا ما انسد طريق الهرب فى وجوه الفرنسيين أصبح أملهم الوحيد أن يدفعوا انجلترا الى ابرام حلف مع روسيا السوفيتية كذلك •

وكانت الحوافز لهذا الهدف لا تأتى من فرنسا وحدها فالحاجة الى تحالف مع روسيا السوفيتية كانت واضحة لكل مراقب انجليزى قدير وذلك على أثر تقديم الضمان البريطانى لبولندا وقد أشار الى ذلك مستر تشرشل فى مجلس العموم يوم ٣ ابريل فقال :

« ان وقوفنا عند هذا الحد بتقديم الضمان لبولندا هو عبارة عن الوقوف فى المنطقة الحرام عرضة للنيران التى تنطلق من الخنادق على كلا الجانبين دون وقاية من أى جانب وما دمنا قد أنشأنا تحالفا كبيرا ضد العدوان فاننا لا نستطيع النكوص فاننا سوف نصبح فى خطر مميت لو فعلنا ذلك وان أكبر حماقة لا يمكن أن ينصحنا أحد بالقيام بها لهى رفض أى تعاون طبيعى مع روسيا السوفيتية التى تشعر بضرورته من أجل مصالحها الهامة • »

وقد كان لويد جورج أكثر حماسا عندما قال :

« اننا لو انزلقنا بدون مساعدة من روسيا فاننا نكون مساقين للوقوع فى الفخ فروسيا هي الدولة الوحيدة التى يمكن أن تصل أسلحتها الى هناك · أما لو حيل بين روسيا وبين هذا الامر بسبب ما يكنه البولنديون من الشعور بعدم الرغبة فى وجود الروس هنـاك اذن لكان علينا نحن أن نعـلن الشروط وما لـم يكن البولنديون على استعداد لقبول الشروط الوحيدة التى يمكننا بواسطتها أن نقدم المعونة اليهم بصورة مجدية اذن لوجب أن تقع المسئولية عليهم » ·

لقد تكرر ابداء هذه الآراء من مقاعد المعارضة· وكانت الجماعات المتصارعة داخل حزب العمال تستطيع على وجه الخصوص أن تجمع على فكرة التحالف مع روسيا السوفييتية ويستند البعض فى ذلك الى أسباب عسكرية عملية ويستند الآخرون على مبادىء اشتراكية وقد كان الرأى العملى مما لايمكن مقاومته فأمر ذلك واضح على الخريطة ليراه الجميع كما أن ناقدى تشمبرلين استرعوا الآن لاول مرة انتباه الجمهور بصورة فعالة · ففى الماضى كانوا يبدون كما كانوا ينادون بحرب أيديولوجية ضد هتلر أما الآن فان تشمبرلين كان يبدو وكأنه يتباعد أيديولوجيا فى اتجاه روسيا · وقد كان هذا النقد الذى قامت به المعارضة مما دفع تشمبرلين دون شك فى اتجاه التفاوض مع موسكو ولكنه فى نفس الوقت زاد من عدم رغبته فى ذلك وأيا كانت النتيجة فان الحكومة البريطانية لن يكون لها فضل فلو فشلت المفاوضات لوقع عليها اللوم أما اذا نجحت فسوف يعود الفضل فى ذلك لتشرشل ولويد جورج وحزب العمال · لقد كان تشمبرلين يجيد الكراهيـة ـ فى السياسة الداخلية على الاقل ـ فلما مد بصره بعيدا صوب الكرملين وجد هناك من الوجوه ماذكره برجال المعارضة فى المقاعد الامامية ·

لقد كانت هناك دواع أخرى جعلت الحكومة الانجليزية تتردد · وبمثل الطريقة التى ينصلح فيها حال السكير فيتعلق ببعض المبادىء الاخلاقية الضيقة كذلك كان حال أولئك الذين لم يؤنبهم ضميرهم عندما تخلوا عن بنيش ثم عادوا الآن وهم يعقدون العزم على مراعاة أى نزعة تجول بخاطر بيك · فالبريطانيون كانوا يقدمون الضمان للامم الصغرى فكيف يمكنهم الآن أن يصموا آذانهم عن اعتراضات بولندا على اقحامها فى حرب مع روسيا السوفيتية ؟ وقد أكد هاليفاكس هذه الفكرة فى مجلس العموم فقال : « ان سياستنا ترتكز على البند الذى يقول بأن حقوق الدول الصغرى يجب أن لايتجاهلها القوى وأنه يجب أن لايكون للقوة القول الفصل فى العلاقات بين الشعوب كما يجب أن لاتتغلب عوامل الارغام على المفاوضات » · ولم تكن الحكومة البريطانية تفكر فى أن الحرب واقعة لا محالة كما كان يقول منتقدوها كذلك لم تكن حتى تفكر فى ردع هتلر حتى بمظاهر القوة الطاغية بل كانت تسعى الى المناداة بالمبادىء الاخلاقية فالاثر الاخلاقى المترتب على محالفة روسيا السوفيتية سوف يضيع مالم يكن مصـحوبا باحتجاجات

تقدمها الدول الصغرى • كذلك ربما كان الاثر الاخلاقى فى جانب هتلر اذ يقدم الدليل على صحة الاتهام بأن الدول تعمل على محاصرة ألمانيا فيقال ان انجلترا وقد تخلت عن أى محاولة لتظل غير منحازة قد تعمدت الوقوف فى صف الحرب بين مجموعتين متنازعتين من الدول وهذا يسىء الى ايطاليا وأسبانيا واليابان كما يجب أن لايغيب عن الذهن ان الفاتيكان الى حد كبير أكثر من برلين ـ كان ينظر الى موسكو على أنها معـــادية للمسيحية •

فالحكومة البريطانية كانت تبذل قصارى جهدها للمحافظة على السلام فى أوروبا لا لتكسب حربا وكانت مدفوعة الى تلك السياسة باعتبارات أخلاقية وليس باعتبارات استراتيجية وحتى تلك الناحية الاخلاقية قد حجبت فالحكومة البريطانية اعترفت بوجاهة شكوى الالمان من تسوية فرساى غير أنها لم يخطر على بالها مطلقا أن روسيا السوفيتية قد تجد فى نفسها بعض الرغبة للمحافظة على الوضع القائم فى أوروبا الشرقية الذى ترتب على معاهدتى برست ليتوفسك وريجا المجحفتين • ولقد كان اعراض روسيا عن مساندة السلام يثير ثائرة الحكومة الانجليزية ولكن أى استعداد منها لخوض غمار حرب ضـد ألمانيا كان يسبب لها الفزع لدرجة أكبر • أما ماكانت تريده انجلترا فهو أن يكون فى الامكان التحكم فى المساعدة الروسية كما يتحكم الصنبور فى الماء فيفتح ويقفل حسب الحاجة وأن يكون لانجلترا الحق فى التحكم فى الصـــنبور أو قد يكون كذلك من حق البولنديين • وقد شرح هاليفاكس ذلك الوضع لجافنسو وزير خارجية رومانيا فقال ان من المرغوب فيه أن لاتستبعد روسيا ولكن يراد أن تظل مشتركة فى الاحداث وقد ظن ساسة روسيا فى ذلك الوقت أن بريطانيا تعمل على اقحام روسيا فى حرب ضد ألمانيا بينما تظل هى واقفة على الحياد وهذا الاتهام ردده المؤرخون الروس وهذا خطأ فى فهم وجهة النظر الانجليزية فالانجليز لم يكونوا يريدون الحرب مطلقا فلاهم كانوا يريدون الدخول فى حرب ضد ألمانيا ولا أن تدخل ألمانيا الحرب ضد روسيا فوقوع حرب عامة فى أوروبا لابد وأن يعود بالدمار من وجهة النظر البريطانية ولأن احدى الدولتين ـ ألمانيا أو روسيا ـ سوف تكون الغالبة وفى كلتا الحالتين سوف يضعف مركز بريطانيا كدولة عظمى ان لم يقضى عليه تماما • ولقد كانت هناك حجة واحدة وجيهة فى جانب قيام محالفة بين بريطانيا وبولندا • فكلتا الدولتين استغلتا الظروف الشاذة التى وضعت الحرب العالمية الاولى فيها أوزارها حيث خرجت ألمانيا وروسيا مهزومتين • وكان لهذه الظروف الفضل فى حصول بولندا على استقلالها الوهمى كما يرجع لها الفضل فى بلوغ بريطانيا درجة من العظمة والنفوذ اللذين ـ ان كانا غير وهميين ـ فقد كان من المستطاع المحافظة عليهما بالقليل من الجهد وكانت كلا الدولتين تريدان أن يظل العالم محتفظا بالوضع الذى وجد نفسه فيه عام ١٩١٩ • فبولندا كانت ترفض العمل مع ألمانيا ومع روسيا السوفيتية وكانت بريطانيا ترفض العمل على بلوغ نصر حاسم لأى

الناحيتين . فسيطرة البلشفيك على أوروبا الشرقية كانت كريهة لمعظم الانجليز وكان لشكوك السوفييت مايبررها حتى ذلك الحين ولكن السيطرة البلشفية كانت تبدو بعيدة وكان الانجليز يتوقعون أن يكون النصر فى جانب ألمانيا فيما لو دخلت فى حرب ضد روسيا وحدها وهذا الامر وان كان أقل بغضا فى نظرهم الا أنه كان ينذر بشر أكبر فوجود دولة ألمانيا تمتد من حدود الراين حتى جبال الأورال سوف تنقلب بلاشك على الامبراطوريتين البريطانية والفرنسية فى رأى انجلترا . لهذا عندما قام حكام روسيا باتهام البريطانيين بالعمل على قيام حرب روسية ألمانية كانوا يبالغون من أهمية أنفسهم لسببين : الاول هو أن بريطانيا لم يكن يقلقها (الخطر الاحمر) حتى تعمل على القضاء عليه فى الحرب أما الثانى فهو أنه مما لاشك فيه سوف يكون النصر للالمان فى سهولة وبصورة خطيرة .

كانت هناك ناحية واحدة تثير مخاوف انجلترا من روسيا وهى ناحية أثارت قلق ساسة بريطانيا بصورة حقيقية عندما فكروا فى التطورات المحتملة . وكان مصدر الخوف هو احتمال وقوف روسيا على الحياد فى حرب تمزق فيه دول أوروبا بعضها البعض فاذا لم يكن هناك مناص من وقوع حرب اذن لابد من محاولة اشراك الاتحاد السوفيتى فيها أما اذا لم تشترك روسيا فانها سوف تستطيع عند انتهاء الحرب أن تسيطر على أوروبا بجيشها السليم بينما تحطمت جيوش انجلترا وألمانيا . وهذا تفسير آخر لسياسة الصنبور الذى تريد انجلترا أن تتحكم فى فتحه أو اغلاقه عندما تريد . ولكن لنفوض أن حكام روسيا أبوا أن يقوموا بهذا الدور فماذا يحدث اذن ؟ لقد تكررت النذر لبريطانيا أن روسيا السوفيتية وألمانيا قد تصلان الى عقد اتفاقية أو على أقل تقدير قد تقف روسيا فى هدوء بينما يعم البلاء بقية دول أوروبا وقد حذرهم من ذلك سيدز سفيرهم فى موسكو وقد حذرهم منه دلادييه ، بل قد حذرهم منه جورنج بطريقة غير مباشرة اذ كان يناهض سياسة التقرب مع روسيا ومع كل هذا بقى هاليفاكس وتشمبرلين ووزارة خارجيته دون أن ينتصحوا فلم يعر أحد هذه النذر اهتماما باعتبارها غير محتملة الوقوع . ألم ير الانجليز أنه بتحالفهم مع بولندا قد تعهدوا بدخول الحرب دفاعا عن حدود روسيا السوفيتية ؟ اذن كيف يفترضوا بأن مساعدة روسيا كانت لاتعتبر سوى فائدة غير مشروطة بميثاق ؟ . من العسير علينا أن نجد جوابا شافيا لهذه الأسئلة . فلو أن الدبلوماسية البريطانية كانت تسعى حقيقة لعقد محالفة مع روسيا السوفيتية عام ١٩٣٩ اذن لكانت المفاوضات من أجل هذا الغرض تعتبر أضعف مفاوضات منذ أن أضاع لورد نورث المستعمرات الامريكية . وربما كان الضعف هو تفسير سهل فقد أحاقت بالانجليز متاعب الموقف الذى وجدوا أنفسهم فيه بينما هم ينتهجون سياسة دولة عظمى عالمية تريد أن تولى أوروبا ظهرها ومع ذلك تود أن يكون لها اليد العليا فى

شئون أوروبا • فالانجليز أخذوا يسخون في تقديم الضمانات في أوروبا الشرقية وكانوا يسعون لاقامة محالفات عسكرية ومع ذلك كان مايريدونه في أوروبا هو السلام ثم تعديل الاوضاع فيها بطريقة سلمية على حساب الدول التي قدموا لها الضمان • وكانوا لايثقون بهتلر ولا بستالين ومع ذلك كانوا يبذلون جهدهم لمسالمة الاول وعقد محالفة مع الثاني فلا عجب اذن أن فشلوا في الناحيتين •

وقد زاد من حدة هذا الارتباك ماكان يوجد من اختلافات في وجهات النظر الشخصية فتشمبرلين كان يعارض في أي ارتباط مع روسيا السوفيتية الا بشروط يستحيل قبولها وكان منقادا وراء هاليفاكس الذي كان هو نفسه منقادا وراء وزارة الخارجية اذ كان كثير التشكك • وحتى موظفو وزارة الخارجية الدائمون كانوا لايثقون في هتلر أكثر من عدم ثقتهم بستالين وبينما كانوا يقولون بخطورة التحالف مع روسيا السوفيتية كانوا قلمايرون منها فائدة ولولا الضغط الذي كان يقع على الحكومة باستمرار من مجلس العموم ومن الرأي العام لما قامت الحكومة بأي محاولة • أما الوزراء فلم يكن رضوخهم لذلك الضغط بسبب اعتقادهم انه صحيح بل لانهم ماكانوا يستطيعون انتهاج أي سياسة غير تلك السياسة • ولكن الرأي العام لم يكن كله يسير في اتجاه واحد • فالمطالبة بالتحالف مع روسيا كان هو مايجاهر به الناس أما العداء لروسيا فمع ان الناس لم يكونوا يجاهرون به الا أنه ربما كان هو الرأي الاقوى سيما بين المقاعد الخلفية لحزب المحافظين فقد قوبل الفشل الاخير بارتياح عام اذ أنه أزاح عقبة نفسية في طريق الحرب • ان النتيجة المنطقية لسياسة بريطانيا ـ لو أمكن أن نتصور هذا الامر ـ كانت حياد روسيا مع أن الانجليز قد غضبوا كثيرا عندما تحققت تلك النتيجة فعلا •

هل كان لحكام روسيا هدف منطقي من ناحيتهم وضعوه نصب أعينهم منذ البداية؟ لايعرف أحد الاجابة على هذا السؤال فيما عدا مولوتوف الذي ذهب في زوايا النسيان بعد نفيه وليس محتملا انيذيع الجواب أما نحن فليس لدينا أي دليل على ماكانت تنتهجه السياسة السوفيتية فلسنا ندري ماذا جاء بالتقارير التي كان يرسلها سفراء السوفيت الى موسكو أو ما اذا كانت الحكومة السوفيتية قرأت تلك التقارير • كذلك لسنا ندري ماذا كان يقوله ساسة السوفيت لبعضهم البعض أو ماذا قاله لهم مستشاروهم الفنيون • ومتى انعدم الدليل فان المؤرخين لا يسعهم الا الفروض بناء على المظاهر الخارجية أو على ميولهم الشخصية • والمؤرخون السوفيت ـ الذين تنقصهم المعلومات كما تنقصنا ـ يقولون بصواب رأي حكومتهم بينما يسفهون رأي الحكومات الاخرى وفي رأيهم أن روسيا السوفيتية حاولت من كل قلبها أن تخلق جبهة سلام وان بريطانيا وفرنسا كانتا تعملان على التغرير بروسيا من أجل أن تنفرد في حرب مع ألمانيا وأن ستالين أفلت من الخطر عندما ضرب ضربة معلم في اللحظة الاخيرة • أما مؤرخو الغرب ففي صراعهم في هذه الحرب الباردة يرون عكس ذلك الرأي • ففي رأيهم المناقض تماما

لرأى الروس يقولون بأن الحكومة السوفيتية كانت تعتزم طول الوقت ان تتفق مع ألمانيا وان مفاوضاتها مع انجلترا والمانيا لم يكن يراد بها الا دفع الالمان للتقدم بعروضها ٠ أما اذا لم يكن هذا صحيحا فان روسيا السوفيتية كانت تعمل على مفاوضة كلا الجانبين وهى ترقب العروض من كليهما لتختار أسخاها ٠ ويقول أحد الآراء ان حكام روسيا كانوا يعملون متعمدين لاثارة الحرب فى أوروبا ويقول رأى آخر انهم كانوا معتزمين على أى حال ان يظلوا بعيدا عن تلك الحرب بأنفسهم ٠ وهذه الآراء وان كانت تحوى بعض الحقائق الا أنها تشترك فى عيب واحد وهى أنها تعزو الى حكام روسيا علمهم السابق لما جرت به الاحداث فيما بعد ٠ ومهما بلغت روح الشر من هؤلاء الساسة فان من المشكوك فيه ان يشاركهم الشيطان بسلطانه الى هذا الحد فيقال فعلا ان الحكومة السوفيتية كانت تعلم منذ البداية أن هتلر ســـوف يعلن الحرب فى أول سبتمبر ثم عملوا على توقيت خططهم على هذا الاساس ان هتلر ربما كان يعرف ذلك أما ساسة السوفيت فلا يمكن أن يكونوا يعلمون ٠ وعند معالجة هذا الأمر وغيره من الامور يجب أن لا يغيب عن بال المؤرخين القول الحكيم الذى قاله ميتلاند : « من أصعب الامور أن نتذكر أن الاحداث التى انقضى عليها الآن وقت طويل مضى كانت تعتبر فى وقت من الاوقات من الامور المستقبلة » ٠

ان بعض الخطط التى تعزى لقادة السوفييت لا تلبث ان تنهار اذا دققنا النظر اليها فقد كان يقال مثلا أن تلك الخطط كانت تدور حول الدخول فى مفاوضات مع دول الغرب حتى يحمل ذلك هتلر على تقديم عروض سخية للسوفييت فى اللحظة الحاسمة غير ان العلاقات الدبلوماسية تظهر لنا ان كل تأخير انما كان يأتى من جانب الدول الغربية بينما كانت الحكومة السوفيتية ترسل ردودها بسرعة فائقة ٠ وقد قامت انجلترا بتقديم أول اقتراح لجس النبض فى ١٥ ابريل فجاء رد السوفييت يحمل اقتراحهم بعد يومين اثنين أى فى ١٧ ابريل ولكن انجلترا تأخرت ثلاثة أسابيع قبل أن ترسل ردها يوم ٩ مايو ثم رد السوفييت بعد خمسة أيام ٠ فأرسل الانجليز ردهم بعد ثلاثة عشر يوما ووصلهم رد السوفييت بعد خمسة أيام ومرة أخرى تأخر رد بريطانيا ثلاثة عشر يوما وجاءها رد السوفييت فى بحر أربعة وعشرين ساعة ٠ ثم سارت الامور فى سرعة أكبر اذ رد الانجليز فى بحر خمسة أيام فارسل الروس ردهم فى بحر أربعة وعشرين ساعة ثم استغرق رد انجلترا بعد ذلك تسعة أيام فأجاب الروس فى يومين ثم خمسة أيام لرد انجلترا فوصل رد الروس فى يوم واحد ثم ثمانية أيام من جانب انجلترا وجاء رد الروس فى نفس اليوم ثم تأخر رد انجلترا ستة أيام ووصل رد روسيا فى نفس اليوم وعند هذا الحد انتهى تبادل الرسائل ٠ ولو دلتنا هذه التواريخ على شىء فانما تدلنا على أن انجلترا كانت تدبر أمرا فى نفسها بينما كان يتلهف الروس على الوصول الى نتيجة وثمة دليل آخر على أن انجلترا كانت تنظر الى المفاوضات نظرة غير جدية وتقصد من ورائها تهدئة الرأى العام أكثر من رغبتها فى تحقيق هدف ما ٠ ذلك أن ايدن عرض أن يذهب الى موسكو فى مهمة معينة فرفض تشمبرلين طلبه ٠ وهناك رســـول من وزارة الخارجية

البريطانية أرسل الى موسكو فى مهمة غامضة لم تكن بالتأكيد لغرض عقد محالفة — اذ كتب الى حكومته مغتبطا يقول فى ٢١ يونيه « أستطيع أن أقول أننا سنصل الى نتيجة فى نهاية الامر • وعندما أقول فى نهاية الامر فاننى أعود بذاكرتى لقول ناجيار — السفير الفرنسى — هذا المساء انه قد يبلغ سن الاحالة على المعاش فيعتزل الخدمة قبل أن أغادر موسكو » فهل يستطيع هذا المبعوث الرسمى أن يكتب بهذا الاسلوب الذى ينم عن عدم المسئولية لو أنه كان هو ورؤساؤه يعتبرون المحالفة مع روسيا أمرا خطيرا معناه الحرب أو السلام ؟ •

وهناك أمر يبعث على الحيرة فيما يتعلق بتلك المفاوضات ذلك انها كانت تدور بصورة تنقصها السرية بشكل ملحوظ حتى فى ذلك الوقت الذى أهملت فيه الطريقة القديمة فى مراعاة السرية الدبلوماسية فى كل مكان فجميع المفاوضات الرسمية بدرجاتها المختلفة قبل الحرب العالمية الثانية كانت أمورا يعرفها الجميع أما اذا كان الامر يتطلب سرية حقيقة فعندها يرسل مبعوثون بصورة غريبة غير متوقعة • ومع ذلك فان التفاصيل لم تكن تتسرب عادة فى الحال • أما فيما يتعلق بالمفاوضات البريطانية السوفيتية فان المعلومات كانت غالبا ما تصل الى الصحف قبل أن تصل الى الطرف الثانى فاذا لم تصل الى الصحف فانها كانت تصل الى الالمان • وتسرب الانباء بهذه الصورة ليس من السهل تتبع وسائله فى دقة ومن التهور أن نستنتج من ذلك أكثر مما يجب • ويبدو لنا لو أننا وزنا الامور ان الحكومة السوفيتية كانت هى المصدر الذى تستقى منه الصحف أخبارها مما كان يضايق الجانب الانجليزى فعروض السوفييت كانت تنشر فى الحال دائما بينما كانت المقترحات الانجليزية تنشر عندما تبلغ الى موسكو غير أن وزارة الخارجية الالمانية كانت تقول بأنها تحصل على المعلومات من مصادر موثوق بها أحيانا قبل أن تصل الى الصحف وغالبا قبل أن تحاط بها موسكو علما • وهذا المصدر الموثوق به لابد وأنه كان رجلا ما فى وزارة الخارجية البريطانية يقوم بذلك العمل بناء على تعليمات صادرة اليه أو أنه يقوم بافشاء الاسرار للألمان لحسابه الخاص • وفى استطاعتنا استخلاص بعض النتائج فى حذر من هذه الحقائق فالحكومة الروسية لم يكن يهمها أن تخبر الشعب الروسى أو تؤثر فيه فالشعب هناك يمكن تحريكه بمجرد ايماءه فافشاء الاسرار كان يقصد به اذن الرأى العام البريطانى وربما كان ذلك بقصد تقوية يد الحكومة البريطانية ومعنى هذا ان الحكومة السوفيتية كانت تريد حقيقة أن يكون هناك تحالف وربما كان الروس يلعبون لعبة سياسية أكثر دهاء أملا فى احداث اضطراب سياسى فى انجلترا قد يؤدى باليساريين لتولى الحكم • ولكن هذا الامر لابد وأن يكون الغرض منه الوصول الى عقد تحالف • ومن ناحية أخرى لابد وان يكون المصدر الموثوق به فى لندن يسعى لازعاج الالمان مما يبعث على الوصول الى تسوية بريطانية ألمانية لو كان هناك هدف سياسى على الاطلاق • ولاشك أن هناك تفسيرات أخرى فجة • فالروس ربما كانوا لا يقصدون سوى التدليل على اخلاصهم كما فعلوا ذلك كثيرا فى مناسبات تالية وقد يكون مصدر الاخبار فى لندن انما كان يفعل ذلك لمصلحة شخصية • ويمكن القول ان أقرب الفروض الى الحقيقة هو أن اللوم لا يقع كله على جانب واحد •

والافتراضات تكون أكثر فائدة اذا تناسينا النتيجة وحاولنا اعادة تكوين صورة للسوفييت في العالم • فمما لا شك فيه أن ساسة السوفييت كانوا ينظرون الى جميع الدول الاجنبية بتشكك بالغ وكانوا على استعداد أن يتخلوا عن وساوسهم عند القيام بدورهم وكانوا مغتبطين اذ يرون أنفسهم مشتركين فى الشئون الدبلوماسية الخطيرة لأول مرة ولقد كانت السياسة الخارجية من قبل متروكة للصف الثانى من الشيوعيين (قبل ششرين فى بادىء الامر ثم لتفينوف ولم يكن أى منهما عضوا فى المكتب السياسى) وذلك منذ أن تخلى تروتسكى عن منصب وزارة الخارجية فى أوائل عام ١٩١٨ • وفى ٣ مايو تسلم مولوتوف أعباء المنصب من لتفينوف ويفسر هـذا أحيانا بأنه قرار فى صالح المانيا ولكن التفسير الاكثر احتمالا هو أن الروس بدأوا يعترفون بقيمة الشئون الخارجية فمولوتوف كان الرجل الثانى بعد ستالين فى الاتحاد السوفييتى فأقدم على خوض غمار السياسة الخارجية لا بالتشكك فحسب بل وبالتظاهر بالمعرفة والعناية بدقة التعبير التى كان البولشفيك يتميزون بها فى مناقشاتهم الداخلية ومع ذلك فما من شك انه كان ينظر للأمور نظرة جدية كذلك لم يكن هناك شك فى الغرض الاول الذى كانت تهدف اليه السياسة السوفيتية ذلك هو الرغبة فى أن يترك الروس وشأنهم • فالروس كانوا يعلمون مقدار ضعفهم وكانوا يخشون تحالف الدول الرأسمالية ضدهم وكانوا متلهفين على السير قدما فى انماء اقتصادياتهم فهم يشتركون مع الحكومة البريطانية فى الحاجة الى السلم ولكنهما كانوا يختلفون معها على كيفية المحافظة على السلام كذلك لم يكونوا يؤمنون بامكان استرضاء هتلر بالاستجابة الى مطالبه بل كانوا يعتقدون انه لايمكن أن يرتدع بغير مظاهر القوة من معارضة متحدة الصفوف •

وهناك أسباب أخرى لاختلاف وجهات النظر فمع أن الروس بخلاف هتلر لم يكونوا متلهفين على القضاء على الوضع الراهن الا أنهم لم يكونوا يستسيغونه أو يتحمسون له فلما دعوا للعمل على تدعيمه كان ذلك داعيا أكبر لاحساسهم بشعور البغضاء نحوه • ولقد كانوا غير راغبين فى العمل اطلاقا ولكن لواقتضى الامر ان يعملوا — خصوصا لو اشتركوا فى الحرب — فان ذلك لن يكون للابقاء على التسويات التى تمت بمقتضى معاهدة برست ليتوفسك وريجا • فهم يريدون أن يعودوا الى الشئون العالمية كدولة عظمى تقف ندا لبريطانيا ويكون لها التفوق فى شرق أوروبا وكان الجانبان تختلف وجهات نظرهما فى تقدير قوة كل منهما الآخر فالانجليز كانوا يقولون بأن روسيا السوفيتية سوف تنهزم هزيمة ساحقة لو أنها اشتبكت فى حرب مع ألمانيا لهذا كانوا يعملون على تلافى وقوع حرب بين ألمانيا وبين روسيا قدر حرصهم على عدم نشوب حرب بين ألمانيا وبينهم وكان الروس يعتقدون أن فى اســـتطاعة انجلترا وفرنسا أن تحتفظا بمواقعها الدفاعية وان حربا تنشب فى غرب أوروبا سوف تؤدى الى استنزاف قوى المتحاربين على السواء لهذا فان الروس لو عجزوا عن تحقيق السلام فان فى استطاعتهم

المغامرة بدخول الحرب بينما لا يستطيع الانجليز ذلك • فالانجليز كانوا سيضطرون لمقاومة هتلر لو فشلوا فى استرضائه أما الروس فكان فىاستطاعتهم الاختيار بينالحرب والسلام ، أو هكذا كانوا يظنون • كذلك كان للروس حرية الاختيار بطريقة أكبر فالانجليز قد ألزموا أنفسهم فعلا بالدفاع عن طريق تحالفهم مع بولندا أما الروس فكان لابد من استرضائهم وهذا لم يكن مستطاعا عن طريق المعاملة الفاترة التى كانت لندن تعاملهم بها ناهيك بتصلب البولنديين فى رفضهم التفكير فى قبول معاونة روسيا والنظر الى هذه الخلافات تجعل المفاوضات تبدو وكأنه قد قدر لها الفشل مقدما ومع ذلك فانه من المحتمل ان أحدا من الجانبين لم يكن يقدر هذا حق قدره منذ البداية بل ربما حتى قرب النهاية فالروس كانوا يقولون بأن الدول الغربية كانت متعطشة للحصول على المساعدة وكان هذا ما يقتضيه موقفهم فعلا فالانجليز كانوا يبنون سياستهم على التنافر العقائدى بين الفاشية والنازية وكانوا يتصورون ان الحكومة السوفيتية سوف يسعدها أى ايماءه للاعتراف بها •

وقد بدأ شبح الخلاف منذ البداية اذ تقدمت الحكومة السوفيتية باقتراح لعقد مؤتمر من الدول المنادية بالسلام وذلك على أثر احتلال الألمان لمدينة براج فرفضت انجلترا ذلك الاقتراح بحجة انه لم يأن أوانه (وهى من العبارات المحببة الى الانجليز) وبدلا من عقد المؤتمر شرعت انجلترا تقدم ضماناتها للدول التى كان مفروضا انها تعرضت للتهديد • ولو ان الحكومة الانجليزية تركت وشأنها لاكتفت بهذا ولكن مجلس العموم أخذ فى ازعاجها وزاد من هذا الازعاج مابلغها من محاولة الحكومة الفرنسية عقد ميثاق معونة متبادلة مع روسيا وكان هذا هو رد فرنسا على الطريقة التى تصرفت بها انجلترا بتقديمها ضمان لبولندا • وكانت الحكومة الانجليزية تخشى ان تجد نفسها مضطرة لعقد محالفة مع روسيا السوفيتية بنفس الطريقة التى اضطرت بها فرنسا ان تضمن استقلال بولندا لهذا كان لا بد لانجلترا ان تكون لها الصدارة اذا لم يكن هناك بد من دفع هذا الخطر فكانت مفاوضاتها مع روسيا يقصد بها أكثر ما يكون الحيلولة دون قيام التحالف المباشر الذى كانت تريده فرنسا • وفى يوم ١٥ ابريل اتصلت انجلترا على كره منها بموسكو مطالبة باصدار بيان يقول بأنه فى حالة تعرض احد جيران روسيا للهجوم فسوف يكون من المستطاع الحصول على مساعدة الحكومة الروسية اذا طلب منها ذلك وتقدم تلك المساعدة بالصورة التى تكون فيها أكثر مناسبة وهنا نجد ـ مع اختلاف طفيف فى التعبير ـ نفس المبدأ ذى الجانب الواحد الذى ظهر فى الميثاق الروسى التشكوسلوفاكى الذى جعل السياسة السوفيتية فى عام ١٩٣٨ تبدو سخيفة ففى ذلك الوقت لم تكن روسيا تستطيع العمل الا اذا بدأت به فرنسا أما الآن فان فى استطاعتها ان تعمل فى حالة واحدة فقط وهى اذا كانت بولندا أو رومانيا أو أحدى دول البلطيق تتنازل لتدعوها للعمل • ففى عام ١٩٣٨ ربما كانت روسيا ترحب

بالاعذار التى تبرر وقوفها جامدة أما بعد ذلك بستة شهور فقد اختلفت الوضع اذ أنه عندما انهار (نطاق الالمان) وجدت روسيا نفسها فى الخطوط الاولى فلم يكن الروس يهتمون بمساندة بولندا أو القيام ببعض الاجراءات الادبية ضد هتلر بل كانوا يسعون للحصول على عون عسكرى محدد قوى من الدول الغربية فيما لو هاجم هتلر روسيا سواء عن طريق بولندا أو بطريق مباشر ٠

وفى ١٧ ابريل تقدم لتفينوف باقتراح مضاد يقول بضرورة عقد ميثاق لتبادل المعونة بين انجلترا وفرنسا والاتحاد السوفيتى لمدة خمس أو عشر سنوات وأكثر من ذلك أن ينص الميثاق على تقديم جميع أنواع المساعدات بما فى ذلك المساعدات العسكرية لدول أوروبا الشرقية الواقعة بين البلطيق والبحر الاسود وتقع على حدود روسيا السوفيتية وذلك فى حالة وقوع عدوان على تلك الدول ٠ وقد أدى هذا الى استياء انجلترا اذ تقترح الحكومة السوفيتية تقديم المعونة لبولندا دون طلب سابق أما تقديم المعونة لدول البلطيق فكان أدهى من ذلك ٠ وقد اعتقد الانجليز أن الروس انما كانوا يحاولون أن تنفذ المطامع التوسعية دون أن يشعر بذلك أحد وقد تردد توجيه هذا الاتهام منذ ذلك الحين ٠ غير أن القلق الذى كان يشعر به الروس فيما يتعلق بتلك الدول كان قلقا حقيقيا فالروس كانوا يخشون هجوما ألمانيا على لننجراد ويزيد من احتمال وقوع تلك المغامرة ما يمتاز به الالمان من تفوق بحرى فى البلطيق لهذا أرادوا تعزيز مركزهم العسكرى على الارض عن طريق الاشراف على دول البلطيق ٠ ولما كانوا يعلمون أن تلك الدول قد تفضل الالمان على الروس اذا ماحاق بهم الخطر لهذا اشترط الروس أن يقدموا المعونة دون أن يطلب منهم ذلك ٠ وعدم احترام استقلال تلك الدول لم يكن بلا شك بسبب انعدام وازع الضمير ولكنه كان ناجما عن خوف حقيقى اذا سلمنا بأن روسيا كانت تنتهج سياسة معادية لالمانيا ٠ فانجلترا سبق لها أن ضمنت بولندا ورومانيا وعلى هذا فانها لو بقيت على عهدها لوجب أن تدخل الحرب لو أن ألمانيا هاجمت روسيا عن طريق احدى هاتين الدولتين وانجلترا لم تكن مقيدة بأى التزامات فيما يتعلق بدول البلطيق وكان هذا منفذا تستطيع المانيا من خلاله أن تهاجم روسيا بينما تظل دول الغرب ملتزمة جانب الحياد ٠ ولقد كان رفض انجلترا للاقتراح السوفيتى مما أقنع حكام روسيا أنهم كانوا على حق فى تشككهم ٠ وكانوا مصيبين فى هذا فانجلترا تحترم استقلال الدول الصغرى احتراما حقيقيا وقد بلغ من احترامهم هذا فيما يتعلق بالبلجيك أن جروا على أنفسهم وعلى فرنسا الكارثة الاستراتيجية التى حلت بهما فى عام ١٩٤٠ ومع ذلك فان الدافع الحقيقى الذى دفعهم للمعارضة انما كان عدم رغبتهم أن يتركوا أمر تقرير الحرب أو السلام فى أيدى الروس فكان مستطاعا أن يكون ذلك فى أيدى البولنديين وكان مستطاعا أن يكون فى أيدى دول البلطيق اما أن يكون فى أيدى الروس فلا يمكن مطلقا اذ أن ذلك معناه احتمال جر الحكومة البريطانية الى الحرب لا للمحافظة على

الدول الاوربية الصغرى ولكن لمعانة الاتحاد السوفيتي ضد ألمانيا وهذه النتيجة قد ينقسم الرأى العام البريطانى حيالها • وكان هذا هو مايخشاه الروس فكلما كان يزداد حرص الانجليز على استقلال دول البلطيق كلما ازدادت مقاومة الروس له وكلما ازدادت معارضة الروس كلما ازداد تشكك الانجليز • لهذا لم يمكن الاتفاق على هذه المشكلة التى كانت الصخرة التى تحطمت عليها المفاوضات من الناحية الفنية لا لما لها من أهمية فى حد ذاتها ولكن لانها كانت تمثل وجه الخلاف الرئيسى بين الطرفين فبريطانيا كانت تريد ميثاقا يضمن سلامة الآخرين ويردع هتلر دون أن تقع الحرب بينما كان الروس يريدون حلفا يحميهم •

وقد أخذ الانجليز يتخبطون طيلة أسبوعين بعد أن وصلهم رد لتفينوف فبعثوا يستفسرون من بولندا ورومانيا عن نوع الاتفاقية التى تسمح لهم تلك الدولتان بعقدها مع روسيا السوفيتية فأجابا بأن فى استطاعة الانجليز أن يعقدوا ماشاءوا من معاهدات طالما أن ذلك لايتضمن بولندا أو رومانيا • كذلك حاول الانجليز الالتجاء الى العبقرية الدبلوماسية الفرنسية ولكن بونيه خيب ظنهم اذ صرح للسفير السوفيتى خلال حديث هام أن فرنسا تفضل عقد ميثاق للمعونة المتبادلة ومع ذلك تمسك الانجليز فى اصرار كبير • وفى ٨ مايو تقدموا باقتراح يقولون فيه أنه نظرا للضمان المقدم منهم لبولندا ورومانيا فان على الحكومة السوفيتية أن تتعهد أنه فى حالة اشتباك انجلترا وفرنسا فى حرب قياما بالتزاماتهما فان على الحكومة الروسية تقديم المساعدة فى الحال ـ لو طلب منها ذلك ـ وان تكون تلك المساعدة بالطريقة وبالشروط التى يتفق عليها • وهنا لانزال نجد فكرة الصنبور الذى يمكن انجلترا وحدها أن تتحكم فيه دون أن يترك تحت اشراف روسيا • وكان تقديم ذلك الاقتراح هو أول عمل لاقاه مولوتوف كوزير للخارجية ولم يكن فيه مايوحى بالثقة المتبادلة • فقد تغير الجو وان كان مولوتوف اعترف بأن سياسة روسيا لم تتغير • فلم تعد هناك مثل تلك التعليقات المرحة التى كان يعلق بها لتفينوف ولم تعد هناك تلك الابتسامات المتكلفة والاحاديث اللطيفة عند ذكر بيك وغيره من البولنديين وحل محل ذلك الاسئلة العنيفة مما أثقل كاهل السفير البريطانى • وفى ١٤ مايو رفض مولوتوف المقترحات البريطانية رسميا وطالب بضرورة عقد ميثاق للتعاون المتبادل وضمان بسلامة جميع دول أوروبا الشرقية سواء أرادت أم لم ترد ثم عقد اتفاقية محددة تعين نوع ومدى المساعدات •

وفى هذه المرة أقلعت الحكومة البريطانية عن الفكرة تقريبا بدافع اليأس أو من حيث المبدأ ولسنا نعرف تماما لماذا قررت أن تحاول من جديد فقد كانت لاتزال طبعا تتعرض للنقد فى مجلس العموم اذ قال لويد جورج فى ١٩ مايو : « لقد ظللنا شهورا طويلة ونحن نحملق فى فم هذا الحصان الضخم المهدى الينا • • • فلماذا لانبت فى الأمر وتقدم على العمل دون أن نضيع الوقت سدى فنصل الى اتفاق مع روسيا بنفس الشروط التى وصلنا اليها مع فرنســـــا ومثل تلك الآراء وان كانت مقنعة لم يكن يهتم بهـــا

تشمبرلين أو المحافظين فى المقاعد الخلفية بل أن العكس هو الصحيح • فالحقد على ألمانيا الذى جاء فى أعقاب احتلالها لمدينة براج كان آخذا فى الزوال فى حين أخذ العداء القديملروسيا السوفيتية يستعيد قوته خصوصا عندما لم يبد حكام السوفييت اهتماما عندما تنازلت بريطانيا وتقدمت لهم بالرجاء من أجل تقديمالمساعدة اليهم • وهكذا غطى عناد السوفييت على روح هتلر العدوانية ولكن كانت المشكلة لاتزال قائمة من ناحية أخرى وربما كان تذمر فرنسا وشكاياتها هى العامل الرئيسى فى دفع الانجليز الى الامام • فالفرنسيون كانوا مقيدين بمسئولياتهم تجاه بولندا ولكن كان تشكك انجلترا يحول بينهم وبين الاعتماد على قوة روسيا • ومما زاد الامور تعقيدا من وجهة نظرفرنسا أن البولنديين كانوا يعملون دائبين على توسيع مدى التزامات الحلف وتجديدها وكان غرضهم من وراء ذلك أن يحصلوا من الفرنسيين على التزام محدد فيما يتعلق بدانزج وهو الامر الذى كانيتحاشاه الانجليزكذلككان يطالب البولنديون ــ ولهم الحق ــ أنتلك المحالفة طويلة الامد يجب أن تعزز أخيرا باتفاق عسكرى وقد وقف كل مندلادييه وبونيه موقفا حازما فيما يتعلق بالنقطة الاولى اذ كانا يعتقدان أكثر مما يعتقد الانجليز أنه من المعقول جدا أن تعود دانزج الى حظيرة ألمانيا • ولكن الاثنين سلما ظاهريابالمطلب الثانى فأصدر دلادييه تعليماته الى جاملان ليبدأ التفاوض من أجل عقد اتفاق عسكرى وهو ماتم فعلا فى ١٩ مايو ولكن تلك الاتفاقية كانت رياء اذ كان يتوقف تنفيذها على الوصول الى اتفاق سياسى وهذا ماأرجئ البت فيه • كذلك كانت وعود فرنسا النظرية ناقصة فى حد ذاتها فقد وافق جاملان أن يقوم الجزء الاكبر من القواتالفرنسية بالهجوم اذا ماهاجمت ألمانيا بولندا ففهم البولنديون أن عبارة (الجزء الاكبر) تعنى كل جيش فرنسا وبعبارة أخرىتعنىوعدا بهجوم فرنسا أما جاملان فكان يعنى ــ أو هكذا يقول ــ اشتباك تلك القوات التى كانت فى ذلك الوقت ترابط فى خط ماجينو ومعنى ذلك مجرد عمليات حربية على الحدود •

ومن العجيب أن نرى البولنديين يقتنعون بمثل تلك السهولة غير أنهم وقد طغت عليهم الاوهام فيما يتعلق بقوتهم لهذا كان يسهلعلى الآخرينخداعهم أو ربما لم يكونوا يتوقعون حدوث صراع شامل اذ ظلوا واثقين حتى النهاية انهم قادرون على كسب حرب الاعصاب وقد سر بونيه بما قام به من مراوغة أما دلادييه ــ كعادته ــ فكان يستشعر الخجل والضيق بسبب مافعله • فى تلك اللحظة بالذات وصل هاليفاكس الى باريس فى طريقه الى جنيف فوجد دلادييه حانقا على البولنديين وعلى وشك أن يفلت زمامه اذ كان يرغب فى عقد ميثاق صريح بالتعاون المتبادل مع روسيا السوفيتية • فلما عارض هاليفاكس فى ذلك بحجة أن بريطانيا وفرنسا سوف تجدان نفسيهما ملزمتين بدخول الحرب لو أن ألمانيا هاجمت روسيا بموافقة بولندا أو رومانيا أو بتغاضيهما أجاب دلادييه بقوله انه فى تلك الحالة سوف تكون فرنسا مرتبطة بالميثاق الفرنسى السوفييتى واذا كان الامر كذلك فسوف يكون من المستحيل على انجلترا قطعا أن تقف مكتوفة الايدى ، ولم يكن هذا يبشر بالخير من وجهة نظر انجلترا وكان آخر ماتريد انجلترا أن تفعله هو أن تكون طرفا ثالثا فى حلف فرنسى سوفيتى يبعث من جديد •

وكان المخرج الوحيد هو قبول ميثاق للتعاون المتبادل من حيث المبدأ ولكن عند ذلك توضع القيود على طريقة تطبيقه وقد وافق مجلس الوزراء البريطانى على انتهـــاج ذلك السبيل فى ٢٤ مايو ٠

عند ذلك تغيرت طبيعة المفاوضات مع موســكو ٠ ففيما مضى كان البريطانيون يتفاوضون وحدهم بينما كان الفرنسيون يقفون جانبا فى انتظار النتيجة أما منذ الآن فان كل خطوة تتخذ لابد وأن تكون بموافقة فرنسا أولا ولكن بعد تأخير طويل ومع ذلك فقد كان الفرنسيون يقفون فى صف الروس كلما تقدموا بأى اعتراضـــات ٠ وهكذا دفع الانجليز دفعا لاستجابة المطالب الواحد بعد الآخر وكان عليهم أن يزدردوا كل عبارة يقولها الروس على كره منهم ٠ أما فى النقط الرئيسية فلم يكونوا يتزحزحون اذ كان يرفضون أى تفسير لعبارة « عدوان غير مباشر » يمكن أن يسمح لروســـيا ـ لا للدولة المهددة ـ أن تقررما اذا كان ذلك الهجوم قد وقع ٠ فدول البلطيق ما كانت لتقدم لهم المساعدة رغم ارادتهم ٠

وكان ظاهر الامور يدل على أن ذلك دفاعا عن استقلال الدول الصغرى أمااختلاف وجهات النظر فكانت أعمق من ذلك بكثير فالانجليز يريدون التعاون مع روسيا فى حالة واحدة فقطوهىأن يقع هجوم على بولندا وأن توافق على قبول المساعدةالسوفيتية والا فان على الروس أن يدخلوا الحرب وحدهم ٠ وقد استغرقت تلك المفاوضات المعقدة شهرين من الزمن من ٢٧ مايو الى ٢٣ يوليه ومع ذلك بقيت العقبة الكأداء دون أنيمكن التغلب عليها ولكن مولوتوف دار حول تلك العقبة عندما اقترح البدء فى المحادثات العسكرية أملا فى أن تحل مشكلة « العدوان غير المباشر » نفسها بنفسها ٠ وقد تلقف الفرنسيون تلك الفرصة فقد كانوا دائماعلى استعداد لقبولشروط السوفيت السياسية لو أنهم حصلوا فى مقابل ذلك على تعاون عسكرى ثابت الاركان أما الانجليز فقـــد اضطروا مرة أخرى للموافقة تحت ضغط الاحتجاج ولكنهم لم يســـلموا فيما يتعلق بالمشكلة الرئيسية فطالما كانت المحادثات العســكرية جارية فان الانجليز ـ كما قال هاليفاكس ـ ماكانوا يستطيعون أن يقفوا موقفا به شىء من التصلب فيما يتعلقبالناحية الوحيدة التى كانوا يعلقون عليها أهمية كبرى ٠ فموقف التصلبلم تكن له ضرورة وقد أوقفت المفاوضات السياسية ولم تستأنف بعد ذلك بصورة جدية٠ أمامشروع المعاهدة التى استغرقت كل ذلك المجهود لحلقها فلم يقدر لها أن يوقع عليها أحد ٠ اذ تجمعت البعثتان العسكريتان الانجليزية والفرنسية على مهل ثم اتجهتا الى لننجراد وبطريق البحر ـ على مهل كذلك وقد قيل أن البعثتين لم تســـتطيعا اختراق الاراضى الالمانية بطريق السكة الحديد ثم رتبت المصادفات العجيبة عدم وجود طائرات لهذا الغرض وكان تصرف الانجليز مما يوحى بأن أمامهم فسحة من الوقت لانهاية لها ٠ فما أن وصلت البعثتان العسكريتان الى موسكو حتى أحاقت بهم الازمة الاخيرة ٠

هل كانت لتلك المفاوضات التى لا نهاية لها أسباب تستند اليها من التعقل أو الحقائق ؟ تدل الأمور على أنه لم يكن هناك شىء من ذلك أما المؤكد فهو ان سير تلك

المفاوضات قد زاد من التشكك المتبادل زيادة كبرى ففي آخر يوليه كان الروس قد اقتنعوا بما لا يحتمل الشك ان الانجليز والفرنسيين انما كانوا يحاولون اغراءهم بدخول حرب ضد ألمانيا بينما تظلان هما على الحياد والغريب جدا ان البريطانيين من جانبهم ما كانوا يتوقعون أى اتفاق بين روسيا وألمانيا فظلوا على اعتقادهم من ان الحواجز العقائدية بين البلدين كانت أكبر من ان يتخطاها أحد حتى ولو ضعف ايمان الحكام السوفيييت بالشيوعية وكان يظن ان هتلر لن يضعف فى محاربته للشيوعية. وقد أبرق هاليفاكس الى موسكو فى ٢٨ يوليه يقول « لم يعد هناك الآن تدهور وشيك الحدوث في الموقف خلال الاسابيع الحرجة القادمة فهل كان لهذا الجهل بالامور ما يبرره ؟ وهل كان يجب على الانجليز أن يتشككوا فى تصرفات الروس حيال ألمانيا بقدر ماكان الروس يتشككون فى تصرفاتهم ؟ وهل كان لتشكك الروس ما يبرره فى هذه الناحية ؟ كل تلك أمور لم يمكن الوصول الى اسرارها ولم تستطع اعادة النظر فيها من استجلاء غوامضها . فعندما نشرت السجلات الالمانية ظهر ما يدل على أن بريطانيا وروسيا كليهما ظلتا علىاتصال بألمانيا وهنا هلل كل منالطرفين أن اشتراكهما فى تهمة الخيانة كان أمرا حقيقيا على أنه ليس هناك من دليل قاطع يعلل النتائج الضخمة التى ترتبت على ذلك فالمبادأة أيا كان شكلها كانت تصدر عن الالمان أما ممثلو انجلترا وروسيا فلم يفعلوا أكثر من الاصغاء الى مايقدم اليهم ونقده .ومن المسلمبه أنأحدا منالجانبين لم يبلغالآخرماوجه اليه من دعوة للتنكر للقضية المشتركة وربما كان تصرف كل جانب قد دفع عنه كل سبب للشكوى وعلى أى حال فقد كانت محادثات الجانبين مع ألمانيا يراد منها التأكد من بعض الامور وليست الهدف الرئيسى لدبلوماسية أى منها .

وهذا الامر يبدو جليا في الجانب السوفييتي . اذ كان يبدو دائما ان هناك عنصرا يميل للالمان بين مستشارى الروس وهم رجال سبق لهم أن نظموا تجارة روسية المانية مزدهرة وماركسيين مؤمنين يبغضون الارتباط بمجرمى الاحلاف وروسيون من المدرسة القديمة الذين لم يكونوا يفكرون الا فى آسيا ويريدون أن يديروا ظهورهم لأوروباوكان هؤلاء يتلقون الايحاء لاقامة علاقات روسية ألمانية أحسن وكانوا هم أنفسهم على استعداد للقيام بمثل هذا الايحاء وليس محتملا أن هؤلاء كانوا يتلقون التوجيه من الكرملين وكان ما يبدر من آرائهم لا يشير الى شىء عن السياسة السوفيتية وقد تكشف الاحداث عما هو أكثر . فالشرق الاقصى كان عاملا ذا أثر كبير على الروس وان كان مما يدعو للغرابة ان هذا الامر لم يأت ذكرهخلال المفاوضات مع بريطانيا وفرنسا . وتلك لم تكن مشكلة فرضية من مشاكل المستقبل فالشرق الاقصى كان يضطرب بالغليان حتى فىذلك الحينففى صيف١٩٣٩ اصطدمتالقوات السوفيتية بالقوات اليابانيةعلىالحدود بينمنشوريا ومنغوليا الخارجية وقد تطور الامر الى حرب حقيقية حتى هزم اليابانيون فى نوموتهان فى أغسطس بعد أن تكبدوا من الخسائر حوالى ١٨٫٠٠٠ رجل ولم يكن مما تستسيغه الحكومة السوفيتية ان ترى الانجليز يرضخون لما لحقهم من اذلال علىأيدى اليابانيين فى تيين سن بينما تتجه أنظارهم الى أوروبا ولابد أنها قد رحبت بالخبر ـ ان كان قد بلغهاـ من أن المفاوضات بين ألمانيا واليابان قد تراخت. فروسيا السوفيتية لم تكن تبغى سوى

تأمين سلامتها فى أوروبا ومما يدعو للدهشة انها لم تسع لذلك بالاتفاق مع ألمانيا أما تفسير ذلك فيبدو على السطح وهو أن ساسة السوفييت كانوا يخشون قوة ألمانيا ولا يأمنون جانب هتلر فكان التحالف مع الغرب هو أسلم الطريقين طالما كان يحقق الامان لروسيا لا لمجرد زيادة الضمانات لمعاونة بولندا دون أن تكون راغبة فى ذلك فلا حرج علينا حين نقول أن الحكومة السوفيتية قد ولت وجهها شطر ألمانيا عندما وجدت أن التحالف مع الغرب لم يكن ممكنا ذلك لاننا لانملك الدليل المباشر على عكس ذلك وهو دليل منعدم فعلا فيما يتعلق بالسياسة السوفيتية ·

تلك كانت وجهة نظر الالمان الذين كانوا ينادون باقامة علاقات أحسن مع روسيا السوفيتية · ولقد كان هؤلاء أيضا رجالا من المدرسة القديمة ممن كانوا يعتبرون من ورثة سياسة بسمارك من القادة والدبلوماسيين الذين صنعوا سياسة رابالو فقد كانوا يقولون بأنهم لايملكون سوى الانتظار حتى يتاح لهم مخرج ملائم كما أنه كان عليهم السير فى حذر فى طريقهم · لقد ناصب هتلر روسيا العداء فى ١٩٣٤ ومنذ ذلك الحين لم يجرؤ أحد على معارضة موقفه المعادى للشيوعية · وبدلا من ذلك حاول اصحاب الميول الروسية أن يبرزوا مميزات التجارة الروسية وقد انتعش ذلك الاتجاه بعض الشىء فى الفترة التى تخلص الروس فيها من أوهامهم مع الغرب فى أعقاب تسوية ميونيخ ثم تراخت حدة ذلك مرة ثانية بعد احتلال الالمان لمدينة براج ومع ذلك ظل خبراء التجارة من السوفييت والالمان يرغبون فى التعاون كما ظلوا يوالون الاجتماع من وقت لآخر · ولا شك أن كلا من الجانبين كان يعزو المبادأة فى هذه الصلات الى الجانب الآخر حتى لا يثير غضب سادته · ولقد حدثت أول حركة جدية فى آخر مايو وما من شك أن ذلك كان من الجانب الألمانى اذ أن شولنبرج السفير الألمانى فى موسكو مع وزساكر وزير الدولة قد أظهرا الرغبة فى اتباع سياسة رابالو القديمة وأرادا أن يقدما عرضا سياسيا مغريا · وفى ٢٦ مايو حددت وزارة الخارجية الألمانية الشروط فقالت أن ألمانيا سوف تتوسط بين روسيا واليابان مع توجيه الاهتمام الأكبر بمصالح الروس فيما يتعلق ببولندا غير أن مشروع الاتفاقية قد ألغى وربما كان ذلك بتعليمات من هتلر ذاته بدعوى أن أى عرض كهذا « قد يقابل بعاصفة من الضحك من جانب هؤلاء التتار» ·

بعد ذلك سادت فترة من السكون وفى ٢٩ يونيه حاول سولنبرج أن يقوم بالاتصال من تلقاء نفسه فلم يتلق من مولوتوف الا تأكيدا بأن روسيا انما تريد أن تكون على علاقات طيبة مع جميع الدول بما فى ذلك ألمانيا ثم قال ريبنتروب بعد ذلك أن هذا كان فيه الكفاية غير أن المحادثات التجارية بين الدولتين استؤنفت · وفى أواخر يوليه اتخذ ريبنتروب تلك المحادثات ذريعة لاثارة موضوعات سياسية كذلك ففى ٢ أغسطس أبلغ القائم بالأعمال السوفييتى أنه ليست هناك مشكلة فيما بين البلطيق والبحر الأسود الا ويمكن حلها بين الدولتين · وفى اليوم التالى وجد شولنبرج أن مولوتوف كان واسع الصدر بصورة غير عادية وعلى استعداد لتعاون اقتصادى أما من الناحية السياسية فلقد كان مولوتوف على عادته من صلابة الرأى وأخذ يشكو من أن

ألمانيا كانت تشجع اليابان وأن الوصول الى حل سلمى لمشكلة بولندا انما يتوقف على ألمانيا وأن الدلائل على تغير الموقف كانت لاتزال غير موجودة وقد لخص ذلك شولنبرج حين قال :

ان شعورى العام يوحى بأن الحكومة السوفيتية مصممة فى الوقت الحاضر على عقد اتفاق مع بريطانيا وفرنسا لو أنهما استجابا لجميع رغبات السوفييت وان تغيير السياسة التىتنتهجها الحكومة السوفيتية سوف يتطلب جهدا كبيرا من جانبنا . ان شولنبرج كان خير رجل أجنبى يحكم على السياسة السوفيتية ففى ٤ أغسطس كان لايزال يعتقد أن روسيا تعتزم عقد محالفة مع الدول الغربية . ومن الطبيعى أن هتلر ربما كان قد رتب كل شىء فعلا بطريقة سرية مع ستالين لم يمكن اكتشاف امرها . غير انه اذا دلت الدلائل على شىء فانما تدلعلى أن التوفيق بينروسيا السوفيتية والمانيا كان أمرا مرتجلا من جانب الالمان ولم يكن موضع تفكير منذ زمن طويل .

ان سياسة المسالمة من جانب انجلترا كانت كذلك سياسة مرتجلة فى الغالب مع فارق هو أن تسوية سلمية مع هتلر مقابل اجابة مطالبه الكثيرة كانت هى الغرض الذى ترمى اليه السياسة الانجليزية ولكن ساسة انجلترا انتظروا من أجل هذا الغرض حتى يحسنوا من مركزهم فى المساومة اما بالحصول على تحالف مع روسيا السوفيتية أو بحمل البولنديين على قبول تسوية بشأن دانزج ولكن لم يتحقق واحد من هذين الهدفين حتى نهاية شهر يوليه عند ذلك لم يقم تشمبرلين وهاليفاكس بأى اجراء سوى التحدث عن سياستهما بصورة عامة . كذلك ظل هتلر ينتظر أملا فى أن لاتتحقق آمال بريطانيا فيما كانت تبتغيه من روسيا وبولندا وعندها يمكنه هو-أيضا أن يساوم بشروط أفيد له . والواقع أنه لم تكن هناك اتصالات دبلوماسية رسمية بين انجترا وألمانيا بين نهاية شهر مارس وبين منتصف أغسطس اذ أن هندرسون لم يقابل ريبنتروب ناهيك بهتلر كما أن محادثاته مع وزساكر لم تحرز شيئا من التقدم لانه لم يكن فى وسع وزساكر أن يتقدم بها وقد أثار ريبنتروب عقبة لا يمكن التغلب عليها تقريبا فهو عندما كان سفيرافىلندن قبلأنيصبحوزيرا لخارجية ألمانيا كانيفخر كل الفخربأنفى استطاعته تقريب وجهات النظر بين انجلترا وألمانيا ولكنه فشل فى ذلك فصمم على أن لايمكن أحدا من النجاح فيما فشل هو فيه . فان خليفته دركسن لم يتلق أى تعليمات كما كانت تقاريره تقابل بالاهمال وان كانت لم تقابل فى الواقع بالاستنكار وقد ظل ريبنتروب يردد لهتلر أن الانجليز سوف لايرضخون لغير التهديدات ولن يستمعوا لنداء التوفيق وكان هتلر على استعداد ان يصدق ما يقول .

ولم تكن تلك الافكار تلقى استحسانا عاما فى دوائر النازى العليا فكان جورنج يريد تجنب وقوع الحرب لوكان ذلك ممكنا بأى حال وذلك بالرغم من كثرة ضجيجه وتهديداته . فلقد نال كفايته من المجد فى الحرب العالمية الاولى وهو يحيى الآن حياة الأبهة التى كان يستمتع بها أباطرة الرومان وكان يحب أن يظهر بمظهر المتحدث بلسان قادة الالمان العسكريين الذين كانوا هم أيضا يخشون الحرب وربما كان جورنج ــ بما

كان مفروضا فيه أن يشرف على الاقتصاد الالمانى ـ قد أدرك أن المانيا لم تكن على استعداد لمواجهة حرب عامة • ولقد كان اتصال ألمانيا بروسيا السوفيتية وبريطانيا يتم عن طريق المستشارين الاقتصاديين وفى هذا دليل قاطع على أن الحرب العالمية الثانية لم تترتب على أسباب اقتصادية • وكان أول اتصال لجورنج ببريطانيا عن طريق رجال الاعمال السويديين الذين سبق له أن تعرف اليهم أيام ان كان منفيا فى السويد وسرعان ما استجاب لهذه الرغبة رجال الأعمال الانجليز • ولقد استدرج هؤلاء الوسطاء الى مدى خطير بعيد اذ أخذوا يبالغون فى مقدار استعدادهم للتوفيق بين وجهات النظر بنفس الطريقة التى يقحم الهواة بها أنفسهم فى خضم الدبلوماسية • ومع ذلك كان تحفظ هاليفاكس فى الاستجابة يحدد موقف انجلترا تحديدا واضحا اذ كان يدل على أنه لم تكن هناك صعوبة فى الاستجابة لرغبات هتلر لو أنه أظهر استعدادا لاقرار السلام فيما بعد هذا هو ماقاله هاليفاكس قبل نوفمبر ١٩٣٧ بزمن طويل وكان يحدد مواطن الصراع الحقيقى بين الجانبين • وكان لكلا الجانبين قضية جديرة بالاعتبار فكان الانجليز يقولون أنه لم يكن هنا ما يدعو للاستجابة لمطلب هتلر ـ بل ان هناك خطرا كبيرا ـ بينما هو لا يفتأ يلوح بتهديداته بعد كل صفقة وكان هتلر يرد على ذلك بنفس الحجة القوية فيقول انه انما حصل على مطالبه المعقولة التى أخذ هاليفاكس يتكلم عنها فقط عندما بدأ هو فى تهديداته ودليل ذلك ماحدث فى مسائل النمسا وتشكوسلوفاكيا ودانزج فاعادة النظر فى الاوضاع القائمة بطريقة سلمية وهو ما كان يتمناه كلا الجانبين من الناحية النظرية كان متناقضا فى شروطه وفكرة تسوية الاوضاع القائمة انما خلقت كوسيلة لتجنب وقوع الحرب ولكن تحقيقها لم يكن مستطاعا الا بوسائل تقرب وقوع الحرب •

لم يكن لدى وسطاء السويد غير الرسميين ما يبين جهودهم ولو أن أحدهم وهو (دهليراس) بقى حتى لعب دورا هاما فى الازمة النهائية أما (وهلتات) أحد الوكلاء الاقتصاديين الرئيسيين لجورنج فقد سار بالمفاوضات الى مستوى أكبر من الناحية العملية اذ كان شخصية هامة سبق له أن مكن ألمانيا من بسط سلطانها الاقتصادى على دول البلقان وكان دائم التحدث عن حاجة ألمانيا للمواد الخام وما يعوزها من رؤوس الاموال وكان هذا هو الحديث الذى يروق فى نظر كثير من الانجليز الذين يوافقون على الفكرة السائدة فيما يتعلق بأسباب الحرب الاقتصادية • وكان وهلتات فى لندن بين ١٨ ، ٢١ يوليه حيث قابل سير هوراس ولسون وهدسون سكرتير ادارة التجارة الخارجية • وقد أكد هذان الانجليزيان ماسوف يعود على ألمانيا من خير كثير لو أنها تخلت عن سياستها العدوانية وعقدت صفقة مع انجلترا وأخذ هدسون يلوح أمام عينى وهلتات باحتمال الحصول على قرض بريطانى ضخم ـ قدر فى رأى البعض بألف مليون من الجنيهات ـ ليأخذ بيد ألمانيا فى متاعبها الخاصة بالتسلح ثم أضاف الى ذلك قوله : « ان دانزج فى أوروبا المعبأة بالجيوش شىء ودانزج فى أوروبا منزوعة السلاح والمنصرفة الى التعاون الاقتصادى شىء آخر » وقدم ولسون مذكرة على ورقة مطبوع فى اعلاها ١٠ داوننج ستريت وقد اختفت هذه من سجلات بريطانيا وهو أمر لايدعو

للدهشة وقد تضمنت المذكرة اقتراحا بعقد معاهدة انجليزية ألمانية تنص على عدم الاعتداء وعدم التدخل ثم اتفاقية لنزع السلاح وكذلك للتعاون فى التجارة الخارجية . وان ميثاقا كهذا سوف يمكن بريطانيا من التخلص من التزاماتها حيال بولندا . ويقال عن ولسون انه كان يجهل ما يتعلق بالشئون الخارجية ولكن لم يتهمه أحد بعدم الاخلاص لرؤسائه السياسيين لهذا فاننا لانرى ما يقوم دليلا على أن تلك المقترحات قدمت دون علم من تشمبرلين وموافقته وليس هذا هو وحده موضع العجب فالمقترحات كانت تمثل برنامجا للتعاون البريطانى الالمانى وهو ما كان تشمبرلين يأمل فيه دائما. ولكن ولسون أوضح أن هناك شرطا يجب تحقيقه أولا هو أن المسائل المعلقة بين ألمانيا وبولندا يجب تصفيتها عن طريق المفاوضات السلمية .

ان الحكومة البريطانية ليلتمس لها العذر لاستمرارها فى توكيد المكاسب التى سوف تعود على ألمانيا اذا انتهجت سياسة المصالحة أما خطأ انجلترا فله موضع آخر هو تقصيرها فى الافصاح عما كانت تعتزم القيام به لو أن هتلر سلك السبيل المخالف . فالخطب التى كان يلقيها تشمبرلين وهاليفاكس لم تكن لها قيمة تذكر فقد سمع هتلر مثل هذا الكلام فى العام السابق وعلم مقدار قيمته فى ذلك الوقت . كذلك لم يكن يهتم كثيرا بالمفاوضات الطويلة مع روسيا السوفيتية . وربما كان هتلر يهتز لو أن محالفة عقدت فى الحال أما انقضاء ثلاثة شهور فى الاخذ والردفلم تكن نتيجته الا ازدياد الثقة بنفسه . وقد ظل هندرسون فى برلين ومن العسير أن نقول بأن عداءه للبولنديين قد عبر عنه فى خطاباته الشخصية فقط التى كان يرسلها لانجلترا كذلك لم يكن ينقص انجلترا النصائح الحكيمة . ففى أوائل يوليه كان كونت فون شويرين فى زيارة لانجلترا وهو من رجال وزارة الحربية الالمانيةوقد قال هناك فى صراحة : «ان هتلر لم يكن يهتم بالأقوال وانما اهتمامه بالأعمال وحدها» وكان يجب على انجلترا ان تقوم بعرض بحرى فى بحر البلطيق ثم استدعاء تشرشل لتأليف الوزارة كما كان يجب عليها أن ترسل بقواتها الجوية الضاربة الى فرنسا . غير ان تلك النصيحة لم يعرها أحد اهتماما . فالناس لا يستطيعون تغيير طبائعهم مهما غيروا من الفاظهم . وقد كان رجال السياسة فى انجلترا يحاولون اقامة توازن بين الصلابة وبين المصالحة ولما كان هذا هو طبعهم فلم يكن هناك بد من أن يخطئوا الهدف .

ولقد رسمت المفاوضات التى دارت بين وهلتات وولسون صورة لا بأس بها عن وجهة نظر تشمبرلين ولكن لم يكن لها أثر خطير فى ألمانيا . وربما تأثر بها جورنج بعض الشيء أما روبنتروب فلم يزد على أن وجه اللوم الى ديركسن لسماحه بتلك المفاوضات أما هتلر فليس من المحتمل أن يكون قد سمع بذلك اطلاقا . وبالرغم من قلة أهمية المفاوضات التى دارت بين هدسون ووهلتات الا أنها أثارت جوا من الاضطراب فقد تسربت انباؤها للصحافةوربما كان ذلك من جانب انجلترا أما لماذا سمح لهذه الانباء أن تتسرب فهذا ما لا يعرف حتى الآن وربما كان ذلك مجرد ثرثرة من جانب هدسون وربما كان أمرا متعمدا قصد به نسف المفاوضات من روسيا السوفيتية فقد كان هناك كثيرون من جانب الحكومة يتمنون ان يحدث ذلك . وقد أدى تسرب الخبر الى توجيه

بعض الاسئلة فى مجلس العموم ولما أخذ تشمبرلين يجيب عليها جعل تصميمه على مقاومة ألمانيا أقل اقناعا عما كان فعلا • وفى نفس الوقت تجاهلت روسيا الامر ثم جعلته فيما بعد ذريعة لما قامت به من أعمال مع هتلر • ان المؤرخ لا يعير اهتماما كبيرا للاتهامات المتبادلة فلقد أصغت كل من انجلترا وروسيا بكل اهتمام للاتصالات التى قام بها الالمان وحتى آخر يوليه كانت انجلترا هى أكثر الدولتين اهتماما بالامر • ومع ذلك فان مفاوضاتها من أجل عقد محالفة لم يكن فشلها بدوافع ألمانية وانما فشلت لعدم امكان الوصول الى اتفاق فكلا الطرفين كان يريد الوصول الى اتفاقية ولكن ليس نفس الاتفاقية• فالانجليز كانوا يريدون صورة معنوية تمكنهم من الوصول الى تسوية مع هتلر بشروط أحسن أما الروس فكانوا يريدون محالفة عسكرية محددة للتعاون المتبادل بحيث يمكن بواسطتها ردع هتلر أو تأكيد هزيمته • ولقد كان الانجليز يخافون على بولندا أما الروس فكانوا يخافون على أنفسهم اذ أن ما كان يؤرق مضاجعهم هو غزو المانى يوجه الى روسيا لامجرد ميل ميزان القوى فى أوروبا لصالح ألمانيا فكانوا يبحثون عن أحلاف أما ما نالوه فلم يكن سوى فقد حريتهم فى العمل •

فهل كان ابرام أى اتفاق بريطانى سوفييتى سوف يترتب عليه مثل هذاالخلاف الكبير ؟ ان الاتفاقيات تكون كبيرة القيمة عندما تعبر كتابة عن مصالح الشعوب الحقيقية أما بدون ذلك فانها انما تؤدى الى الفوضى والكوارث كما حدث فى المحالفات الفرنسية فلم يكن معقولا فى ظروف عام ١٩٣٩ ان تلزم بريطانيا نفسها بشكل قاطع لارجوع فيه بالدفاع عن روسيا ضد ألمانيا كما لم يكن معقولا أن تلزم روسيا نفسها بالدفاع عن الأوضاع القائمة • ولقد أصبحت بريطانيا وروسيا حليفتين فى النهاية غير أن ذلك لم يكن لمبدأ أو عقيدة بل لأن هتلر هو الذى جعل تلك المحالفة أمرا محتوما • فعندما جاء عام ١٩٤١ كان هتلر قد فقد فضيلة الصبر فاندفع وراء هدف جديد قبل أن يحقق هدفه الأول • ففى عام ١٩٣٩ كان لايزال استاذا فى فضيلة الصبر • فغيره من الالمان ممن هم أقل منه كان يتملكهم القلق فيرسلون بمن يتنسم الاخبار فى موسكو ولندن أما هتلر فكان يلتزم السكون • فالمفاوضات البريطانية السوفيتية لم تقف العروض الالمانية فى سبيل نجاحها دائما وانما وقف فى طريقها عدم وجود تلك العروض • ولقد كان البدء فى تلك المفاوضات يعتبر حركة فى حرب الاعصاب وكان يقصد بها زعزعة تصميم هتلر ولكنها على العكس قوت من شأنها اذ قامر هتلر على فشل تلك المفاوضات فأصاب للمرة الثانية ولم يكن يعتمد فى ذلك على معلومات أو بيانات معقولة ولكن على حاسته السادسة كما كان يفعل دائما وقد صاحبه التوفيق • فحرب الاعصاب كانت أكثر شىء يعرفه فلما حل شهر أغسطس ١٩٣٩ كان يبدو وكأنه أحرز نصرا ثانيا فى تلك الحرب وليس يهم ان نقول ما اذا كان قيام حلف بريطانى روسى كان يمكن ان يحول دون وقوع الحرب ولكن الفشل فى تحقيق ذلك الحلف قد ساعد كثيرا على نشوب تلك الحرب •

الفصل الحادى عشر

الحرب لأجل دانزج

لقد كانت أزمة أغسطس سنة ١٩٣٩ التى أدت الى اشعال نار الحرب العالمية الثانية صراعا من أجل دانزج كما يظهر • وقد بدأ هذا الصراع فى أواخر أيام شهر مارس عندما بدت المطالب الالمانية الخاصة بدانزج والمرورفضها البولنديون ومنذ تلك اللحظة انتظر كل انسان أن تكون دانزج الحادث الثانى لموضوع الصراع الدولى مع أنه لم تكن هناك مفاوضات بشأن دانزج كما حدث فى الازمات السابقة ولم تبذل محاولات لحلها أو تحويل الضغط الذى نجم عنها • وهذا السكون الغير مألوف نجم جزئيا عن الموقف المحلى فى دانزج ولم تغير كل من بولندا أو ألمانيا من موقفها وكانت أى خطوة من أحدهما ربما سببت الانهيار الشبيه بسقوط الكتل الثلجية من مكان عال وعلى ذلك فلم تكن هناك مناورات أو مساومات مثل تلك التى ميزت أزمة تشيكوسلوفاكيا • وقد عمل السوديت النازيين مثل النمساويين من قبل على زيادة التوتر تدريجيا فى دانزج دون أخذ رأى هتلر الذى كان يعمل على كبح جماحهم ولقـد كسب النازى دانزج داخليـا وأصبح السناتو (أعضاء الشيوخ) فى المدينة الحرة تحت سيطرتهم ولكن هتلر لم يكن يستطيع الاستفادة من هذا الموقف • فاذا تحدى نازيو دانزج علانية معاهدة الاقامة بالتصويت بالانضمام لالمانيا فان البولنديين يـكون لهم الحرية فى التدخل بموافقـة حلفائهم الغربيين وسيكون لهذا التدخل أثره اذ أن دانزج كانت معزولة عن بروسيا الشرقية ــ المقاطعة الالمانيــة الوحيدة المجـاورة لنهر الفستولا الذى لم يكن عليه أى كوبرى بينما يسيطر البولنديون على ثلاثة خطوط حديدية وسبعة طرق مؤدية اليها • اذن لن تكون هناك مساعدة لدانزج الا عن طريق الحرب التى كان قد استعد لها هتلر عندما نضجت استعداداته العسكرية بنهاية شهر اغسطس •

وحتى ذلك التاريخ كانت دانزج تحت رحمة البولنديين الا انهم لم يستفيدوا من ذلك لمصلحتهم فرغم أنهم كانوا حلفاء لبريطانيا وفرنسا فقد فشلوا فى اعطاء أى وعد صادق للمساعدة من أجل دانزج نفسـها لأنهم كانوا يعلمون أن كلا الحليفتين كانت تعطف على القضية الألمانية ولم يكن أمامهم الا انتظار وقوع ما يهدد استقلال بولنـدا نفســها •

وتحت نفس الظروف كان خصمى هتلر السابقين شوشنيج وبنيش قد فكرا فى طريق للتخلص من الازمة بمحاولة ايجاد الحلول لها ولكن البولنديين واجهوا الموقف بجأش ثابت واثقين بأن هتلر سيعامل معاملة الشخص المعتدى وعندئذ تعود الامور الى مجاريهـا فى دانزج •

ولذا لم يستجيبوا لاثارات النازى كما تجاهلوا الاحتجاجات التى وصلت اليهم من الغرب ٠

وقد تذرع هتلر والبولنديون بمركز وطيد فى حرب الاعصاب وذلك من وجهة نظر السياسة العليا ٠ وبعد ٢٦ مارس لم يذكر هتلر مطالب خاصة بدانزج وظل الحال كذلك حتى اليوم السابق لنشوب الحرب ولا يدعو ذلك للغرابة اذ كانت هذه طريقة هتلر ٠ فقد انتظر العروض من شوشنيج فيما يختص بالنمسا كما انتظرها من بنيش وتشمبرلين وأخيرا من تشيكوسلوفاكيا فى مؤتمر ميونيخ ولم يكن انتظاره عبثا٠ ألم يقدر هذه المرة ان ليست هناك مطالب ترجى من البولنديين ؟ لقد أوضحت الوثائق ذلك ٠ ففى ٣ أبريل أعطى تعليمات بالاستعداد لغزو بولندا على أن تتم العملية فى أى وقت اعتبارا من أول سبتمبر سنة ١٩٣٩ وبعد ذلك بأسبوع اشار الى أن هذه الاستعدادات من باب الاحتياط « اذا ما غيرت بولندا سياستها واتخذت وجهة تهديدية تجاه ألمانيا » ومع ذلك ففى ٢٣ مايو تحدث بتحرز أقل الى جمع من القادة فقال « سننشب الحرب وواجبنا عزل بولندا كما يجب أن لا يكون لها اتصال مع الغرب » وهذا واضح تمام الوضوح ولو أن خطط هتلر الحقيقية لا يمكن تبيانها بسهولة ٠ لقد تحدث بمثل تلك الصراحة عن الحرب ضد تشيكوسلوفاكيا فى سنة ١٩٣٨ الا انه كان من المؤكد حينئذ انه ينشد النصر فى حرب الاعصاب ٠ والآن كانت الاستعدادات تجرى للحرب سواء تم النصر عن طريق الحرب أو الدبلوماسية ٠ ولما تحدث هتلر مع قادته لم يظهر حقيقة ما يجول بذهنه ٠ وكان يعرف ان القادة يبغضونه ولا يثقون به ٠ كما يعرف أن بعض القادة قد رسموا خطة لابعاده فى سبتمبر سنة ١٩٣٨ ومن المحتمل انه كان يعلم انهم كانوا على اتصال دائم بالسفارتين الانكليزية والفرنسية لدق ناقوس الخطر وقد أراد هتلر أن يغير من شعور القادة وأن يخيفهم ٠ وفى ٢٣ مايو لم يتكلم هتلر عن الحرب ضد بولندا التى كان قد صمم عليها ولكن ضد الدول الغربية ومما لا شك فيه أن ذلك لم يكن فى خطته ٠ ثم حدث ما كان هتلر يتوقعه ٠ فلم يكد مؤتمر ٢٣ مايو ينتهى حتى كان القادة ابتداء من جورنج الى مادونه يتوسلون الى الدول الغربية فى أن تكون الحكمة رائد بولندا قبل أن تضيع الفرصة ٠ وتوحى تصرفات هتلر الأخيرة بأنه لم يكن فى قرارة نفسه مصمما على ما قاله فى ٢٣ مايو فقد ظل الى اللحظة الأخيرة ينتظر عروض بولندا وربما لم يتوقع انهيار أعصابها الا انه كان يتوقع أن يضغط عليها الغرب كما سبق أن حدث مع بنيش سنة ١٩٣٩ ٠ ولم يكن ليتنبأ هتلر كيف ستلين أعصاب الغرب ولا الأثر الذى سيحدثه الغرب على بولندا ٠ ولم يكن يهم هتلر استجابة بولندا دون حرب أو أن تترك منعزلة للدمار اذ أن النتيجة واحدة فى كلا الحالتين ٠ ولم يكن هتلر ليشك فى انهيار أعصاب الغرب ونظرا لاقتراب فصل الصيف فقد دلت الدلائل على أن هتلر كان مترقبا سير الاحداث وقد حدث انهيار فى المفاوضات الانكليزية الفرنسية السوفيتية وقد كان هتلر على يقين بفشل تلك المفاوضات ويتضح ذلك من تلك القصة العجيبة ٠ وكيف جاء ذلك التوكيد لهتلر ؟

ولماذا بذل الجهد للاقتراب من روسيا وكيف تأكد من أن الروس سوف ينضمون الى جانبه من تلقاء أنفسهم ؟ هل كان لديه وسائل سرية لجمع المعلومات لا يتسنى للمؤرخين تتبعها ربما عن طريق بعض العملاء فى هويت هول أو فى الكرملين أو عن طريق خط مباشر مع ستالين نفسه ؟ أو كانت لديه تحاليل للشيوعية دقيقة تؤكد أن الساسة البورجوازيين والشيوعيين سوف لايجدون بنودا للتفاهم المزدوج ؟ ربما ناليس لدينا وسائل للمعرفة . ومن المحتمل أن يكون ذلك مثل المقامر الذى لايغير يقينه فى أنه مصيب ويستمر فى اللعب . وربما دلت عبارة عرضية عن سياسة هتلر أكثر مما يحمل كلامه المنمق للقادة . وفى ٢٩ أغسطس كان جورنج تواقا للاتفاق قائلا « ان الوقت مناسب تماما » فأجاب هتلر « انه النداء الوحيد الذى أناديه » .

وكان من سوء حظ هتلر ـ وليس هتلر وحده ـ ان يتقابل مع سياسى بولندا المقامرين مثله بكل مالديهم . فلم تكن المقامرة بما ملكت أيديهم هى كل ماقاموا به ولكن كانت وسيلتهم الوحيدة الممكنة اذا ماأرادوا الاحتفاظ بمظهرهم كدولة كبيرة مستقلة . واذا ما تأمل السياسيون العقلاء فى المخاطر المحدقة على بولندا لنقص معداتها فانهم ولاشك سيخضعون لنداء العقل ويستسلموا فالمانيا القوية المعتدية فى جانب وعدوتها روسيا السوفيتية فى الجانب الآخر ويقف على بعد منها حليفتان يرغبان فى انهاء الخلاف مع هتلر وغير قادرين على مد يد المساعدة لبولندا لصعوبة ذلك من الناحية الجغرافية وكان على بولندا ان تعتمد على مواردها التى لم تصل بعد حد الكفاية . وكان رجال بولندا الذين فى سن العسكرية ومدربين أقل من النصف ولا تكفى المعدات الحربية الا لاقل من هذا النصف من العدد . وكانت تشكوسلوفاكيا فى العام السابق لديها عدد أكبر من الرجال المدربين ولو أن عدد سكانها أكثر قليلا من ثلث سكان بولندا وكان التشيك مسلحين بالاسلحة الحديثة بينما لايملك البولنديون شيئا منها . فجل مالديهم ٢٥٠ طائرة عتيقة وكتيبة من الدبابات التى لاتتمشى مع العصر . وازاء مثل هذه الظروف ما ذا كان يفعله البولنديون سوى عدم الاستجابة لتهديدات هتلر وأى حركة من جهتهم ستحوى الاذعان وعلى ذلك فلم يقوموا بشىء وكانت خير سياسة ينتهجونها لمواجهة الحالة الراهنة هى الثبات . وكانت سياسة الغرب تجاه بولندا مؤيدة ذلك وكان من الواضح أن بريطانيا العظمى وفرنسا سيسلمان بالوضع فى دانزج اذا ما فتح البولنديون باب المفاوضات ولذا لم يفتحوه وفى ميونيخ ظهر ظل هذا وانتظر هتلر ظهوره مرة ثانية ولقد اتخذ (بيك) الحذر متعظا من المصير الذى وقع فيه (بنيش) .

ولقد اتخذت ألمانيا وبولندا موقفا صلدا . وكانت الدول الغربية الثلاثة ـ ايطاليا وبريطانيا وفرنسا ـ غير قادرة أن تثير مشكلة دانزج اذ أن مركزها كان ضعيفا وهى فى الوقت نفسه معتقدة ان دانزج لاتستحق اثارة حرب وقد اتفق الثلاثة بعودة دانزج الى ألمانيا مع تأمين حرية التجارة لبولندا وقد عرفت الدول الثلاث أن بولندا لاتسلم بذلك دون حرب وان هتلر سوف لا يؤخر دانزج الى وقت آخر . وكانت ايطاليا

منضمة لالمانيا « بالحلف الحديدى » بينما تنضم بريطانيا وفرنسا الى بولندا • والدول الغربية الثلاثة لاترغب فى القتال من أجل دانزج • وماكان من الممكن ان تسلم احدى الدولتين : المانيا أو بولندا • وعلى ذلك فالسبيل الوحيد لدى الغرب هو تجاهل مشكلة دانزج لعل الآخرون يهملونها كذلك • وتاقت الدول الغربية الثلاثة ان تظل دانزج ليس لها وجود •

كانت هذه هى روح الدبلوماسية الغربية السائدة فى صيف ١٩٣٩ وما وافى أغسطس حتى ظهر أن دانزج لم تهمل • فالنازى المحليون أظهروا استثارتهم للبولنديين ورد هؤلاء مناهضتهم فى ثبات • وقويت تحركات الجنود الالمانية وفى هذه المرة ركزت الاشاعات على أساس ثابت وكان من المنتظر ايجاد حل ، ولكن كيف ؟ والاهم من ذلك متى ؟ وكان هذا هو السؤال الحيوى فى كلا أزمتى التشيك والبولنديين • واعتقد الغرب أن هتلر سوف يثير الازمة علنا عندما يجمع الحزب النازى قواه فى نورمبورج وقد كان هذا الافتراض خاطئا فى كل مناسبة • وفى الازمة التشيكية كان خطأ الدول الغربية فى جانب الصواب بينما كان مجافيا الصواب فى الازمة البولندية • وفى ١٢ سبتمبر سنة ١٩٣٨ اجتمع الحزب وكانت خطط هتلر محددا لها أول أكتوبر وعلى ذلك فقد أصبح أمامها فترة هدوء لمدة خمسة عشر يوما يعقبها العمل • وفى سنة ١٩٣٩ جمع الحزب قواه محددا أول أسبوع من سبتمبر بداية للعمل وقدصمم هتلر هذه المرة أن يحرز النجاح وسيعلن هتلر فى «اجتماع السلام» النصر الذى لم يعد العدة له • وماكان فى مقدور أحد ان يخمن ان الخطط الحربية الالمانية ستكون بدايتها أول سبتمبر ولم يكن اختيار هذا التاريخ ولا أول أكتوبر من العام السابق قد بنى على اعتبارات أرضية أو جوية أو غير ذلك رغما عن أن معظم الكتاب قد أكدوا العكس وقد كان الوقت الذى يمكن أن تستغله الدول الغربية للمفاوضات ضيقا اذ كان يقل أسبوعا عما كان يفترض ساسة الغرب •

وفى بداية أغسطس كان مازال لدى الدول الغربية الامل فى ان علاقاتها الغير محددة مع الاتحاد السوفيتى ربما عاقت هتلر عن تنفيذ خططه ، هذا بينما رأى بعض الساسة خلاف ذلك • فقد ذهب جمع من الزوار الى (برخستجادن) للافصاح عن نوايا هتلر ولو عن طريق الحدس والتخمين • وقد قاد المجريون هذه المعركة ــ معركة البحث ــ ففى ٢٤ يوليه كتب «تليكى» رئيس وزراء المجر خطابين الى هتلر معلنا « ان المجر ستؤيد سياسة المحور وذلك فى حالة حدوث صراع » وفى الخطاب الآخر قال « ان المجر لا يمكنها أن تقف ضد بولندا لاسباب أدبية » وقد تسلم وزير المجر المفوض فى برختسجادن (كساكى) خطابا من هتلر يعلمه فيه بأنه ليس له حاجة الى المساعدة وان بولندا لاتعتبر مشكلة حربية أمامه وان على بولندا أن تزن الامور بميزان العقل فى اللحظة الاخيرة والا فان هتلر سوف لا يهزم الجيش البولندى فحسب وانما سوف يهلك الدولة بأكملها ولن تقدر فرنسا أو انجلترا على منعه • عند ذلك تلعثم الوزير المجرى المفوض • وانسحب معتذرا وبكل أسف قد فهمت خطابات تليكى على غير معناها •

وبعد ثلاثة أيام بدأ دور (بركهدرت) رئيس الهيئة العليا فى دانزج • لقد بدأ هتلر أولا مغرمابالقتال فقال«سأضرب بسرعةالبرق بولندابقوة ميكانيكيةلاقبل لهابها» وفى الوقت نفسه أظهر روح المسالمة قائلا « اذا ترك البولنديون دانزج فى هدوء تام فسأكف عن ضربهم » وقد أوضح ذلك بأنه سيقنع بمطالب ٢٦ مارس ولن يطلب الغرب بشيء ولكنه طالب بأن تطلق يده فى الشرق كما رغب فى أن يعيش فى سلام مع انجلترا وأن يعقد معها محالفة محددة تضمن لها سلامة الممتلكات البريطانية فى العالم ومعاونتها • وقد كان هتلر يتكلم مع كساكى وبركهدرت عن حبه للحرب تارة وحبه للسلام تارة أخرى • وكانت هذه التكتيكات تكرارا لتكتيكات العام الماضى ولم يكن فى مقدور أحد أن يعرف مدى رغبته فى السلام أو تصميمه على اشعال نار الحرب أيهما يصبح حقيقة مؤيدة بالحوادث •

وفى ١٢ أغسطس بدأ فى الجو زائر أكثر أهمية ـ انه شيانو وزير خارجية ايطاليا وكان الايطاليون مغرمين بالقتال طالما كان شبح الحرب بعيدا ويبدو عليهم القلق اذا مااقتربت الحرب • وكانت ايطاليا منهكة من جراء تدخلها فى أسبانيا ـ اذ ربما كانت أهم عنصر فعال فى الحرب الاهلية الاسبانية وقد تضاءل احتياطها من الذهب والمواد الخام وكان ذلك الوقت هو بداية اعادة تسليحها بالاسلحة الحديثة ولن يتم استعدادها لحرب قبل ١٩٤٢ ومع ذلك كان هذا التاريخ خياليا ويعنى « المستقبل البعيد » وفى ٧يونيه قال موسولينى للسفير البريطانى « اخبر تشمبرلين أن انجلترا اذا حاربت فى جانب بولندا من أجل دانزج فان ايطاليا سوف تنضم لالمانيا لنفس الغرض » • وبعد ذلك بأسبوعين طلب من هتلر المقابلة فى برنر واقترح الامتناع عن الحرب وسوف يسأل هتلر كل مطالبه فى مؤتمر دولى فأطاح الالمان بموعد المقابلة أولا ثم قالوا بأن المقابلة يجب أن تتم لبحث مهاجمة بولندا • ومن المحتمل أن موسولينى لم يكن يثق فى مقدرةايطاليا على الوقوف بجانب هتلر وعلى أى حال فقد صمم على ارسال شيانو بدلا منه وكانت التعليمات لشيانو واضحة « يجب أن نتجنب الاصطدام مع بولندا اذ من المستحيل أن يقتصر الحرب عليها محليا وستفسر الحرب عن حرب شامله فيها الهلاك للجميع » وقد تكلم شيانو بروح من التصميم وذلك لدى مقابلة هتلر فى ١٢ أغسطس ولكن ذهبت آراؤه أدراج الرياح وقد أعلن هتلر عن تصميمه بمهاجمة بولندا الا اذا اقتنع اقتناعا تاما بغير ذلك فى نهاية أغسطس • وكان هتلر على يقين تام أن الديمقراطيات الغربية لاتميل الى اشعال نيران حرب شاملة • وكانت هذهحقيقة واضحة لدى هتلر ولوساورها بعض الشك • وكان يعلم أن كل ما يقوله لايطاليا يجد طريقه الى الدول الغربية وكان غرض هتلر أن يهز أعصاب الغرب أكثر من أن يظهر نواياه الحقيقية لموسولينى •

وهذه القصة الاستطرادية العجيبة تظهر ماهية خطط هتلر فبينما كان يتحادث شيانو مع هتلر تسلم الفوهرر من موسكو رسالة وأخطر شيانو بما حدث : « وافق الروس على ارسال مفاوض سياسى ألمانى الى موسكو » ووفقا لما قاله شيانو « ان الروس طلبوا من ألمانيا ارسال مبعوث مطلق التفويض يمكنه ابرام معاهدة صداقة » • ولم توجد هذه الرسالة بين الملفات الالمانية ولا حتى مايشير اليها لان الروس اتفقوا على

ارسال مفاوض ألمانى فى ١٩ أغسطس وليس فى ١٢ منه ومن المحتمل أن يكونستالين قد بعث بقراراته الى هتلر بطرق سرية قبل ذلك بأسبوع وحتى هذه النظرية الخيالية تفتقر الى دليل • والاكثر احتمالا أن هذه الرسالة قد اصطنعت بقصد الضغط على شيانو ولتلطيف شكوكه وتهدئتها • وحتى هذا الاصطناع كان يرتكز على أساس أن كل مايريده أن يحدث لابد أن يحدث وما أخطأ فى تقديره قط • وفى هذه المرة كان يراهن بكل شيء وكان على يقين بفشل المفاوضات الانجليزية الفرنسية السوفيتية وانهيار الدول الغربية تبعا لذلك وفى ١٢ أغسطس لم تقطع المفاوضات الانجليزية الفرنسية الروسية ولكنها استؤنفت • ووصل المبعوثون العسكريون الانجليز والفرنسيون الى موسكو وطالب مبعوثو دلادييه بابرام معاهدة عسكرية بأسرع ما يمكن • وكانت التعليمات الانجليزية على النقيض من ذلك تدعو الى البطء الشديد حتى يتم الاتفاق السياسى الذى يشمل بحث عدة نقاط قد تستغرق شهورا • وفى الحقيقة لم ترغب الحكومة البريطانية رغبة أكيدة فى العمل عسكريا مع روسيا بل كان جلرغبتها ايجاد (بعبع أحمر) يخيف هتلر ويدعوه الى الهدوء • وعندما بدأت المحادثات وجد الانجليز أنفسهم منهمكين فى مواضيع خطيرة أثارها الفرنسيون والروس • فلقد أوضح الفرنسيون والانجليز آراءهم فى الحرب بالتفصيل كما فصلت موارد كل من الدولتين• وفى ١٤ أغسطس جاء دور الاتحاد السوفيتى فسأل فوروشيلوف « هل يتمكن الجيش الاحمر من التحرك شمال بولندا وعبور غاليشيا حتى يتمكن من الاتصال بالعدو ؟ وهل سيسمح للجنود الروس بالمرور عبر الاراضى الرومانية ؟ » وكان هذا السؤال حاسما بحيث لم يجد جوابا من المبعوثين الانجليز أو الفرنسيين فتوقفت المحادثات وفى ١٧ أغسطس أرجئت حتى لا تثار بشكل خطير •

لماذا سأل الروس هذا السؤال بطريقة مفاجئة وبعيدة عن المجاملة ؟ أكان ذلك لمجرد ايجاد مبرر للتفاوض مع هتلر ؟ يمكن أن يكون ذلك ، ولكن السؤال حقويحتاج الى الاجابة وقد كانت بولندا ورومانيا عقبة كأداء ضد أى عملية يقوم بها السوفييت سنة ١٩٣٨ وكان على روسيا أن تتغلب على هذه الصعاب اذا ماأرادت أن تعمل كشريك متساو على قدم المساواة • وكانت الدول الغربية وحدها هى التى يمكنها تذليل هذه الصعاب • وقد أثار هذا السؤال النزاع القديم بشكل آخر • وكانت الدول الغربية تود أن تعتبر الاتحاد السوفيتى كشريك مساعد وقد صمم الروس على اعتبار أنفسهم كشريك أساسى وكان هناك اختلاف فى النظرة الاستراتيجية التى لم يكن لها الاعتبار الاول • ـ فبريطانيا العظمى وفرنسا كانا ما زالا يفكران بأسلوب الجبهة الغربية خلال الحرب العالمية الاولى وعلى ذلك فقد غالا فى قوة المراكز الدفاعية • وكان لدى المبعوثين العسكريين تعليمات تقول بأن الالمان اذا شنوا هجوما فى الغرب ولو عن طريق هولندا وبلجيكا فان هذه الجبهة ستظل مستقرة ثابتة • أما فى الشرق فان بولندا ورومانيا

سيؤخران التقدم الالمانى واذا ما مدتهما روسيا بالامدادات فانهما قد يوقفان الالمان عن التقدم كلية . وعلى أى حال سيكون لدى الجيش الاحمر الوقت الكافى لانشاء خطوط دفاعية بعد بداية الحرب . وسيظل الجميع فى مأمن حتى تنهار ألمانيا تحت وطأة الحصار . فاذا قدرنا هذه الاعتبارات فان الغرب سيرى فى مطلب روسيا للتقدم عبر بولندا مناورة سياسية فقط والرغبة فى اذلال بولندا أو ضياع استقلالها السياسى .

ولا يدرى أحد هل كانت هذه الخطط تجول فى خاطر روسيا ولكن من الواضح أن الروس كان لديهم آراء استراتيجية مختلفة كانية للتوضيح عن مطالبهم وكان على الروس أن يستفيدوا من تجاربهم فى الحروب الاهلية وحروب التدخل وليس من الحرب العالمية الاولى فكان الهجوم الراكب هو الذى يعول عليه لديهم وكشيوعيين فانهم كانوا يميلون الى الاخذ بالمبادىء الاستراتيجية الثورية أكثر من الرأس مالية الغربية المتحفظة . وكان يقين الروس أن الهجوم الراكب والمدرع حاليا لا يمكن مقاومته الا فى بعض مواقع من الجبهة اذا ما اتخذ العدو السلاح المماثل . وكان فى نيـة الروس أن يلقوا بالقوات المدرعة الى ألمانيا بأسرع ما يمكن بغض النظر عن الهجوم الالمانى فى أى مكان آخر وظلت هذه نيتهم حتى سنة ١٩٤١ الى أن منعهم الألمان من تنفيذها بهجوم هتلر عليهم قبل أن يكونوا مستعدين لهذا النوع من الهجوم . وفى الحقيقة كانت عقيدتهم هذه خاطئة ولو أنهم لم يكونوا أكثر خطأ من الغرب اذ أن هجوم هتلر المفاجىء أنقذ الروس من نكبة كان لايمكن البرء منها وكانت آراؤهم هذه لاتمت بصلة دبلوماسية سنة ١٩٣٩ ولذا فقـد طلب الروس المرور عبر بولندا ليقينهم بأن هذه هى الوسيلة الوحيدة لكسب الحرب . وربما وجدت بعض الاغراض السياسية ولكنها كانت ثانوية بالنسـبة للاحتياجات الحربية الخالصة . ولم تضع الحكومتان البريطانية والفرنسية التقديرات الروسـية موضع الاعتبار ولكن كان عليهما الاجابة على السؤال الغير مستحب من الروس وتوجهت الحكومتان نحو وارسو والامل قليل واستخدم الانجليز الجدل السياسى قائلين : « ان الاتفاق مع الاتحاد السوفيتى سوف يمنع هتلر من اشعال نار الحرب ، فاذا قطعت المفاوضات فان روسيا سوف تشترك مع ألمانيا فى الضرر أو سوف تكون عامل التهديد الرئيسى اذا ما انتهت الحرب » وقد أجاب (بيك) باجابة سياسة مماثلة « ان الموافقة على مرور الجنود الروس عبر بولندا بدلا من اعاقته ألمانيا فانه سوف يؤدى الى الاعلان المباشر للحرب من جانب المانيا » ولكلا الرأيين السياسيين وجاهته وكلاهما لاعلاقـة له بالموقف العسكرى . ولقد فكر الفرنسيون فى شروط أكثر فاعلية فجل ماكان يهمهم هو اشراك الجيش الاحمر فى الصراع ضد هتلر ولا يهمهم أن يكون ذلك على حسـاب بولندا . واذا ماترك الفرنسيون لانفسهم فقد يلقون بالبولنديين جانبا نظير كسـب التعاون مع الروس ولكن لندن كانت تمنعهم ولا تسـمح بذلك وعلى ذلك فقد حاول الفرنسيون بذل المساعى وقد اعتقد بونيه انه وجد مخرجا عندما أصر الروس على اجراء تعاون عسكرى مع بولندا قبل نشوب الحرب وقال البولنديون انهم يقبلون المساعدة السوفيتية اذا مابدأت الحرب فقط فقال بونيه انه فى الوقت الذى يكون فيه السلام

عند روسيا تكون الحرب لدى بولندا ولكن فشلت المحاولة اذ كان (بيك) عنيدا فقال « انه تقسيم جديد لبولندا الذى يسألوننا التوقيع عليه » • وفى ٢١ أغسطس نفذ صبر الفرنسيون وقرروا تجاهل رفض البولنديين والسير الى الامام رغما عن أنفهم • وقد أعطيت التعليمات الى دومنك ــ رئيس البعثة العسكرية فى موسكو ــ ان تكون اجابته على الاستفسار الروسى بالاثبات وان يتفاوض ويوقع الاتفاق الذى يتمشى والمصلحة العامة على أن يعرض لموافقة الحكومة الفرنسية النهائية وقد رفض الانجليز التعاون فى هذه الناحية ولو أنهم لم يحتجوا عليها • وعلى أى حال فقد ضاعت فرصة التحالف السوفيتى ــ ان كان لهذا التحالف وجودا • وفى ١٤ أغسطس وبعد مضى ساعات على سؤال فورشيلوف أعد ريبنتروب رسالة الى شولنبرج ــ سفيره فى موسكو ــ تقول « لاوجود لاصطدامات حقيقية فى المصالح بين ألمانيا وروسيا • وليست هناك مشكلة بين البحر البلطيقى والبحر الاسود لايمكن أن تحل بالرضى التام بين الفريقين» واستعد ريبنتروب للحضور الى موسكولوضع الاسس النهائية للعلاقات الالمانية الروسية•

وكانت هذه الرسالة هى أول بداية حقيقية فى العلاقات الالمانية الروسية التى كانت راكدة حتى هذا التاريخ اذ كانت المباحثات بين صغار الدبلوماسيين ــ وقد دون أغلبها الكتاب الغربيون فيما بعد ــ لم تكن الا اصداء للاسى والاسف لزوال صداقة (رابالو) • والآن فقد ملك هتلر زمام المبادأة • ولماذا فعل ذلك فى هذا الوقت بالذات ؟ أكان ذلك لمهارة سياسة فائقة ولمعرفته ان المحادثات السياسية ستتوقف بعد يومين من بدايتها ؟ أم كان سؤال فورشيلوف ومجىء ريبنتروب قد رتب سرا بين ستالين وهتلر ؟ أم كان هناك بعض العملاء المجهولين فى الكرملين فأخطروا هتلر بحلول الوقت المناسب ؟ أم أن توافق الحوادث كان مجرد صدفة؟ وقد بدأ هتلر أولا بتحطيم أعصاب الانجليز والفرنسيين عندما أشار الى قرب اجراء اتفاق بينه وبين روسيا السوفيتية كما أثار مخاوف ايطاليا عندما أخطر شيانو ــ ولم يكن ذلك حقيقيا ــ بدعوة هتلر لزيارة روسيا فى ١٢ أغسطس • وربما دفع التفاخر بهتلر الى التفكير فى هذا النوع من الاستراتيجية اذ أنه هو الرجل المستغل للفرص الجرىء الذى يصدر القرارات السياسية بسرعة فائقة • وقد بقى ريبنتروب فى برخستجادن حتى ١٣ أغسطس وعاد الى برلين فى ١٤ أغسطس وكان هو اليوم الذى أرسلت فيه الرسالة الى موسكو وربما كان ذلك من قبيل الصدفة ولكن رغما عن ذلك فان هذه احدى المسائل التى لايمكن أن لانجد لها حلا • تسلم شولنبرج رسالة ريبنتروب فى ١٥ أغسطس ولم يرغب مولوتوف فى الاسراع ولو أنه تسلم الرسالة « بأجدر الاهتمام » وقد ظن أن المفاوضات قد تستغرق وقتا نتساءل ماذا يكون موقف الحكومة الالمانية تجاه فكرة عقد تحالف بعدم الاعتداء مع الاتحاد السوفيتى ؟ وقد وصلت الاجابة فى أقل من أربع وعشرين ساعة اذ لم تعرض ألمانيا ميثاق عدم الاعتداء فحسب ولكنها عرضت ضمانا مشتركا لولايات البلطيق والوساطة بين الاتحاد السوفيتى واليابان وأوضحت ضرورة زيارة ريبنتروب • وترك

الروس الباب مفتوحا على كلا الجانبين ففى ١٧ أغسطس أخبر فورشيلوف المبعوثين الانجليز والفرنسيين ان ليست هناك ضرورة لمقابلة أخرى حتى يجيبوا على سؤاله عن مشكلة بولندا ومع ذلك وبعد الحاح اتفق على المقابلة الثانية فى ٢١ أغسطس وتقريبا فى نفس الوقت أخبر مولوتوف شولنبرج أن التحسن فى العلاقات السوفيتيةالالمانية سوف يكون عملا شاقا اذ يجب أن يقومهناك أولا اتفاق تجارىيعقبه ميثاق عدمالاعتداء وبعد ذلك يمكن التفكير فى زيارة ريبنتروب لروسيا ولكن الحكومة السوفيتية تؤثر أن تقوم باجراء حاسم وعملى ٠

وفى ١٨ أغسطس زاد قرع الباب السوفيتى بواسطة ريبنتروب ونادى بوجوب توضيح العلاقات مباشرة حتى لاتؤخذ ألمانيا بطريق المفاجأة اذ مانشبت الحرب بينألمانيا وبولندا ولقد تردد مولوتوف مرة ثانية ، أما زيارة ريبنتروب فلم يمكن تحـــديدها حتى على وجه التقريب ٠ وفى خلال نصف ساعة استدعى شولنبرج الى الكرملين وقيل له أن ريبنتروب يمكن أن يحضر بعد أسبوع ولم يعرف سبب ذلك القرار المفاجىء وقد ظن شولنبرج أن ستالين قد تدخل بنفسه شخصيا ولو أن ذلك الرأى أساســـه التخمين كالآراء التى تلته ٠ ورأىهتلر أن الدعوة السوفيتية ليست مبكرة وكان يرغب ان يطلب ريبنتروب فى الحال وكان ذلك من قبيل القلق الذى طالما كان يأتى بعد تردد هتلر وربما كان هناك سبب آخر أشد عمقا وقد يكون ٢٦ أغسطس مناسبا اذا أراد هتلر أن يمهد الطريق فقط لغزو بولندا فى أول سبتمبر ولكنه لايعطى متســـعا فى الوقت للقيام بعمليتين : أولاهما تحطيم أعصاب الدول الغربية باجراء اتفاق معروسيا السوفيتية وثانيهما تحطيم الاعصاب البولندية بمساعدة الدول الغربية وعلى ذلك فتسرع هتلر يوحى الى أنه كان يرمى الى « ميونيخ » أخرى وليس الى شن حرب ٠ وعلى أى حال فقد أخذ يعمل بدون الوسائل الدبلوماسية ففى ٢٠ أغسطس أرسل رسالة شخصية الى ستالين بالموافقة على كل المطالب السوفيتية وطالب باستقبال ريبنتروب فورا وكانت هذه الرسالة ذات أهمية بارزة فى التاريخ العالمى فقد ميزت روسيا كدولة استعادت قوتها فى أوروبا وأصبحت فى عداد الدول العظمى ولم يحدث أن خاطب سياسى أوربى ستالين مباشرة قبل ذلك فالقادة الغربيون كانوا يعاملونه كحاكم لبلد بعيد ضعيف ولكن هتلر عامله معاملة الحاكم لدولة عظيمة ومعروف عن ستالين المناعة ضد الشعور الشخصى ولكن اقتراب هتلر منه جعله يحسببعض الغرور ثم حلتاللحظة الحاسمة ففى ٢٠ أغسطس عقدت المحالفة التجارية بين روسيا السوفيتية والمانيا ونفذت أولى شروط الاتحاد السوفيتى وفىصباح٢١أغسطس قابل فورشيلوفالمبعوثين العسكريين ولم يكن لديهما شىء من المعلومات وانفض الاجتماع الى أجل غير مسمى وفى الخامسة مساء وافق ستالين على أن يحضر ريبنتروب الى موسكو فورا يوم ٢٣ أغسطس واعلن النبأ فى برلين فى نفس الليلة وفى اليوم التالى أعلن فى موسكو فحاول الفرنسيون

ان ينقذوا ولو بعض الشيء ففى ٢٢ أغسطس قابل دومنك فورشيلوف وذلك بتعليمات من دلادييه وعرض عليه الموافقة على مطلب روسيا دون الانتظار لاجابة بولندا الا أن فورشيلوف رفض العرض قائلا « لانود أن تفاخر بولندا بأنها رفضت مساعدتناولانرغب فى الضغط عليها بالقبول » ثم انتهت المفاوضات الانجليزية الفرنسية السوفيتية وفى اليوم التالى ٢٣ أغسطس راوض الفرنسيون البولنديين بصيغة تحمل فى طياتها المراوغة فقال الفرنسيون للروس «لقد حصلنا على اتفاق انه فى حالة حدوث عمل مشترك ضد العدوان الالمانى فان التعاون بين بولندا والاتحاد السوفييتى سوف يكون ممكنا» ولم تقدم هذه الصيغة للروس وعلى كل حال فقد كانت هذه خدعة وقد وافق (بيك) على تلك الصيغة عندما علم أن ريبنتروب فى موسكو وانه ليس هناك خطر من المساعدة الروسية لبولندا كما لم تخيفه تلك المساعدة اذ مازال يعتقد ان بولندا المستقلة لديها الفرصة للاتفاق مع هتلر وروسيا السوفيتية كما يعتقد ان الاخيرة كانت فى طريق الانسحاب من أوروبا الامر الذى يسر له البولنديون وقال فى عبارة مؤدبة « الآن جاء دور روبنتروب ليختبر سوءنية الروس»ومأان حضر روبنتروب الى موسكو لاجراءاتفاق حتى صادفه التوفيق ووقع فى ٢٣ أغسطس اتفاق عدم الاعتداء بين كل من ألمانيا وروسيا وفى بروتوكول سرى تعهدت المانيا بالابتعاد عن ولايات البلطيق وعن اجزاء من بولندا الشرقية ـ تلك الاراضى الواقعة شرق خط كيرزون والتى يقطنها الاوكرانيون والروس البيض ولعل هذا كان ما يبحث عنه الروس من الدول الغربية وكان الحلف النازى السوفييتى طريق آخر للحصول على مثل هذه الضمانات وان لم يكن افضل الطرق ولكنه خير من لاشىء أما اتفاقية برست ليتوفسك فلم يعد يعمل بها برضاء ألمانيا بدلا عن تأييد الدول الغربية وكان من المخجل أن تبرم روسيا السوفيتية اتفاقية مع الدولة الفاشستية الاولى ولكن سبب ذلك رجال السياسة الذين ذهبوا الى ميونيخ والذين كانوا يحصلون على غالبية مطلقة فى بلادهم ولم يفعل الروس فى الحقيقة الا ما كان يأمل ان يفعله ساسة الغرب ورغما عن ذلك فقد كان الم الغرب ممزوجا باليأس والغضب ولم يحو الميثاق عبارات الصداقة التى ضمنها تشمبرلين فى الاتفقية الانجليزية الالمانية بعد مؤتمر ميونيخ وفى الحقيقة رفض ستالين التعبيرات الدالة على الصداقة قائلا «ان الحكومة السوفيتية لا يمكن ان تضمن عبارات الصداقة الى الاتفاقية الالمانية السوفيتية بعد أن لطخت الحكومة الالمانية النازية جبين روسيا مدة تربو على ست سنوات» ٠

ولم يكن الحلف اتفاق على تجزئة بولندا أما ميونيخ فقد كانت اتفاقا تاما على التقسيم فقد املى البريطانيون والفرنسيون التقسيم على التشيك ولم تتخذ الحكومة السوفيتية مثل هذا العمل ضد البولنديين ٠ اذ وعدت الحكومة الروسية أن تظل محايدة وهذا ماكان يطالب به البولنديون كل من روسيا والدول الغربية الاعتراف به وزيادة على ذلك فان الاتفاقية كانت ضد الالمان اذ حددت التقدم الالمانى صوب الشرق فى حالة قيام حرب وقد أكد ذلك المستر ونستون تشرشل فى خطاب له القى عقب نهاية

المعركة البولندية وفى أغسطس لم يفكر الروس باسلوب الحرب فقد افترضوا ـ كهتلر ـ ان الدول الغربية سوف لاتحارب دون التحالف مع روسيا اذ عند ذلك كانت ستضطر بولندا الى الخضوع ومع استبعاد بولندا كعقبة فى طريق روسيا فان حلف الدفاع مع الغرب كان يمكن ان يسير على قدم المساواة وعلى النقيض من ذلك فاذا ظل البولنديون فى موقف العناد والتحدى فسوف يحاربون وحدهم وفى هذه الحالة سيضطرون الى قبول المعونة الروسية فى النهاية وكل هذه الاعتبارات لا تتمشى والواقع فكانت الحرب مع بولندا واشتركت معها الدول الغربية وكان معنى ذلك نجاح لقادة السوفييت اذ درأت مخاوفهم من هجوم الدول الرأسمالية على روسيا السوفيتية • كما ان أحداث ١ سبتمبر ، ٣ سبتمبر ما كان يمكن ان يحسب لها حساب فى ٢٨ أغسطس فقد ظن هتلر وستالين انهما قد منعا نشوب الحرب ولم يشعلاها وظن هتلر بأنه كسب (ميونيخ) أخرى ضد بولندا • أما من ناحية ستالين فقد تفادى حربا غير متعادلة الكفاية وربما منع نشوبها كلية •

ومع ذلك فلو حاول انسان أن ينظر الى المستقبل على ضوء ٢٣ أغسطس سنة ١٩٣٩ فمن الصعب أن يرى أى طريق كان يمكن أن يتخذه الروس غير ذلك الطريق ولقد زادت مخاوف الروس من قيام حلف أوروبى مناهض لهم ولو انه ظهرت فى الجو بوادر تدعو الى قيام ذلك الحلف • وان ما كان يمكن ان تحصل عليه الدبلوماسية الروسية هو قيام حلف رسمى يؤيد الحياد مع الغرب رغما عن رفض بولندا للمساعدة السوفيتية • وكان أكبر باعث لها على قيام هذا التحالف هو تحديد المغانم الالمانية فى بولندا والبلطيق وكانت هذه السياسة عين الصواب وتؤيدها المصادر الدبلوماسية ومع ذلك فقد أخطأ الساسة الروس وساسة الغرب وخدعوا باعتقادهم أن هتلر سيكون عند وعده • اما ستالين فقد كان يساوره الشك فى وعود هتلر • ففى الوقت الذى ترك فيه ريبنتروب البلاد قال « ان الحكومة السوفيتية تنظر بعين الجد الى الحلف الجديد• وانه يؤيد بكلمة الشرف ويتعهد أن الاتحاد السوفيتى سوف لايتخلى عن شريكه» وفى هذا معنى ضمنى واضح وهو « افعلوا مثلنا » وقد ظن ستالين أن الحلف على جانب من الاهمية ليس فقط كحل عاجل ولكن لانه سيكون طويل الاجل • وهذا غريب ولكنه ممكن فحتى الرجال الذين لاتساورهم الشكوك غالبا ما يشكون اذا ما وقعوا فى حبائل غش الآخرين •

وعلى أى حال فقد انفجرت القنبلة والقى هتلر الضربة الحاسمة ففى ٢٢ أغسطس جمع هتلر القادة والقى فيهم ابشع خطاب قائلا « لاتفتحوا قلوبكم للشفقة • اعملوا بقسوة» ولا تشير الدلائل الرسمية الى ما يؤيد ذلك القول الهراء • وكان هتلر يباهى بمهارته • وكان احتمال تدخل الغرب بعيدا وكان حديث هتلر عن الحرب بشكل جدى وقد وصل تقرير عن خطاب هتلر الى السفارة البريطانية بمجرد القائه سواء كان ذلك بقصد أو عن غير قصد وفى ٢٣ أغسطس اتخذ هتلر خطوة ابعد مدى فقد حدد الهجوم

على بولندا فى يوم ٢٦ أغسطس الساعة الرابعة والدقيقة اربعين صباحا وكان غرضه ان يؤثر على القادة وان تتطرق تلك المعلومات عن طريقهم الى الدول الغربية وكان يمكن للالمان ان يقوموا بعملياتهم فقط فى أول سبتمبر ولو ان غزو بولندا قبل ذلك كان ممكنا اذا كانت قد سلمت ولكن الاعتبارات الفنية لم تصبح ذات بال فقد اعتبر ان الحلف النازى السوفيتى قد أفسح الطريق للانهيار الدبلوماسى للدول الغربية ٠

أما من ناحية الاعتبارات الفرنسية فان بونيه كان تواقا الى ترك البولنديين اذ كان يمقت الطريقة التى سلكوها خلال أزمة التشيك وقد قبل الوضع الالمانى بخصوص دانزج كما لم يكن لديه ثقة فى الجيش البولندى وكان يعتقد ان الروس لا يمكن ان يحاربوا ضد المانيا دون ان يكون لديهم جبهة مشتركة وان الغزو الالمانى لبولندا يمكن ان يهيىء ذلك وبذلك يمكن أن يحيى الميثاق الفرنسى السوفيتى ويكون ذا أثر فعال٠

وفى ٢٣ أغسطس عندما عرفت زيارة روبنتروب لموسكو طلب بونيه من دلادييه أن يستدعى لجنة الدفاع الوطنى وعند ذلك اشار فى سياسته الى مايأتى «اذا ما وافقنا على التحالف مع بولندا أليس من الافضل أن ندفع وارسو الى عمل اتفاقية وبهذه الطريقة سيكون لدينا الوقت الكافى لاعداد المهمات وزيادة القدرة العسكرية وتحسين مركزنا الدبلوماسى حتى نتمكن من مقاومة ألمانيا مقاومة أكثر فاعلية اذا مافامت بالحرب ضد فرنسا فيما بعد ولكن بونيه لم يكن مقاتلا وقد ترك أمر الحرب لغيره وما كان لقادة فرنسا العسكريين أن يعترفوا بضعفهم العسكرى اذ هم المسئولون أولا عن هذا الضعف وقد أعلن جاملان أن الجيش الفرنسى مستعد كما قال بعد ذلك أن بولندا يمكن أن تصمد حتى الربيع وعند ذلك سوف لايمكن اختراق الجبهة الغربية ولم يثر أحد هل من الممكن فعلا مساعدة البولنديين ؟ وكان فى الواضح ان جميع الحاضرين قد اعتقدوا ان الجيش الفرنسى سيحتل فقط خط ماجينو بالرغم من وعد جاملان للبولنديين باتخاذ خطة الهجوم ولم يجر بحث أو مناقشة فى الناحية السياسية كما لم يقدم اقتراح بتحذير البولنديين فى الخطر المحدق بهم وقد ترك البولنديين أحرارا فى مقاومة هتلر أو فى اجراء الاتفاق معه ومن الملاحظ أيضا أنه لم يحدث هناك اتصال بالبريطانيين كما لم تحدث اجتماعات للوزراء الانجليز والفرنســـيين كما حدث من قبل فى الاجتماعات الوزارية التى ميزت الأزمة التشيكية وقد ترك للانجليز الحرية فى مقاومة هتلر أو فى الاتفاق معه دون معرفة رغبات فرنسا أو قوتها العسكرية ولو أن القرار البريطانى كان يريد اقحام فرنسا فكان على فرنسا اما أن تترك أوروبا الشرقية نهائيا أو أن تتحمل وحدها عبء قيام حرب أوربية عظمى وهذا ماكانت تفضله لندن وقد التزم البريطانيون الصمت تجاه كل من بولندا وألمانيا وأرسل دلادييه خطابا محذرا هتلر ولم يفعل الساسة الفرنسيون شيئا آخر خلال الاسبوع الذى حدد مصير فرنسا لسنين طويلة ٠

لم يعرف الفرنسيون أى طريق يتجهون اليه فكان لايمكن ترك بنود تسوية ١٩١٩ ولو أنهم كانوا غير قادرين على الاحتفاظ بها ولم يستجيبوا الى اعادة تسليح ألمانيا ولو انهم لم يجدوا طريقا لمنع هذا التسلح وكذا كان الحال مع النمسا «ولا» هى الكلمة كانت تتردد وكان يمكن لتشيكوسلوفاكيا أن تمر فى نفس الطريق لو لم يسرع البريطانيون اليها ثم طلب البريطانيون التسليم ووافق الفرنسيون ولم يقل البريطانيون كلمة أما دلادييه الذى يعتبر أعظم سياسى بين الساسة الفرنسيين فقد ارتد الى مقاوم عنيد وان الفرنسيين ماكانوا ليهتموا بدانزج أكثر مما فعلوا مع من يتكلمون الالمانية فى الاراضى التشكوسلوفاكية ولكنهم لايحطمون بأنفسهم ما قاموا بعمله وقد أرادوا انهاء ذلك العمل بأى طريق وكان هذا هو الاتجاه الفرنسى العام فى سنة ١٩٣٩ ولم يكن لديهم أى فكرة عما تكون عليه النهاية وما كان يتنبأ أى فرنسى بهزيمة حربية من أى نوع كما لم يكونوا واثقين بالنصر على ألمانيا وكان لدى الفرنسيين بعض الأدلة على وجود معارضة مبالغ فيها داخل ألمانيا ولم يوجد هناك اتجاه بخصوص قـرار ٢٣ أغسطس ولم يدر الفرنسيون ماذا يفعلون وعلى ذلك فقد تركوا الحوادث تجرى وفق أعنتها ٠

أصبح القرار يتوقف على الحكومة البريطانية ولو أن سياستها أصبحت بالية والحلف الانجليزى السوفييتى أصبح فى حكم الملغى وكان هذا هو أساس سوء التفاهم الذى كان فى الحقيقة سببا من أسباب الحرب العالمية الثانية فالتحالف مع روسيا السوفيتية كان من سياسة المعارضة ــ حزب العمال ونستون تشرشل ولويد جورج وكان كل هؤلاء يعترفون بأن مقاومة هتلر ممكنة فقط اذا كانت روسيا السوفيتية فى جانب الحلفاء أما الحكومة البريطانية نفسها فلم تر هذا الرأى ولم تقدر أى قيمة عملية للاتحاد السوفيتى وانما دخلت الحكومة فى مفاوضات وهى غير راغبة فيها ومنساقة للرأى فى البرلمان وقد تنفست الصعداء حينما قطعت المفاوضات ٠

أما المحافظون فقد وصلوا لابعد مدى فكثير منهم قد أيد هتلر معتقدين فيه جدارا منيعا ضد الشيوعية ولم يلبث أن أصبح فى نظرهم خائنا للمدنية الغربية وفى الوقت الذى كان فيه المحافظون ضد هتلر أصبح حزب العمال ضد ستالين كما أظهروا تصميمهم لمناهضة الشيوعية حتى ولو كانت تعنى معاونة تشمبرلين وعلى العموم فقد كان الميثاق السوفيتى النازى مهبطا من همم الانجليز وكان يؤيد ذلك الرأى مستر لويد جورج وفى ٢٢ أغسطس صمم مجلس الوزراء البريطانى على أن يعضد المطالب البولندية وقد قوبل ذلك الاتجاه قبولا حسنا من الرأى العام ٠

ولم تقم مناقشات عن كيفية تنفيذ هذا الالتزام كما لم توجد فى الحقيقة طريقة لتنفيذه ولم يدع المستشارون العسكريون الا لمواجهة شئون الدفاع المدنى عن لندن فقد ظلت الحكومة الانجليزية تفكر فى الوسائل السياسية لا العملية كما ظلت السياسة البريطانية ثابتة غير متغيرة : تحذيرات الى هتلر بأنه سيواجه حربا عامة اذا ما هاجم

بولندا وتوكيدات بأن هتلر سوف تبرم معه المواثيق فى حالة ما اذا كانت وسائله سلمية وقد صمم البريطانيون على هذه السياسة وعلى ذلك فلم يستشيروا فرنسا عما اذا كان قيام الحرب هو الطريق العملى مما لم يفاوضوا البولنديين عن المواثيق التى يجب أن تبرم وفى الحقيقة فقد صمموا على الاتفاق معه رغم أنف بولندا اذا ماكان هتلر معقولا وكانت الحكومة البريطانية تتفق مع هتلر بشأن دانزج ولو أنه حتى ذلك التاريخ لم تثر مشكلة بولندا رسميا وانتظر هتلر حتى يحصـــل على طلباته منها كما انتظر البريطانيون ما يمكن أن يؤخذ فى صالح بولندا وكانت الخطوة الاولى من الجانب البادىء سوف تكلفه بعض الخسارة وعلى ذلك لم يقدم أحد الطرفين عليها فوجدت الحكومة البريطانية حلا وسطا بأن حذرت هتلر من ضرر اشعال نار الحرب وأشارت الى المكاسب التى يمكن أن تقدم اليه اذا ماناصر السلام وكانت نية البريطانيين أن يرسلوا رسالة مع رسول خاص — ليس تشمبرلين هذه المرة — بل كان فيلد مارشال لورد ايرن سايد ولم يكن ذلك ممكنا اذ أن الاتفاقية النازية السوفيتية كانت قد ابرمت سريعا ولذا سلمت الرسالة بواسطة السـفير نيفل هندرسـون الذى طار الى برخسـتجادن فى ٢٣ أغسطس ٠

وقد كان ذلك الاختيار غير موفق اذ حاول هندرسون دون شك ان يتكلم فى حزم واصرار ولكن كان ذلك من وراء قلبه وظل متيقنا أن البولنديين ضلوا طريق الصواب وكان يريد أن يجبروا على الرضوخ كما فعل التشيك من قبلهم فى العام السابق وقبل ذلك بأيام قليلة كتب الى صديق له فى وزارة الخارجية يقول «ان التاريخ سوف يحكم على الصحافة انها كانت السبب الاساسى للحرب ان هتلر من بين جميع الالمان هو أكثر الناس اعتدالا فيما يختص بمسألة دانزج والممر وماكنا نقول شيئا رادعا لبنيش فى العام الماضى حتى كدنا نقع فى هاوية الحرب كما اننا لانقول شيئا (لبيك) الآن » وبكل تأكيد لم يقل هندرسون شيئا رادعا لهتلر أيضا ومع أنه سلم الرسالة البريطانيـــه بأمانة الا أنه مازال يظهر رغبة البريطانيين فى احلال السلام ثم قال لهتلر فى صدق « ان البرهان على صداقة تشمبرلين يظهر فى رفضه اشتراك تشرشل فى الوزارة » ثم قال بعد ذلك « وان الاتجاه العدائى فى بريطانيا جاء من جانب اليهود أعداء النازى» وهذا تماما ماكان يظنه هتلر نفسه ٠ وعندما قابل هتلر هندرسون تملكه الغضب وثار ثورة عارمة وعندما ترك هندرسون الغرفة قال هتلر « ان تشمبرلين سوف لايبقى بعد هذه المحادثات ٠ ان وزارته ستسقط الليلة » ولقد حمل هندرسون الى أمته نوايا هتلر ثم كتب الى هاليفاكس « لقد قلت منذ بدء حضورى أن البولنديين فى غاية العند وعدم «التروى » ثم زاد على ذلك قوله « انى شخصيا لا أجد أملا فى تجنب الحرب ما لم تصل «التعليمات الى السفير البولندى اليوم أو على الاكثر فى الغد ليطلب مقابلة هتلر مقابلة خاصة » ٠

ومع ذلك فلم تجر الحوادث فى انجلترا وفق ما كان ينتظره هتلر بل ان ماحدث هو النقيض فقد اجتمع البرلمان فى ٢٤ أغسطس وأيد موقف الحكومة القوى بالاجماع وبدأت الشكوك تساور هتلروبديهى أنه أصبحفى حاجة الى أن يستخلص من الحكومة البريطانية الاذعان الذى كان ينتظره وفى ٢٤ أغسطس طار هتلر الى برلين وبمقتضى تعليماته طلب جورنج من سويد دهلرس أن يتوجه الى لندن بطلب غير رسمى الى الحكومة البريطانية لكى تتوسط ولقد كانت هذه مصيدة ماهرة فاذا رفض البريطانيون فان هتلر سوف يدعى بأنه لم يتحرك قط واذا سلم البريطانيون فسيجبروا على ان يشددوا الضغط على البولنديين وفى مساء نفس الليلة عقد هتلر اجتماعا مع جورنج وريبنتروب وكبار القادة فهل يبدأ الغزو خلال ست وثلاثين ساعة كما كان محدداله ؟ لقد أعلن هتلر انه سيبذل محاولة أخرى لفصل الدول الغربية عن حلفائها البولنديين وبذلت هذه المساعى كآخر عرض من هتلر وارسلت عن طريق هندرسون بعد ظهر يوم ٢٥ أغسطس ثم أعلن هتلر عن تصميمه بمحو الاحوال المقدونية من على حدود المانيا الشرقية وقال بان مشكلات دانزج يجب أن تحل ولو أنه لم يفصح عن طريقة الحل فاذا ماحلت تلك المشكلات فان ألمانيا سوف تقدم عرضا كبيرا اذ سوف تضمن وجود الامبراطورية البريطانية وسوف توافق على تحديد التسليح وعلى حدودها الغربية بشكل نهائى وقد كان حديث هتلر ينطوى على الرغبة الشديدة والاخلاص الواضح ولقد اعتبر الكتاب اللاحقين ان شروط هتلر مبنية على التدليس وكان الغرض الواضح منها هوعزل بولندا ولو أن العرض الاخير كان يمثل سياسة هتلر الدائمة التى كانت تهدف الىاطلاق يده فى الشرق مع عدم وجود أطماع بخصوص بريطانيا أو فرنسا ٠

ولكن ما ذا كان يأمل فيه هتلر من تقديم ذلك العرض فى تلك الظروف ؟ لقد وعد هندرسون ان يطير الى لندن فى صباح ٢٦ أغسطس وهو الوقت المفروض انيبدأ فيه الهجوم على بولندا ٠ أكان هتلر يتحدث فقط للتاريخ وليبرىء نفسه أمام الاجيال المقبلة أو حتى أمام ضميره : أم قد نسىبرنامجه ونسى أن الاوامر التى تعطىمن الواجب تنفيذها فورا ؟ ان الاحتمال الاخير هو الاكثر صحة ٠ وبعد ظهر يوم ٢٥ أغسطس كان هتلر فى ثورة غضب واصبح لايدرى ماذا يفعل وفى الثالثة بعد الظهر أمر بالهجوم على بولندا وبعد ذلك بثلاثساعات وصل أتوليكو السفير الايطالىبرسالة منموسولينى تقول ولو أن ايطاليا تقف بجانب ألمانيا بلا قيد أو شرط الا أنها لن تتمكن من التدخل عسكريا الا اذا زودتها ألمانيا فى الحال بكافة مطالبها الحربية وعندما تقدمت ايطاليا بكشف مطالبها وجد انها كبيرة جدا ٠ لقد مثل موسولينى دور الرجل القوى الى آخر لحظة والآن وقد بدت بوادر الحرب فقد لاذ بالفرار ٠ ولم يلبث أن أعقبت الضربة الاولى ضربة أخرى فقد أعلن روبنتروب « أن التحالف الرسمى بين بريطانيا العظمى وبولندا

قد امضى فى لندن فاستدعى هتلر كيتل قائلا أوقف كل شىء حالا وابحث عن بروشيتش (القائد الاعلى) حالا فانى احتاج وقتا للمحادثات » وقد تم ارسال تلك الاوامر الجديدة بعد الساعة السابعة مساء بقليل وأصبح الهجوم الذى لم يكن قد بدأ ملغى • وهذا عجيب حقا • لماذا تخلف هتلر فى اللحظة الاخيرة ؟ هل فقد أعصابه ؟ هل كان حياد موسولينى وتحالف بريطانيا وبولندا مفاجأتين بالنسبة لهتلر • لقد ألقى هتلر اللوم على موسولينى زاعما بأنه كان من أثر الاخبار التى ذاعت بأن ايطاليا لن تحارب ان تشدد الانجليز بعد أن كانوا سيذعنون •

والحقيقة أن البريطانيين كانوا لا يعلمون بقرار موسولينى عندما وقعوا تحالفهم مع بولندا ولو أنهم كانوا يتوقعونه وكانت قد أوقفت الاجراءات الخاصة بالتحالف أثناء المفاوضات مع روسيا وعندما فشلت تلك المفاوضات لم يعد هناك سبب للتأجيل ووقع البريطانيون المعاهدة عندما تمت اجراءاتها الرسمية كما لم يعلم أن هتلر قد حدد يوم ٢٥ أغسطس كيوم للأزمة اذ كانوا يظنون انها ستكون فى الأسبوع الأول من سبتمبر كما سبق أن فكر هتلر فى يوم أول سبتمبر ومن المحتمل أن يكون ذلك هو تأويل تردده الظاهر فى ٢٥ أغسطس وان تقديم موعد الهجوم الى ذلك التاريخ كان مجرد محاولة تشبه تلك التى قام بها فى جودزبرج فى العام السابق واذا ما القينا جانبا احداث ٢٥ أغسطس الدبلوماسية نجد بعض الاسباب العسكرية القوية التى تدعو الى العودة للتاريخ الاصلى ففى ٢٥ أغسطس كانت الجبهة الغربية من ألمانيا غير تامة الدفاع ولربما واجه هتلر حربا مع الدول الغربية ولكن الاكثر احتمالا هو حديثه الى كيتل اذ قال انه يود وقتا للمحادثات •

ولقد كان البريطانيون يودون ايضا المفاوضات وكان توقيع الحلف البريطانى البولندى فاتحة لها ولم يكن قرارا باعلان الحرب والدليل واضح على ان البريطانيين لم يقصدوا ذلك فقد كتبت مسودته على أن يتمشى مع الحلف الانجليزى السوفيتى الذى لم يتم وبعد الاضطراب الذى أعقب الحلف النازى السوفيتى اضيفت بعض العبارات من المسودة البولندية ومن بين ما اضيف ما حاول الانجليز تفاديه حتى تلك اللحظة وهو تعهد بضمان الحلف للوضع فى دانزج وعند توقيع الحلف اضاف أحد رجال وزارة الخارجية البريطانية عبارة «امكان قبول اقتراحات مضادة من هتلر» تسلم بان لدانزج الحق فى ان تقرر ولاءها السياسى على ضوء الاعتراف بحقوق بولندا الاقتصادية • وقد قال هاليفاكس للسفير البولندى « ان الحكومة البولندية ترتكب خطأ كبيرا اذا اتخذت موقفا تكون فيه المحادثات السلمية لتغيير الوضع فى دانزج مستبعدة » • وعلى ذلك أصبحت الحكومة البريطانية وهتلر يتفقان على الحل دون تدخل من جانب بولندا • واصبحت المشكلة ليست فى كيفية انهاء المفاوضات ولكن فى طريقة بدايتها ولم يعرف بعد كيف يوجد الحل لهذه المشكلة •

جرى تمهيد للمحادثات ما بين ٢٦ ، ٢٨ أغسطس والح البريطانيون الى ما يمكن أن يتقدموا به لهتلر واظهر هتلر ما يرنو اليه من مطالب وقد تردد الطرفان فى الدخول فى المفاوضات الفعلية كما ظهر بعض الاضطراب عند جس كلا الطرفين نبض الآخر وقد اتخذ نيفل هندرسون وضع الوسيط الرسمى أما دهلريس فقد كان كالمكوك ذهابا وجيئة بين برلين ولندن فقد طار الى لندن فى ٢٥ أغسطس وعاد الى برلين فى ٢٦أغسطس ثم ذهب الى لندن ورجع فى ٢٧ اغسطس وعاود الكرة فى ٣٠ اغسطس • وفى برلين كان يرى جورنج وأحيانا يقابل هتلر • وفى لندن كان يتقابل مع تشمبرلين وهاليفاكس تحت ستار كثيف من السرية وقد أصر البريطانيون أن تبقى ملاحظاتهم بلا تسجيل وقد شعر هتلر بأن « ميونيخ » أخرى فى طريق الاعداد له • وقد يكون هتلر مأخوذا من جراء توقيع بريطانيا للتحالف الانكليزى البولندى الا أن الأثر قد ضاع بالمحاولات الكثيرة التى قام بها هندرسون ودهلريس وقد ظن البريطانيون بأن مركزهم قد أخذ فى التحسن وقد علق أحد رجال وزارة الخارجية البريطانية على نشاط دهلريس بقوله « أن الحكومة الالمانية تترنح ••• ففى الوقت الذى تميل فيه بريطانيا الى جانب السلم يجبأن تكون عزيمتها صلدة،وتدل أحدث الدلائل علىأن يد بريطانيا قوية بشكل لم يكن متوقعا » • وقد اعتقد هاليفاكس بمهارته الفائقة أن « ميونيخ » الثانية سوف تضعف مركز هتلر ولا تأثير لها على مركز بريطانيا وقد كتب يقول « عندما نتكلم عن ميونيخ يجب أن نتذكر التغير الذى طرأ على اتجاه وقوة تلك الدولة (أى بريطانيا) وعلى الاتجاهات الأخرى فى ايطاليا واليابان وخلافهما واذا حملنا هتلر على قبول حل معتدل الآن فمن المعتقد أن مركز هتلر سوف يضعف فى ألمانيا » •

وأصبح كل من الطرفين يدور حول الآخر كالمتصارعين حين يراوغ كل منهما الآخر يحاول الحصول على أقصى مزية عند الاشتباك وعرض البريطانيون اجراء مفاوضات مباشرة بين بولندا وألمانيا اذا وعد هتلر أن يكون السلام رائده وقد أجاب هتلر بأن الحرب لن تنشب اذا وجد طريقه الى دانزج ويقول الكتاب المحدثين ان رد هتلر بنى على الغدر وأن همه كان عزل بولندا وليس تجنب الحرب وربما كان ذلك حقا وربما كان عرض بريطانيا مبنيا على الغدر أيضا اذ لا توجد فرصة لاستخلاص امتيازات من الحكومة البولندية اذا ما زال خطر الحرب وكان البريطانيون يعلمون ذلك • وقد طلب بنيش المعونة البريطانية فى العام السابق وقد وعده البريطانيون بذلك اذا كانت نواياه سليمة — وقد ابتلع بنيش الطعم • أما الآن فقد أصبح البريطانيون مكبلين بتحالفهم الرسمى مع بولندا وبتصميم الرأى العام البريطانى فلم يتمكنوا من املاء شروط لبولندا كما لم يسمحوا لهتلر باملاء شروط • ولو أنه كان لا يمكن أن يوجد

هناك شروط ما لم يقم أحد باملائها • وفى ٢٨ أغسطس قابل سير هوراس ولسون نيابة عن تشمبرلين — المستر كيندى السفير الأمريكى وبعد المحادثة اتصل كينـدى تليفونيا بحكومته وأبلغها : « يرغب البريطانيون فى شىء واحد هو الضغط على الحكومة البولندية » وقد رفض روزفلت هذه الفكرة وعند ذلك فقد تشمبرلين كل الأمل وقال « ان جدوى الضغط على الحكومةالبولندية قد يكون مدعاة للخوف وقد لاينفذ البولنديين فى النهاية ويمكن من نشوب حرب انتقامية ومعنى هذا الدمار لكل أوروبا » •

ظلت الحالة هكذا حتى ٢٩ أغسطس الى أن ظهر هتلر وقد كان فى مركز ضعيف لم يعرف كنهه البريطانيون • فلم يكن الوقت كافيا لكى يحرز نجاحا دبلوماسيا حتى أول سبتمبر • وفى الساعة السابعة والربع قدم الى هندرسون عرضا رسميا واستعد للمفاوضة المباشرة مع بولندا اذا وصل مبعوث بولندى لديه التفويض المطلق الى برلين فى اليوم التالى وكان هـذا الموقف يدل على ضعف فى مركز هتلر اذ كان دائمـا يعلن منذ ٢٦ مارس انه ليس له رغبة فى التعامل مباشرة مع بولندا ولو أن هندرسون اشتكى من أن طلب هتلر ان هو الاشبه انذار نهائى فرغما عن كل ذلك تاق الى قبوله اذ حوى كمـا كان يقول الفرصة الوحيدة لمنع قيام حرب وقد ضغط هندرسون على حكومته بقبول طلب هتلر كما طلب من الحكومة الفرنسية أن تفصح بوجوب قيام بيك بزيارة مباشرة وقد كان على اتصال دائم بالسفير البولندى لبسكى ولو أن الأخير لم يلق بالا كما لم يرسل تقريرا عن مطالب هتلر الى وارســو وقد استجابت الحكومة الفرنسـية وطلبوا من بيك الذهاب فورا الى برلين اذا وافقت الحكومـة البريطانية ، وهنـا ظهر الاقتراح الذى طالما رغب فيه الانجليز ورددوه على مسامع هتلر وهو اجراء مفاوضات مباشرة بين بولندا وألمانيا والآن وقد أدى هتلر دوره فعليهم أن يقوموا بدورهم ولكن كانوا يشكون فى أن البولنـديين يرضـون بالذهاب الى هتلر وقد بعث كنيـدى الى واشنجتون بما يجول فى خلد تشمبرلين قائلا فى صراحة انه يصادف تعبا فى جعل البولنديين أكثر حكمةوروية مما يلاقى مع الالمان وبعد جهدمن جانب الحكومة البريطانية فكروا فى نوع من الحزم أن يرسلوا مطالب هتلر الى وارسو مباشرة فى الساعة الثانية عشرة والدقيقة الخامسة والعشرين صباحـا يوم ٣١ أغسطس أى بعـد الانذار الالمانى النهائى بخمسة وعشرين دقيقة وقد كان البريطانيون محقين فى مخاوفهم فى العناد البولندى فعندما علم بيك بمطالب هتلر أجاب فورا « اذا دعيت الى برلين فلن أذهب فلست على استعداد لأن أعامل معاملة الرئيس هاشـا » وعلى ذلك فان البريطانيين بتأخرهم يدعون بأنهم كانوا يعلمون انهم يطلبون شيئا متعذرا الا وهو ارسال مندوب بولندى له التفويض المطلق الى برلين •

وقد توقع هتلر أن تبدأ المفاوضات وينهار العناد البولندى وبناء على تعليماته أعدت مطالب مفصلة وكانت تنطوى على عودة دانزج فى الحال الى ألمانيا واجراء استفتاء فى الممر وهى نفس الاشتراطات التى طالما آزرتها الحكومتان البريطانية والفرنسية ، ولما لم ترسل بولندا مندوبا مفوضا فقد وجدت ألمانيا صعوبة فى اعلان مطالبها وفى منتصف ليل ٣٠ أغسطس أخطر هندرسون روبنتروب بأن المندوب البولندى سوف لا يحضر هذا اليوم وما كان لدى روبنتروب ســوى مسودة المقترحات الالمانية عليها تصليح وكشط وفقا للتعديلات التى رآها هتلر نفسه ولم تكن هذه فى حالة تساعد على العرض على هندرسون وقد كان لدى روبنتروب تعليمات من هتلر أن لا يعرضها وعلى ذلك فقد تولى روبنتروب قراءة الشروط ببطء وقد ظهرت خرافة بعد ذلك بأن روبنتروب قد أراد غش هندرسون باشتراطات كانت أكثر ما تكون للعرض والمباهاة وفى الحقيقة عرف هندرسون لب الموضوع وظن ان تلك الشروط معقولة وعند عودته الى السفارة البريطانية استدعى لبسكى فى الساعة الثانية صباحا وطلب اليه مقابلة روبنتروب فلم يلق لبسكى بالا الى ذلك بل على العكس ذهب للفراش ·

لقد كان الألمان قلقين فى أن لا يسجلوا مطالبهم لدى هندرسون وقد استخدموا دهليرس مرة ثانية كمبعوث غير رسمى · وظهر جورنج كمن يعمل مناهضا لسياسة هتلر فاتصل تليفونيا بدهليرس وأخبره بالاشتراطات الذى اتصــل بدوره تلفونيا بالسفارة البريطانية فى الرابعة صباحا ولما كان جورنج يعرف أن جميع المحادثات كانت تسمع بواسطة عملاء ثلاث حكومات من بينها ألمانيا فان مناهضته لهتلر كانت مصطنعة وفى صباح اليوم التالى أعطى جورنج دهليرس نسخة من الشروط الألمانية الذى أعطاها بدوره للسفارة البريطانية فاستدعى هندرسون لبسكى مرة ثانية الا أن الاخير لم يجب دعوته فذهب دهليرس وأجيلفى فوريس المستشار البريطانى للسفارة لزيارة لبسكى الذى لم يتحرك ورفض حتى النظر الى الاشتراطات الألمانية ولما خرج دهليرس من الحجرة علق لبسكى على هذا التدخل قائلا انه يراهن بسمعته أن الروح المعنوية الألمانية تسير فى طريق الاندحار وان الحكومة الألمانية سوف تتصدع وان المطالب الألمانية ان هى الا مصيدة وعلامة عن ضعف ألمانيا ، وفى محاولة أخرى للحد من عناد البولنديين تحادث دهليرس تليفونيا مع هوراس ولسن فى لندن قائلا ان الاشتراطات الالمانية كانت غاية فى السخاء وان البولنديين يقفون حجر عثرة فى سبيل امكان المفاوضة· وتحقق ولسون أن الألمان كانوا يصغون الى هذا الحديث فأخبر دهليرس أن يقطع المحـــادثة ويضع السماعة ·

جاءت الاحتياطات متأخرة فكانت كل حركة تجرى فى الساعات القليلة الأخيرة معروفة للألمان كما ولو كانت قد نشرت فى الصحف وكذلك المحادثات التليفونية بين هندرسون ولبسكى وبين دهليرس وهندرســون وبين السفارة البريطانية والسفارة البولندية وبدون شك كان هتلر على علم بها فما هى النتيجة التى يمكن أن يستخلصها منها ؟ لقد عرف أنه قد نجح فى دق أسفين بين بولندا وحلفائها الغربيين وكان هذا

حقيقى بالنسبة للحكومة الفرنسية كما كان ذلك بالنسبة لهندرسون الذى كتب فيما بعد فى ٣١ أغسطس يقول « من ناحية المطلب الألمانى فان الحرب ليس لها مبرر كلية ويجب على الحكومة البولندية أن تعلن باكر على ضوء الاقتراحات الألمانية التى أصبحت معروفة عن نيتها لارسال مندوب مطلق التفويض لمناقشة الاشتراطات العامة » ولم يكن هتلر يعلم أن هندرسون لم يعد له فى لندن الأهمية التى كانت له فى العام السابق ولو أن الحكومة البريطانية قد نفذ صبرها مع البولنديين وفى مساء ٣١ أغسطس أرسل هاليفاكس برقية الى وارسو قائلا « لا أرى لماذا ترى الحكومة البولندية صعوبة فى اعطاء السلطة للسفير البولندى لقبول وثيقة من الحكومة الألمانية » وبعد أربع وعشرون ساعة اتسعت الهوة أكثر وأصبح هتلر مضطرا لتنفيذ برنامجه وأصبح مركزه حرجا ازاء قادته وهم ينتظرون أوامره التالية ، ولا يمكن الغاء الهجوم على بولندا الا اذا كان لديه باعث قـــوى يستند اليه وأصبحت الفجوة بين البولنديين وحلفائهم مما يعطى هتلر فرصة تساعده على المغامرة ٠

وفى الساعة الثانية عشرة والدقيقة أربعين من يوم ٣١ أغسطس أعلن هتلر أن الهجوم لا بد منه وفى الساعة الواحدة صباحا طلب لبسكى مقابلة روبنتروب ولكن الألمان الذين تصيدوا المعلومات عرفوا أن الأوامر التى صدرت اليه تمنعه من الدخول فى أى مفاوضات معينة ، وفى الساعة الثامنة مساء تحادث ويزسكار معلبسكى مستفسرا هل سيكون حضوره كمندوب فوق العادة فاجاب لبسكى بالنفى فكان هذا الرد كافيا لهتلر بان البولنديين مازالوا متمسكين بالعناد وانه يجب أن يسير فى طريق الحرب وفى الرابعة صباحا صدرت الاوامر بتوكيد الحرب وفى السادسة والنصف بعد الظهر قابل لبسكى روبنتروب وقال له أن الحكومة البولندية تنظر الى الاقتراح البريطانى باجراء مفاوضة بولندية المانية بعين الاعتبار وسأله روبنتروب هل هو مفوض تفويضا كاملا فاجاب لبسكى بالنفى فلم يتقدم روبنتروب بالاشتراطات الالمانية ولو كان حاول ذلك لرفضها لبسكى وعلى ذلكانتهى الاتصال المباشر الوحيد بينالمانيا وبولندا منذ ٢٦مارس وظل البولنديون محتفظين بأعصابهم حتى اللحظة الأخيرة وفى الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والاربعين من صباح اليوم التالى بدأ الهجوم الالمانى على بولندا وفى السادسة صباحا قذفت الطائرات الالمانية مدينة وارسو بالقنابل وهنا ظهر سبب واضح للنزاع أمام كل من بريطانيا العظمى وفرنسا فقد هوجمت حليفتهما ولم يبق أمامهما الا اعلان الحرب على المعتد ولكن لم يحدث شىء من ذلك فقد أعلنت الحكومتان احتجاجهمـا على هتلر وحذراه بانهما سيدخلان الحرب الا اذا توقف وانتظرا حتى يريا أى تحول وقد حدث ذلك فعلا ٠ ففى ٣١ أغسطس اقترح موسولينى عقد مؤتمر اوروبى لاستعراض أسباب الصراع الاوروبى مععودة دانزج الىألمانيا فىالحال وقد أعلنت الحكومتانالغربيتان

الموافقة على الاقتراح لدى وصوله اليهما الا أن موسوليني أخطأ في التوقيت ففي ١٩٣٨ كان أمامه ثلاثة أيام لمنع الحرب أما في ١٩٣٩ فلم يكن أمامه الا أربع وعشرون ساعة وكان هذا الوقت غير كاف وفي أول سبتمبر عندما أجابت الحكومتان الغربيتان على موسوليني اشترطتا توقف القتال في بولندا أولا ولم يكن هذا هو كل شيء فبينما كان بونيه متحمسا لاقتراح موسوليني كان الرأى العام فيبريطانيا غير مناصر له كذلك وعندما أوضح تشمبرلين في مجلس العموم أن ألمانيا قد حذرت فقط قابل مجلس العموم ذلك الرأى بجموح كما أصر هاليفاكس بامكان عقد مؤتمر في حالة انسحاب ألمانيا من الاراضي البولندية أما ايطاليا فقد عرفت أن لا أمل في وضع هذا الاقتراح أمام هتلر وعلى ذلك فقد ترك ذلك الاقتراح جانبا بدون أى محاولة أخرى ٠

الا أن بريطانيا وفرنسا على وجه الاخص ما زالتا تعتقدان بامكان عقد ذلك المؤتمر الذى اختفى قبل أن يولد ٠ وقد أجاب هتلر على موسوليني أنه اذا دعى الى مؤتمر فان اجابته ستكون في الساعة الثانية عشرة من يوم ٣ سبتمبر وعلى ذلك فان بونيه ومعه تشمبرلين قد حاولا في يأس تأجيل اعلان الحرب حتى بعد ذلك التاريخ حتى مع علمهم بأن الايطاليين لا يجول في خلدهم أن يدعو هتلر أو أى شخص آخر الى مؤتمر ٠ ولقد طلب بونيه التأجيل حتى يتمكن من التعبئة في جو لا تزعجه فيه هجوم الطائرات الالمانية (مع علمه أنها وقتذاك تكون موجهة بكل قواها الى بولندا) أما تشمبرلين فقد تذرع بأن فرنسا تطلب التأجيل وانه دائما من الصعب العمل مع شركاء ٠ وفي مساء ٢ سبتمبر كان تشمبرلين ما زال يحيط مجلس العموم بمفاوضات افتراضية قائلا « اذا وافقت ألمانيا على سحب قواتها من الاراضي البولندية فان حكومة جلالة الملك تميل الى أن تعتبر الموقف مماثلا لما كانت عليه الحال قبل الغزو٠ أى سيكون الطريق مفتوحا لمناقشة المسائل موضع النزاع بين ألمانيا وبولندا » ٠ ولقد اعتبر أن هذا كثير حتى في نظر حزب المحافظين ٠ وقد قال (ليوامرى) لآرثر جرينود الذى كان يقود حزب المعارضة « تكلم عن انجلترا » وما كان في مقدور حتى تشمبرلين أن يفعل ذلك ٠ وحذر بعض الوزراء بزعامة هاليفاكس تشمبرلين بأن حكومته سوف تسقط اذا لم توجه انذارا نهائيا الى ألمانيا على أن يتم ذلك قبل اجتماع مجلس العموم وقد استجاب تشمبرلين وسلم انذار بريطانيا النهائى الساعة التاسعة من صباح يوم ٣ سبتمبر وانتهت فترة الانذار في الساعة الحادية عشرة صباحا وأصبحت بريطانيا منذ تلك اللحظة في حالة حرب ٠ وعندما علم بونيه أن بريطانيا سائرة في طريق الحرب عمل على أن يلحق بها وقدم وقت ارسال الانذار الفرنسى رغما عن معارضة هيئة الأركان الفرنسية وسلم الانذار الفرنسى ظهر يوم ٣سبتمبر على أن ينتهى مداه في الخامسةمساء وبهذه الطريقة العجيبة انساقت فرنسا التى طالما نادت بمعارضة ألمانيا مدة عشرين عاما الى الحرب مدفوعة ببريطانيا التى ظلت تدعو الى السلام عشرين عاما ٠ سارت كلا الدولتين الى الحرب بعد أن قضيتا فترة سلام منذ الحرب العالمية الأولى وأشعل هتلر نار حرب عظيمة شاملة ويظهر من السجلات أنه تورط في الحرب منذ أن قام بمناورته الدبلوماسية في ٢٩ أغسطس التى كان يجب أن يقوم بها في ٢٨ أغسطس ٠

هذه هى أسباب الحرب العالمية الثانية أو بالأحرى الحرب بين القوى الغربية الثلاث بعد معاهدة فرساى تلك الحرب التى ظلت متوقعة منذ اللحظة التى انتهت فيها الحرب العالمية الأولى • وسوف يطول الجدل بين الناس فبعضهم يقول انه كان من الممكن تجنب قيام تلك الحرب باتباع سياسة أكثر تشددا والبعض يقول انه كان يمكن تجنبها بتساهل أكثر وسوف لا نجد جوابا لهذه الفروض • ربما كان من الممكن أن تنجح احدى السياستين اذا ما كنا قد واصلنا العمل بها اما اتباع خليط من السياستين بواسطة الحكومة البريطانية فقد سبب الفشل • وهذا البحث يعتبر الآن متأخرا جدا وقد أخطأ هتلر حين ظن أن القوتين الغربيتين سوف لا تشتركان فى الحرب فقد اشتركتا فعلا • كما أن بريطانيا وفرنسا لم تقوما بمساعدة بولندا وحتى لم تقدما الا القليل لمساعدة نفسيهما • وان الكفاح الأوروبى الذى بدأ فى ١٩١٨ عندما تقدم اعضاء وفد الهدنة الألمانية الى فوش فى عربة السكة الحديد فى ريثونديس انتهى فى سنة ١٩٤٠ حينما تقدم وفد مفاوضى الهدنة الفرنسيين الى هتلر وفى نفس العربة • لقد بدأ فى أوروبا « عهد جديد » تحت سيطرة ألمانيا •

صمم الشعب البريطانى على أن يناوىء هتلر الا انه كان يفتقر الى القوة وقد كان نجاح هتلر يعتمد على عزل أوروبا عن بقية العالم ولكنه قضى على ذلك النجاح بنفسه ففى سنة ١٩٤١ هاجم روسيا السوفيتية وأعلن الحرب على الولايات المتحدة وهاتان القوتان العالميتان كانتا بعيدتين عن الصراع • وبهذه الطريقة بدأت حرب عالمية حقيقية مازلنا نعيش فى ظلها •• تلك الحرب التى اشتعلت نيرانها فى سنة ١٩٣٩ والتى أصبحت من المسائل التاريخية التى تدعو الى التساؤل لغرابتها •

(ادارة المطبوعات والنشر ٢٠١٦/١٩٦٢/١٥٠٠٠)


للقوات المسلحة
إدارة المطبوعات والنشر